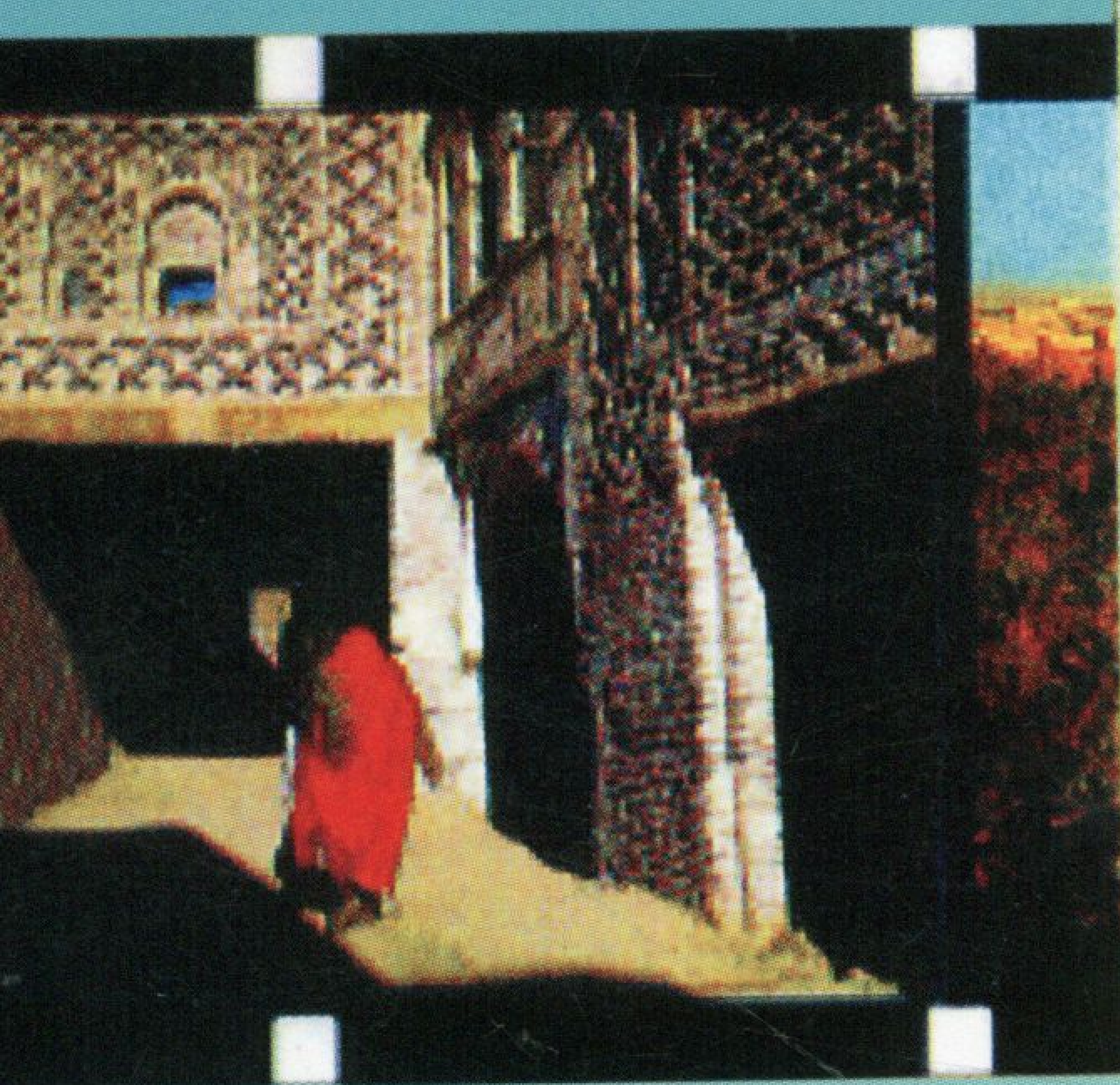
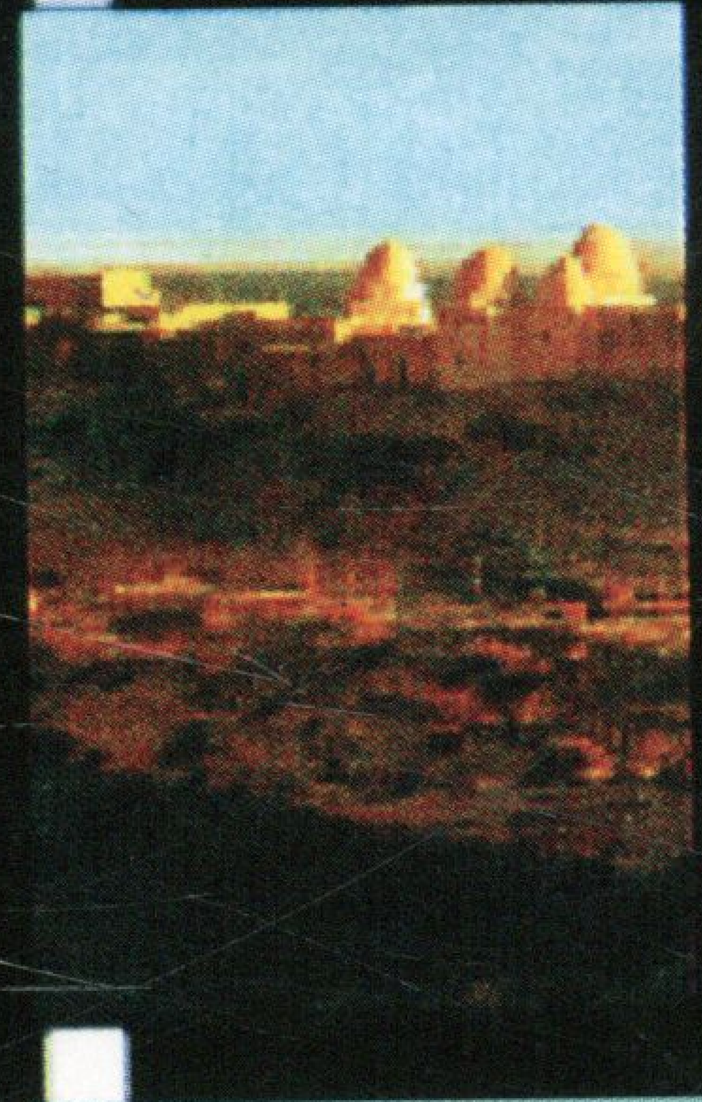
الشَّابِّي






1909 - 1934

المجلد الثالث



مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الشّابي في مرآة مُعَاصِريه

الشّابي في مرآة مُعَاصِريه

اختيار وتقديم

أبو القاسم محمّد كِرّو



مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الطبعة الأولى، 1994

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يختلف هذا الكتاب (الشابي في مرآة معاصريه) عن كتابنا (دراسات عن الشابي) الذي صدرت طبعته الأولى عام 1966 بمناسبة مرور ثلاثين سنة على وفاة الشابي وأعيد طبعه ثانية ـ مزيداً ومنقحاً ـ عام 1984 في سنة الشابي العالمية بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته وخمس وسبعين على ميلاده.

يختلف عنه تبويباً ومحاور ونصوصاً، فقد أقمنا تبويب الكتاب السابق على أساس جغرافي فكان مقسماً إلى بابين: «دراسات مشرقية» و «دراسات مغربية» إذ كان هدفنا عامئذٍ (1966) بيان المساهمات المشرقية والمساهمات المغربية... نوعاً وقيمةً وفناً. ولم نغيره في طبعته الثانية (1984) برغم الزيادة في مواده ومختاراته إلى حد الضعف.

في هذا الكتاب أردنا غايات أدبية وتاريخية أخرى...

أولاً: أردنا تقديم شهادات معاصرة عن الشابي وأدبه وحياته... فكان تركيزنا على الدراسات التي كتبت عنه عقب وفاته، خاصة في الذكريات الأولى مثل الأربعينية والسنة الثانية وحتى الذكرى السابعة لوفاته.. وما بعدها.

ثانياً: تعمدنا الإكثار من الكتابات التي أنجزها أو نشرها عنه أصدقاؤه المقربون الذين عرفوه وتعايشوا معه سنوات في الدراسة أو الحياة العامة من أمثال المرحومين محمد الصالح المهيدي وإبراهيم بو رقعة ومحمد الحليوي

ومحمد البشروش والصادق مازيغ ومصطفى خريف ومحمد بدرة ومحمود بيرم التونسي وأحمد زكي أبو شادي.

ثالثاً: أضفنا أيضاً عدداً من الدراسات أو الخواطر المعاصرة التي نشرها معاصرون له عقب وفاته أو في السنوات اللاحقة من نوع المرحومين عزيز أباظة وزكي مبارك ومختار الوكيل وعبد الفتاح غبن وإبراهيم ناجي.

رابعاً: اخترنا عدداً قليلاً من كتابات جيدة ومتميزة كتبها نقاد كبار من الجيل الموالي من أمثال الدكاترة إحسان عباس والشاذلي بويحيى وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء).

خامساً: قسمنا الكتاب إلى محاور مختصة.. فكان المحور الأول: (ما كتب عنه في حياته) ثم ما كتب في الذكريات.. وما كتب عن محاضرته (الخيال الشعري عند العرب)، وما كتب عن حياته وشخصيته.. وما كتب عن شعره، وختمنا المحاور بمختارات من القصائد التي قيل أكثرها في ذكرى الأربعين حيث يدلك معظمها على مدى الفجيعة فيه والصدى الواسع لنعيه.. واتساع رقعة الآلام والحزن عليه إلى كامل المغرب والمشرق العربيين رغم حداثة صداه وقصر عمره.

تونس في 1994/7/1

أبو القاسم محمد كرو

ما كُتِبَ عنه في حياتِه

أبو القاسم الشابي

لا أعرف عن الرجل شيئاً شخصياً حتى يمكنني أن أدرس ماضيه ومنابع روحه الغريب المتمرد، فلم أعرفه إلا إلماماً ولم أقابله إلا مقابلات تكاد تكون (رسمية) تعرفنا فيها به وتسمعنا فيها أدبه وكان فيها خجولاًخافت الصوت، حتى إذا سمعنا ما سمعنا كبر الفتى في أعيننا ورأينا منه جباراً من جبابرة الأدب الرائع العتيد.

أدبـــه:

قال كولاريدج الشاعر الفيلسوف (1772 ـ 1824) «إن الشعر يجب أن يكون لألفاظه معجم خاص يخالف معجم النثر».

هذا ما يقوله حضرة النقادة الانكليزي في لغة الأدب عندهم وهي عندنا قد تكون أفسح وأعظم بكثير إذ توالت عليها الأعصر السحيقة وتناوبتها السنون الطوال دون أن تموت أجزاؤها وتندرس بل كانت تستفيد من كل حركة في الشعوب الإسلامية فتتعزز شيئاً فشيئاً وتعم أرض العرب وشعوب الكتاب البياني الخالد.

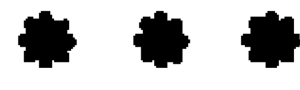
* * *

وأدب صاحبنا على نوعين متباينين كل التباين تقريباً ولكنه يجيد فيهما معاً إجادة غريبة.

* * *

ذلك أنه يخصص المواضيع القديمة الخالدة ـ من حماس وفخر ورثاء وحكمة ـ بالنسج القديم فيستفرغ قواميس الأدب العربي باستعاراتها

وكناياتها ومجازاتها المتعارفة المحفوظـة لدى القوم، فليلى علَم الغرام، وطول النجاد كناية امتداد القامة، والغضنفر اسم الشجاع. إلى غير ذلك مما يكسب شعره هيبة الأقدمين وعظمتهم، وهو في هذا القسم من الأدب نراه محافظاً على كل شيء حافظ عليه المتقدمون من الموضوع واللغة إلى التزام القافية في جميع القصيدة مهما طالت، دون أن تظهر على قوله كلفة أو تعسف ما. بل كله عظمة وجزالة.



حتى إذا تفرغ إلى المواضيع الأدبية البحتة أو ذات الصبغة الاجتماعية والأخلاقية رأيته فيها غير (أبي القاسم) الأول، فهو فيها متحرر من القيود الزائدة واسع الحرية في اختيار الألفاظ وتوسيع القاموس الأدبي بمئات من المعاني الجديدة السامية يفرغها على بعض الألفاظ الخاملة فإذا هي أصرح في الدلالة من حقائق القواميس اللغوية وأروع من المتعارف من كنايات وتمجزات المتقدمين لما فيها من التعبير والإشارة إلى التأثرات النفسية الحماسية، والتي يغلب عليها الطيرة وبغض هاته الحياة المهددة (بهادم اللذات ومفرق الجماعات).

ففي هذا القسم من بيانه رأينا جميع الكائنات، الحية وغير الحية، المعروفة الكنه والمجهولة الذات، من الصخر والزنبقة إلى الحية والجحيم. كلها قد انقلبت في لسانه إلى معانٍ نفسية تعبر على آلامه وطيرته وتفجعه لهاته الحياة وبأسائها.

فلا تكاد تجد في معظم قصائده إلا التمجزات الجميلة، ولا يعبر عن إحساسه الفياض إلا بكنايات هي الحقيقة وهي الصراحة وهي البيان الجلي الذي لا تشوبه عجمة ولا إبهام.

فقد راعتنا حريته الواسعة في التمجزات البديعة مع انسجام لبق وبلاغة رائعة. خصوصاً وأن معظم أبطال مذهب الحرية في الأدب قد تأثروا بالأدب الأروبي تأثراً كبيراً فزع بهم إلى الطفرة والانقلاب عوض التطور

الطبيعي الأمر الذي قسم أهل الأدب إلى شقين كل منهما يسفّه أحلام أخيه ويرى فيها منابع زراية وسخرية غربية خصوصاً وأن معظم المقلدين في الأدب أو كما يريدون أن يطلق عليهم (المجددون) إنما يقتفون في آثارهم خطوات الأروبيين، وهم في تقليدهم يفقدون عنصرين من عناصر الأدب العربي:

1 ـ إنهم تحت تأثير المطالعة في اللغات الأخرى وروح الإعجاب التي تملكتهم والتلمذة التي استعبدتهم يفقدون روح العربية، فأكثر كتاباتهم، المشبعة بالروح الأدبية الملائمة للعصر والحالة الاجتماعية، نراها لا تملك من العربية إلا مفرداتها أما أسرار العربية ونسجها الجزل المنسجم فقد قضيا نحبهما تحت تيار التقليد.

2 ـ يفقدون الترنيمة والموسيقى الشعرية التي هي ميزة النظم عن النثر بل قد ينحط بعضهم حتى عن موسيقة السجع إلى الإرسال المطلق الذي لا ترنيمة فيه ولا نغم، تحت تأثير الدعوة إلى الحرية في الأدب وتحرير الأدباء، من قيود الآباء، فيبعدون عن الرنة ويفقدون في قولهم الموسيقى التي هي أهم الأركان التي تميز الشعر عن المرسل والمسجوع.

أما صاحبنا فقد امتلك ناصية الخيال والمواضيع المناسبة لروح العصر دون أن تمتلكه اللهجة الأجنبية، أو تفسد عليه المطالعة الغربية ذوقه الغنائي، وروحه التي لما نزعت إلى الحرية من قيود الآباء لم تستبدلها بالاستعباد والخضوع للاغراب الأبعدين.

* * *

قد قرأ علوم العربية وآدابها بالمعهد الزيتوني ولم يطلع على الآداب الغربية إلا من خلال ما ترجم منها ونشر عنها، على أنه كثير المطالعة حاد الذهن وله باع طويل في النثر الشعري، قرأنا له فيه رواية حسنة بديعة ناهيك أنها من نوع [الاعترافات] يقص فيها على لسان بطلها حوادثه

وتأثراته النفسية وهو نوع عزيز حتى عند الأمم المختمرة في نفسها الروح الروائية لما يستوجبه من تقمص أشخاص الرواية في قلم الكاتب الذي يضطر إلى وصف انفعالاتهم واضطرابهم النفسي الشاذ خصوصاً وعلم النفس لم يصبح بعد عالماً معلوماً مضبوطاً!.

نشأته:

وبعد ذلك فهل يزيد القارىء معرفة بحقيقة الرجل إذا قلنا له أنه ولد في اليوم الثالث من شهر صفر الخير في 1327 من هجرة صاحب الكتاب الخالد سوى أن نزيد في إثارة بهذا الذي لم يبلغ العشرين بعد! ولا غرو فهو ابن (بلاد الجريد) التي عرفت بالذكاء والذهن الوقاد في جميع الأعصر على أنه أنبغ من عرفناهم من شباب البلاد.

وإلى القراء نماذج من أدبه[1]

* * *

(1) الأدب التونسي في القرن الرابع عشر. هـ. ج 1 ط (تونس) 1927 ص 202 ـ 208.

ما كُتب في التأبين

- الشَّبيبة
- الجمعيّات

أبو القاسم الشابي

ولد في شابة الجريد التونسي «توزر» يوم 3 من شهر صفر سنة 1327.

وتوفي بالعاصمة التونسية يوم الاثنين الساعة الرابعة من صباح غرة رجب 1353 الموافق 9 أكتوبر 1934.

في شرخ الشباب، وعنفوان الفتوة الأدبية، اقتطفت يد الموت أبا القاسم الشابي، الذي كنا نرى فيه مناراً للأدب، وسنداً لمجد لغة الضاد، وعلماً خفاقاً تعتز به تونس وتلوح به لمستقبل الأدب النير فيها ودعامة تطور للأدب الرشيد.

وكنا نرى فيه أحد الأفذاذ الذين يبنى على كاهلهم ذلك المستقبل الذي نحلم به لأبنائنا الذين نرجو أن نمهد لهم أكناف حياة أقل بؤساً وأعظم شأناً مما ورثناه. وكنا نرى في نفسه الزكية مثال النبل والطهارة والإخلاص. ومثال القناعة في أفضل ألوانها، والطموح على خير وجوهه!.

* * *

يموت الناس بالعشرات، ونشيع من وقت لآخر صديقاً أو أحد المعارف. فنتألم ونأسف لهاتيك المفارقات المتكررة، ولكننا كنا نتسلى بأنها سنّة الحياة المطردة لتجديد هاته الدنيا الفانية!.

ولكن موت أبي القاسم الشابي في نفسه إنما هو رؤية على ذلك التجدد، وإنما هو ترنح للتطور المزمع الذي رأينا الدهر والليالي تحبل به في شخص الفقيد.

فلقد فتح للعالم مذهباً جديداً في الأدب، وحلمنا بأن مذهبه ذاك لا يلبث أن يصبح نافذة غنا وثروة طيبة للغتنا وأدبنا، وكان الفقيد معلمة هداية دائمة، وعضو حركة راشدة. ينشر أدبه في تونس ومصر وبواسطة التفضل على الصحف والمجلات أو بواسطة طبع أدبه مستقلاً.

فقد كانت أول نشراته في الصفحة الأدبية التي كانت ترتبها وصيفتنا الكبرى «النهضة» كل اثنين سنة 1344 أي وهو لم يجز السابعة عشرة من عمره. ثم ظهر شعره مجموعاً في المجلد الأول من «الأدب التونسي في القرن 14» فأحدث أثراً كبيراً وهزة استبشار عامة. حتى إذا أظهر كتابه «الخيال الشعري عند العرب» قوبل بالاعتبار الهائل العظيم إذ كانت ضجة المؤيدين والناقمين هائلة. ثم تهافتت الصحف والمجلات هنا وفي الشرق على تلقف قصائده. وأخيراً توفي وهو يضع القلم من إتمام مسودات ديوانه الذي أعده للطبع. كما أن له كتاب «صفحات دامية من حياة شاعر» وضعه بأسلوب شعري أتى فيه على تاريخ حياته.

فكل ذلك النتاج الفاخر والصديق الفقيد لم يجز السابعة والعشرين من عمره. فكيف به لو امتد العمر وقدر له أن يعمل في الحياة في دور الكهولة والشيخوخة.

وأخيراً توفي يوم الإثنين 9 سبتمبر الموافق لغرة رجب الأصب ختمت أنفاسه الساعة الرابعة صباحاً ثم وضع جثمانه على سيارة نقلته من العاصمة إلى الجريد حيث مقر أسلافه الساعة السابعة عشرة من نفس يومها.

على أن هذا الإنتاج الفاخر إزاء ذلك النبوغ الباكر قد أثار من حوله ضجة حسد تدلس نفسها باسم النقد ولكنها لا تتمكن من ستر الضغينة والهوى ولا تنفك عن المحاربة العلنية ليس في ميدان الأدب وحده بل حتى في الميادين الخصوصية والمدارك الذاتية وتلتجىء للنبز والهمز والتعريض حتى بمناسبة انتقال الشاعر من بلدة أو حتى إتيانه للعاصمة للاستشفاء!.

ولكن عتوهم ذاك وإيغالهم في إيذائه لم يزد صاحبنا إلا اعتداداً وإدراكاً لقيمته الذاتية والأدبية فكان يزداد ارتفاعاً وعلواً كلما ازدادوا تهجماً وتدنياً:

وأقول للجمع الذين تجشموا ... هدمي وودوا لو يخر بنائي
ورأوا على الأشواك ظلي هامداً ... فتوهموا أني قضيت ذمائي
وغدوا يشبون اللهيب بكل ما ... وجدوا... ليشووا فوقه أشلائي
ومضوا يمدون الخوان ليأكلوا ... لحمي ويرتشفوا عليه دمائي
إني أقول لهم بصوت حالم ... وعلى شفاهي بسمة استهزاء:
«إن المعاول لا تهد مناكبي ... والنار لا تأتي على أعضائي
حتى ولو أمسيت جسماً ميتاً ... ملقى لعصف الزعزع النكباء
فارموا إلى النار الحشائش والعبوا ... يا معشر الأطفال تحت سمائي
وإذا تمردت العواصف وانتشى ... بالهول قلب القبة الزرقاء
ورأيتموني طائراً مترنماً ... فوق العواصف في الفضاء النائي
فارموا على ظلي الحجارة واختفوا ... خوف الرياح الهوج والأنواء
وهناك في امن البيوت تبادلوا ... غث الحديث وميت الآراء
وترنموا ما شئتموا بشتائمي ... وتجاهروا ما شئتموا بعدائي
أما أنا فأجيبكم من فوقكم ... والشمس والشفق الجميل إزائي:
من جاش بالوحي المقدس قلبه ... لم يحتفل بحجارة الفلتاء»

وهكذا سار صاحبنا أبو القاسم في طريق المجد المشمس لا يلوي على عابث ولا يتزعزع بالمثبطين دائباً على تأدية واجبه الحق مهما كان الطريق.

أسلوبه

من أعظم ما استلفت نظرنا ويستلفت السامع من أدب الفقيد لأول وهلة: ظرافة استعارته وعمق معانيه على بساطة الأداء وسهولة التركيب أما ألفاظه فهو لا يغرب فيها إلا قليلاً؛ وهو لا يتقعر ولا يتعمل مطلقاً في

انتخابها ولكنه يستعمل الألفاظ العادية الدارجة في سوق الأدب لمعانٍ مهيبة عفيفة عميقة طريفة :

كنت في فجري الموشح بالأحـ ـــلام عطراً يرف فوق ورودك
حالماً، ينهل الضياء ويصغي لك، في نشوة بوحي نشيدك
ثم جاء الدجا. . . وأمسيت أورا قاً بداداً من ذابلات الورود

فالفجر هنا، والعصر، ونهل الضياء، والدجا، والأوراق المبددة كلها هنا كلمات معروفة في معانٍ قريبة وباستعمال جديد طريف.

فقاموس الأشياء، والأسماء الدالة على الأشياء المادية كلها تتحول في قاموس شاعرنا إلى معانٍ نفسية تصلح للدلالة على العاطفة والشعور وتقززات نفسه الحساسة، فكأن مشاعره كل شيء وكأنما لم توضع كل تلك الأسماء إلا لتدل على هاتيك الإحساسات الدقيقة الرفيقة اليقظة. فكأنما هو يدغم جميع تلك الأشياء العظيمة الهائلة والأشياء الرقيقة الدقيقة، يدغمها في نفسه عندما يستعين بأسمائها على استحضار وعلى إلفات سامع أدبه إلى تلك الأنحاء الخفية والمدارك الشعرية من نفسه. أو هو على حد قوله في وصف أدبه :

أشدو بموسيقى الحياة ووحيها وأذيب روح الكون في إنشاء

وحقاً هو يذيب روح الكون في أدبه العميق الباهر والعظيم بأسلوبه ويعمقه وبانطباعه على ذلك الضمير المصقول والنفس الحساسة :

والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي

فكما جاء في ترجمته في كتاب (الأدب التونسي في القرن 14) «ففي هذا القسم من بيانه رأينا جميع الكائنات الحية وغير الحية، المعروفة الكنه والمجهولة الذات، من الصخر والزنبقة والناي، إلى الحية والجنة والجن. . كلها قد انقلبت في لسانه إلى معان نفسية تعبر على آلامه وطيرته وتفجعه لهاته الحياة وبأسائها» (ج 1 ص 204).

فأبو القاسم بأسلوبه ذاك وبتصرفه الباهر في قاموس اللغة وبوفرة صوره التخييلية ومما يتوفر له من الصور الخيالية الكاملة الجامعة التي يكني بها على الحقيقة بما يجسدها ويبرز منها أدق أنحائها المقصودة.

هو بجميع ذلك أبو المذهب الرمزي في الأدب العربي القديم والحديث وقد ألف له كتابه «الخيال الشعري عند العرب» فقامت لنشره الضجة لأن المجاز له صورة خيالية، والكناية لها صورة خيالية والاستعارة التخييلية خيال في خيال مرشحات لا تنكر، فكيف ينكر أبو القاسم الخيال الشعري، وهو قد حشر مثلاً طيبة من أنواع الاستعارات العربية ومقاطيع رائعة من آداب العصور الإسلامية والجاهلية التي كنى فيها البلغاء ومع ذلك فقد عقب عنها بأنها لم تبلغ إلى ما قصده مما أطلق عنه «الخيال الشعري» أي تلك الصورة التخييلية الجامعة. ولعل طرفاً منها يتصل اتصالاً وثيقاً بالمذهب «الرمزي» الذي قام في أوروبا مع «رامبو» وشيعته منذ أواسط القرن الماضي (انظر عدد مارس 1930 من العالم الأدبي).

وهكذا نرى أبا القاسم الذي لا يؤمن بكفاءة حدود الألفاظ كما وضعتها القواميس، لم يقف عند حدود الاستعارة اللفظة المفردة ولا عند حدود التجوز العادي والكناية المتعارفة والاستعارة المرشحة... بل هو يستعمل اللغة في أدبه بأسلوبه الرمزي الذي يسميه «الخيال الشعري» والذي يصور به صورة خيالية كاملة، يرمز بها لصورة أخرى مقصودة واقعية، رمزاً شفافاً ملفتاً لمدارك وموضحاً للألوان الخفية الرائعة في تلك الصورة الواقعية المقصودة.

ففي القطعة التي نقلناها والتي تهكم بها على أعدائه وحاسديه ـ مثلاً ـ لا يعبر عن نفسه إلا بالطائر المحلق في قبة الفلك، بينما أولئك الأعداء يرشقون ظله بالحجارة ثم يفرون من العاصفة متخفين في قعر البيوت ليتبادلوا شتمه في أمن واطمئنان، بينما هو يخفق من فوقهم في قبة سمائه وعلى يمينه الشمس الوهاجة وعلى يساره الشفق الجميل... ـ فهل هو

يستعير الشفق والشمس. . . كناية بكل منهما عن الحق الذي يراه بجانبه، كلا، وإنما الصورة في مجموعها بباشقها وشمسها وشفقها ومائدتها وحلمها وخوفها وبسمتها. . كلها، كلها استعارة واحدة لما في الرجل من نخوة وعزة وحق، وما يشعر به من هون المتكالبين وجبنهم وكيدهم للضعيف ونارهم المتأججة! وذلك لعمر الحق هو الأسلوب الرمزي الذي لم يعرف في أدباء العرب من طرقه وقد جاء فيه بكل بديع رائع مما نراه في أدب أديبنا الخالد وصديقنا الراحل رحمه الله رحمة واسعة وعوض الأدب ما خسره بفقده.

زين العابدين السنوسي

فقيد الأدب التونسي

حسن سيالة

ثكلت تونس، بل الأدب العربي عامة، أديباً عبقرياً فذاً، كان منتظراً منه ـ لو امتدت حياته ـ أن يكون كوكباً لامعاً في سماء الأدب العربي الجديد، بل دعامة قوية ترتكز عليها المدرسة الحديثة للشعر العصري. ذلك هو الشاعر المبكى على شبابه أبو القاسم الشابيّ.

ولد أبو القاسم الشابيّ عام 1909 في مدينة «توزر» عاصمة الواحات التونسية الجميلة بالجنوب، من أسرة ذات مجد، وكان أبوه الشيخ محمد بن أبي القاسم الشابي قاضياً شرعياً، تنقل بوظيفته في مدن مختلفة. وهو من قبيلة كبيرة ذات تاريخ حافل تدعى الشابية.

أما حياة الشاعر الفقيد فليس فيها من الحوادث ما يهم كثيراً لقصرها، فلم يتخط فجر شبابه الغض، ولم يطو الخمسة والعشرين عاماً بعد؛ إلا أن هذه الفترة الصغيرة في تاريخ نموه الفكري ذات خطر عظيم، ذلك أن المذهب الذي ذهب إليه في نظم أشعاره مذهب فذ لم يظهر منه في الشعر العربي إلا النادر.

وليس في مراحل تعلمه التي قطعها بغاية الفوز والنجاح شيء غير عادي، فهو كأمثاله الكثيرين قد حفظ القرآن في طفولته، والتحق بجامع الزيتونة يتلقى علوم العربية على الأساليب القديمة من المتن والشرح والحاشية، وعلوم الشريعة الإسلامية كالفقه والأصول والتوحيد، إلى أن كان الامتحان النهائي فتخطاه عام 1926 ونال الشهادة المسماة بالتطويع.

والتحق بعد ذلك بمدرسة الحقوق التونسية فاجتاز امتحاناتها وحصل

على إجازة الحقوق، ثم لم يتركه مرض الصدر يتمم دراسته، فانقطع عن التعلم من ذلك الحين والتفت إلى معالجة هذا المرض العضال الذي ظل معه يغاديه ويراوحه حتى ذهب في يوم 8 أكتوبر بحياته الغضة.

لم يدرس أبو القاسم لغة أجنبية، ولم يكن له من الزمن ما يسع طول الدرس ومطالعة المترجمات، فقد كان أطباؤه ينهونه عن كد ذهنه والاشتغال بالأعمال الفكرية، وتلك لعمري آية عبقريته النادرة، ومعجزة نبوغه الفريد.

كان جباراً متمرداً على القديم، وكان في الوقت ذاته رقيق الإحساس مشبوب العاطفة، لا يستمرىء المنازعات والمشاكسات، فكان من جراء ذلك تفاعل بينه وبين بيئته، تلمح آثاره واضحة في أشعاره.

فقد كانت مطالعاته الأولى في الأدب العربي بالمهجر الأمريكي، فاستأسره أسلوب زعيم تلك المدرسة المرحوم جبران، وكانت أشعاره الأولى ذات نزعة جبرانية في الأسلوب. وكان يقول الشعر منظوماً ومنثوراً، ولكنه كان أعمق روحاً وأبعد قراراً. وكانت موضوعاته في فلسفة البؤس والشقاء، والتبرم بالحياة ومتاعبها.

على أننا إذا قلنا إن أبا القاسم قد تأثر بمدرسة جبران فلا بدّ لنا أن نتحفظ، فقد تزود ـ رحمه الله ـ من الأدب العربي القديم بثروة طائلة، مكنته من إخضاع التعابير الفصيحة لمعانيه الجديدة بما يميزه من غيره، ومما لم يكن من ظواهر تلك المدرسة التي تذهب أحياناً وراء حرية التعبير عن خوالج النفس مذاهب تخرجها عن سنن العربية وقواعدها الأولية.

ثم إن شاعرنا كان مفتوناً بالآداب الغربية، يتهافت على قراءة كبار عباقرة الغرب الذين ترجمت أشعارهم وآدابهم ويدرسها بروية حتى تأثر بها وخالجت روحه، وربما تعجب قراؤه كثيراً حينما يعلمون أنه لا يقرأ إلا اللغة العربية لجهله بغيرها.

ويمكنك أن تدرك سعة إطلاعه على الأدب العربي القديم وإحاطته

بجميع ما ترجم إلى العربية من نفائس الأدب الغربي، إذا اطلعت على مؤلفه الذي أخرجه منذ سنوات تحت عنوان «الخيال الشعري عند العرب» فمن مطالعة هذا الكتاب الذي هو عبارة عن دراسة مستفيضة على طريقة النقد العصرية للأدب العربي في جميع عصوره، ومقارنة للأدب الغربي في كثير من أعلامه تدرك مبلغ تفوقه ونبوغه.

قلنا إن أبا القاسم كان ينزع في أوائل أمره نزعة تشاؤم وتبرم بالحياة، على أن سخطه هذا لا شيء فيه من الضعف والرخاوة، فهو يعاتب الدهر وكأنه ندّ له في كبرياء وجبروت ينمان عن حب الحياة في أعماق نفسه، حتى أنه لم تدم شكواه طويلاً، فتجلت روح التمرد والقوة في قصائده الأخيرة التي منها «نشيد الجبار» وقد نشرت في أحد أعداد «أبولو» ومنها قصيدة «البعث» وستظهر في ديوانه، أودعها كل ما في نفسه من حب للحياة وتطلع إلى مثلها العليا في أسلوب رائع فريد.

ولا نستطيع أن ننسى أن للصدمات التي اعترضته أثراً عميقاً في صهر نبوغه واستقلال فنه، كما أنه قضى مدة أربعة أشهر في وحدة شعرية بديعة بين جبال «عين دراهم» وغاباتها، وهي من أجمل بلاد تونس منظراً وسحراً، فخرج بشعر طبيعي نادر.

رحم الله أبا القاسم الشابيّ، وعوض الأدب العربي عنه خيراً.

نموذج من شعر الفقيد:

اصطدم أبو القاسم الشابيّ بشعور بيئته الراكدة، وضايقه المتزمتون الجامدون، فضاق الشاعر ذرعاً، ونَفَّس عن قلبه الحساس بهذه القصيدة الرائعة:

النبيء المجهول

أيهـا الشعـب، ليتنـي كنـت حطّـا … باً، فأهوي على الجذوع بفأسي!
ليتنـي كنـت كـالسيـول إذا سـا … لـت تهـد القبـور رمسـاً بـرمـس..

ليتني كنت كالرياح . . فأطوي كل ما يخنق الزهور بنحسي[1]
ليتني كنت كالشتاء . . أغشّي كل ما أذبل الخريف بقرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعـ ـبي فألقي إليك ثورة نفسي . . .
ليت لي قوة الأعاصير . . لكن أنت حي يقضي الحياة برمس . .
أنت روح غبية تكره النو ر وتقضي الدهور في ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك، دون مسّ وجس

* * *

في صباح الحياة ضمخت أكوا بي وأترعتها بخمرة نفسي . .
ثم قدمتها إليك، فأهرقـ ـت رحيقي ودست يا شعب كأسي!
فتألمت . . ثم أسكت آلا مي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضدت من أزاهِير قلبي باقة لم يمسها أي إنس
ثم قدمتها إليك، فمزقـ ـت ورودي ودستها أي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توجتَ رأسي

* * *

. . . ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأسي
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّي في صميم الغابات أدفن نفسي . .
ثم أنساك ما استطعت فما أ نت بأهل لخمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أنا شيدي وأفضي لها بأحزان نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضي هناك في ظلمة اللـ ـيل وألقي إلى الوجود بيأسي
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـ ـو تخط السيول حفرة رمسي
وتظل الطيور تلغو على قبري ويشدو النسيم فوقي بهمس
وتظل الفصول تمشي حوالي كما كن في غضارة أمسي . . .

* * *

---

(1) النحس الريح الباردة عند إدبارها.

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغسي
أنت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي

* * *

هكذا قال شاعر ناول الشعـ ـب رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها، ومروا غضابا واستخفوا به وقالوا بيأس:
«قد أضاع الحياة في ملعب الجن (م) فيا بؤسه! أصيب بمس!»
«طالما خاطب العواصف في الليـ ـل وناجى الأموات في كل رمس»
«طالما رافق الظلام إلى الغا ب ونادى الأرواح من كل جنس»
«طالما حدث الشياطين في الـ ـوادي وغنى مع الرياح بجرس»
«إنه ساحر تعلمه السحرَ الشيا طين كل مطلع شمس...»
«أبعدوا الكافر الخبيث عن الهيـ ـكل إن الخبيث منبع رجس»
«اطردوه، ولا تصيخوا إليه فهو روحٌ شريرة ذات نحس»

* * *

هكذا قال شاعر فيلسوف عاش في شعبه الغبي بتعس
جهل الناس روحه وأغانيـ ـها فساموا شعوره سوم بخس
فهو في مذهب الحياة نبي وهو في شعبه مصاب بمسّ!
هكذا قال ثم سار إلى الغا ب ليحيى حياة شعر وقدس

* * *

وبعيداً، هناك في معبد الغا ب الذي لا يظله أي بؤس
في ظلال الصنوبر الحلو والزيـ ـتون يقضي الحياة حرساً بحرس
في الصباح الجميل يشدو مع الطيـ ـر ويمشي في نشوة المتحسي
نافخاً نايه، حواليه تهتز (م) ورود الربيع من كل قنس
شعره مرسل تداعبه الريـ ـح على منكبيه مثل الدمقس

والطيـور الطـراب تشـدو حـواليـه وتلغـو فـي السـروِ مـن كـل جنـس

وتـراه عنـد الأصيـل، لـدى الجـد ول يـرنـو للطـائـر المتحسـي

أو يغنـي بيـن الصنـوبـر، أو يـر نـو إلـى سـدفـة الظلام الممَسـي

فـإذا أقبـل الظـلام وأمسـت ظلمـات الـوجـود في الكـون تغسي

كـان فـي كـوخـه الجميـل مقيمـاً يسـأل الكـون في خشـوع وهمـس:

عـن مصـب الحيـاة، أيـن مـداه؟؟ وصميـم الـوجـود، أيـان يـرسـي؟؟

وعبيـر الـورود فـي كـل وادٍ ونشيـد الطيـور حيـن تمسـي..

وهـزيـم الـريـاح فـي كـل فـج.. ورسـوم الحيـاة مـن أمـس أمـس..

وأغـانـي الـرعـاة، أيـن يـواريـ ـهـا سكون الدجى، وأيان تمسي؟..

* * *

هكـذا يصـرف الحيـاة ويفنـى حلقـات السنيـن حـرسـاً بحـرس

يا لها من معيشة، في صميم الـ ـغاب تضحي بين الطيور وتمسي!

يـا لهـا مـن معيشـة، لـم تشبهـا نفـوس الـورى بخبـث ورجـس!

يا لها من معيشة، هي في الكو ن حيـاة غـريبـة ذات قـدس[1]..

---

(1) مجلة الرسالة (القاهرة) س 2 ع 70 (5 ـ 11 ـ 1934) ص 1828 ـ 1830.

كلمة جمعية الكتاب والمؤلفين

كنا قد وعدنا بنشر الخطب والقصائد التي قدمها حضرات الأدباء لحفلة تخليد ذكرى الشاعر العظيم أبي القاسم الشابي. وبالفعل فقد بدأنا بذاك في الصحف اليومية والأسبوعية ولكن حضرة صديقنا الأستاذ زين العابدين السنوسي الذي هو أحد أعضاء هاته الجمعية تكرم بتخصيص عدد ممتاز لذلك من [مجلة العالم الأدبي] فشكرنا نخوته تلك وأحلنا إليه هذا الواجب الكريم.

واللجنة تغتنم هاته الفرصة لتقدم جزيل شكرها لكل من شارك في هذه الحفلة من أدباء المشرق والمغرب.

رئيس جمعية الكتاب والمؤلفين

محمد بدره

موسم أبي القاسم

لقد كان أبو القاسم مباركاً على الأدب حياً وقد غدا مباركاً على الأدب في موته أيضاً.

فأصبح موسم تأبينه بمناسبة مضي الأربعين يوماً على دفنه (23 نوفمبر 1934) مظاهرةً أدبية حافلة رفعت من مقام الأدب في عيون الأدباء وبرهنت على مبلغ التقدير للنبوغ.

لقد ران على القلوب من جراء مناوشات طائفة من المشاغبين الذين جعلوا خبزهم في العبث بكرامة الغير، ورتبوا رزقهم على بيع سلاطة أقلامهم التي يسلطونها على أعراض وكرامة كل ذي شخصية اجتماعية وكل من عمل لخير المجتمع والعلم والأدب.. بحيث جعلوا الظهور والعمل الاجتماعي ونشر الأدب ـ جعلوا كل من يطيف بذهنه شيء من ذلك، لا بدّ له أن يحسب حساب هؤلاء المستقطعين لطريق النفع العام والمترصدين في مناهج الأدب وسبل الهداية. فران على القلوب من جراء هذا الدور الخبيث الذي يلعبه المثبطون المفسدون، أن الانزواء والخمول أسلم عاقبة، وخير عائدة، من الارتماء في أتون المغرضين والتعرض لسهام أولئك المفسدين. خصوصاً والأدب لا يزال في الشرق بضاعة لا تسمن ولا تغني من جوع، فإذا أضيف له تحمل سلاطة هؤلاء هان على أكثر خلق الله دفن مواهبهم وقبر لذاتهم الأدبية والانكماش.

وعلى ذلك فقد رأينا العقم يدب دبيبه في النتاج الأدبي التونسي منذ سنة 26 أو حول ذلك، إلا من عصم ربك. بل رأينا كثيرين ممن كانوا يملؤون صحف البلاد بنتائجهم النيرة المشرفة يقبعون في دورهم لا ينبسون، وإذا نبسوا فلأنفسهم ولأقربيهم وبالمناسبات الملحة والهم

الطافح، على أنهم لا يجازفون ولا يتعمدون إخراجها للعموم وتعريضها لأعين الناس الذين منهم أولئك المثبطون المفسدون.

أما فقيدنا المبارك الذي ظهر على حدود ذلك التاريخ وتحمل كل شيء فقد كان يومه برهاناً على أن تونس والشرق برغم كل شيء قد أصبحا يقدران النبوغ ـ ولو بعد موت الأديب والنابغ. وهي ظاهرة من شأنها أن تنشط الأدب والنبوغ وتمكن النابغين من اليقين الحق، وتنشط أصحاب المواهب على تزيين أمتهم وإمتاعها.

ولا غرو فما المظاهرات الأدبية، وما تكريم النبغاء وما إقامة تماثيل الكبراء في الميادين، وما تسمية الأنهج والساحات بأسماء العظماء... ما ذلك كله بخدمة لأولئك الراحلين ولكنه إلهام للأحياء وتنشيط، ودعوة لذوي المواهب والقادرين أن يسلكوا السبيل الوضاح. وهو أيضاً بعث للهمم على تحمل العثرات الدنياوية الزائلة وبرهان على أن العاقبة للصالحين وأن غبنوا دهراً.

* * *

كانت الحفلة تحت رعاية الجمعيات الأدبية التونسية الثلاث.

1 ـ جمعية المؤلفين والكتاب.

2 ـ جمعية ابن خلدون.

3 ـ جمعية قدماء الصادقيين.

وكانت القاعة الكبرى لمسرح الجمعيات بشارع باريس تفهق بالمدعوين من الأدباء والكبراء والزعماء والنواب وعموم المتأدبين وأنصار النهضة الفكرية في البلاد بحيث أن الإثني عشر مائة مقعد لم تكف الوافدين فعمروا المعابر وجلسوا على حواجز البراطيل العليا وملؤوا سقيفة المسرح حتى الطريق!.

وتوافد الخطباء والشعراء حتى اضطرت اللجنة إلى سرد قائمة أسماء ما لديها مكتفية بتعمير ثلاث ساعات ونصف من القصائد الرائقة والدراسات العميقة والتآبين الحارة.

وقد شارك في هاته الحفلة كثير من الأدباء الشرقيين بما أرسلوه من القصائد والتعازي والتلغرافات.

وهكذا كانت هاته الحفلة أول حفلة أدبية عمومية لأديب معاصر تونسي شاركت فيها الأقطار العربية في مشارق الأرض ومغاربها بما يحيي التكافل العربي ويمتن صلات الأمم الناطقة بالضاد ويشعرها بمتانة الصلة، ويجدد شعورها بالقرابة التي عمل الأعداء على نكرانها وتقطيع أوصالها.

الحفلـة

كان يتصدر حفلة الشابي الرؤساء الثلاثة للجمعيات التونسية الأدبية الكبرى بالعاصمة.

الأستاذ الكعاك

وقد أسندت الرئاسة لأكبر الرؤساء سناً وهو الأستاذ عبد الرحمن الكعاك رئيس الجمعية الخلدونية التي هي في الوقت نفسه أقدم الجمعيات التونسية. فافتتحها بدقيقة صمت إشعاراً بالحزن ثم ارتجل خطاباً بديعاً جاء فيه أن تونس تحتفل لأول مرة بذكرى شاعر معاصر هو أبو القاسم وأشار إلى عادة الشرق من عدم العناية بل حتى من جحود لفضل نبغائهم، ناهيك بإحراق كتب الغزالي في حياته واضطهاد جمال الدين الأفغاني في بلاده وتكفير الشيخ محمد عبده وتلحيده....

الأستاذ صفر

وتكلم الأستاذ صفر نيابة عن قدماء الصادقية على شاعرنا الفقيد فأكبر روحه الأدبية ونبوغه الشعري وأشار إلى الناحية الوطنية والإحساس الفياض الذي كان الشاعر يفيض بآمال بلاده وآلامها وقد ذكر الخطيب أنه: اجتمع مع فقيدنا الشابي في بلدة (طبرقة) حينما كان الشاعر في حالة شديدة من

الألم وقد دار إذ ذاك الحديث بين الشاعر والزعيم عن الوطنية وما يؤمله للشعب التونسي من التقدم ورثـي الشاعر لحال الشعب الآن، وقد عبر عن ذلك في قطعة شعرية وطنية نشرتها جريدة (العمل) بعدد 22.

* * *

أبو القاسم الشاعر

الأستاذ محمد بدرة

أيها السادة، إن جمعكم المحتشد في هذه الساعة لتأبين فقيدنا الكبير لمما يبرهن على أنكم تقدرون نوابغكم الممتازين، وأعتقد أنه لو كتب البقاء لشاعرنا الفتي لوجد منكم مثل هذه الحفلات لتكريمه حياً بدلاً من تأبينه ميتاً.

هذه أول مرة تحتفل تونس بتخليد ذكرى أحد شعرائها، ذلكم لأنه هو الذي أعلى صوتها في العالم العربي، وجعل لكل تونسي منزلة محترمة في قلوب الشرقيين عامة، بعد أن خفت ذلك الصوت طويلاً ،حمل أبو القاسم قيثارته وأرسل منها ألحاناً إلى جميع الأسماع في جميع البقاع.

ليست غايتي التعرض إلى فن الشابي فهو أعظم من أن يوضع على مائدة التشريح أو يعرض شعره للفحص وللتحليل، كما أني لا أريد المقارنة بينه وبين غيره من الشعراء لأنه نبع مستقل تدفق وحده بلا استئذان ولا تقليد أو هو مخلوق جميل ولد جميلاً ليس لأحد أن يسأله من أين اقتبس الجمال أو استعار ذلك الحسن البهيج.

إن بين يدي عدة من القصائد والخطب والدراسات جاءتنا من نواحي العالم العربي شرقاً وغرباً، وجلها من أساطين الأدب الحديث ستتلى الآن على حضراتكم ومنها تعرفون منزلة شاعرنا في التجديد الحقيقي لا المزيف، لأن أبا القاسم قد حافظ على تراثنا اللغوي أشد المحافظة وسبكه في قوالب جديدة من عقله الجديد وخلع عليه ظلالاً من أشعة روحه التي كانت تحيا بيننا. على أنه بين مجددي الأدب في هذا العصر يعتبر

المثل الأعلى، فلم يتكلف نظم قصيدة في الآلهة «ازيس» أو ينظم أخرى في البكاء على الأكربول المتصدع، ولكنه كان عربي الدم والملامح واللسان يشعر بأنه قطعة من قومه لا يعني غيرهم في كل ما يقول وها هو ديوانه الذي خلفه بين أيدينا قد صورت فيه تونس بآمالها وآلامها كأنها ماثلة أمام مرآة صافية الأديم.

وأهم مظهر للتجديد هو طريقته الفنية فقد كان يتوخى البساطة مع ما فيه من قوة ومقدرة فتأتي عبارته كالسيف القاطع الذي يهوي في خط مستقيم بينما المعروف عن معظم شعراء العربية أنهم يتسكعون في البهارج البديعية والمحسنات اللفظية، فلم نعثر في شعر أبي القاسم كله على أعلام اليقوت المنشورة على رماح الزبرجد ولا الزورق الفضي المشحون بالعنبر. بل لا يكاد يوجد في شعره كاف واحدة للتشبيه الهندسي الرخيص. وما مثل الشابي ممن يعنى بالألفاظ الظاهرة وإنما يكتب من فيض الروح حيث يستطيع اليوناني والفارسي واللاتيني والجرماني أن يفهم ما يقول لأن لغة الروح لغة كل زمان وكل مكان، ومهما تباينت اللغات واختلفت الأجناس وتباينت الألسن فالجوهر واحد، والروح واحدة والبشر واحد.

ومزية أخرى لأبي القاسم تحترق القلوب عليها لوعة ذلك أنه خالف المجددين الذين يطلعون على شعوبهم ساخطين ساخرين من قومهم وأوساطهم فأقسى كلمة نراها في ديوانه هي قوله للشعب «أنت روح غبية تكره النور».

فهذه الكلمة إذا قيست بما قاله الشعراء الناقمون لأقوامهم لا تزيد في الغلظة عما يقوله الوالد الرحيم لابنه عندما يربيه. ولا نعرف في حب الإنسان لأهل بلاده مقاماً أسمى من هذا المقام. كان يتألم ويكاد اليأس يستولي عليه أحياناً فلا يزيد عن قوله:

ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي ... لأقضي الحياة وحدي بهمس

هذه روح زكية ونفس عفة خيرة.. تبكي على شعبها وترثي له فليبك

عليها شعبها ما شاء له البكاء وما أسعفته الدموع.

إن في أبي القاسم بعد ذلك صفة يتصف بها كل شاعر عظيم، فكل قارىء لشعره يخيل إليه أنه قد تأثر قليلاً أو كثيراً بأحد الشعراء السابقين، فمن ذلك أن أحد النقادة المصريين قال إن الشابي ينسج على منوال الفريد دي موسى.

وهو معذور في ذلك إذ يجهل أن الشابي لا يعرف لغة أجنبية. وأنا لوّ أني لا أعرف من هو الشابي لقلت إنه اقتدى ببودلير أو فرلين. وكذلك الشاعر العظيم تظهر شخصيته المستقلة وكأنها مزيج منجم من جميع الثقافات والأفكار الإنسانية.

ويحسن في ختام هذه الكلمة أن نراجع بعض الآراء التي شاعت عن أبي القاسم في أذهان فريق من الأدباء في حفلة قبل هذه أقامتها شبيبتنا المدرسية[1] حيث أشاروا إلى أن أبا القاسم كان ضعيفاً يئن من ألم مبرح ويبكي من كل شيء حوله.

والحقيقة التي يجب الإصداع بها هنا أن ناظم قصيدة «النبيء المجهول» كان في نهاية ما يصل إليه الشاعر من قوة النفس وعظمتها.

الشاعر الضعيف لا يهتم إلا بنفسه وبمورد رزقه وهو الذي يقصر شعره على الغانيات لأنه طالب جاه أو مال. وإذا شكا فلن يشكو إلا سوء حاله وكيف دار به الزمان وأنزله من أعلى إلى أسفل. فهل في ديوان أبي القاسم بيت واحد يشتم منه هذه الروائح؟ كلا. إنه كان شاعر الشعب يسمو فوق الجميع ليحتضنهم بجناحيه بما فيهم من طائع وعاص ووديع ومشاغب.

نظر أبو القاسم فأبصر وطنه يضيق به وبهمته فأرسل شعره إلى الشرق حيث لا مطمع للسير بجانب فحول الشعراء هناك، وحيث تنزلق أقدام

(1) بعد أسبوع من وفاة الشابي.

المتضلعين في الآداب قبل أن يصلوا إلى نهاية المضمار، فسامى المحلقين ارتفاعاً وساوى الأقوياء زنداً وباعاً. وكانت سهام قومه ترشقه من خلفه فلم تزده إلاّ مضاءً في طريقه وسار وحده سير الجبارين، حتى خلف لنا هذا الديوان النفيس الذي سيبقى تاجاً على رأس تونس تختال به شقيقاتها الشرقيات. وبذلك ضرب لشبيبتنا مثلاً في الإقدام والطموح والاستهانة بكل العقبات لينهض من عسى أن يكون مثله وما أكثر شبابنا الراغبين في النهوض ولكن تعوزهم مثل تلك العزيمة. . عزيمة أبي القاسم.

ألم يتبين لكم في الرجل وجه من العظمة قلما يرى في العظماء؟ بلى والله إنكم لترونه رائعاً كالشمس. ترون في الشابي قوة ساحقة، قوة فولاذية يصحبها حنان الشاعر وتغطيها ابتسامته العذبة.

ربما أطلت أيها السادة فاعذروني لأننا لم نحتفل قبل اليوم بذكرى مثل ذكرى هذا الذي خلد نفسه بشعره. ولكن عزاءنا فيه هو أنه البطل الذي تقدم الطليعة ووصل إلى غايته كسيل جارف يريد أن يروي الأرض المجدبة وقد رواها[1].

---

(1) عن مجلة (العالم الأدبي) العدد الخاص بالشابي. وقد كان صاحب المقال رئيس اللجنة التي أقامت حفل الأربعين. «الناشر».

أدب الشابي

دراسة الأستاذ محمد الحليوي

تأبيـــن

أيها السادة الفضلاء.

ما أشد على قلب الصديق أن يقف مثل هذا الموقف.

ما أشد على القلب أن يقف الصديق راثياً صديقه، باكياً عليه، وقد كان بالأمس ملء عينه وقلبه، يجلس إليه، ويتملأ من حديثه، ويبني معه آمال المستقبل، ويستعرض آلام الحاضر، ويقائس بين حقارة الدنيا التي يحياها والدنيا التي بناها كل لنفسه في داخل نفسه، وجعلها مثله الأعلى لحياته وللحياة.

ما أشد على قلب الصديق المقيم أن يؤبن للناس صديقه الراحل، وهو لا يزال في حيرة من تصديق ذلك الخبر الهائل، ذلك الخطب النازل، الذي يسكت فيه أحد القلبين اللذين كانا يخفقان بالمحبة والوداد، ويتجاوبان بالآمال والعواطف والأحاسيس التي وحدت بينهما وحدة النظرة، ووحدة الفكرة.

والهفة النفس! على أي خليقة من خلائقك الغر نتسلى يا أخي.

كيف نتعزى عنك ونصبر يا صديقي.

هل ذهبت حقاً تلك الساعات التي مرت بقربك فلن تعود.

وهل لن تعود المجالس والسمر، والغدوات والروحات.

وهل لن تعود المسامع والمناظر، وأوقات اجتماعنا على كتاب أو في زمرة من الخلان والصحاب. هل فقدتك إلى الأبد وأنني لن أراك في هاته الدنيا؟ والهفة النفس، والهفة العمر.

أرثيك يا أخي وأنا الذي كنت أشد الناس إيماناً بحياتك لآخر لحظة من حياتك، فما أشقاني برثائك.

كنت أؤمن بحياتك لأني كنت أحسب أن الموت أضعف من أن يجرأ على هذا الشباب الرائع، وهاته العبقرية الفياضة، وأحقر من أن يطفىء هاته الشعلة المتوهجة المنبعثة من روحك، وهذا النور السماوي المنبعث من عينيك.

أواه ما أقسى الموت! أواه ما أكبر الرزية فيك! أواه ما أعجزني أن أطير إليك.

رسالة الشابي الأدبية

أيها السادة.

كتب إليّ الصديق الراحل في أحد كتبه هاته الكلمة:

«إنه لا يحزنني شيء في هذه الدنيا أكثر مما يحزنني التفكير في أنني أموت قبل أن أؤدي رسالتي التي أحس أنني لم أخلق لغيرها في هذا العالم».

رسالة الشابي! هذه هي التي عاش لأجلها، وضحى بكل شيء في سبيلها، ولاقى من عنت الدهر وعنت أبناء الدهر، ما قصم ظهره، وأوهن قواه، وهاض جناحيه، جناحيه اللذين يحلق بهما في آفاق النور والحق والجمال.

فهل أدى الشابي رسالته قبل أن يموت؟.

الشاعر والشعر

رسالة الشابي هي رسالة الشاعر في الحياة ورسالة الشاعر كما يرى الشابي هي تلك التي توسع أفق الحياة في نفسك وتجعلها تحس بتيارات

الوجود أكثر مما كانت تحس، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك، وتنسيك وجودك الإنساني لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك، ويسبغ منه على نفسك».

وقد جاء الشابي والشاعر عندنا تنحصر رسالته في قول الشعر يسترضي به الغاضب، ويستعطف العاتب، ويستمنح الرفد، ويستنجز الوعد، وربما قال ليلهو ويتسلى، ويظهر القدرة على الوزن ورصف القوافي ونحت العبارات والكلمات.

أما الشابي فالشعر عنده هو «ما تسمعه وتبصره في ضجة الريح وهدير البحار وفي بسمة الوردة الحائرة يدمدم فوقها النحل، ويرفرف حواليها الفراش وفي النغمة المفردة يرسلها الطائر في الفضاء الفسيح، وفي وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول، وفي دمدمة النهر الهادر المتدفق نحو البحار، وفي مطلع الشمس وخفوق النجم، وفي كل ما تراه وتسمعه، وتكرهه وتحبه، وتألفه وتخشاه...

والشعر عنده هو ما يقول:

يا شعر أنت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب
يا شعر أنت صدى نحيب القلب والصب الغريب
يا شعر أنت مدامع علقت بأهداب الحياة
يا شعر أنت دم تفجر من كلوم الكائنات

والشعر عنده هو فلذة من فؤاد قائله تتغنى، وقطعة من وجوده تترنم:

أنت يا شعر صفحة من حياتي   أنت يا شعر قطعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين   أبدي إلى صميم الوجود

والشاعر ما هو؟ يقول الشابي:

«هو ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره شعلة من روحه، ونسمة من حياته، فإذا هي ناطقة تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر

وفن وجمال، وتتغنى بما يزخر في أعماق القلب البشري من عطف وبغض، ويأس وحنين، ولذة وألم، وغايات ومثل، وأنه ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر، ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح، وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم وجمال الوجود.

«والشعراء هم أولئك الذين يرتفعون بأرواحهم إلى آفاق فسيحة أرحب وأسمى من سماء البيئة المحدودة متغزلين بدنيا غريبة رائعة لم تخلقها الحياة إلا في أعماق قلوبهم الملأى ببهاء الكون ومثل الحياة العليا.

«وهم أولئك الموهوبون الذين يسبقون عصورهم فيغنون أشهى أغاني الجمال وأعذب أناشيد القلب البشري لأجيال لم تخلق بعد، وهم أولئك الذين لا يصورون عادات العصر المتغيرة المتحولة بل عادات الحياة الخالدة على الدهر، ولا يصفون أحاديث الوعاظ والمتكلمين والمتفلسفين، بل أحاديث نفس الإنسان التائهة في بيداء الزمان، ولا يعلنون أسرار القصور والمجالس، بل أسرار الأزل والأبد».

ذلك هو الشعر والشاعر عند الشابي. فهل سمعتم بربكم لغة أسمى من هاته اللغة في تعريفه، وهل رأيتم أجل وأجمل من هذا الكلام. هذه يا سادة لغة سماوية لا عهد للآذان بمثلها، لغة ترتفع صعداً في الارتفاع إلى أن تدرك غايات لا تدرك. فلو نطق الشعر لما أعلن عن نفسه بأبلغ من هذا الكلام، ولو رحنا نطبق هذه الحدود على كل شعر وشاعر لرأينا كيف يجب أن نتخطى الأجيال ونستعرض عبقريات الأمم لنعثر على بضعة شعراء من ذلك القبيل.

فأول ركن من أركان رسالة الشابي هو ما يمكن أن نعبر عنه بتقديس الشعر.

1 ـ قدسية الشعر

تقديس الشعر والارتفاع بالشاعر إلى أعلى درجات الروحانية،

واعتباره رسول نور وقائد أمة يرتفع بها إلى مثله الأعلى لترتفع في حياتها. هذه هي فكرة الشابي في الشاعر وهذه فكرته في نفسه. فهو يحس بأنه رسول وأن له رسالة، وأن على الرسول أن يعرف الناس ما هي عظمة عمله وكيف يفهمه ويريد منهم أن يفهموه ـ ومن هنا كان الشابي لا يسمح للشعب أن يتحكم في الأدب وأن عليه أن يكون تابعاً لا متبوعاً. أما إذا انحط الفن إلى خدمة الشعب، واتبع منازعه وغاياته، وأصبح أداة يصرفها كيف شاء فقد انقلب عبثاً صبانياً لا قدسية فيه ولا جلال. والشاعر الرسول لا يتنزل إلى حقارات الدنيا وسخافاتها، ولا يلتفت إلى الأعراض الزائلة، والعاديات التافهة. فهو يثور ويحنق، كيف يرضى الشاعر الذي هو رسول تسخير الشعر الذي هو مقدس إلى التهنئة بوسام أو وظيف، أو استنجاز مطلب، أو استعطاف مغضب.

وليس في ديوان الشابي بيت واحد قاله في غرض من الأغراض الزائلة أو في مطلب من المطالب العارضة أو في خصوصية من الخصوصيات أو في شخصية من الشخصيات بينما لا يخلو ديوان معاصريه في الشرق العربي من قصائد في الإخوانيات والخصوصيات، هذا إن لم تكن في توديع المسافر، واستقبال القادم، وتكريم الممثلة والمغني والباني والمتصدق، وحتى الناجح في مباريات لعب الكرة.

2 ـ قدسية الحب

والركن الثاني من رسالة الشابي هو تقديس الحب أو بعبارة أوضح تقديس المرأة.

والمرأة في الأدب العربي كما يرى الشابي ليست إلا ملهاة بيد الرجل عندها متعة الجسد، ويعتبرها منهل اللذات. والشاعر العربي إذا حدث عن جمال المرأة لم يتحدث عنه كفن مستقل متجرد عن هاته المظاهر المادية التي تتصل بالخصر والردف ونحوهما. وقليل من الشعراء في كل العصور من نظر إلى المرأة تلك النظرة السامية، التي يزدوج فيها الحب بالإجلال،

والشغف بالعبادة، تلك النظرة الفنية التي تعد المرأة كقطعة من فنون السماء يلتمس لديها من الوحي والإلهام ما تضن به ينابيع الوجود.

والمرأة عند الشابي هي النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسبيل المحبة، وهي الطيف السماوي الذي هبط الأرض ليؤجج نيران الشباب ويعلم البشرية طهارة النفس وجمال الحنان.

هذا ما كان يرى الشابي، وهكذا يعرف المرأة. حتى إذا انتقلنا من نثره إلى شعره في الحب رأيناه صلوات ترتل في هيكله، وابتهالات إلى ينبوع الجمال الأقدس، ودعوات حارة وارتفاعات وتنقلات تبتدىء من جمال المرأة وتنتهي إلى الجمال الكلي في الوجود:

أنت! ما أنت. . . أنت رسم جميل   عبقـري مـن فـن هـذا الـوجـود
فيـك مـا ـ مـن غمـوض وعمـق   وجمــال مقــدس معبــود

وهو إذا ارتفع بالمرأة وأسبغ عليها هذا الثوب من الجلال والقداسة فلأنه يلتمس عندها سعادة قلبه التي لم يجدها:

«في حياة الورى وسحر الوجود».

لأنه يحب أن يعيش في ظلها العذب. وقرب حسنها الحبيب.

«عيشة للجمال والفن والإلهام والطهر والسنى والسجود».

وهو إذ يرى المرأة التي أحبها تحلو لديه الحياة، ويملأ نفسه صباح الأمل وتنمو بصدره الورود. . . أراك:

فـأعبـد فيـك جمـال السمـاء   ورقـة ورد الـربيـع الخضـل
ويفتننـي سحـر تلـك الشفـاه   تـرفـرف مـن حـولهـن القبـل

وهو إذ يراها يخلق خلقاً جديداً، ويغمر روحه ضياء رقيق، وتسمعه الكائنات بديع الأغاني وحلو النشيد. . أراك:

فتملكـونـي نشـوة لا تحـد   كـأنـي أصبحـت فـوق البشـر

أود بــروحـــي عنـــاق الـــوجـــود بمصـــا فيـــه مـــن أنفـــس وشجـــر
وليـــل يفـــر وفجـــر يـــكـــر وغيـــم يـــوشـــي رداء السحـــر

وهو يذكر أمسه ويبكيه لا لمجد سلب، أو لعمر ذهب، أو لجاه يرتجى أو لنعيم يشتهى، إنما يبكيه للحب... يا أمسي:

إنمـا أبكيـك للحـب الـذي كـان بهـاه يملك الدنيا فأنّى سرت في الدنيا أراه
ويغنينـي فـأنسـى فـي مسـرات غنـاه كل ما في الكون من حزن وأفراح عداه

هذا هو الحب وتلك هي المرأة في نظر الشابي وفي شعر الشابي. فهو لا يذكر مرأة مخصوصة ولا واقعة بعينها. وإنما يذكر المرأة والحب، ويسبغ عليهما من روحانيته العميقة كل المعاني الرفيقة والأفكار السامية التي تضاهي في الأفلاطونية أسمى ما كتب عن هاته الأغراض فهو من هاته الناحية يشبه لامرتين وينظم متأثراً به تأثراً ظاهراً ملموساً. وقد كان لامرتين يجعل من الحب موضوعاً للتأملات السامية والذهول الصوفي. فالشابي كالشاعر لامرتين يذكر الغابات والأنهار، والجبال والأحجار والغدو والآصال:

وشمـــــوس وضـــــاءة ونجـــــوم تنثـــر النـــور فـــي فضـــاء مـــديـــد
وربيـــــع كـــأنـــــه حلـــم الشـــا عـــر فـــي سكـــرة الشبـــاب السعيـــد
ورياضٌ لا تعـــرف الحلـــك الـــدا جـــي ولا ثـــورة الخـــريـــف العتيـــد
وطيـــور سحـــريـــة تتنـــاغـــى بـــأنـــاشيـــد حلـــوة التغـــريـــد
وغيـــــوم رقيقـــــة تتهـــــادى كـــأبـــاديـــد مـــن نثـــار الـــورود

يذكر كل هذا وأكثر من هذا ولكننا نبقى مع ذلك جاهلين كل الجهل موضع هذه الأشياء في الكون وهوية هذا المخلوق الذي يحبه وأي صلة تصله بروح الشاعر. وغاية ما يمكننا أن نعرف هو أن الشاعر يتغنى بالمرأة لا بمرأة، ويذكر الحب لا حباً يميزه من أنواع الحب الكثيرة ووقائعه الخاصة.

اسمعوا هاته القطعة:

«كنا نسير نحو الغاب وكانت غماغم الحقول تحدثنا عن الحب والحياة، وكانت تقنع السماء سحابة رقيقة ساجية كأنها قناع حورية من بنات الأحلام. وكان الغاب يبدو في ضياء القمر كرؤيا نبيء أو خيال شاعر. وكان الحب يتهادى أمامنا ثملاً بين المروج الناعسة في سكون الليل وعلى منكبيه درع قصير كضباب الصباح جميل كغيوم الربيع ـ ولما اقتربنا من الغاب سمعنا طائراً يغني أنشودة القمر وسمعنا قيثارة الحب تترنم في جواره وسمعنا صوتك العذب الجميل، يتغنى بوحي الجمال، يا ابنة الليل ويا ربة الأحلام».

فليس إذن في حب الشابي تلك الحوادث والوقائع التي تتدرج بالحب وتجعل له أولاً وآخراً ومعالم وكلمات تقال بين المحبين وآلاماً تعقب الصد، وفرحات تجيء مع الوصال. فكأنه كان يصف فكرة لا امرأة ويصور مثلاً أعلى لا شخصاً من لحم ودم له ما يميزه من الأشخاص الآخرين الذين يتغزل فيهم شعراء الحب ـ وربما كانت حرارة شعره الغزلي ولهفته الصادقة متأتية من حرمانه من الاتصال بالمرأة التي توحي إلى الشاعر وتوجه عاطفته إلى الوجهة الفنية.

على أن الشابي وإن حرم من المرأة فقد هداه قلبه وأنطقه حنينه إليها بقطع سامية بديعة. وقد التقى في قصيدته التي أسماها ألحان السكرى مع لامرتين وزاد الشابي في قصيدته تلك معنى أعلى وأسمى من الذي بني عليه لامرتين قصيدته البحيرة: فحيث كان لامرتين يصيح بالزمن قائلاً.

«أيتها الأرض قفي دورانك، وأنت أيتها الساعات قفي جريانك ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا وننعم بأجمل أيام شبابنا».

كان الشابي يقول:

قـد سكـرنـا بحبنـا واكتفينـا طفـح الكـاس فـاذهبـوا يـا سقـاة
نحـن نحيـا فـلا نـريـد مـزيـداً حسبنـا مـا منحتنـا يـا حيـاة

ويقول في هاته القصيدة وفيه شبه بصيحات لامرتين:

أيها الدهر! أيها الزمن الجاري ... إلى غير وجهة وقرار
أيها الكون! أيها الفلك الدوار بالفجر والدجى والنهار
أيها الموت أيها القدر الأعمى ... قفوا حيث أنتم أو فسيروا
ودعونا هنا تغني لنا الأحلام ... والحب والوجود الكبير
وإذا ما أبيتم فاحملونا ... ولهيب الغرام في شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر وبالسحر والصبا في يدينا

فبينما كان لامرتين يشعر بسير الزمن في حضرة حبيبه ويشفق من فرار الساعات ويلج في طلب البرهة اليسيرة فلا يظفر بها كان الشابي يذهل في سكرته عن مرور الزمن وينسى وجوده في وجود المحبوب، أو كان وجود المحبوب ينسيه الوجود. فسواء عليه سار الزمن أو وقف، ودار الكون أو تعطلت دورته، فقد طفح كأسه فسكر بحبه واكتفى.

3 ـ قدسية الطبيعة

أما الركن الثالث الذي تعتمد عليه رسالته الشعرية فهو تقديس الطبيعة، وشعر الطبيعة في الأدب العربي قليل إذا أردنا بشعر الطبيعة غير الوصف الاستعراضي، وتعداد الأسماء والتحدث عن تلك الكائنات كأنها كائنات ميتة وضعت في الكون كما توضع الباقة من الزهر في البيت للزينة والتجميل. وإنه حسب الشاعر في الحديث عنها أن يصفها كما رآها ويبالغ في وصف النعوت والصفات، ويجيد المجاز والاستعارة وطلاوة العبارة دون أن تلمح من وراء كلامه نفساً تشعر بجلال المنظر وروعة المشهد.

أما الشابي فقد نظر إلى الطبيعة نظرة «الحي الخاشع إلى الحي الجليل» متأثراً في ذلك بلامرتين الذي قرأه قراءة معجب وجعل قصته رفائيل كتابه المختار الذي لا يصبر على مفارقته، وسوف نرى أنه كان ذا أثر كبير في توجيه فكرته إلى ناحية جديدة.

فالشابي إذا تكلم على الطبيعية تكلم عليها كما يتكلم لامرتين.

فالصبح يغني، والريح تغني، والنسيم يغني، والربيع يمشي على الزهر، والربى تحلم والصبا ترقص، والنور يتهادى، والزهر يتمطى والسواقي تهمس، والشمس ترضع، والقمر يغذي، والنحل يهزج، والزمان يتمشى في ملال، والربيع ينفخ نايه، وأمواج البحيرة تنسى، وللظلام غيلان، وللبحر جلجلة، وللعاصفة هدير، وللليل أحلام، وللنجوم ابتسام، وللغيوم تهاويل، وللوادي ذلة، وللجبال مجد، وللكهوف عُري، وللزمن دمدمة، والأرض حالمة، والألحان سكرى، والموج طاهر.

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الغصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسة.

وهو إذ يذكر عهد طفولته يحن إلى الأماكن التي تقضت فيها ويصف ساعاته العذبة التي قضاها مع صديقته الصغيرة لا شغل له إلا اللهو واللعب.

وتتبع النحل الأنيق وقطف تيجان الزهور وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور مسقوفة بالورد والأعشاب والورق الغضير.

في المجتمع

هذه ـ أيها السادة ـ الأركان الثلاثة التي تعتمد عليها في رأيي رسالة الشابي إلى أبناء زمنه. فتقديس الشعر، وتقديس المرأة، وتقديس الطبيعة هي أغلب المطالب التي نظم فقيدنا العزيز فيها شعره وأسمعنا في الكلام عليها وحي عبقريته، ورفعنا بقراءتها إلى أسمى ما تسمو إليه تلك المعاني، فسكب في قلوبنا أحاسيس جديدة وجعلها تضطرب بمعانٍ علوية لم تكن

تضطرب بها قبل أن نقرأ شعره. وحسب الشاعر في تبليغ رسالته أن ينجح في إقناع أمته بالنظر إلى الشعر والطبيعة والحب مثل تلك النظرة.

فالأمة التي ترتفع بالشعر إلى درجة الإلهام يرتفع بها إلى آخر درجات المدنية، والأمة التي تنظر إلى الطبيعة نظرة الحي الخاشع إلى الحي الجليل تصلح الطبيعة غرائزها المعوجة النائية، وتعلمها كيف تطلب الجمال والكمال والصدق وسعة الآفاق في كل عمل من الأعمال، والأمة التي تنظر إلى المرأة نظرة سامية وتفهم قلب المرأة المملوء بالرحمة والحنان والعواطف الملائكية وتجعل النصف الجميل الذي يكسب الحياة بهجة ويحيل عبوسها بشاشة وقسوتها رحمة ويحمل إلى الأرض نور السماء وشعلة الروح الطاهر، هي أمة قد أصلحت نفسها لا محالة. والأمثلة على ذلك كثيرة في الأمم التي أحلت هاته المطالب في المحل الأول، ومجال المقايسة مجال متسع.

ولكن الشابي الذي كان يؤمن برسالته ويرى أنه جاء ليرتفع بالشعور ويسمو بالطبائع، ويأخذ الشعب إلى مثله الأعلى قد لاقى من هذا الشعب ما يلقاه كل من يحمل إلى أمته حياة جديدة أو أفكاراً جديدة لم يألفوها، ولم تتوجه أنظارهم إليها. . أيها الشعب:

فـي صبـاح الحيـاة اتـرعـت اكـوا ... بـي وضمختهـا بخمـرة نفسـي
ثـم قـدمتهـا إليـك فـأهـرقـ ... ـت رحيقي ودست يا شعب كاسي

نعم! لقد أترع أكوابه في فجر حياته بخمرة نفسه وقدمها إلى شعبه فداسها وألبسه ثوباً من الحزن، وتوج رأسه بالشوك. فهو لذلك يثور، وتطغى به الثورة حتى يتمنى على الدهر أن لو كان كالسيول الجارفة ليهد القبور الميتة. أو كان كالرياح العاصفة ليطوي كل ما يخنق الزهور الغضة. ثم تسكن ثورة نفسه فيعلن رجوعه إلى الطبيعة:

وبعيـداً. . . هنـاك فـي معبـد الغـا ... ب الـذي لا يظلـه أي بـؤس
فـي ظـلال الصنـوبـر الحلـو والـزيـ ... ـتون يقضـي الحيـاة حـرسـاً بحـرس

في الصباح الجميل يشدو مع الطيـ ـــر ويمشـي فـي نشـوة المتحسـي
نـافخـاً نـايـه... حـواليـه تهتـز ورود الـربيـع مـن كـل قنـس

وهكذا ابتعد أبو القاسم عن المدينة وعاش في قريته الشابية على تخوم الصحراء حيث يمتد النخيل وذهب الرمال والآصال، تحيط به لا نهاية الأفق ولا نهاية الصحراء، له من أفكاره وأحلامه ومثله عوالم يحيا فيها بالتأمل والتفكير وتسبح روحه مع ذوات نورها في البكور والعشي - وهنالك في جمال الصحراء وجمال الواحات أخذ يتأمل ويندمج في الوجود وينزل إلى أغوار قلبه الجريح ونفسه المكتئبة فيخرجها قصائد خالدة على الدهر يعجب لها الناس ويتساءلون في حيرة. هل أن هذا الرجل يعيش في حلم دائم بالجمال والروحانيات ويتصل اتصالاً مستمراً بربات الشعر، فإذا هو كتب أو نظم كانت آثاره كلها حلماً بعوالم الجمال والكمال والمثل الروحية العالية، وارتفاع بالأشواق والعواطف والوجدانيات إلى أسمى ما تكون عليه في قلب الإنسان.

شكوت إليه مرة من ركود الأدب في تونس وموت أحلام الأديب ومن قسوة الحياة اليومية التي تجبر القلب والعقل على أن يحيا حياة عادية لا تحيي فكراً ولا تشب عاطفة ولا تبقي على شعور متقد، فكتب إليّ يقول:

ما لنا وشكوى الحياة

فمـن تـألـم لـم تـرحـم مضـاضتـه ومـن تجلـد لـم تهـزأ بـه القمـم

لنترك الألم جانباً ولنصعد بأقدام ثابتة جبل الدنيا المقدسة جبل الفن والفكر والأحلام:

فـالمجـد فـي القمـم الـرفيعـة مـالـيء جبـل الحيـاة بضـوئـه الخـلاب

ولنعرض بأبصارنا عن أشباح الموت وغيلان الظلام السارية في أعماق الوادي وفي شعاب الجبل ولنصرف أسماعنا عن صرخات اليأس

وأصوات الأبالسة فإن في الذروة العليا موسيقى الوجود الخالدة، وفجر الحياة السرمدي.

فلسفة الشابي

أيها السادة الفضلاء.

أريد أن أحدثكم الآن عن الشابي الفيلسوف وأقول الفيلسوف لأنه سمى نسيه في قصيدة النبيء المجهول بالشاعر الفيلسوف حيث قال:

هكـــذا قـــال شـــاعـــر فيلســـوف عـــاش فـــي شعبـــه الغبـــي بتعـــس
جهـــل النـــاس روحـــه وأغـــانيهـــا فســـامـــوا شعـــوره أي بخـــس

على أنني أرى الأقرب للواقع أن نعنون هاته الكلمة بقولنا فلسفة الشابي أي نظرته إلى الحياة، وسبيله في تعليلها. لأن الشاعر الفيلسوف أداته العقل والفكر أو هو الغالب على شعره، ونسمي المعري الشاعر الفيلسوف لأن المعري يفكر في شعره، ويعتز بالعقل ويعتمد عليه وحده، ويخاطب قراءه من ناحيته.

أما الشابي فشاعر أداته العاطفة والخيال وهو نفسه ينكر العقل ويصغر من أمره ويراه عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة وأنه لا يزال صغيراً رغم مشيبه ووقاره يقول:

عـــش بـــالشعـــور وللشعـــور فـــإنمـــا دنيـــاك كـــون عـــواطـــف وشعـــور
شيدت على العواطف العميق وأنها لتجـــف لـــو شيـــدت علـــى التفكيـــر

إذن فنحن نتكلم عن فلسفة الشابي وفلسفة الشابي ليست معقدة كما يتبادر إلى الذهن وليست مشتتة متداعية تضطر الباحث إلى التكلف والتعسف لتحليلها وجعلها ذات وحدة قائمة الذات وسلسلة متصلة الحلقات، ومن أعجب المصادفات أن الشابي لم يلفظ النفس الأخير من حياته الغالية حتى ترك لنا فلسفة تامة متصلة الأطراف على قصر حياته وقصر الزمن الذي اشتغل فيه بالأدب، وعجيب حقاً أن يصل المرء بمحض

مجهوده الفردي وعقله المجرد في مدى عشر سنوات إلى بناء فلسفة في الحياة تامة الحلقات. لم يقلد فيها إلا نفسه ولم يصف إلا ما رأى وما جرى من الأحداث وما اغترفه في قلبه، في ذلك الأبد الصغير من:

مـــن دنيـــا محجبـــة وطـــاهـــره «كـأنهـا حيـن يبـدو فجـرهـا أرام»
يا قلب كم فيك من كون قد اتقدت فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم
وكـم تـوشحـت مـن ليـل ومـن شفـق ومـن صبـاح تـوشـي ذيلـه السـدم
وكـم نسجـت مـن الأحـلام أرديـة قـد مـزقتهـا الليـالـي وهـي تبتسـم

وحسبك برجل يقول:

تمشي على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير.

فقلبه الذي كان يكثر من ذكره في شعره، ويشكوه في غدواته وروحاته كان هو الحاسة القوية التي يتصل بها مع العالم ويحتفظ فيها بالصور والرؤى وكان يحيا به حياة مضاعفة ويحس به في اللحظة الواحدة ما لا تحسه القلوب العادية في السنين المتتالية. إذن فقلب أبي القاسم الشابي هو الذي كان يعمل لبناء هذه الفلسفة لأنه قلب ممتاز يرهقه الشعور ويكده الإحساس فيكون تأثره واتصاله بالعالم الخارجي قوياً مكبراً مضاعفاً مضروباً في نفسه.

كل من تتبع آثار أبي القاسم عن بعد أو قرب يعرف أنه من الشعراء المتشائمين. ولكن قليل منهم من يعرف أن التشاؤم طور من أطوار فلسفته التي صبغ بها شعره، وأن شاعرنا الفقيد قد دخل شعره في ثلاثة أطوار وأن لكل طور من هاته الأطوار بدايته ونهايته، وأنه لم يسكت قلبه الكبير حتى وضع نقطة الختام في آخر أطوار شعره.

فالطور الأول هو طور التشاؤم القاتم. وفي هذه المدة كان ينحو نحو جبران وينكب على مطالعة المعري انكباباً كلياً. فلما نظم أول أشعاره كان مفرطاً في اليأس والتشاؤم وكان هذا التشاؤم من النوع السهل الرخيص الذي يشاركه فيه كثير من صغار الشعراء ومقلديهم فهو تشاؤم لا تعرف مبعثه

ولا الداعي إليه ولا علة ترديده وسبب وجوده.

فنرى الشابي يقول في قصائده الأولى:

لـم أجـد فـي الحيـاة نغمـاً بـديعـاً يستبينـي سـوى سكينـة نفسـي
نـاولتنـي الحيـاة كـأسـاً دهـاقـاً بـالأمـانـي فمـا تنـاولـت كـأسـي
إن فـي روضـة الحيـاة لأشـوا كـاً بهـا مـزقـت زنـابـق نفسـي

ويقول في نشيد الأمل:

فلقـد جـرعنـي صـوت الظـلام ألمـاً علمنـي كـره الحيـاة

ويقول في قصيدة أيها الليل. وهي كلها نواح ونحيب:

صـاح إن الحيـاة أنشـودة الحـز ن فـرتـل علـى الحيـاة نحيبـي
إن كـاس الحيـاة متـرعـة بـالـدمـ ـع فـاسكـب علـى الصبـاح صبيبـي

وفيها يقول أيضاً:

ليـس فـي الـدهـر طـائـر يتغنـى فـي ضفـاف الحيـاة غيـر كئيـب

وفي مطلع قصيدة الملل الأليم يقول:

سئمـت الحيـاة ومـا فـي الحيـاة ولمـا تجـاوزت فجـر الشبـاب
سئمـت الليـالـي وأوجـاعهـا ومـا شعشعـت مـن رحيـق بصـاب
فحطمـت كـاسـي وألقيتهـا بـوادي الأسـى وجحيـم العـذاب

وفي قصيدة «يا شعر» نصح لقلبه أن يسلو ويتعزى فأبى:

كم قلت صبراً يا فؤاد أما تكف عن النحيب

فإذا تجلدت الحياة تبددت شعل اللهيب

لكن قلبه لا يريد أن يؤمل ولا يريد أن ينسى أوجاع الحياة فهو يقول له:

طهر كلومك بالدموع وخلها وسبيلها إن المدامع لا تضيع حقيرها وجليلها

وفي أغنية الأحزان يقول:

غنني يا طير أنات الجحيم واسقني الآلام
واترع الكأس بأوجاع الحياة واسقني إني كرهت الابتسام
غنني ندب الأماني الخائبة والليالي السود

وقد يجد القارىء أمثلة كثيرة لذلك في شعره الأول وعلى الخصوص في قصائده المعنونة: في سكون الليل، وجدول الحب، والصوت الكئيب، وأيها الحب، وغير ذلك.

وقد كتب في هذا الطور القطع المنثورة التي نشر بعضها تحت عنوان: صفحات دامية من حياة شاعر. وكتب أيضاً القطعة النثرية التي أسماها أغنية الألم وختمها بهاته الكلمة: «لنرتل يا قلبي الكئيب البائس، أنشودة الألم المرة المخضلة بالدموع، ولنرددها على مسمع الظلام حتى الأبد».

ثم يجيء الطور الثاني من أطوار الشاعر فنراه يستمر متشائماً ولكن تشاؤمه في هاته المرة مصحوب بالتعليل وحزنه مبعثه الحيرة وكآبته تعتمد على استمرار تساؤله وحيرته وتطلعه إلى اليقين. وقد صحب هذا الطور الجديد تغير في نفسه، كثيراً ما كتب إليّ شاكياً منه واصفاً آثاره في نفسه.

وهكذا ظل سائراً في سبيله مردداً أغنية الحيرة باحثاً عن الصباح سائلاً تلك الأسئلة الممضة. ما نحن؟ من أين والى أين؟ ما هذا العالم ولأي غاية وجد ولأي غاية يسير؟ ما هي الحياة وما هو الموت؟ هل من جواب:

يا صميم الحياة إني فؤاد ضائع ظامىء فأين رحيقك
يا صميم الحياة قد وجم الناي وغام الفضا فأين بروقك
يا صميم الحياة أين أغانيك فتحت النجوم يصغي مشوقك

وهل جاء الجواب؟ نعم! ولكنه جواب الأمل لا الجواب الحاسم، جاء الجواب يقول ما بعد الحيرة إلا اليقين وما بعد الكآبة إلا البهجة

والحبور إذ ما بعد الظلمة الحالكة إلا الصباح المشرق:

فسمعت أجنحة ترفرف في الفضا ... وصدًى يرن على سكون الغاب
الفجر يولد باسماً متهللاً ... في الكون بين دجنة وضباب

وقد قال في هاته الأثناء أي في أيام الحيرة والتساؤل قصيده الرائع البديع الخالد على الزمن ما خلد الشعر الغنائي:

نحن نمشي وحولنا هاته الأكـ ... ـوان تمشي لكن لأية غاية؟
نحن نتلو رواية الكون للمو ... ت ولكن ماذا ختام الرواية
هكذا قلت للرياح فقالت ... سل ضمير الوجود كيف البداية

وفي آخر هذا القصيد الساحر القوي نراه قد سئم حيرته وضاق صبره من انتظار الصباح الجديد.

ولكن حادثاً طارئاً جعله يسرع بالدخول إلى الطور الثالث من أطوار حياته الشعرية، وذلك هو مصنفه في العام قبل الماضي ببلدة عين الدراهم. فقد كانت الطبيعة الآبدة هناك وما يحوطها من جمال ونور مشرق وهواء عليل من الأسباب التي وجهت شعوره إلى وجهة جديدة. وقد كتب إليّ في العام الفارط واصفاً هذا الأثر الذي تركه في نفسه مصطافه الجميل، فقال رحمه الله:

«إني لا زلت كالماضي أشعر في صميم نفسي بأن الأقدار تحاربني وإنما الفرق بيني وبين نفسي الأولى أنني كنت أتقبل آلام الحياة وأتجسس أشواكها بنفس ضارعة وقلب دامع باكٍ، أما الآن فإنني ألقاها ببسمة الساخر ونظرة الحالم المنتشي بجمال الوجود.. وقد أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت في عين دراهم ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له الأثر الأكبر في تلوين نفسي بهذا اللون الجديد. أما الآن فإنني أشعر بانقلاب عميق قوي في نفسي كل القوة وستدرك هذا التطور في نفسي حينما تطلع على قصائدي الجديدة وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد الصباح الجديد الذي أرسلته إلى أبولو.. وقصيد نشيد الجبار هو صورة صادقة

لنفسي في طورها الحاضر الجديد».

أثر لامارتين في شعره

إنه وإن كان فقيدنا العزيز يعزو هذا الانقلاب إلى عين دراهم حيث كان جمال الطبيعة ذا أثر ظاهر في تلوين نفسه فإني أميل إلى أن أثر لامرتين في عقله الباطن كان لا يقل عن المؤثر الذي يذكره. فقد قرأ الشابي كل ما ترجم للامرتين وخصوصاً كتابه رفائيل الذي كان شاعرنا يعجب به ويعيد قراءته المرة بعد المرة وإني أجد في قصيد الصباح الجديد روح لامرتين تماماً في رفائيل ألا ترون أيها السادة في هذه الأبيات فرقاً بين الشاعرين:

شيـــدتــــه الحيــــاة   بــالــرؤى والخيــال
في فؤادي الرحيب   معبـــد للجمـــال
فتلـــوت الصــــلاة   فــي خشــوع الظــلال
وحــرقــت البخــور   وأضــأت الشمــوع

وتشبيه الطبيعة بالمعبد تشبيه لامرتيني. وفي قصيدة الصلاة للشاعر الفرنسي تشبيه السماء بالمعبد والسحاب بالبخور والنجوم بالشموع التي تضيء ذلك المعبد.

وفي الصباح الجديد يقول الشابي:

مــــن وراء الظــــلام   وهـــديــــر الميــــاه
قــد دعــانــي الصباح   وربيـــــع الحيــــاة
يـــا لـــه مـــن دعـــا   هـــزّ قلبـــي صـــداه
لــم يعــد لــي بقــا   فــوق هــذي البقــاع

ويقول لامرتين في رفائيل (أنا لم أعد قط إنساناً وإنما كنت تسبيحة هائمة وتحية دائمة أبتهل وأصلي وأذكر وأشكر.... وجسمي ينتقل من هاوية إلى لجة غير ذاكر هيولاه، ولا معتقد بالزمان والمكان والموت»، فأنتم ترون من هذه المقارنة المستجلة جداً تأثير لامرتين على الشابي في

توجيه نفسه إلى وجهة التفاؤل والاندماج في جمال الوجود والابتهاج بسحر الحياة الخالد بعد أن كان يقول:

جـف سحـر الحيـاة يـا قلبـي البـا   كـي فهيـا نجـرب المـوت هيـا

أما نشيد الجبار الذي يمثل نفسه في آخر أطوارها فهو قصيد قاله إثر أزمة نفسية لا فائدة الآن من ذكر بواعثها. وقد وصف لي هاته الأزمة في أحد كتبه فقال: «في ليلة من هاته الأزمة النفسية المرهقة نمت معذب النفس مهموم القلب ثم استيقظت نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فلجت بي الآلام وضربت بي في كل سبيل حتى لقد كاد رأسي يتفجر وأحسست أني لا بدّ مشف على الجنون لو دام بي ذلك الحال إلى الصباح وتطورت نفسي في غمـرة الألم فبعد أن كانت معذبة باكية في ظلمة أحزانها تكاد تجن من الأسى. انقلبت ثائرة هايجة واثقة من نفسها ساخرة بالقدر والداء والأعداء وكل آلام الحياة. وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت نشيد الجبار فذابت آلام نفسي وشعرت بالحرية والانطلاق كأنما ألقيت عن منكبي عبئاً ثقيلاً يهد القوى وقد نظمتها في تلك الليلة ولكن نفسي لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها وفي نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئناً وأفقت من الغد فلم أجدني نسيت منها كلمة واحدة فكتبتها ولم أزد عليها إلا نحو بيت أو بيتين وبعض تنقيحات رأيتها لا بدّ منها».

فهذه الحالة تذكرني أيها السادة كلمة جبران «ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب».

وبهاته القصيدة الفذة يختم الشابي حلقة تفكيره ويصل من أقصى أعماق اليأس والتشاؤم إلى أصفى فرحات الحب والبهجة وأسمى درجات القوة والاحتمال الرفيع، وما أشبه هذا الختام الفلسفي بختام «الفريد دي فيني» فقد تقلب دي فيني في أطوار التشاؤم الأقتم الأغبر وعاد فانتهى بقصيدته موت الذئب إلى القول بفكرة الاحتمال التي تليق بالرجل القوي المفكر وتليق بالقلوب الكبيرة التي تعتبر الصبر على المصائب والأرزاء

والمقام على الألم من باب شرف النفس وسمو العنصر. يقول دي فيني في آخر قصيدة موت الذئب مخاطباً إياه:

آه لقد فهمت نظرتك الأخيرة التي سلكت إلى قلبي فهي تقول إذا أمكنك فاعمل لتصل روحك بكرة ما جهدت وفكرت إلى هاته الدرجة العالية من الشهامة الرواقية فالصراخ والعويل والدعاء كل ذلك ضعف فلتعمل بحزم عملك الطويل الشاق ولتتألم مثلي ثم تقبل الموت صامتاً هادئاً.

خاتمة

والآن يرقد الشابي في مسقط رأسه بجانب والده الذي كان موته أعظم رجة أصيب بها قلبه وأشد مصاب نزل به في حياته وما زال بعده يطلب من الموت أن يقدم إليه الكاس ليجرعه بصبره والسهم ليرشقه بنحره حتى أخذه إليه في الشهر الماضي مبكياً على شبابه الناضر ونبوغه النادر:

أي أخي أبا القاسم! لقد قلت:

أمّا إذا خمدت حياتي وانقضى ... عمري وأخرست المنية نائي[1]
وخبا لهيب الكون في قلبي الذي ... قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فأنا السعيد بأنني متحول ... عن عالم الآثام والبغضاء
لأذوب في فجر الحياة السرمدي ... وارتوي من منهل الأضواء

فها أنت سعيد بتحولك عن عالم الآثام والبغضاء ونحن أشقياء بفقدك باكين من بعدك إذ لم تفتح أعيننا عن ندك.

وها أنت تذوب في فجر الجمال السرمدي وأنفسنا تذوب حسرة عليك يا من رفعت راية الأدب العالي لوطنه وأضأت فيها نبراساً تعشو إلى ضوئه العيون وتتغذى بنوره القلوب، وتتطهر بناره الأرواح المكدودة والنفوس المعذبة.

أما تونس - يا أخي - فهي اليوم تبكيك وتبكي شبابك، تونس تلك

(1) أي نايي، والناي كالمزمار.

التي أقام هواها في قلبك هي التي تهدي إلى ذكراك هذا اليوم المشهود. وقد ذكرك أبناؤها لأنك كنت عظيم الثقة في أبنائها، ألم تكتب إليّ هاته الصرخات الحارة؟:

«إن تونس لفي حاجة إلى أبنائها الـذين تتدفق في دمائهم عزمات الفتوة ونخوة الشباب ونشوة الأحلام، إن تونس لفي حاجة إلى أن تتقدم بخطوات ثابتة إلى سبيل النور والزهور. إن تونس لفي حاجة إلى أن ترفع رأسها عالياً حتى تشاهد أنوار السماء وشموسها وحتى تقبل شفتاها أضواء النجوم ولئن كانت تونس فقيرة إلى هذا الضرب من أبنائها، هذا الضرب الذي يحن إلى أن يعيش عيشة كلها حق ولذة وجمال وكلها إحساس وشعور وعواطف، إن كانت تونس فقيرة إلى هذا النوع من أبنائها، ليجب على النفر القليل منهم أن يبذلوا كل ما في جهدهم من عزم وقوة وحمية وشباب حتى يستطيعوا أن يكونوا نشأ حياً مخلصاً شاعراً بواجبه لأمته وللحياة وللوجود وأن يخلقوا في الواقع ذلك الوسط الحي الجميل الذي نتصوره في أحلامنا ثم نلتفت فلا نلمح له أثراً».

يرحمك الله يا أبا القاسم ما أطيب حديثك حياً وميتاً.

نفس الشابي (1)

الكريب محمد البشروش(1)

أيها السادة.

كتبت إلى فقيدنا مرة وقد انعزل عن الحياة الأدبية، أستفسره. هل نضب ينبوعه أم أنه قضى عليه بالنضوب؟ فأجاب:

«أردت برسالتك أن تثير ما فيّ من همة راكدة وعزيمة خامدة ومهجة باردة خابية في أتون الحياة... كأنك تحسب يا صديقي أنني بانقطاعي عن التحدث إلى الناس بأنات قلبي. وأوجاع روحي، وأحلام نفسي، وخطراتها. قد فقدت قلبي الذي لن أعيش بسواه، وفقدت نفسي التي بين جنبي، وفقدت روحي التي تتمايل بين آصال الوجود وأسحاره، كلا، ثم يا صديقي كلا، فإني ما زلت ذلك الرجل الذي يصغي لقلبه إذا تكلم ولروحه إذا ترنم، ولنفسه إذا تأوهت في سكون الظلام. وما زلت ذلك الرجل الذي لا يشغله ضجيج الحياة المادية عن التسمع لصوت الأدب الجميل والتغني بموسيقى هذا الوجود..».

فلقد كان الشابي شاعراً، عاش بالشعر وللشعر، وحياته حياة من لا يحيا لغير قلبه، ولا يعيش بسواه «يترنم في سكون الظلام» ولا يستطيع غير الترنم والإنشاد... وظلام كثيف يصفده لغربة أليمة قاتمة.

الظلام الذي عاش فيه الشابي، يغري بالزهد في الأدب ويمهد لإخماد كل صوت يلفظه الفؤاد... ولكن عزيزنا الراحل، ظل كالطائر يهتف

(1) هو نص الخطاب الذي ألقاه الكاتب في حفل الأربعين لتأبين الشابي سنة 1934.

ويتغنى، يفيض كل يوم بالرائع تتدفق نفسه مع الأيام بالساحر والجديد وذلك لأن قلبه هو حياة بعيدة نائية، رحبة الآفاق بعيدة القرار، قوية جبارة، تغالب العواصف وتصارع الظلام... ولا تنقطع عن الشدو أو تزهد في الغناء... ويغنيه:

عش بالشعور وللشعور فإنما ... دنياك كون عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق وأنها ... لتجف لو شيدت على التفكير

أي نعم، شيدت حياتنا على «العطف العميق» وعاش الشابي يعاطف الكون ويبادله المحبة والفهم. زهد قلبه فيما سوى هذا العطف فمضى على دله... يغني بآلام الحياة وأفراحها، ومضت نفسه «تتمايل بين آصال الوجود وأسحاره» وكم من مساء وكم من صباح كنا في الواحة، وكنا في الصحراء نمشي في دنيا من اللذاذة، دنيا في جو من الصفو والهناء فيميل إليّ ويهمس:

إجعل شعورك في الطبيعة قائداً ... فهو الخبير بتيهها المسحور
وافتح فؤادك للوجود وخله ... لليم للأمواج للديجور
للثلج تنثره الزوابع، للأسى ... للهول للآلام للمقدور
... حتى تعانقه الحياة ويرتوي ... من ثغرها المتأجج.. المسحور
فتعيش في الدنيا بقلب زاخر ... يقظ المشاعر حالم مسحور

ويردف العقل مصدر العناء..

والعقل رغم مشيبه ووقاره ... ما زال في الأيام جد صغير
يمشي فتصرعه الرياح فينثني ... متوجعاً كالطائر المكسور
ويظل يسأل نفسه متقلباً ... متنطعاً في خفة وغرور
عما تحجبه الكواكب خلفها ... من سر هذا العالم المستور
وهو المهشم بالعواصف يا له ... من ساذج متفلسف مغرور

ويمضي الشابي اليوم، ويلج ذلك الباب الذي سنلجه من بعده، ويطبق الموت عينيه عن الكون الذي تغنى به. ولست أعلم الآن إذا كان قد

اطمأن إلى عالم الخلود، وهو العالم الذي طالما ظمىء إليه. فقد كان في الحياة زاهداً، وبما فيها متشائماً، لا تهتز نفسه أو تتحرك بغير النياحة والنديب فإن ما لقيه في حياته من عنت الدهر ومن الجحود جعله يضج بالشكوى وتنفجر نفسه بالتشاؤم والنقمة.

فلقد كان في ريعان شبابه تتفتح نفسه للحب وتنتشي من خمره وتعلق قلبه بفتاة فإذا هو يصاب في هذا الحب ويرزأ:

وفجعتنـــي فيمـــن أحـــب   ومـــن إليـــه أبـــث ســـري
وأعـــده صبحـــي الجميـــل   إذا ادلهـــم علـــيّ دهـــري
وأعــــده وردي ومــــزمـ   اري وكــاســاتـي وخمــري
وأعــده غــابــي ومحــرابــي   وأغنيتــــي وفجــــري

ولم يهادنه القدر أو يرحمه فاستلب منه أباه أي أباه، ليصفده بتكاليف الحياة ويزيده آلاماً:

ورزأتنـــي فـــي عمـــدتـــي   ومشـــورتـــي فـــي كـــل أمـــر
وهـــدمـــت صـــرحـــاً لا ألـــو   ذ بغيـــره وهتكـــت ستـــري

وتغنى الشابي بالألم، وكان يبعث بغنائه للقلوب فإذا القلوب هامدة ويلتفت إلى الله مناجياً:

في جبال الهموم أنبتت أغصاني   فـرقـت بيـن الصخـور بجهـود
وتغشـانـي الضبـاب فـأورقـت   وأزهـرت للعـواصـف وحـدي
وتمايلت في الظلام وعطرت   فضاء الأسى بأنفاسي وردي
وبمجد الحياة والشوق غنيت   فلـم تفهـم الأعـاصير قصـدي

ويبعث قصيدة «النبيء المجهول» فإذا هو يبدع وإذا هي آلام النبيء الذي أحاطت به سدف العماية والظلام نبيء غريب يزأر وحده.

ويصاب بدائه الذي صرعه. فإذا نفسه ملأى سأماً:

هـــذا أنـــا صـــرت فـــي الـــدنيـــا   بعيـــداً عـــن لهـــوهـــا وغنـــاهـــا

في ظلام الفناء أدفن أيامي ولا أستطيع حتى بكاها
قد رقصنا مع الحياة طويلاً وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالي حفاة في شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا وشربنا الدموع حتى ارتوينا

ويشتد الألم ويطغى فإذا هو للموت يظمأ وللرمس يطلب:

هاته علني أخط ضريحي في سكون الدجى وأدفن نفسي
هاته فالظلام حولي كثيف وضباب الأسى منيخ عليا
وكؤوس الغرام أترعها الفجر ولكن تحطمت في يديا

ويتحطم هناء الشابي معها ويظل لقمة سائغة، ويستسلم استسلام المتبرم بالحياة الذي ما صافته الأيام أو هادنه القدر، ويثور بعد هذا الاستسلام فإذا هو عاصفة من النقمة:

وأقول للقدر الذي لا ينثني عن حرب آمالي بكل بلاء
لا يطفىء اللهب المؤجج في دمي موج الأسى وعواصف الأرزاء
فاهدم فؤادي ما استطعت فإنه سيكون مثل الصخرة الصماء
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا وضراعة الأطفال والضعفاء
ويعيش كالجبار يرنو دائماً للفجر.. للفجر الجميل النائي
واملأ طريقي بالمخاوف والدجى وزوابع الأشواك والحصباء
وانشر عليه الرعب وانثر فوقه رجم الردى وصواعق البأساء
سأظل أمشي رغم ذلك عازفاً قيثارتي مترنماً بغنائي

وكذلك هو بهذا العزم يصارع القدر ويغالب المصاب. وهي مصارعة ملأى بالمرارة، ملأى تبرماً ونقمة على الحياة، وهي نقمة معينها ما لاقاه الشابي من شقاء وما تجرعته نفسه وهي دائبة في طريق المخاوف والإدراك.

وقرأت مرة في إحدى الجرائد الفرنسية «.... إن الشابي هو كماريوس سكاليزي تبرماً بالحياة» وأصاب الكاتب التشبيه فبين الشاعرين صلة رحم وقرابة فكلاهما ارتوى في حياته من الدموع.. وكلاهما أكل

التراب إلى الملالة... وكلاهما دخل مستشفى واحداً، وزهقت نفسه في المستشفى ذاهبة إلى ربها.

والداء الذي صحب الشابي في سنواته الأخيرة أقصاه إلى الريف والتبرم الذي بذرته في نفسه الهموم أقصاه عما سوى الغاب، وسواء أكان بتوزر، أم بعين دراهم أو بالمشروحة. فلن تجده إلا وحده بين النخيل جالساً على ضفة النهر مفترشاً برنسه يتسمع أصوات الطيور ورقرقة الماء، شاخصاً بنفسه إلى دنيا من المتعة واللذاذة... أو سائراً، ثمل النفس يقظ المشاعر في الصحراء «صحراء المازني» كما كان يقول، أو بين ظلال الأشجار الشاهقة، الذاهبة في السماء. فلقد كانت متعته أن يكون في الصحراء أو في الغاب يتملى أضواء النهار ويحتسي جمال الكون... ومال إليّ ذات مساء وقال: لقد أنضى الغاب عن قلبي الشقاء. ونشر «أبولو» بعد مدة قصيدة «الصباح الجديد»:

اسكتي يا جراح واسكني يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصباح من وراء القرون

وهو صباح توشي حواشيه متعة روحية ويبطنه هناء مصدره بعيد... فإذا أصوات النقمة تندر، وإذا الشكوى والتشاؤم من نفس الشابي يغيض، وإذا التشاؤم جنون. ولعل الداء الذي أقصى الشابي عما سوى الغاب هو الذي أقصاه أيضاً عن الهموم...

وكان شهر رمضان من السنة المنصرمة، وكانت علته قد استيقظت وألزمته فراشه شهوراً فقال إليّ مرة وهو ينظر إلى البعيد «أو كذلك يشاء القدر أن يحرمني ـ يا صديقي ـ حتى من حنو الطبيعة وعطفها «وكذلك الداء الذي أقصاه عن الهم حيناً هو الذي أعاد إليه الهموم، وهو الذي صرعه، وهو الذي ترك عيوننا بعده هطالة بالدموع... فالشابي شاعر صادق، وروح النقمة شائعة في أشعاره أو فقل هي عمادها، والتشاؤم طالع حياته.

والتشاؤم خاتمتها. وهو تشاؤم مصدره حياة الشابي، ومعينه ما لاقاه الصديق من عنت الأقدار وصلابة الدهر. فتشاؤم الشابي هو تشاؤم (سكاليزي) أملته الصلابة وأملته الأقدار وهو تشاؤم يخالف في مصدره تشاؤم المعري والخيام ودي فيني وبودلير، وتطالع أشعار الشابي فإذا هي منار إعجاب، وإذا هي خالدة ستصارع الفناء، وتظل تتردد على أفواهنا وأفواه الأجيال بعدنا، لأنها قوية صادقة، تأتي من معين بعيد، ونطالعها فإذا هي تبين عظم المصاب وفداحة الخطب الذي أصاب أدبنا وأصابنا، فلقد كان الشابي قلباً غريداً يتدفق أناشيد وكان لحناً داوياً يجاوز البحار والأقطار، وتسمعته وستتسمعه الآذان. فخطبنا جلل - أيها السادة - لا تستطيع قلوبنا تلقاءه إلا الدعاء له بالرحمة والغفران[1].

(1) (العالم الأدبي) ص (21) ع (2) س (4) - 24 سبتمبر 1934.

نفس الشابي (2)

الكريب محمد البشروش

كنت أبنت في الخطاب الذي ألقيته في أربعينية الشابي[1] أن الشابي كان بالحياة متبرماً وفيها متشائماً رغم ما في نفسه من «إيمان بالحياة» وأبنت أيضاً أن مصدر هذا التشاؤم هو ما لاقاه الصديق من صلابة الأقدار التي أكالت له المصائب كيلاً وأرسلت آلامها لقلبه المرهق الحساس تتلاحق وتترى.

وقلت إن تبرم الشابي هو شديد الشبه بتبرم سكاليزي البائس. والتبرم بالدنيا والنقمة على الحياة هي ظاهرة تطالعنا في آثار كثير من شعراء الشرق والغرب، تطالعنا عند المعري والخيام وتطالعنا عند (دي فيني) و (بودلير) فلقد عدم هؤلاء الشعراء من الحياة كل نعيم ولذة وتذوقوا المرارة والعناء فإذا هم عاصفة تلعن الدنيا وإذا نقمتهم على الحياة واحدة لأنهم عدموا الحظ في الحياة يستعرضون صفحات الوجود فلا يرتد بصرهم إلا على الكلوم والجراح ويستمعون إلى الدنيا فلا يسمعون غير النياحة والنديب فيوقنون أن السعادة حلم.. ناء... أبعده الإنسان فيتبرمون بالإنسان والمجتمع لأن المجتمع غاشم الأوضاع والقوانين، وبالحياة لأنها لا تتسع لغير هاته الأوضاع والقوانين.

وتبرم الخيام والمعري و (دي فيني) و (بودلير) لا لأنه أرغمهم الاحتياج أو دفعتهم الفاقة إلى الشكوى والتبرم. فقد كان لهم في نفوس عصرهم من المكانة والإعجاب، وتوفرت لديهم الأسباب التي كانت

(1) انظر النص السابق ـ نفس الشابي ـ الحلقة الأولى.

تجعلهم يقضون عمرهم ويعيشون في هناء موفور ولكنهم فكروا وأطالوا التفكير بنفوسهم فنقموا....

فنقمتهم مصدرها التفكير ومعينها نظرة عميقة في سنن الكون وأوضاع المجتمع.

وكان سكاليزي متشائماً، لا لأنه رزق تلك النظرة ووهب ذلك التفكير البعيد ولكن لأنه كان كل يوم يتلقى صفعة الدهر وكان كل يوم (يعيش) للمتربة والداء، فيتألم ويئن ويضج بالتبرم والنقمة.

فمعين شقائه هو معين تبرمه، وتبرمه هو معين تبرم المعري ورفقائه. وتطالعهم «مآسي الحياة» فنجدها مآسي تتلاحق وتتابع، ومشاهد بائسة من هذا الوجود، فإذا القلب منك ينفطر وإذا أنت مع الشاعر تبتهل، «يا دهر رفقاً فإن القلوب أمست شظايا» ويتألم الشابي من الحياة ويبكيها:

«على الحياة أنا أبكي لشقوتها»

فراحة الدنيا ملأى بالدموع والإنسان يحيا للألم والعناء لا يعرف في قلبه النور أو يرقص حواليه الضياء. ويزيد في ألم الشابي استكانة الحق وزئير الاستبداد في شعبه، وإن سدف العماية مكينة عتيدة في بلاده:

ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توجت رأسي

وما أقساه من تاج يتكرم الشعب به على الشابي فيشتد ألمه ويطغى ويسد من نفسه كل فج فإذا هو لليأس وإذا هو للغاب يمضي:

ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي بيأس
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّي في صميم الغابات أدفن بؤسي

فالإنسان وشقاؤه، والشعب الغبي، كانا من أسباب شقاء الشابي وأسباب عذابه، ويتبين أن بلاء الحياة باقٍ وأن الإنسان يأبى إلا أن يكون الذي كان فإذا هو للبؤس واليأس وهو يأس لحمته الألم وصميمه التبرم والنقمة.

ويظَل الشابي يتألم ويظل ينقم ويتبرم، واستطاع أن ينيم آلامه في «صميم الغابات» وما استطاع دفنها إلى غير بعث، وظل للتبرم وظلت نفسه داوية «إلى طغاة العالم».

فالشابي كان متبرماً بالحياة، شقياً فيها كما كان سكاليزي، وكان متبرماً بالدنيا شقياً فيها كما كان المعري وأصحابه، ومصدر شقائه صلابة دهره وأيامه.

ومصدر شقائه أيضاً البؤس والجمود الذي حوله فقلب الشابي كان للألم وكان الألم يتهاطل عليه من كل ناحية فإذا هو يزأر وإذا هو قوي التبرم عتيد النقمة.

ولسنا نعرف شاعراً يتفجر الألم إلى قلبه من كل ناحية وصوب، يشقى بأيامه وبأيام الآخرين غير شاعرنا الذي نبكيه وهذا هو سبب ما كان في نقمته من عتو وجبروت[1].

---

(1) (العالم الأدبي) ص (6) عدد (4) سنة (4) - غرة جوان 1935.

أبو القاسم الشاعر

للأستاذ محمد الصادق مازيغ

للشاعر صورة باقية خالدة وملامح ثابتة لا تبلى وهي التي يكسبها إياه الموت فترتسم عند ذلك على صفحات الخلود ويغدو صاحبها وقد اكتسى من جلالة الأبدية ما لا تمحوه يد الدهر ولا تعبث به طوارق الحدثان.

تلك هي الصورة الخالدة التي يعيش بها الشاعر حياته الحقة على مر الدهور وتعاقب الأجيال وتلك هي التي يتقمص فيها لكل من ناجتهم أناشيده الساحرة وهمست في آذانهم نغماته العذبة.

وهكذا أصبح الموت أحسن مكيف لشخصية الشاعر النهائية تلك التي لا قيد لها بزمان ولا مكان.

ولا نظننا نبالغ إذا قلنا إن ذلك الخلود هو الذي كان ينشده الشاعر ويبتغيه طيلة حياته المضطربة المملوءة كفاحاً مع مظاهر المادة المتناقضة المتلاشية وطموحاً إلى عالم اللانهاية حيث لا قيد ولا فتور.

وخليق بمثل الشابي أن يطمح إلى هذا النوع البديع من الخلود فلقد تقمصت فيه أجل صفات الشاعرية الخالصة المحضة، تلك التي لا دخل فيها لما يسمونه بالنظم والصناعة ولا حظ لما يدعوه الكثير شعراً وليس هو بالشعر.

أجل كان أبو القاسم شاعراً، كان فناناً مبدعاً وساحراً فتاناً إذ أتيح له أن يخلق من كيمياء ألفاظه ومزيج نغماته عالماً كاملاً برمته، عالماً له صبغته البديعة الخاصة، ولونه العجيب الممتاز وشكله المنفرد به دون

غيره ـ وذلك هو الشعر بعينه فهو خلق وتصوير وتكوين وإبداع وإذا قلنا الإبداع فلا نعني بذلك في الشعر مجرد توليد المعاني واختراعها وإنما هو شيء يفوق المعنى بأضعاف، هو سر غامض مبهم أشبه شيء بمفعول الطلاسم والرقى هو رنة خاصة وتموج شاسع المدى فربما انبعث من البيت الواحد وربما انبعث من اللفظتين والثلاث فأثار من كامن العواطف ما أثار وفتح ما فتح للخيال من شاسع الميادين. واستعرض أمامه من رائع الصور ما لا نسبة بينه وبين لفظ البيت المحدود ودائرة الوزن الضيقة.

تلك هي الروح الشعرية وإن شئت قلت السحرية هي التي نجدها تسري في كامل قصائد الشابي. ولربما كان الشابي ـ على رغم ثقافته العربية البحتة ـ أبدع من مثل في الشرق تلك المدرسة الأروبية المدعوة «بالمدرسة الرمزية» وقد جعلت المكانة الأولى في الشعر لمفعول رنة الألفاظ وامتزاجها ببعضها امتزاجاً موسيقياً غامضاً هو منبع كل ما في الشعر من جمال وتأثير عميق.

تلك هي فيما أرى ميزة شعر الشابي الأولى التي تأخذ بمجامع القلوب الميالة إلى هذا النوع من الفن الخالص البحت ولذلك كان جل قصائده سلسلة متتابعة الحلقات من بديع النغمات الشاسعة المدى وشيق النبرات البعيدة المرمى.

قلنا إن شعر الشابي صورة جذابة لعالم الشاعر وإن شئت قلت لعالم الشعر أو للعالم المنعكس في مرآة الشاعر السحرية كما هو منبجس ألحاناً شجية من خلال قيثارته الخافقة الأوتار ولذلك امتزج لديه ذلك السيل المنهمر من النغمات بسيل آخر منهمر من الصور والأخيلة صور متتابعة متلاحقة متتالية متواثبة حتى ليخيل للناظر وكأنه يشاهد حلماً بديعاً تزدحم فيه المرئيات وتصطك فيه الأشباح وتتناجى فيه الأرواح وتتلاحق فيه المناظر تلاحقها على ستار فضي غريب.

ولربما كان أجلى مظهر لخيال الشابي هو شدة التحام المحسوسات

عنده ببعضها حتى لتجد الصورة المرئية تندمج مع اللحن المسموع وتنضم إليه انضمام النظير إلى نظيره والمثيل إلى مثيله على بعد المسافة بينهما وإن وحد بينهما خيال الشعر المقتدر أو بالحري ماله من غامض إيمان بوحدة مناظر الكون على ما اتصفت به في الظاهر من تباين واختلاف وهو مذهب في الشعر يكاد يلتحق بوحدة الوجود في الفلسفة.

سيل منهمر من الصور والرؤى لا تفتر في خلاله قوة الإبداع والابتكار ولا تنضب منه مادة الخلق والتكوين العجيب.

ذلك هو شعر الشابي - أيها السادة - شعر تجلت فيه العبقرية بأتم معانيها. شعر تكاد تطلع من خلاله على أسرار الكون العميقة ألغاز الحياة الغامضة.

ومن هنا كان لشعر أبي القاسم مكانة فلسفية وإن شئت قلت تصوفية - ليست دون مكانته الغنائية البحتة.

لم يكن الشابي ذلك الخطيب الاجتماعي أو الواعظ الأخلاقي الذي يتخذ من الوزن منصة سهلة يخوض فوقها مختلف المشاكل من سياسة واجتماع وتاريخ وأخلاق... كلا... وإنما كانت غاية همه الشعر المحض والفن البحت الخالص - في وسط يكاد يكون قفراً من كل شاعرية جديرة بهذا الاسم، وإنما هي العبقرية الحقة حطمت قيودالوسط الكثيفة القاهرة وتغلبت على كابوس التقاليد الرثة البالية.

ولذلك فأبدع قصائد أبي القاسم تحوم كلها حول موضوع يكاد يكون واحداً على رغم تنوعه ظاهراً، وهذا الموضوع هو الشاعر وحياته الشعرية.. الشاعر وآلامه وأتراحه.. الشاعر وتلك الأحلام الفاتنة والألوان الساحرة التي يتخذ منها غلالة يتسلى بها عن سماجة عيشه القاحل المغبر، ورقية يتعوذ بها من قساوة حظه ونزارة نصيبه من الحياة.

فالشاعر هو ذلك المنبوذ من أحضان الحياة القاسية التي لم تسعفه بوافر القسط من مسراتها بل زادت في شقائه وآلامه بأن وهبته قلباً حساساً

وشعوراً نابضاً ونفساً تواقة إلى الجمال والشاعر هو ذلك الشريد الذي لم يقدره ذووه حق تقديره ولم يدركوا من معنى لساحر نغماته وبديع ألحانه فانعزل الشاعر عنهم وركن إلى الوحدة والانزواء ولم يعد له غير العزلة القاسية من نصيب.

ومع ذلك فهو يتخذ من عميق آلامه وسحيق شقاوته مادة. خصبة ينحت منها أبدع نغماته ومنبعاً لا ينضب يستقي منه رحيقاً سائغاً شرابه ومعدناً خالصاً يصوغ منه من الحلي ما يدعه قلادة في أعناق الأجيال.

أجاد شاعرنا تصوير ذلك الشعور الرهيب المؤلم. شعور الشاعر بوحدته وانعزاله وأيضاً بتفوقه وجلاله وهو شعور مزدوج جمع بين مرارة الألم وتيه الكبرياء فانضم بذلك إلى زمرة من أجلة الشعراء نخص بالذكر منهم امرأ القيس:

كذلك حظي ما أصاحب واحداً   من الناس إلا خانني وتغيرا

ورهين المحبسين ـ:

أولو الفضل في أوطانهم غرباء   تشذ وتنأى عنهم القرباء

ونخص منهم بالذكر بين الفرنجة ليوباردي الإيطالي وفيني وبودلير الفرنسيين.

لم يبق للشاعر في وحدته الرهيبة غير استيحاء الكون والهيام بمظاهره أو بالحري بما يصوره له فنه وخياله المبدع من تلك المظاهر فهو كما قلنا في حلم مستمر متتابع وسكر مسترسل متواتر وتبتل وخشوع دائم.

بيد أن الحياة لم ترفع عنه كابوسها ولم تطلقه بعد من قيودها القاسية الموجعة ولذلك فكثيراً ما تخللت ذلك الحلم اللذيذ الذهبي إفاقة مؤلمة عنيفة وشعور مر بمضض الحياة وأتراحها وسماجتها وفراغها وآلامها وأشواكها، وإحساس قاس بقصور الشاعر عن إدراكها ما يبتغيه، وميل عميق إلى الفناء والاضمحلال:

قد رقصنا مع الحياة طويلاً ... وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالي حفاة ... في شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا ... وشربنا الدموع حتى ارتوينا
وبذرنا اللذات والشوق والآلام ... والمبهجات أنّى مشينا
ثم ماذا؟ هذا أنا صرت في الدنيا ... بعيداً عن لهوها وغناها
في ظلام الفناء أدفن أيامي ... ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوي بصمت ... محزن مضجر على قدميا
جف سحر الحياة يا قلبي ... الباكي فهيا نجرب الموت هيا

ولعمري إن قطعة كهذه في بديع كمالها الفني ودقة تصويرها للعواطف وعجيب مفعولها الموسيقي ليحق للعربية أن تفتخر بها وتهز رأسها على اللغات وهي كافية وحدها لتخليد شاعرنا الفقيد. كنت قبل معرفة أبي القاسم أغبط الفرنجة على أمثال فرلين وبودلير فها شاعرنا التونسي الشاب وخريج كليتنا الزيتونية المباركة قد أتى في هذا النوع البديع من الشعر بما عز وراق وأضحى يعد في طليعة أولئك الفحول من أرباب الفن الخالص الخالد.

أيها السادة:

تلك هي النزعات وإن شئت قلت النبرات التي تواترت في شعر الشابي. طوراً يحلق في فضاء اللانهاية بجناحين من الضياء وطوراً يهوي إلى حضيض مقفر من البؤس والشقاء السحيق وكأنه أدرك ما أدرك من خداع تلك الأماني وقلة جدواها وآثر التخلص من إكليل شاعريته الثقيل وعبء عبقريته المضجر.

على أن النزعة الروحانية والتقديسية هي التي سادت في شعره وأكسبته تلك الصبغة الأثيرية واللون الشعاعي الخالص وتلك النقاوة الملاكية الطاهرة فجاءت أخيلته وكأنها تجردت عن شائبة المادة وتقمصت في ثياب من نور قدسي لا غبار عليه:

يـا ابنـة النـور إننـي أنـا وحـدي مـن رأى فيـك روعـة المعبـود
فدعيني أعيش في ظلك العذب وفـي قـرب حسنـك المشهـود
عيشـة للجمـال والفـن والإلـ ـهام والطهر والسنى والسجود
عيشـة النـاسك البتـول ينـاجي الرب في نشوة الذهول الشديد
وامنحينـي السـلام والفـرح الرو حـي يـا ضـوء فجـري المنشـود
وارحميني فقـد تهـدمـت فـي كـو ن مـن اليـأس والظـلام مشيـد
أنقـذينـي مـن الأسـى فلقـد أمـ ـسيت لا أستطيع حمل وجودي
في شعاب الزمان والموت أمشي تحـت عـبء الحيـاة جـم القيـود
وأمـاشـي الـورى ونفسـي كـالقبـ ـر وقلبـي كـالعـالـم المهـدود
وإذا مـا استخفنـي عبـث النـا س تبسمـت فـي أسـى وجمـود
بسمـة مـرة كـأنـي استلـ ـل من الشـوك ذابـلات الـورود

وأظن الشاعر توصل في آخر عهده إلى التوفيق بين طموح نفسه إلى الكمال والخلود والجمال المطلق وما في الكون من مظاهر الفناء والتلاشي المحزن فرأى أن الانتصار والفوز نصيب الحياة الطامحة وأن الجمال خالد لا يفنى ومورد لا ينضب معينه على رغم ما يشاهده الحس من التدهور والزوال:

وقالت لي الأرض لما تساءلت يـا أم هـل تكـرهيـن البشـر
أبـارك فـي النـاس أهـل الطمـوح ومـن يستلـذ ركـوب الخطـر
وألعـن مـن لا يمـاشـي الـزمـان ويقنـع بـالعيـش عيش الحجـر
هـو الكـون حـي يحـب الحيـاة ويحتقـر الميـت المنـدثـر
فـلا الأفـق يحضـن ميـت الطيـور ولا النحـل يلثـم ميـت الـزهـر
وفـي ليلـة مـن ليـالـي الخريـف مثقلـة بـالأسـى والضجـر
سكـرت بهـا مـن ضيـاء النجـوم وغنيـت للنهـر حتـى سكـر
سألت الدجى هل تعيد الحياة لمـن أذبلتـه ربيـع العمـر
فلـم يتكلـم فـؤاد الظـلام ولـم تتـرنـم عـذارى السحـر

وقــال لــي الغــاب فــي رقــة — محببــة مثــل خفــق الــوتــر
يجــيء الشتــاء شتــاء الضبــاب — شتــاء الثلــوج شتــاء المطــر
فينطفــيء السحــر سحـر الغصــون — وسحــر الثمــار وسحــر الــزهــر
وسحــر السمــاء القــوي البــديــع — وسحــر المــروج الشهــي العطــر
وتهــوي الغصــون وأوراقهــا — وأنهــار عهــد جميــل نضــر
ويلهــو بهــا الــريــح فــي كــل وادٍ — ويــدفنهــا السيــل أنّــى عقــر
ويفنــى الجميــع كحلــم بــديــع — تــألــق فــي مهجــة وانــدثــر
وتبقــى البــذور التــي حملــت — ذخيــرة عمــر جميــل غبــر
وذكــرى فصــول ورؤيــا غيــوم — وأشبــاح دنيــا تــلاشــت زمــر
معــانقــة وهــي تحــت الثلــوج — وتحــت الضبــاب وتحــت المــدر
لطيــف الحيــاة الــذي لا يمــل — وقلــب الــربيــع الجميــل العطــر
وحــالمــة بــأغــانــي الطيــور — وعطــر الــزهــور وطعــم الثمــر
ومــا هــو إلا كخفــق الجنــا — ح حتــى نمــا شــوقهــا وانتصــر
فصــدعــت الأرض عــن صــدرهــا — وأبصــرت النــور عــذب الصــور
وجــاء الــربيــع بــأطيــافــه — وأحــلامــه وصبــاه النضِــر
وقبلهــا قبلــة فــي الشفــاه — تعيــد الشبــاب إلــى مــا غبــر
وقــال لهــا قــد منحــت الحيــاة — وخلــدت مــن نسلــك المــدخــر
ومــن نــاجــت النــور أحــلامــه — يبــاركــه النــور أنّــى ظهــر
إليــك الفضــاء إليــك الضيــاء — إليــك الثرى الحــالــم المــزدهــر
فميــدي كمــا شئــت فــوق المــروج — بحلــو الثمــار وغــض الــزهــر
ونــاجــي النسيــم ونــاجــي الغيــوم — ونــاجــي النجــوم ونــاجــي القمــر
إذا طمحــت للحيــاة النفــوس — فــلا بــدّ أن يستجيــب القــدر

(إن هذه القصيدة البديعة التي احتوت فلسفة عميقة برمتها جديرة بأن تعتبر وصية الشابي وآخر موقف من مواقف عبقريته الخالدة بل وأجلها وأبدعها أيضاً في تلك الصورة الرمزية الفاتنة).

أيها السادة:

إن هذه العجالة لم تأت في حق الشابي إلا بالقليل النزر ولم تستخرج من شعره إلا ما يجلي بصورة واضحة جلية لعين عبدكم الذي يفتخر بأن يحشر نفسه ضمن المعجبين بتلك العبقرية النادرة.

فشعر الشابي كما قدمناه طافح في أقل أبياته بشتى المعاني العميقة مملوء بضروب الإيجاد الفني البديع مثير من وراء اللفظ النزر المحدود لصدى لا حد لمراه ورنة لا مثيل لوقعها.

وربما قصرت ألفاظنا الضئيلة عن تحديد ذلك الجمال الفني وحصره في حدود ضيقة ربما كان الشاعر أبغض الناس لإدراج عبقريته الشاسعة ضمنها وحسبنا من أشعار الشابي وأمثاله أن نهتز لبديع رنتها ونطرب لحلاوة إيقاعها العذب ونبكي لما تثيره في نفوسنا من مرارة وآلام ونشدو بها في أوقات نعيمنا وبؤسنا ونبعث من مرقدها أخيلة الشاعر (كما انبعثت من مرقدها تلك البذور الرمزية) فنطرب لجمالها ونهيم في أوديتها.

تلك هي حياة الشاعر الحقة وذلك هو الصرح الممرد الذي تشيده لذكراه يد الأجيال المتعاقبة وذلك هو ما كان يصبو إليه من البقاء والخلود.

أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه
في حياته وبعد موته

الأستاذ البشير الفورتي

هو شاب نشأ في محبة الشعر. وهام في بيدائه وتاه في فيافيه وصحرائه ومجاهله، وفرع جباله وغامر في سهوله وخاض غمار بحوره. أرسل رائد الخيال لجواب ممالكه والتعرف على ملوكته، فانتهى به المسير لما وراء البحار. فتعرف على سلطان الشعر الخيالي جبران خليل جبران ذلك الجبار التفكير واقنيم فكرة التحرير، فأعجب بذلك النور الساطع الذي أصله من الشرق. وهل تبزغ الشمس إلا من الشرق. افتتن بنفثاته واهتز لخاطراته، سحر بسحر بيانه، وتأثر بتفكيره وتبيانه. فأخذ ينسج على منواله في بعض آياته الخالدة. ولكن الوسط والوسائل المادية التي هيّأت وساعدت جبران على التجبر على المعاني الراقية والأفكار الثاقبة حتى أخذها من نواصيها منقادة ذليلة طائعة، وحشرها في كتبه التي أعجبت الناطقين بالانقليزية والعربية، ورفع بها رأس الشرقي في الغرب حتى أصبح الدهر منشداً تلك الآيات الخالدات. لم يتسن لشاعرنا ما تسنى لهزار لبنان في بلاد الأميركان. فمات حسيراً من هجسات قلبه ونبضات روحه، وتأجج ضميره التي لم يجد ميداناً ينفث فيه من روحه ويبث فيه خلجات فؤاده وحركات فكره.

كـان رحمه الله بشوشـاً كريماً وديعاً متأنقاً يحب أصدقاءه وفياً مخلصـاً فـي المحبة لبلاده ومواطنيه. طروباً لمجالس الأدب وحنوناً للاجتماع بالأدباء يحب الفكاهة الأدبية ويتعشق ذكر الأدبـاء. كان دائماً يسألني عن

جمعية البؤساء المصرية وعن إمام العبد والدباغ ويطرب أيما طرب لسماع نوادرهم وفكاهتهم ويسأل عن سليم سركيس ومداعباته، ويقول لي إنك اجتمعت بهؤلاء وتلك الأيام لا تحسب من عمرك، فنقول أو بيدك الحساب؟ فيقول إنني سأذهب قريباً وأطلب لك الحساب فلا تخف ولا تحزن(؟!).

ذكرت له مرة علاقتي بجبران أيام بدأت أحرر بجريدة الهدى الأميركية وذلك منذ ربع قرن مضى. أيام كان الشابي في المهد والآن وهما في اللحد. فكان يتلهف لذكر أخباره وكله آذان لسماع الكلام على جبران، وذكرت له أنه كان سأل عن الشعر والشعراءِ بتونس ولم يجد من يجيب عن سؤاله إلا حسن حسني عبد الوهاب في جريدة التقدم ذكر له شعراء القديم وهو يطلب الجديد والتجديد. وأبو القاسم من أسماء أهل الجنة فهل هو مع الخليل الآن يتناجيان ويتحادثان ويتسامران في الجنان؟.

وليتنا نسمع ألحانهما الفردوسية. ووصفهما لنا جنة النعيم وما فيها من جنان خلد وخمر وفاكهة ورمان وحور عين وولدان وأودية عسلية وجبال زبرجدية، وقصور ذهبية، وبحور زئبقية. على أي غصن تشدو روحاكما من شجرة الدر الذي عليه الياقوت ويتفرع منه المرجان. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

للمرحوم الشابي عينان مختلفتان. كانتا تنظران لهذا الوجود نظر الناقم الهازىء الساخر من الحياة. وكنت أداعبه بذكر مذهب العراة الذي ظهر ولم يكن المعري موجوداً لنأخذ رأيه فيه. فيبتسم ويقول: سأذهب إليه وآخذ (رأيه). فها أنت ذهبت إليه إن وجدته، وإلا فابحث عنه في جهنم «دانتي» أو في أعلى عليين أين الرضيّ والمتنبي وابن المعتز وابن الرومي وأبو نواس وإمام العبد. وخذ لنا رأيه أو رأي الجميع في العري والمتعرين واذكر لهم عرية الأدباء وفقر الشعراء وخصامهم مع الأزمة الزرقاء. قل لهم إنهم مجبورون بحكم الواقع أن ينخرطوا في سلك العراة ويؤيدوا هذا المذهب

وهو الذي يلائم الحال. وإن الأدب والشعر لا يأتي الآن لهم ولو بالشعير. وإن الحمير تحمرن وأمير الذئاب استأسد وكبير القطاط تنمر فلا أدب يفيد ولا أديب، ولا تونس ولا مصر دار الأديب. فاهنؤوا بداركم الباقية وإننا على أثركم للاحقون. ولا أسف لمفارقة دار الأحزان والأشجان فكم أرغيت وأزبدت ثم ذهبت بحسرتك. فلا أنت راجع ولا نحن باقون فرحمة لك آخراً ورحمة لنا سلفاً. وقد اجتمع هؤلاء في هذا اليوم ليقدموا لك عرجون التمر الذي اشتهيت في حياتك أن تأخذ منه بسرة فلم تنلها. وقد عرفوا فضلك بعد ذهابك. وكنت بينهم غريباً وهذه سنة الشرقيين، فسلام عليك وعليهم أجمعين[1].

---

(1) الكلمة التي ألقاها الكاتب في حفل الأربعين. ونشرت في العالم الأدبي: العدد الخاص ص 53 ـ 54 (34/12/24).

كلمة الدكتور زكي مبارك

في جريدة البلاغ

أبو القاسم الشابي ـ رأيه في القديم والجديد ـ صلوات في هيكل الحب ـ الأشواق التائهة ـ الأبد الصغير ـ عزى الله أهل تونس في شاعرهم المجيد.

مصرع الشاعر:

لم أستطع الفرار من صورة الساعة الرهيبة التي مات فيها شوقي. شوقي الشاعر. فإن موت الشاعر من الصور المزعجة لمن يتأمل كيف يفتن الشعراء بالحياة وكيف يأسون لفراق الحياة.

ولست أدري كيف تمثل شوقي معاني الأدب والذوق حين قال وهو يجود بروحه «سلم لي على محمد» وهي عبارة حزينة لا ينطق بها الشاعر المحتضر إلا مصبوغة بالنجيع.

وبالأمس انتفضت روحي لخبر مزعج... هو وفاة أبي القاسم الشابي وكنت أنتظر أن يكون له مكان مرموق في نهضة الشعر الحديث ولكن الدنيا أضن من أن تقدم إلى الناس ما يشتهون.

والشابي هذا من شعراء تونس، ولأهل تونس ماض مشرق في خدمة الأدب والبيان فمنهم ابن رشيق صاحب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ومنهم الحصري صاحب (زهر الآداب).

وهم فوق هذا من أساطين النهضة الحديثة وفيهم من الشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين أفراد لا يمكن تناسيهم عند تاريخ الأدب الحديث.

وقد عرفنا منهم رجالاً ذكرتنا شهامتهم بأسلافهم الأمجاد الذين استعمروا الأندلس وصاولوا أوروبا أزماناً طوالاً وكانت لهم في العلم والسياسة مواقف يؤمن بشرفها الأعداء.

القديم والجديد:

كان الشابي من المجددين. ولكنه لم يكن يعادي القديم وله في ذلك كلمة طيبة يحسن أن نذكر بها القراء فلننظر كيف يقول:

«إذا كنت أدعو إلى التجديد الأدبي وأعمل له فإن ذلك لا يدفعني إلى الهزء والسخرية بآداب الأجداد بل إنني لأومن كل الإيمان بما فيها من جمال فني وسحر قوي وأعتقد أنها قد أتت في عصورها الحية لأجدادنا كل ما طمحت إليه أشواقهم من غذاء معنوي دسم. ولكنني أومن إلى جانب ذلك أن في الحياة آفاقاً مجهولة ساحرة غير ما في الأدب العربي من آفاق.

وأن هذا الأدب إذا كان قدسه خلة آبائنا الروحية فإنه لعاجز كل العجز عن أن يشبع ما في أرواحنا من جوع وعطش وطموح، وأنه إذا كان لزاماً علينا أن نعجب بهذا الأدب ونفخر به كحلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية وكمنجم ذهبي نرجع إليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحر الجميل فإن ذلك الإعجاب لا ينبغي أن ينقلب في نفوسنا إلى تقديس فعبادة فجمود فإطباق لأبصارنا عن كل ما في السماء من أشعة ونجوم».

تلك نظرة الشابي إلى القديم والجديد وأدق ما فيها عجز الأدب القديم عن إشباع ما في أرواحنا من جوع وعطش وطموح وأن الإعجاب به لا ينبغي أن ينقلب إلى تقديس ينبني عليه إغماض أبصارنا عما في السماء من أشعة ونجوم.

و (السماء) التي تحدث عنها الشابي هي فيما نرجح كل ما يجد من ألوان الفتون في هذا الوجود.

شعر الشابي:

لست أعرف كيف كان أهل تونس ينظرون إلى الشابي وأغلب الظن أنه لم يعرف حق المعرفة في تلك البلاد وإن كان مراسل البلاغ في تونس قال حين نعاه «وفاة شاعر تونس» أما أهل مصر فلم يعرفه منهم إلا قراء مجلة أبولو وعنها عرفت شعره البليغ.

وأبرع ما قرأت له قصيدة «الصلوات في هيكل الحب» وأبدأ فأعرضها على القراء وأرجوهم أن يقرأوها ثلاث مرات قبل أن يحكموا لها أو عليها فالقصائد كالرجال لا يعرف كرامهم حق المعرفة إلا بعد الخبرة.. وإليكم يا قرائي ما يخاطب به الشاعر تلك الدمية التي عرفته كيف يكون الجوى وكيف يكون الحنين:

عذبة أنت: كالطفولة كالأحلام	كاللحن كالصباح الجديد[1]
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء	كالورد كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال	وشباب منعّم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس	في مهجة الشقي السعيد
يا لها رقة يكاد يرف الورد	منها في الصخرة الجلمود
أي شيء تراك؟ هل أنت (فينيس)	تهادت بين الورى من جديد؟
لتعيد الشباب والفرح المعسول	للعالم التعيس العميد
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر	ض ليحيي روح السلام العهيد
أنت.. ما أنت؟ أنت رسم جميل	عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق	وجمال مقدس معبود

(1) أبيات هذه القصيدة أكثر مدورها يقع في الشطرين فليلاحظ ذلك القارىء ولا يطالب بعد بمراعاة التدوير في الرسم فإنه يثقل في بعض الأحيان ولا سيما حين ينشر الشعر على عمودين.

أنت، ما أنت؟ أنت فجر من السحر ... تجلـــى لقلبـــي المعمـــود
فـأراه الحيـاة فـي مـونـق الحسـن ... وحلـى لـه خفـايـا الخلـود
أنت روح الربيع تختال في الدنيا ... فتهـــز رائعـــات الـــورود
وتهب الحياة سكرى من العطر ... ويـدوي الـوجـود بـالتغـريـد
كلمـا أبصـرتـك عينـاي تمشيـن ... بخطـو مـوقـع كـالنشيـد
خفق القلب للحياة ورف الزهر ... فـي حقـل عمـري المجـرود
وانتشـت روحـي الكئيبة بـالحب ... وغنـت كـالبلبـل الفـريـد
أنـت تحييـن فـي فـؤادي مـا قـد ... مـات فـي أمسي السعيـد الفقيـد
وتشيـديـن فـي خـرائـب روحـي ... ما تلاشى في عهدي المجدود
من طموح إلى الجمال إلى الفن ... إلـى ذلـك الفضـاء البعيـد
وتبثيـن رقـة الشـوق والأحـلام ... والشجـو والهـوى فـي نشيـدي
بعـد أن عـانقـت كـآبـة أيـامـي ... فـؤادي وألجمـت تغـريـدي
أنـت أنشـودة الأنـاشيـد غنـا ... ك إلاه الغنـاء رب القصيـد
فيك شب الشباب وشحه السحر ... وشـدو الهـوى وعطـر الـورود
وتـراءى الجمـال يـرقـص رقصـاً ... قـدسيـاً على أغـاني الـوجـود
وتهـادت فـي أفـق روحـك أوزا ... ن الأغـانـي ورقـة التغـريـد
فتمـايلـت فـي الحيـاة كلحـن ... عبقـري الخيـال حلـو النشيـد
خطـوات سكـرانـة بـالأنـاشيـد ... وصـوت كـرجـع نـاي بعيـد
وقـوام يكـاد ينطـق بـالألحـان ... فـي كـل وقفـة وقعـود
كـل شـيء مـوقـع فيـك حتـى ... لفتـة الجيـد واهتـزاز النهـود
أنت فوق الخيال والشعر والفن ... وفـوق النهـى وفـوق الخلـود

* * *

يـا ابنـة النـور، إننـي أنـا وحـدي ... مـن رأى فيـك روعـة المعبـود
فدعيني أعيش في ظلك العذب ... وفـي قـرب حسنـك المشهـود
عيشـة للجمـال والفـن والإلهـام ... والطهـر والسنـا والسجـود
عيشة الناسك البتول يناجي الرب ... فـي نشـوة الـذهـول الشـديـد

وامنحيني السلام والفرح الرو حي يا ضوء فجري المنشود
وارحميني فقد تهدمت في كو ن من اليأس والظلام مشيد
أنقذيني من الأسى فلقد أمسيت لا أستطيع حمل وجودي
في شعاب الزمان والموت أمشي تحت عبء الحياة جم القيود
وأماشي الورى ونفسي كالقبر وقلبي كالعالم المهدود
ظلمة، ما لها ختام، وهول شائع في سكونها الممدود
وإذا ما استخفني عبث النا س تبسمت في أسى وجمود
بسمة مرة، كأني أستل من الشوك ذابلات الورود
وانفخي في مشاعري مرح الدنيا وشدي من عزمي المجهود
وابعثي في دمي الحرارة علّي أتغنى مع المنى من جديد
وأبث الوجود أنغام قلب بلبلي مكبل بالحديد
فالصباح الجميل ينعش بالدفء حياة المحطم المكدود
فانقذيني، فقد سئمت ظلامي أنقذيني، فقد مللت ركودي

أيها القراء:

تلكم شذرات من قصيدة الصلوات في هيكل الحب، فما رأيكم في هذا الشعر البديع؟.

هل تأملتم كيف يمثل الشاعر محبوبته وفي روحهم أوزان الأغاني ورقة التغريد، وكيف تمايلت في الحياة كاللحن العبقري الخيال، وكيف تمثل قوامها وهو يكاد ينطق الألحان، وكيف اتفق له أن ينطق بهذا البيت الفريد:

كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

وهل أحسستم الرحمة تتفجر في قلوبكم لذلك الشاعر اليائس الذي يذكر أنه كان يمشي في شعاب الزمان والموت وهو تحت عبء الحياة مثقل بالقيود؟.

وهل رأيتم أوجع من هذه الأبيات يزفر بها شاعر مكروب:

وأماشي الورى ونفسي كالقبر وقلبي كالعالم المهدود
وإذا ما استخفني عبث النا س تبسمت في أسى وجمود
بسمة مرة، كأني أستل من الشوك ذابلات الورود

رحمك الله يا شابي. فلو طال عمرك لكان لك شأن عظيم. وتلفت الناس إليك في مصر والشام والعراق.

* * *

الأشواق التائهة:

ولأبي القاسم الشابي قصيدة أخرى سماها «الأشواق التائهة» وهي تمثل حيرته في بيداء الوجود:

يا صميم الحياة، إني وحيد مدلج، تائه، فأين شروقك؟
يا صميم الحياة، إني فؤاد ضائع، ظامىء، فأين رحيقك
يا صميم الحياة، قد وجم الناي وغام الفضا، فأين بروقك
يا صميم الحياة، أين أغانيك؟ فتحت النجوم يصغي مشوقك
كنت في فجري الموشح بالأحلام عطراً يرف فوق ورودك
حالماً، ينهل الضياء ويصغي لك، في نشوة بوحي نشيدك
ثم جاء الدجى، وأمسيت أوراقاً بداداً من ذابلات الورود
وضباباً من الشذا... يتلاشى بين هول الدجى وصمت الوجود

* * *

كنت في فجرك المغلّف بالسحر فضاء من النشيد الهادي
وسحاباً من الرؤى... يتهادى في ضمير الآزال والآباد
وضياء.. يعانق العالم الرحب ويسري في كل خاف وباد
وانقضى الفجر فانحدرت من الأفق تراباً إلى صميم الوادي

* * *

يا صميم الحياة، كم أنا في الدنيا غريب. أشقى بغربة نفسي

بيــن قــوم لا يفقهــون أنــاشيـ ... ـد فـؤادي، ولا معــانـي بـؤس
فــي وجــود مكبــل بقيــود ... تــائـه فـي ظـلام شـك ونحـس
فـاحتضني، وضمني لـك بـالما ... ضـي فهـذا الـوجـود علـة يـأسي

* * *

لـم أجـد فـي الـوجـود إلا شقـاء ... سـرمـديـاً ولـذة مضمحلـة
وأمـانـي يغـرق الـدمـع أحـلاهـا ... ويفنـي صـم الـزمـان يـداهـا
وأنـاشيـد يـأكـل اللهـب الـدامي ... مسـراتهـا ويبقـي أسـاهـا
وورودا تموت في قبضـة الأشـواك ... مـا هـذه الحيـاة المملـة؟!

* * *

سـام هـذه الحيـاة معـاد ... وصبـاح يكـر فـي أثـر ليـل
ليتنـي لـم أفـد إلـى هـذه الـدنيـا ... ولـم تسبـح الكـواكـب حـولـي
ليتني لم يعانق الفجر أحلامي ... ولـم يلثـم الضيـاء جفـونـي
ليتنـي لـم أزل كمـا كنـت ضـوءاً ... شـائعـاً فـي الـوجـود غيـر سجيـن

ألا ترون أيها القراء أن هذا لون من الشعر جديد؟.

إن الشاعر يتألم ويرتاب ولكنه يعبر عن آلامه وشكوكه بلون طريف من الخيال.

الأبد الصغير

هذا موضوع قصيدة الشابي والأبد الصغير هو القلب:

يـا قلـب كـم فيـك مـن دنيـا محجبـة ... كـأنهـا حيـن يبـدو فجـرهـا «إرم»
يا قلب كم فيك من كون قد اتقدت ... فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم
يـا قلـب كـم فيـك مـن أفـق تنمقـه ... كـواكـب تتجلـى ثـم تنعـدم
يا قلب كم فيك من قبر قد انطفأت ... فيـه الحيـاة وضجـت تحتـه الـرمـم
يـا قلـب كـم مـن مسـرات وأخيلـة ... ولـذة يتحـامـى ظلهـا الألـم
غنـت لفجـرك صـوتـاً حـالمـاً فـرحـاً ... نشـوان ثـم تـوارت وانقضـى العـدم

وكـم رأى ليلـك الأشبـاح هـائمـة   مـذعـورة تتهـاوى حـولهـا الـرجـم
تمضي الحياة بماضيها وحاضرها   وتـذهـب الشمـس والشطآن والقمـم
وأنت أنت الخضم الرجب لا فرح   يبقـى علـى سطحـه الطـاغي ولا ألـم

عزى الله أهل تونس في شاعرهم المجيد والسلام.

* * *

ذكرى الشابي

عبدالفتاح إبراهيم

في التاسع من شهر أكتوبر المنصرم مات بذات الصدر[1] أبو القاسم الشابي شاعر تونس الفذّ ومن نوابغ شعراء الشباب في العالم العربي. وُلد أبو القاسم في «توزر» ودرس القرآن في جامع الزيتونة، وحصل على شهادة الحقوق من كلية الحقوق التونسية وقضى حياته كلها في تونس لم يبرحها، ومنحها عصارة روحه وذهنه في روائع قصيده في الوطنية والحديث إلى الشعب بآلامه وآماله، حتى وهو في (طبرقة) يصارع الدّاء الذي صرعه. ولكن الشابي مع ذلك لم يكن فقيد تونس بمفردها لنبكيه، بل كان فقيد العالم العربي بأجمعه، فكان لزاماً على مصر والعراق وسوريا وبلاد العرب أن تبكيه كلسان من ألسنة الشرق التي وقفت للغاصب، وهبطت من عليائها لتتحدث عن الحرية وتدعو إليها. ولكن العالم العربي الذي بكى الشابي يوم أن نعاه النعاة نسي الشابي عندما مرت بموته ساعات، ونسيت كل أمة بضحاياها فقيد العرب، وكان كل ما قدمته تونس للشاعر الفيلسوف حفلين أقيم أولهما في الحادي والعشرين من أكتوبر والثاني (موسم تأبينه) في الثالث والعشرين من نوفمبر، وكان نصيب الشاعر الفيلسوف حفرة من الأرض في الوطن الذي ضاق به، وكانت هكذا نهاية الشاعر الذي قال:

«فتهافتُّ ـ كالهشيمِ على الأرض»
«وناديتُ: «أين يا قلب رفشي؟»
«هـاتـهِ، علَّنـي أخـطُّ ضـريحـي»
«في سكون الدجى، وأدفن نفسي!»

---

(1) من الخطأ الشائع والفادح أن الشابي مات بذات الصدر (السل). والصحيح أن مرضه كان تضخم القلب ومات به. راجع كتابنا «الشابي ـ حياته وشعره» وكتابنا «آثار الشابي وصداه في الشرق» وانظر تقرير المستشفى عن سبب الوفاة في كتابنا «الشابي بالصورة والكلمة».

وقد وافانا بريد تونس الأخير بحديث طويل عن الحفلين في رسالة وُسمت بعنوان «ذكرى الشابي» نشرها صديقه الأديب الطيب العنابي خريج جامعة الزيتونة الأعظم ومدرسة ابن خلدون. . وعدد من مجلة (العالم الأدبي) التي يصدرها الصديق الألمعي زين العابدين السنوسي. وفي العالم الأدبي قرأنا حديث حفل التأبين: الموسم الذي جمع أدباء تونس وشعراءها للاحتفال بذكرى الشاعر النابغ. وفي ثاني الحفلين - موسم التأبين - ساهمت الأمم العربية فرادى فصدح صوتٌ من القاهرة نيابة عن جماعة أپولو ومحبي الشابي بمصر في قصيدة رائعة للصديق الشاعر مختار الوكيل فأشجى سامعيها، وغرَّد صوتٌ من لبنان في قصيدة للشاعر حليم دموس فأبكى، وقرئت رسالة سوري من القاهرة بعث بها الصديق الأديب الناثر حبيب جاماتي فناب قلمه عن قدمه وتحدثت كلماته بعبراته.

وقد أقام الحفل الأول جماعة الشبيبة المدرسية التونسية فرع جمعية قدماء الصادقية وافتتحها السيد الصادق المقدم رئيس الشبيبة المدرسية بكلمات مؤثرة في الحثّ على تخليد ذكرى الشابي، وخطب في الحفل السادة محمد العريبي أحد طلبة جامع الزيتونة والصحفي الطيب بن عيسى صاحب «الوزير» الغراء، والصادق حمادة، ومصطفى خريف، ومصطفى التملاغي، ثم قرئت كلمة نثرية للشاعر محمود أبي رقيبة وقصيدة للشاعر السيد مفدي زكريا، وارتجل الشيخ مصطفى المؤدب المتطوع بجامع الزيتونة بحثاً بليغاً عن مظهر البؤس في شعر الراحل الكريم، وتحدث عن تبرُّم الشابي بالحياة في قصيدته التي جاء في مطلعها:

يا صميم الحياة؟ إني وحيدٌ ... مدلجٌ تائهٌ فأين شروقك؟
يا صميمَ الحياة! إني فؤاد ... ضائعٌ ظامىءٌ فأين رحيقُكْ؟
يا صميمَ الحياة! قد وجم النايُ ... وغام الفضا فأين بروقُكْ؟
يا صميمَ الحياة! أين أغانيك؟ ... فتحت النجوم يصغي مشوقُكْ

والتي جاء فيها:

سـأمٌ هـذه الحيـاة مُعـادٌ وصبـاحٌ يكـرُّ فـي إثـر ليـلِ
ليتنـي لـم أفـد إلـى هـذه الـدنيـا ولـم تسبـح الكـواكـبُ حـولـي
ليتنـي لـم أزل كمـا كنـتُ ضـوءاً شـائعـاً فـي الـوجـود غيـرَ سجيـنِ

ووقف الأديب الفاضل عند هذا الحديث من التبرم والضيق، وهذا التبرم كبير الصلة بما رُمي به الشابي في حياته من زندقة وما اتهم به من إلحاد. فالناس لم يفهموا فلسفة الشابي حياً، فلما مات نسوا زندقته وإن كانوا لم يفهموا فلسفته بعد، فأقيمت له حفلات التأبين وأشيد بفضله على الشعر في عصر التطور والتجديد.

وأقيم حفل التأبين في القاعة الكبرى لمسرح الجمعيات بشارع باريس في تونس وخطب في هذا الحفل السادة محمد الصادق مازيغ وزين العابدين السنوسي ومحمد الفائز القيرواني ومحمد الحليوي ومحمد عبد الخالق البشروش ومحمد بدره والبشير القرني، وأنشد الشعراء الأفاضل محمود بيرم ومحمود أبو رقيبه وجلال الدين النقاش ومحمود الرخصي ومفدي زكرياء مراثيهم، ثم تلقيت مراثي أدباء الأمم العربية الذين أحبوا الشاعر حباً فتوافروا على رثائه ميتاً، من ذلك جاء في قصيدة الشاعر مختار الوكيل:

يـا صـاحـبَ النـاي الـذي أنغـامـهُ فِتـنُ الـربيـعْ
ومحـرك الآمـال والآ لام بـاللحـنِ الـرفيـعْ
ومعـانـق الشفـق المـذ هّـب فـي خيـالات القصيـدْ
عجبـي لصمتـك والصبـاحُ ضيـاؤه يُغـري الفنـونْ
والصـادحـاتُ الـوادعـاتُ طفـرن مـا بيـن الغصـونْ!

وبعث الشاعر حليم دموس من الجبل مرثيته وفيها يقول:

إلـى تـونـس الخضـراء مـن أرز لبنـانِ لـواعـجِ أشجـانٍ وآيـات تحنـانِ
سـلامٌ عليهـا فهـي دارُ أحبـةٍ ونجعـةُ آدابٍ وشـرعـةُ عـرفـانِ

* * *

أبـا القـاسـم الشـابـي عليـك تحيـةً   من الأرز من صنين من أرض لبنانِ
ومـن كـل مصـرٍ يعشـق الضـادَ أهلُـه   ومن كل قطرٍ يزدهي باسم عدنانِ
فنم في ظلال الخلد فاسمك خالدٌ   يـردده التـاريـخ فـي العـالـم الثـانـي

وكان خير ما قيل في رثاء الشابي الدراسة القيمة التي ألقاها السيد محمد الحليوي، وقد جاء فيها عن قدسية الشعر: «وليس في ديوان الشابي بيت واحد قاله في غرض من الأغراض الزائلة أو في مطلب من المطالب العارضة أو في خصوصية من الخصوصيات أو في شخصية من الشخصيات بينما لا يخلو ديوان معاصريه في الشرق العربي من قصائد في الإخوانيات والخصوصيات، هذا إن لم تكن في توديع المسافر، واستقبال القادم، وتكريم الممثلة والمغني، والباني والمتصدق، وحتى الناجح في مباريات لعب الكرة. وهذا هو فضل الشابي على الشعر العربي الحديث وعظمة قصيده كإنتاج شاعر فرد، فقد ضرب الشابي للشعراء أحسن الأمثال في الخروج بالشعر عن الأغراض الدنيوية، وإيقافه لحديث السياسة، وبثّ روح الوطنية في قلوب أبناء الوطن المنكوب للدفاع عن حريته، ولم ينصرف الشابي إلى الدنيا حتى في حديثه عن المرأة. وللمرأة في شعر الشابي نظرة جديدة: فالمرأة في الأدب العربي ملهاةٌ يجد الرجل عندها متعة الجسد، والشاعر في الأدب العربي القديم والحديث إذا ما تحدَّث عن المرأة ذكر الخصر والردف والقامة والعينين والفم والوجهِ، ولكن الشابي رآها النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة. وجمال المرأة في نظر الشابي طيف من ضوء الجمال الكلي في الوجود. واسمعه يقول فيها:

أنتِ! ما أنتِ؟.. أنت رسمٌ جميلٌ   عبقـريٌّ مـن فـنِّ هـذا الـوجـودِ
فيـكِ مـا فيـهِ مـن غمـوضٍ وعمـقٍ   وجمـــالٍ مقـــدَّسٍ معبـــودِ

وقد عرض السيد محمد الحليوي إلى أثر لامارتين في شعر الشابي وخرج بهذا على زعم أن الشابي قد قرأ كل ما عرب للامارتين وخصوصاً (روفائيل) وقاس الصلة بينهما بقياس التشبيه الذي تماثلا فيه قال: «فالشابي

شبه الطبيعة بالمعبد ولامارتين شبه السماء بالمعبد والسحاب بالبخور والنجوم بالشموع التي تضيء ذلك المعبد، على أني أعتقد أن الصلة بعيدة فالشابي كان أبداً أسمى معنى من لامارتين، فهذا يقول في قصيدته (البحيرة): «أيتها الأرض قفي دورانك، وأنتِ أيتها الساعات قفي جريانك ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا وننعم بأجمل أيام شبابنا!» ولكن الشابي يقول في قصيدته (ألحاني السكرى):

قـد سكـرنـا بحبنـا واكتفينـا   طفـح الكـاسُ فـاذهبـوا يـا سقـاةُ!
نحـن نحيـا فـلا نـريـد مـزيـداً   حسبنـا مـا منحتِنـا يـا حيـاةُ

وأعتقد بالإضافة إلى هذا أن روح الشابي لم تتصل إلا بروح جبران، وأن الصلة لم تَبد بينهما إلا في الأحزان. وأذكر أنني قلت عن هذه الصلة في مقالي عن أبي القاسم الشابي الذي كتبته لمجلة (الإمام): «وقلت لك إن الشابي وجبران روح واحدة في جسدين، ولكن ليس معنى هذا بحال ما أن الشابي نما على مائدة جبران، وقد تكون الصلة التي ربطت بين آرائهما ووجهتهما في الحياة أن كلاً منهما عاش حائراً في الوجود، وتقرأ للشابي قصيدته (الأشواق التائهة) وتطالع لجبران مقطوعته المنثورة «الشاعر» فتدرك لهذه الحيرة عواملها وأسبابها...».

وبهذين الحفلين انتهت ذكرى الشابي التي دُعي لها في العالم العربي بأجمعه، وقد حملت إلينا الصحف في الشهر الماضي بضعة أحاديث عن شعر الشابي لجماعة من أدباء تونس وشعرائها ولكن هذا كله في مجموعه لا شيء إلى جانب جهاد الشابي من أجل العرب والعربية، وهي تقدمة تافهة مدت يدها بها تونس لشاعرها الفذ بعد أن وُوري في أشبار من الأرض كانت هي كل نصيبه في الحياة الدنيا! رحم الله الشابي، وعزاء لتونس، وعزاء للغة الضاد.

ذكريات ومهرجانات عنه

(1936 ـ 1952)

مهرجان الذكرى الثالثة

«للمرحوم أبي القاسم الشابي»

كان مساء يوم الجمعة 28 شعبان موعد احتفال تونس بذكرى ابنها المرحوم أبي القاسم الشابي الذي لم تفقده تونس فحسب بل فقدته العروبة والشرق أجمع.

وهكذا انتبهت تونس من إغفاءتها الطويلة فقامت تدرأ عيباً دنستها يد الغفلة والذهول.

وكاد شاعرنا الوحيد ورافع راية أدبنا باليمين يذهب نسياً منسياً لولا أن قيض الله له فئة من الشباب عاهدت الله على أن تكون نبراساً وهاجاً يضيء ظلمة الوطن وتمضي بسفينة الأمة قدماً نحو شاطىء النجاح. فقامت مهيبة برجال المستقبل لإحياء ذكراه الثالثة بحفل رائع يناسب همته القعساء وأياديه البيضاء. وأتم الله ما أرادوا فقد كانت ذكرى هائلة برهن فيها الشباب على مقدرته في اضطلاعه بالمهمات.

وما أزفت الساعة الرابعة حتى اكتظت رحاب قصر الجمعيات الفرنسية بالوافدين على اتساعها وكلهم ناظر في رهبة وخشوع لصورة الفقيد الموضوعة في إطار أمام الأنظار كأنما هو ينظر إلى الشباب الناهض فيبارك أعماله ويبتسم ابتسامة الظافر بحرثه الذي أنتج ولم تذهب جهوده سدى. بيد أنه يرمي الأمة بنظرات حادة تأنيباً لها على تضييع نبغائها في حياتهم حتى إذا فارقوها لا إلى لقاء جاءت تعول وتنوح. وليس هذا شأن الأمة المستفيقة الماجدة بل ذلك شأن الأمة الضعيفة الخائرة الجاهلة الساذجة. وعسى أن تكون في ذلك عبرة لمن ألقى السمع لأي الحادثات ونوائب الأيام.

ومما زاد هذا الحفل بهجة وجمالاً مشاركة طاقم الناصرية في الاحتفال بألحانه العذبة التي يرددها بين الفينة والأخرى.

افتتاح الاحتفال - رفع الستار عن المنصة التي يتوسطها جناب شيخ المدينة فانطلق صوت الأستاذ المكي يرتل القرآن الكريم «سورة الفتح» بصوت يتخلل شغاف القلوب ويلين قسوة النفوس فخشعت الأفئدة وخنست شياطين الشعراء ونكست الرؤوس أمام جلال آيات الله البينات - ثم قام شيخ المدينة وأعطى الكلمة لرئيس الرابطة السيد مصطفى مهذب الجد فارتجل كلمة شكر فيها الحاضرين وتكلم عن برنامج الجمعية وأنها أسست لتوحيد جهود الشباب الإفريقي وطلب منهم أن يمدوا له يد المساعدة حتى يمكن له أن يقوم بأعمال جليلة نحن أحوج ما يكون إليها وختم كلمته بشكر م. قيون على إرساله نائباً عنه وقائد الاحتلال الذي أرسل نائباً عنه أيضاً وجناب شيخ المدينة الذي تفضل بقبول الرئاسة الشرفية للرابطة الأدبية. ثم أعطيت الكلمة للأستاذ الجليل المختار بن محمود المدرس بالكلية الزيتونية فألقى دراسة مستفيضة في حياة صديقه الشابي فتحدث عن صداقته له ودرس ناحية من أخلاقه ثم اقتصر على نقطتين من نواحي الشابي:

1) متانة شعره.

2) متانة عقيدته. و اختتم كلمته باقتراحين طالب بإنجازهما:

1) جعل ذكرى الشابي بالتاريخ العربي لأنه كان غيوراً على عربيته.

2) جعل لوحة رخامية على رمسه يذكر فيها شيء من تاريخ الفقيد وتأسف أن يكون قبر الشابي غفلاً من كل علامة تكاد تعبث به أيدي الرمال. ثم اعتذر عن قصر كلمته بأنه ألف رسالة درس فيها حياة الفقيد بإطنـاب. وهذه الكلمة من الأستاذ تعتبر حجة كبرى على صحة عقيدة الشابي.

ثم أعطيت لكلمة للأستاذ نور الدين بن محمود فألقى قصيدة لأمير الشعراء الأستاذ خزندار نيابة عنه. ثم ألقى دراسة له حول شاعرية الشابي

تعمق فيها كل التعمق وبين لنا بجلاء ملكته في النقد الصحيح وذكر أن للشابي بعض النظر في شعر لامرتين وضرب مثلاً لذلك. ثم تلاه الأستاذ الشاذلي عطاء الله وألقى كلمة مسهبة. ثم تلاه الشاعر النابغة السيد محمد المرزوقي فألقى قصيداً رائعاً نعى فيه على الأمة عدم اهتمامها بنبغائها حتى قال إن تعظيمهم أمواتاً كذب وخداع ثم الشيخ مصطفى المؤدب .فألقى قصيداً جميلاً.

ثم راحت بضعة دقائق ظهر في آخرها الأستاذ محمد التريكي يوقع على كمنجته لحن الوداع بنغمة ساحرة ملكت الألباب وتوغلت في شغافهم دون استئذان ثم تلقى الكلمة الأستاذ الحليوي فألقى كلمة له بين فيها فوائد الذكرى واهتمام الشعوب الراقية بها واستبشر بحركة الشباب الذي عرض من التطفل على أملاك الغير وطفق يبني بيتاً لأمته إزاء البيوت ثم ألقى قصيداً طويلاً للسيد عمر الجمالي نيابة عنه. ثم تلاه الشاب السيد علي بن هادية فألقى دراسة حول أدب الشابي وهيمامه بالجمال الخالد والحب الطاهر. فهو لا يتعشق إمرأة بعينها بل يحب الجمال حيث وجده وإني أراه ومن جراء ذلك كان يقدس الجنس اللطيف ويتألم له وتعرض للنقط الآتية بعبارة خلابة ـ الشابي الشاعر ـ الشابي الفيلسوف ـ الشابي الوطني ـ حظه لدى الجمهور ـ واختتم كلمته بكلمات رائعة ودع فيها الراحل.

ثم تناول الكلمة السيد محمد التوزري فألقى قصيداً بديعاً ثم تلاه السيد محمد الأخضر السائحي الجزائري فألقى خريدة عصماء قوطعت غير ما مرة بعواصف التصفيق ثم تلاه السيد عبد الله الزريبي فألقى قصيداً كله عيون ثم تلاه السيد العربي المائعي الجزائري فتكلم بإيجاز حول تأبين الشابي وأهدى لروحه تحية الشباب الجزائري ثم أعطيت الكلمة للسيد أحمد الشابي فألقى كلمة نيابة عن أسرة الفقيد شكر فيها الأمة قاطبة على احتفائها بشاعرها ثم قام الأستاذ شيخ المدينة وألقى كلمة اعتذر فيها لبقية الشعراء والخطباء بضيق الوقت عن إلقاء كلماتهم وشكر باسم الجمعية جميع الذين عاضدوها في احتفالها من حضر منهم ومن اعتذر ـ ثم ألقى

رئيس الرابطة الأدبية قطعتين شعريتين للشابي: الدنيا الميتة ـ إلى طغاة العالم. وهنا انتهى دور الخطباء من الشعراء ومثلت رواية «المريض البائس» التي بين لنا فيها أبطال الرابطة عبقريتهم ونبوغهم وبرهنوا فيها على إجادة الشباب في أي فن طرقه.

وقد أعجبني كثير التلحين الجميل الذي يلحنه القائم بدور ولد الشيخ كما أجاد الباقون. سدد الله خطى الشباب وبارك في أعماله. وأخيراً فإني أقدم أجمل تهاني للجنة الاحتفال وجمعية الرابطة لتوفيقهما في هذا العمل الجليل الذي كان مظهراً من مظاهر الفتوة المندلعة في لهيب الترقي والانتقال بهذا البلد إلى أوج الكمالات وذرى المجد الذاهب في طيات الأحقاب والأسفار بين العصور الممتازة والأجيال المتمدنة[1].

(1) «الأفكار» (تونس) س 1 عدد 2 (1 ـ 12 ـ 1936).

في حفلة الشابي

للأستاذ محمد الحليوي

لما يبهج نفسي ويسرها أن أرى هاته الحفلة الكبرى تهدى لروح صديقي الراحل وتحيي ما بيننا ذكراه.

في هذا اليوم يقام هذا المهرجان تقديراً لنبوغ شاب تونسي واعترافاً بعبقريته وعلو مكانته في عالم الأدب، وفي يوم قريب سيقام مهرجان آخر بمدينة سوسة تقديراً لنبوغ شاب تونسي واعترافاً بعبقريته في عالم التحصيل والعلم فما أبعدنا أيها السادة، عن ذلك الزمن الذي كنا نقيم فيه الاحتفالات لا لأبناء تونس المجاهدين في سبيل عزتها ولا لأدباء تونس الخالدين في ما تركوه لنا من أثر وما رفعوا به رؤوسنا من فخار وإنما كنا نقيم فيه الاحتفالات لأعلام بعض البلاد العربية. نعم إن رابطة اللغة والدين بل الرابطة العربية والرابطة الشرقية كلها تحتم علينا أن نعتبر أولئك الأعلام ملكاً للغة العربية والأمة العربية ولكن الذي جعلنا ننظر إلى هاته الحفلات نظر المبتهج لا الفخور المعتز هو أن ذكر النبوغ التونسي وتقدير المجهود التونسي كان لا يحتفل به ولا يؤبه له حتى غلب على عقولنا أننا أصبحنا مستعمرة أدبية لبعض البلاد العربية وأن الأمة التونسية أمة عقيم لا تحسن إلا ترجيع الصدى.

وقد آن لتونس اليوم أن تبتني لنفسها بيتاً بجانب البيوت وبستاناً بجانب البساتين فكفاها أنها أقامت سنين طويلة في بيوت الجيران عالة على أهل ذلك البيت ومع أنها لم تدخل يوماً في حسابهم ولم تذكر في أحاديثهم وحفلاتهم فإنها بقيت لا تفكر في ابتناء بيتها ليكون رمزاً لقدرتها ومثابة لأبنائها.

ولكن الشباب الذي تنبهت فيه العزة القومية وانفتح بصره على أكوان جديدة كشفها الألم والعزة المجروحة هو الذي سيبني هذا البيت.

سيبني هذا البيت للأدب التونسي متى تمت يقظته واستقرت ثورته وانجابت ظلمات اليأس أمامه وآضت حيرته طمأنينة واضطرابه تأملاً وحلماً وإيماناً قوياً، سيمر الشباب التونسي بهذا الطور ثم يأخذ طريقه في الحياة ويدخل في طور الخلق والإنتاج:

وقد قلت في مقال سابق إن خير مثل يحتذيه الشباب هو حياة الشابي وأدب الشابي.

فلنتركهما إليه وسنرى ما هو فاعل.

ذكرى الشابي الخالدة

للأديب النوري التوزري

مـن النـاس ميـت وهـو حـي بـذكـره   وحـي سليـم وهـو فـي النـاس ميـت

أيها السادة: للباحثين في حياة الشابي وأدب الشابي ونفسية الشابي طرق شتى تختلف باختلاف همم مقدريها واعتناء دارسيها واضطلاع الباحثين فيها وهي كما يعلم الكل مترامية الأطراف لحد بعيد. فلا الأسفار تحويها ولا المجلدات تحصرها ولكل وجهة هو موليها.

ومن الخصال الحميدة التي امتاز بها على جل أقرانه فقد كنت أعهده يناقش خصمه بالتي هي أحسن وسرعان ما يتغلب عليه بدون كبير مشقة ولم يرتكب قط مع محدثه سبيل العناد.

أيها السادة: لم يكن الشابي كما تعهدونه بالكاتب البليغ والشاعر المقتدر فحسب. بل كانت له مواقف جبارة قام بها في هاته الربوع لم يتعرض لها أي كان ممن رأيتهم يتسابقون لتدوين ترجمته وبيان محاسنه والحال أن ذلك كله منشور على أعمدة الصحف.

فلقد سجل له التاريخ ذلك الخطاب القيم الذي ألقاه في أول اجتماع عرفته «توزر» حين دعت نخبتها المفكرة لتأسيس (مدرسة قرآنية) حيث قام يومئذٍ يرتل آي البيان بذلك الصوت الناعم حتى ملك على الناس مشاعرهم وكان الجميع ساعتئذٍ متركباً من كافة علماء وأعيان البلاد.

كما وجدناه أيضاً أكبر داعية يوم أن فكر النشء في إقامة مهرجان على رأس العام الهجري على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى سلامه حيث قام

بذلك اليوم بمسامرة في حياة الرسول ﷺ كانت آية في البلاغة والإبداع بين فيها بأسلوبه العذب جميع أطوار حياة الرسول الأعظم إلى أن أتى على الهجرة وأسبابها بطريقة كنت ترى معها تلك الآلاف المؤلفة من مختلف الطبقات تتمايل سكرى وفي الحقيقة ما هم بسكارى ولكن فصاحة الشابي وبيانه الساحر جعلهم كذلك يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال وعيونهم تفيض من الدمع حسرة لما أصاب الرسول عليه الصلاة والسلام من عرب قريش من الإذاية وعدم التأييد.

ولقد رأيته كذلك في صف الداعين لحفلة تأبين المنعم الشيخ عثمان بن المكي التي أقيمت بتوزر خلال السنة التي توفي فيها الشيخ المذكور عليه رحمة الله. ولقد قام بدوره فيها بخطاب تعلوه الكآبة والبؤس تعرض لحياة الشيخ من كل نواحيها. وها نحن اليوم نقوم بذكرى مترجمنا الثالثة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما جبل عليه فقيدنا المرحوم من حب العلم وتفانيه وطموحه للأدب والثقافة العربية فقد كان لا يألو جهداً في بث دعاية واسعة النطاق لنشرها في هاته الجهة بوسائل متعددة كلما سنحت له الفرصة بين الأفراد والجماعات. وآخر عمل قام به في هذا الصدد سعيه مع فريق من الشباب العامل بتوزر لتأسيس (النادي الأدبي) الذي يلم شعث الشباب التوزري ويبعث فيهم الروح التي كانت عليه رحمة الله ضالته المنشودة. ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه!!.

فلقد وجد إذ ذاك معاضدة زادت في نفسه الطاهرة يقين النجاح فأقبل بشجاعة وإخلاص وسطر القانون الأساسي الذي لا زالت نسخة منه بيدي. وقد اشتمل هذا القانون على 27 فصلاً لو تم تأسيس هذا المشروع ونفذ به ذلك القانون لأصبح الشباب التوزري مضرب الأمثال ويحوز درجات السبق في ميادين الأدب ولكن حوادث 1936 وما أعقبها كانت حجر عثر في الطريق فذهبت تلك المساعي والجهد مع أدراج الرياح وماتت فكرة

«النادي» بموت الشابي وأصبحت الحالة غير الحالة وسبحان مبدل الأحوال.

فهاته أيها السادة: ناحية من نواحي حياة الشابي المتشعبة التي آثرت المشاركة بها لكي أعرب عن ضميري الذي يحس كما تحسونه ويتألم كما تتألمون والسلام عليكم وعلى روح الشابي المنبعث نورها هنا وهناك ورحمة الله وبركاته[1].

(1) «الأفكار» س 1 عدد 3 (1 ـ 1937).

الشـــابـي
الشاعر الفيلسوف المتدين في شعره

للأستاذ المختار بن محمود

أيها السادة الأفاضل.

هذه كلمة سألقيها عليكم وفاءً بالعهد. وإجابة لداعي الضمير نحو أخي الكريم. وصديقي المخلص الحميم. الذي أحدث فقده بفؤادي جرحاً ماله التئام. وأدخل عليّ حزناً يزداد شدة مع مرور الليالي والأيام. المرحوم المأسوف على شبابه الشيخ أبي القاسم الشابي.

ذلك الصديق الذي أصفى إليّ وده. وأخلص إليّ حبه. وأعجبت به قبل أن يشتهر بين الناس أمره. وينتشر ذكره. وعلمت أنه سيكون له شأن عظيم.

وإذا كان الكثير منكم إنما يعرفه من شعره الخالد. وأدبه الرفيع. فأنا قد عرفته زيادة عن ذلك من طول المعاشرة. حيث قد قضينا أعواماً ونحن لا نكاد نتفارق. وإذا غابت أثناءها أجسامنا. فقد كانت تقوم مقامها الرسائل المفعمة وداً وأدباً وظرافة.

وكيف أنسى أياماً قضيناها. وليالي سهرناها. والأنس يحف بنا من كل جانب. وكؤوس المودة تدور بيننا مفعمة بالإعجاب المتبادل. والإخلاص الخالي من شوائب الخداع والنفاق.

وقد وصف تلك الاجتماعات في بعض مراسلاته إليّ حيث قال:

(قد غادرت الحاضرة وذكرت تلك الساعات الجميلة العذبة التي

قضيناها في سمر مختلف الأفانين ما زالت زكية النشر. معطرة النفحات. حية في ثنايا النفس. وما زالت تلك الأحاديث الأدبية. والنكات البديعة أنيسي في سفري إلى صحراء الجريد وواحاته).

وإذا كان الناس يعرفون أبا القاسم الشابي من ناحيته الأدبية. فكيف بهم لو عرفوه من ناحيته الأخلاقية.

لقد كان رحمه الله مثالاً لمكارم الأخلاق بأجلى مظاهرها. ففيه التربية العالية. والحلم. والكرم. والإغضاء عن الزلات. والتسامح مع الأصدقاء. والإخلاص لهم. والبعد عن الرياء والتنافس المذموم ولم يكن معجباً بنفسه وإن كان معتزاً بها. وفرق عظيم بين إعجاب المرء بنفسه الذي هو المهلكات. وبين اعتزاز الرجل بنفسه وهو من أهم شروط النجاح في الأعمال.

ومما يعجبني من أخلاقه أنه لا يتبجح بشعره، ولا يتحدث عنه. ورغماً على طول اجتماعنا فإنه لم يحدثني في يوم من الأيام عن قصيدة له. مع أن شعره جدير بأن يفتخر به. ويتحدث عنه.

وهذا خلق نادر في الشعراء لا سيما في ضعفائهم وأهل المرتبة الرابعة منهم. فهؤلاء تراهم بمجرد ما يتسنى للواحد منهم أن ينظم بعض أبيات من عورات الشعر التي يجب أن تستر. ويقضى عليها في مهدها وتغبر، يأخذون في نشر تلك الأبيات والتحدث بها، وإقلاق الناس بعرضها عليهم.

* * *

هذا والحديث على أبي القاسم الشابي فسيح الأرجاء متعدد النواحي فهو كالروضة الغناء فيها ما شئت من أزهار وأنوار، وفواكه وثمار. ففيهما ما يسر كل حاسة. ويرضي كل ذوق.

وأنا سأقصر حديثي على ناحيتين من نواحيه، وهما:

1 ـ متانة شعره.

2 ـ قوة عقيدته.

1 ـ أما متانة شعره:

فأبو القاسم الشابي قد نشأ نشأة علمية أدبية. فدرس العلوم على اختلافها بالكلية الزيتونية. وأتقنها وأحكمها. ودرس الأدب بمطالعة كتبه الأصلية، ودواوينه الرفيعة. فهو أديب حقيقة بالمعنى الذي يفهمه ابن الأثير وأبو هلال وأضرابهما من أعلام الأدب ونقاده وليس من أولئك الأدباء الهازلين الذين لا علم عندهم ولا أدب ولا مطالعة وإنما تعلموا الأدب من مؤخرات أوراق الرزنامة فتاهوا بجهلهم وهم أجدر بأن يتاه عليهم. واعتزوا بحماقتهم وأضلهم من جحدهم نصحه وتظاهر بالتزلف إليهم.

وهو مع ذلك صاحب ذكاء خارق. وفكر وقاد. وقريحة صافية. وله حاسية مزيدة تحيط بالعوالم، وتخترق الحجب، وتقتاد السحاب. وترتاد المسالك الصعاب.

فمن أجل ذلك كان شعره جزلاً متيناً محكماً. ينفذ إلى قلب العالم فيحرك ما سكن. ويعبر عما ظهر من خوالجه وما بطن وفيه رنة وموسيقى تعبث بالألباب، وتثير هواجس النفوس. مع الترفع عن الابتذال وطرق المواضيع المزرية بكرامة الشعر والشعراء.

وإليكم قطعة من شعره حدد فيها أغراضه ومراميه. وهي قوله:

لا أنظم الشعر أبغـ ـي به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء تهدى لرب السرير
حسبي إذا قلت شعراً أن يرتضيه ضميري

* * *

ما الشعر إلا فضاء يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي وما يسر المعالي

ومـا يثيـر شعـوري		من خافقات خيالي

* * *

لا أقـرض الشعـر أرجـو بـه اقتنـاص نـوال
الشعر إن لم يكن في		جمـالـه ذا جـلال
فـإنمـا هـو طيـف		يبقى بوادي الضلال
يقضي الحياة طريداً		فـي ذلـة واعتـزال

وبالفعل فإنك إذا طالعت شعره وجدته دائماً صورة مطابقة لهذه الخطة التي وضعها واختارها لنفسه فلا هجاء ولا فحش ولا سخافة. وإنما هي أغراض سامية، تعبر عنها ألفاظ غالية، لا يصعب فهمها، ولا يسهل الإتيان بمثلها.

يأخذ الفكرة فيصورها ويرتبها ترتيباً محكماً متمشياً مع ترتيب العقل. مع الرقة الشعرية، التي لا تفارقه.

وهذه أبياته في وصف الحرب أوضح دليل على ما نقول وهي:

هل الحروب سوى وحشية نهضت		في أنفس الناس فانقادت لها الدول
فأيقظت في قلوب الناس عاصفة		فاسودت الشمس واغبرت لها السبل
فـالـدهـر منتعل بـالنـار، ملتحـف		بـالـهـولِ والـويـلِ والأيـام تشتعـل
والأرض داميــة الكــاس حــاميــة		والشــر يخفــق فــي آفــاقهـا ثمــل
والموتُ كالمارد الجبّار منتصبٌ		في الأرضِ يخطف من قد خانه الأجل
وفــي المهــامــه أشــلاء ممــزقــة		تتلـو علـى القفـر شعـراً ليس ينتحـل
تثيـر فـي النفـس أحـزانـاً يـرتلهـا		فــم الفــؤاد بتغــريــد فتنهمــل

فهذا الشعر من أبدع ما قيل في وصف الحرب وتطورها شيئاً فشيئاً إلى آخر دور من أدوارها. فهو قد بدأ أولاً ببيان الباعث الذي يدعو إلى الحرب وأنه ليس إلا تلك الوحشية المتغلغلة في نفوس البشر التي تتحرك في نفوسهم فتنقاد الدول إليها. ثم أخذ يصف تدرجها من حال إلى حال حتى وصل إلى آخر دور وهو انتهاء الحرب بظهور تلك الأجسام الملقاة

على الأرض المضرجة بدمائها. وتلك الأشلاء المبعثرة هنا وهناك. ثم ما يبقى أخيراً بعد ذلك كله وهو العبرة والموعظة.

ومثل ذلك أبياته في وصف القنوط والأمل وقد بلغ فيها غاية الإجادة وهي قوله:

وفي العزيمة قوات مسخرة | يخر دون مداها الشامخ الجبل
والناس شخصان: ذا يسعى به قدم | من القنوط وذا يسعى به الأمل
هذا إلى الموت والأجداث ساخرة | وذا إلى المجد والآمال تتصل
ما كل قول يجل الناس فاعله | مجداً. ولا كل من خاض الدجى بطل
المجد صنفان: صنف في تمايله | لحن الخلود. وصنف فوقه الخبل
ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها | فم الزمان إذا ما انسدت الحيل

فلله دره في هذا الضبط والاستقصاء ودقة الملاحظة.

ويظهر لي أن أبا القاسم الشابي أكبر حجة على من يسيء بهم التجديد في الشعر.

فنحن نرى كثيراً من الناس لا يفهمون من التجديد إلا أن يكون الشعر مكتوباً بشكل مثلث الأضلاع. من غير بحث عن سخافة المعاني ورفعتها. وعن جودة الألفاظ ورداءتها. فكان أبو القاسم مجدداً بالمعنى الصحيح الذي يجب جعله مثالاً يحتذى. فألفاظه في غاية الجودة. ومعانيه في غاية الرفعة والسمو. ومع ذلك فهو لم يخرج في شعره عن الأوزان المألوفة إلا أوزان التواشيح الأندلسية كقصيدة (في سكون الليل) و (في الظلام) و (أغنية الأحزان) و (مأتم القلب).

فكان بهذا الصنيع حجة قوية ترد على من يفهم التجديد بغير هذا الوجه ومتانة شعر هذا الشاعر الفحل صاحبته في جميع ما يطرقه من المواضيع وإليكم قطعة أخرى أبدع فيها ما شاء له الإبداع وهي التي عنوانها (الحق) وهي قوله:

ألا أيهــا الظلـــم المصعـــر خـــده ... رويــدك إن الــدهــر يبنــي ويهــدم
أغرك أن الشعب مغض على قذى؟ ... لـك الـويـل من يـوم بـه الشـر قشعـم
ألا إن أحـــــلام البــــلاد دفينـــــة ... تجمجـم فـي أعمـاقهـا مـا تجمجـم
ولكـن سيـأتـي بعـد لأي نشـورهـا ... وينبثـق اليـوم الـذي يتـرنـم
هـو الحـق يبقـى راكـداً فـإذا طغـى ... بـأعمـاق السخـط العصـوف يـدمـدم
وينمـط كـالصخـر الأصـم إذا هـوى ... علـم هـام أصنـام العتـو فيحطـم
إذا صعـــق الجبـــار تحـــت قيـــوده ... سيعلــم أوجـــاع الحيـــاة ويفهـــم

ولا يخفى على حضراتكم ما في هذه القطعة من المعاني الرمزية والمرامي العالية. وبذلك نثبت لشاعرنا العزيز زيادة على ما تقدم من الفضائل والكمالات. صفة الوطنية الصادقة والإحساس الحي وفيما ذكرناه من شعره كفاية للدلالة على قوة شاعريته ومتانة شعره. ودقة شعوره.

2) وأما قوة عقيدته:

فشاعرنا رجل قوي الإيمان. ثابت العقيدة. غير متلاعب بدينه. فليس هو من أولئك الذين يتسترون بحجاب الفلسفة والذكاء واتساع النظر ليتوصلوا إلى العبث بالأديان والمعتقدات. ثم يتخذونها سخرية. ويجعلون مباديها مجالاً لعبثهم وسخافاتهم، ذلك الأمر الذي لم يسلم منه الشعراء المتقدمون. والكثير من الشعراء المتأخرين.

وإني لأتعجب من بعض الناس الذين يحكمون بسرعة على شاعرنا بأنه شاعر مستهتر متلاعب بدينه، مع أني أعتقد أنهم لم يتنازلوا ولو مرة واحدة عن حصة من وقتهم النفيس... في مطالعة شعر الشابي حتى يحكموا له أو عليه.

وإنما سمعوا الناس يقولون: هو شاعر مجدد. ففهموا أن التجديد من لوازمه الإلحاد والزندقة. مع أنه كما قلت سابقاً: شاعر مجدد بأتم ما في هذه الكلمة من رفعة وسمو.

وإذا فرضنا أنه في بعض الأحيان قد سبق لسانه إلى تعبير منتقد بظاهره فلا ينبغي أن يجعل ذلك مقياساً للحكم عليه. بل يقصر الانتقاد على مواقع الخلل. ويحكم على الشاعر بمقتضى ما يعرف من أفكاره في خارج المنطقة الشعرية. وبالنظر للمبادي الغالبة في شعره. على أن ذلك لا يخرج عن كونه من هفوات اللسان. التي قلما سلم منها إنسان.

وهو زيادة على ذلك متأدب في شعره حتى في المقامات المتساهل فيها مع الشعراء. مثل الغزل، فغزله طاهر نقي على غاية من الاحتشام.

ونظراً لما يقوم به بعض المغرضين من التعفير في وجه شاعرنا بهذه الدعاية. فقد تعرضت لها وفندتها. وجعلت عنوان هذا الخطاب.

(أبو القاسم الشابي الشاعر الفيلسوف المتدين).

هذا وقد بقي لي اقتراحان أختم بهما هذا الكلام.

الاقتراح الأول: أن نجعل ذكرى هذا الشاعر في المستقبل بالتاريخ العربي. ذلك أني رأيت جميع الدعايات التي وقعت لهذا الاحتفال قد اقتصر فيها عند ذكر وفاته على أنه توفي يوم 9 أكتوبر سنة 1934 مع أن هذا التاريخ له تاريخ عربي يوافقه وهو يوم الثلاثاء 29 جمادى الثانية سنة 1353. وشاعرنا كان معتزاً بعروبته غاية الاعتزاز حتى أنه لم يؤرخ رسائله ولو مرة واحدة بغير التاريخ العربي. فلنكرمه على الأقل بجعل ذكراه بالتاريخ العربي.

الاقتراح الثاني: هو أني لما سافرت إلى بلاد الجريد في شهر شوال من العام المنصرم كان من أهم ما عملته زيارة قبر صديقي الشابي المدفون بتوزر على ربوة جميلة ودعوت له وترحمت عليه. وتداركت بذلك ما فاتني من حضور جنازته حيث كنت إذ ذاك مريضاً. ولكني وجدت قبره غفلاً ما بين القبور لم يكتب عليه شيء فأنا أقترح أن تكتب لوحة رخامية تتضمن مجملاً من تاريخه حتى يكون قبره معروفاً في جميع الأجيال.

وختاماً أدعو الله تعالى أن يعامله بفضله ورحمته. وأن يتجاوز عنه بلطفه وكرمه. إنه سميع الدعاء. مجيب النداء. والسلام عليكم ورحمة الله[1].

* * *

(1) «الأفكار» س 1 عدد 2 (1 ـ 12 ـ 1936).

أبو القاسم الشابي...
من خلال رسائله

بقلم الأستاذ محمد الحليوي

لقد كانت وما تزال الرسائل المتبادلة بين الأدباء ذات أهمية كبرى في معرفة نفسية الكاتب وتفكيره في مختلف الأطوار التي يمر بها في حياته. وقد يعثر الباحث في أثناء دراسته لأديب من الأدباء على نصوص ووثائق تفتح له مغالق من شخصية ذلك الأديب وتوقفه على أسرار واعترافات لا يمكن أن يقف عليها في آثاره وكتاباته. ذلك أن الأديب الذي يكتب الرسالة لصديقه يتجرد من قواعد الفن ويرسل نفسه على سجيتها ويترك لها العنان في وصف ما يتكاءدها ويثقل عليها ويحيط بها من العوامل والأحوال وما ينصب عليها من الطوارىء والانفعالات التي تنفعل بها نفس الأديب متى لامست العالم الخارجي أو عنيت بشأن من شؤون المحيط الذي تحيا فيه.

وقد كانت بيني وبين الشابي مراسلة مسترسلة لأن كل واحد منا كان في غربة روحية فقد كنت ببني خلاد وهي قرية من قرى الوطن القبلي ليس بها من المتع الروحية لا قليل ولا كثير وكان هو في قرية الشابية البعيدة عن عاصمة الجريد وليس له في قريته من يعاطفه ويفهم روحه ويستمع إلى أحاديث نفسه. وكنا بطبيعة الحال نتبادل الآراء ويحدث بيننا هذا التجاوب الذي لا بدّ منه للأديب فما نشر أحدنا شيئاً إلا ووجد صداه في الرسائل المتبادلة وما ظهرت فكرة في عالم الأدب أو نشر كتاب أو كثر الحديث حول موضوع أو فكر أحدنا في مشروع إلا ووقع التراسل بيننا.

على أن الظاهرة التي تلفت النظر في رسائل الشابي هي شكواه ووصف آلامه وما يلقاه في حياته من معاكسة الأقدار واشتداد وطأة المرض وتفاهة الحياة التي يحياها في ذلك الوسط فهو تارة يشكو من المرض ويكتب:

«لقد اشتد الضعف على قلبي في هاته المدة الأخيرة بما أوجب معه الطبيب على حرماني من كل الأعمال الفكرية لا فرق بين مطالعة أو تحضير أو كتابة... لا تألم يا صديقي لأخيك فإن قلبي هو منبع آلامي في هذا العالم. ومن يدري؟ لعله سيكون منبعاً لمثل هاته الآلام في عالم آخر. إن قلبي يا صديقي هو منبع آلام هاته النفس التائهة، المعذبة وهذا الجسد المعنى المنهوك وما دمت أحمل بين جنبي هذا القلب الكسير، وما دامت الحياة تهد منه ولا ترحم فإنني أشقى أبنائها».

وتارة تضيق به الحياة بعد موت أبيه فيصرخ:

«أنا في ساحة تعصف بها الهموم وتنعقد من فوقها الأحزان وتخر عليها أمواج الدموع - إن استمعت إلى نفسي لم ألف إلا الأسى يبكي أو أصخت إلى قلبي لم أسمع إلا النحيب أو قلبت طرفي فيما حوالي لم أبصر إلا ظلمات تتدجى من فوقها ظلمات.. إن قلبي الرازح بهموم البشر لأضعف من أن يضطلع بكل ما في هذه الدنيا من مصائب..».

وقد تضيق به قريته ويشعر بالوحشة القاتلة فيخرج إلى الصحراء عله يجد في سعة آفاقها سعة وفي جلالها سلوة وملهاة:

«إنني الآن في عزلة محببة إلى نفسي في الصحراء أو تحت ظلال النخيل وليس معنى هذا أنني هجرت المدينة وفررت بنفسي إلى أحضان الطبيعة التي أجد فيها من معاني الجمال والعطف والحنان ما لا أجده في قلوب البشر الذين مللتهم ومللت أحلامهم الصغيرة وأحاديثهم السخيفة وضحكاتهم التافهة وإن كانت مخضوبة بالدموع. لا فأنت تعلم أنني مكبل بقيود من لحم ودم تجبرني على خوض هاته الحياة البغيضة المستثقلة

وتحرمني من تلك اللذة الوحيدة التي تحن لها أشواقي حنيناً صادقاً في هذا العالم، وإنما أعني بعزلتي أنني أصبحت بعيداً عن الناس ابتعاداً».

وقد تبلغ به خواطر الوحدة إلى أن يسبغ على ما حوله من الأشياء صفات الألم والشقاء فيقول مثلاً في الصحراء:

«جمال الصحراء الذي يمتد أمامي جمال ساهم محموم. ولقد يخيل إليّ أحياناً أنه يفكر في ما وراء هذا العالم الصاخب الموار... في معاني الفناء والموت والظلام. ولقد يبلغ بي الوهم أحياناً أن أحسبه نفساً شاعرة مسلولة تناجي في حمى السقام أحلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأردية الموت».

وهكذا يظل يشكو من كل شيء ويتفجع لكل شيء ويرى كل شيء على مثاله يشقى بوجوده ويثور على الحياة التي اضطرته إلى تلك الحياة.

فيا ليت شعري هل كان مبعث تشاؤم الشابي هو مرضه ونكباته في حياته وعزلته في الصحراء أم هو ولد متشائماً كما تولد الوردة بأشواكها ولو سقيت بنمير الماء وغذيت بمشرق الضياء وظللت بزرقة السماء[1].

---

(1) «الأفكار» س 1 عدد 1 (1 ـ 11 ـ 1936).

الشـــابـي
أدبـه وشعـره

للأديب علي بن هاديه

خلقت مكسور الجناح، لا أستطيع أن أحلق تحت سماء السعادة، وأنعم ولو برؤيتها!.

فنشأت حليف الأحزان، أستكين إلى العزلة، وأترجم عن آلامي الروحية، بأنغام تهدىء لوعة جراحي. وأجد فيها التسلية والسكون والروعة والاطمئنان!.

ولشد ما تبتهج نفسي، ويتغنى شعوري عندما أعثر على قطعة نثرية أو قصيدة غنائية، تلائم أوجاعي، وتتجاوب آلامي مع آلام منشدها، فاتخذها أغنية أرددها في غدواتي وروحاتي...

ولقد ولعت بمطالعة هذا النوع من الأدب، أو بعبارة أصح بالاستماع إلى أحاديث النفس وشكواتها! وسرعان ما اكتشفت أدب الشابي من مجلة أپولو، حتى انكببت على مجلد تلك المجلة، أتصفحه ورقة ورقة، وأقرأ جميع ما قاله الشابي!.

فما وجدت شعراً أعذب من شعره، ولا أسلوباً أجمل من أسلوبه، ولا نحيباً أرق من نحيبه ولا قصيداً ـ تمثلت فيه الروح الشاعرية الحقيقية، ورقة النفس وفلسفة الحب، والجمال. والحياة ـ أروع من قصيده!.

وكم كنت أود لو أجتمع بتلك العبقرية، وأتحادث معها، عساني أن أشاطرها عبئها الثقيل الذي تحمله، وأقاسمها الألم، فأبى القدر ذلك

وابتزها الموت من بيننا فجأة وإذا بي أسمع في يوم من الأيام ناعياً ينعاها وهي في زهرة الشباب! فوقفت حيران بين مصدق ومكذب، ولكن واأسفاه! لقد ماتت تلك الشخصية وسمت روحها إلى آفاق عالم الخلود!.

نعم! لقد مات من نهلت روحي الكئيبة من ينبوعه العذب فرواها، وترنمت بشعره ليلاً ونهاراً، فلم تزدد إلا ميلاً إليه، وتأثراً بألحانه، كان فيه آلامها وغناها! أواه! ما أعظم مصيبة الشعر في فتاه وفاجعة الوطن في تاجه!.

ندبت تونس حظها العاثر، وحزنت الطبيعة على فراق أنيس لها، يتعشق مناظرها البديعة، وسحرها الفتان، وبكى الشباب على شاعر الشباب، وسكر الشعر ونام الشابي نوماً أبدياً!.

وقد أقام التونسيون مهرجاناً أدبياً ـ تعظيماً لتلك الشخصية البارزة ـ في يوم مشهور اجتمع فيه الأدباء من سائر الطبقات وأبّنوا الفقيد الراحل. فانطلقت ألسنة الشعراء بالمراثي المبكية، وجادت قرائح الكتاب بالدراسات الشاملة لحياة الفقيد وأدبه، ثم مر يوم التأبين، وصارت شخصية أبي القاسم نسياً منسياً! نحن نعيب على الشباب في السنة الماضية عدم اهتمامه بالشابي وإن كان جثة هامدة!.

وإني من الذين يعترفون بالجميل إلى من دعا الشباب التونسي إلى إقامة هاته الذكرى، ولمن طلب تكوين جميعة إحياء الشابي...

وها نحن أولاء نلبي دعوة الداعي، ونحتفل في هذا اليوم بذكراه، ونستمع لأدبائنا وشعرائنا. ولما كان المقصود من إقامة هاته الذكرى التعمق في البحث عن أدب الشابي من مختلف نواحيه والتحدث عن تلك الثروة الأدبية، التي خلدها في سجله الأدب التونسي خاصة، والعربي عامة، والتي ستبقى فوق أرضنا جدولاً يجري مدى الدهر ولا ينضب معينه!... ناسب أن أقول كلمة موجزة في أدبه، وإن كان ولعي به شديداً!.

ولعل مطالعتي لقصائد قليلة من شعر الشابي، تمكنني من معرفة

حياته، وفهم آلامه، والتحدث ولو بالقليل عن أدبه الخالد! وأقول الخالد أيها السادة، لأني أثق بأن جميع الأجيال المقبلة ستكبره وتتأثر به وتترنم، وتتذوق معانيه وأسلوبه، وقوالبه وألفاظه، وتعتبره قبلة الأدب التونسي، بل الأدب الحي الذي يثير العاطفة، ويوقظ الإحساس، ويعبر عن الحقائق، وفلسفة الكون!.

فما هو هذا النوع الجديد من الأدب، ومن أين استمده الشابي، وكيف فهمه الجمهور؟.

أيها السادة الأفاضل:

لم يكن للأدب التونسي الحديث ـ قبل الشابي ـ حظ وافر في الأدب العربي الحديث فلما نضجت فكرة الأدب في الشابي نظر إلى حالة الشعر فوجده آلة للمدح والرثاء وغيرهما، فترك هاته الطريقة واستقل بأخرى خاصة به يستمد قوتها من آلام النفس، ونور الجمال، ثم أخذ يصف إلينا ذلك في قصائد كثيرة، و بذلك كون أدباً خاصاً وهو الأدب الذي يتصل بالروح، ويترجم عن أحوالها، فتتذوقه كل نفس، ويفهمه كل قلب، ويلائم كل متألم، فيملك عليه إحساسه وشعوره ويصعد به إلى آفاق بعيدة، فيحس بنشوة وانشراح كأنما هو ينتقل من عدم إلى وجود، ومن عالم محدود إلى عالم غير محدود!.

وإني لم أرَ رجلاً ـ أعز القومية التونسية، وفك أدبها من الأغلال ـ أهلاً لأن ترسم صورته في القلوب غير الشابي.

فهو البطل الذي صير الأدب التونسي أدباً عالمياً، جديراً بأن يترجم إلى سائر اللغات، ويكون نصيبه عند الجماهير الاعتناء بالاطلاع على ما احتوى عليه من الوصف الدقيق والخيال السديد والغناء المؤثر والبكاء الشجي، والنظريات السامية، والتقديس للجنس اللطيف.

فهو إذا وصف جمال الطبيعة والكون، والحب والمرأة يكون متأثراً بذلك الوصف. وإذا طرب وغنى، أو حزن وبكى يعرف كيف يترجم عن

مبلغ تأثره، وإذا أبدى نظرية فإنه يتأمل فيها ولا يبرزها للخارج إلا إذا رضي عليها ضميره. وإذا تأثر بالجمال قدس الجنس اللطيف وهام ينشد مودته والعيشة تحت ظله أين حل وأنى وجد!.

فأدب الشابي إذن. هو الحياة وما فيها من نعيم وشقاء والربيع بأطيافه وابتساماته. والجداول العذبة ذات الخرير. وتغريد الطيور ولغاتها. وسكون الليل المخوف. وضوء القمر الساطع. ودموع المحب الكئيب. والحب الطاهر المتمكن من النفوس العفيفة والجمال الضائع الباكي. وساعة اللقاء الجميل. والأحلام المنشودة. والهوى المتحكم المتسيطر، والحنان والعفة. والسعادة والسرور. والغناء والنواح، والمنى والشباب. والأنس والمودة. وكل ما يلفت النظر وتستكين إليه الإنسانية. وكل جميل تميل نفسك إلى مودته والنسيم المغني والطفولة البريئة! ذلك هو أدب الشابي الخالد. وتلك هي ميزته التي يمتاز بها!.

ولا جرم إذا كانت أعظم ناحية في أدبه تعد جديرة بالاهتمام هي تقديسه الجمال، والكيفية التي ينظم بها شعر الحب. فإذا كان لامرتين يستمد شعره من حبه لامرأة معينة. وتغنيه بجمال امرأة معينة وهي محبوبته التي يهواها. وكان ميساي ينظم قصائده الغنائية تحت تأثير حب مخصص. فالشابي ينظم في الحب الحر، ويتغنى بكل جمال ويستمد شعره من وحي فؤاده.

فهو ينشد الحب أين سار. ويراه في سنا الفجر. ويسمع صداه في شدو الطيور. ويستنشق رائحته من شذى الزهور. ويشيد هيكله في قلبه. ويستضيء بنوره في ظلماته. ولم يكن الشابي في يوم من الأيام محباً يصف إلينا حباً ابتلي به. والنكبات التي تعترض المحب في سبيل حبه. والحالات التي تعتريه من تأثر عميق. وشوق عظيم إلى اللقاء، وحزن أليم من الفراق!.

ولو كان محباً متألماً بحبه. لنظم قصائد أبلغ تأثيراً وأشد وقعاً عن

النفس. ولكنه كان متأثراً بكل جمال، يصف إلينا الحب بصفة عامة ـ كأنه محب ـ دون التأثر بهوى محبوبة معينة.

ومن هنا ظهر تفوق الشابي على غيره. وعبقريته ونبوغه.

فهو يتحدث عن المرأة الجميلة من حيث هي. ويتقرب إليها بصلواته للعيشة معها. لأنه يراها الحياة والسعادة. والسحر والنشيد القدسي. بل أنه يراها خلقت ليتعشق الناس جمالها. ويقدسوا شرفها وهو الذي نظر إليها بالنظرة السامية. وأحبها حباً نقياً. لا تدنسه الشهوة البهيمية. واللذة المضمحلة!.

هذه أيها السادة آراء الشابي في المرأة كما يظهر ذلك في شعره. وتلك نزعته في نظم شعر الحب. أما فيما يتعلق بنظمه الشعر الوجداني أو شعر ألمه وتشاؤمه وما هي الأسباب التي حملته على قول ذلك الشعر المظلم. فهناك كلمة لا بدّ من بيانها.

لقد ضمخ الشابي أكوابه. وأترعها بخمرة نفسه وهو في ربيع الحياة. ثم قدمها إلى شعبه ظناً منه أن هذا سيجد فيها نشوته. ويعيرها التفاتاً. وعساه بذلك أن ينتقل من الجمود إلى الحركة. ومن الذل إلى العز. ومن الاحتقار إلى العظمة والإكبار. ومن عالم الأوهام والأحلام إلى عالم اليقظة والحياة. فأخرج أوائل قصائده شعراً يتشاءم فيه من قساوة الحياة. وتقلب الزمان. وسكرة الشباب وهي كقطعة من وجوده تنبئنا بحالة الشاعر أثناء ذلك العهد، وقد وقع في ظنه أنه أظهر إلى شعبه نغمة جديدة لا عهد للأذان بسماعها. وكان بذلك ينتظر منه الرغبة في تأمل أدبه. وتفهم مقاصده. فخاب ظنه وإذا الشعب يجازيه على عمله هذا بالسب والشتم. ويرميه بالإلحاد والتنطيع. وإنكاره مزايا اللغة العربية وجهله بأسرارها. وسقم خياله لتذوق أساليبها ومعانيها ولا ذنب له سوى أنه مجدد. يسجل في شعره آلام نفسه وأنغام قلبه، ويأبى التقيد بالطرق التي سلكها أسلافه، والتي تقيد حريته في تفكيره!.

من أجل هذا أهان الشعب شخصية أبي القاسم، وأراق خمرته من قلبه وداسها بأرجله. ولكن أبا القاسم إزاء ذلك كله. كان يهزأ بأولئك، الخصوم ورغم إساءتهم إليه، فإنه لم يعبأ بهم وأظهر إليهم نفسه الحليمة، وقبل هذا الاعتداء ببسمة مرة، واعتبر شعبه طفلاً صغيراً، لا يزال يلعب بالتراب، ولا يدرك الخير من الشر لا يميز الخبيث من الطيب!.

هاته الأسباب الممقوتة زادت أبا القاسم آلاماً على آلامه، وحسرة على كمده، فتراءت له الحياة ظلاً ونظر إلى الدنيا يستعطفها فغضت الطرف عنه. وإذا العالم ينقلب انقلاباً، فلا صديق ولا أنيس ولا نور ولا رحمة، ولا إغاثة ولا رجاء، ولا حرية ولا عظمة، ولا صواب ولا حقيقة، ولا حب ولا سرور، ولا أمل ولا حياة!.

كل شيء في الوجود حزين يبكي ويشتكي من هذا الانقلاب العظيم الذي رد العمران خراباً، والأنس وحشة، والنعيم شقاء!.

فإذا كان هذا مما يحزن الطبيعة ويبكيها، فما هو حكمكم أيها السادة على شاعر احتقره شعبه، ونبذ كلامه، فاستلجأ بالعزلة، وركن إلى الوحدة، وإذا بالعذاب الأليم يتبعه، والشقاء السرمدي يعاشره، ولا يجد صديقاً حذوه يبث إليه شكواه، ويناجيه سوى وجدانه، المحروم مثله من السعادة والهناء.

فكلاهما يشكو وجعاً، وكلاهما آلمته الحياة، وأعرض عنه الحظ، وأصبح كالريشة الضعيفة تدفعها الرياح للهوج، ولا تجد ملجأ تأوي إليه وتتقي به!.

ولعمري إن الشاعر إذا وجد بين نارين، وسمحت الظروف بتركه في جحيم من العذاب، يستحيل عليه أن يقول الشعر في السعادة دون الشقاوة، والتفاؤل دون التشاؤم، وفي محبة الحياة دون سآمتها وفي التغني بالوجود دون ذكر أتعابه، وفي التمتع بالملذات دون ذكر مرارتها، وفي السعد دون النحس، وفي ذكر محاسن الكون دون مساويه، وفي التحدث عن الرحمة

دون القساوة، وفي الحياة دون الموت! وقد شيد الشابي في عهد طفولته وسذاجته قصوراً من الأماني العذاب، ليعيش ناعم البال، مرتاح الضمير، وكان يؤمل الوصول إلى غايته المنشودة لما تجاوز فجر الشباب، وإذا بفجره القدسي يتوارى، وجنته المنتظرة تضيع، وإذا به في نكد من العيش، وملل من البقاء!.

كل هاتيك الأسباب جعلت من الشابي رجلاً غريباً شقياً يحيا في دنيا محجبة عن العيون، وحيداً ليس له من يحادثه سوى ضميره وقد استطاع أن يترجم لغته وميوله وأهواءه، ولكنه قل منا وندر من استطاع أن يفهم تلك اللغة وقوتها وتأثيرها. ولا شك أن الدفاع الوحيد الذي أوحى إلى الشاعر هذا النوع من الشعر، يرجع مأتاه إلى أسباب أوجدته في ظروف عسيرة، أغضبته وأساءت إليه كثيراً، ولذلك لا نراه يتحدث في شعره الوجداني إلا على نفسه، ولا يشكو إلا من نفسه، ولا يسخط ولا يثور إلا على نفسه! وقد نشأ للشابي عن ذلك فلسفة تراءت في البعض من قصائده. وهي أسئلة ألقاها الشاعر في أوقات الحيرة، ولكن العقل البشري ليعجز عن الإجابة عنها: كيف كانت بداية الكون وما هي غايته التي ينتهي إليها! ما هي رواية الموت وكيف يكون ختامها! وربما مال قلبه إلى التفتيش عن السعادة، فأخذ يطمئنه بأنه لا رجاء له في تحصيلها، خصوصاً وهو يعتقد بأنها حلم ناء في هاته الدنيا، وأنه يجب على الإنسان أن يأخذ الحياة كما جاءته مبتسماً، راضياً بها، وأن يتئد في مضض الدنيا، لأن الليالي أحلام مغردة، والحياة وما فيها حكم وظل يجب أن يدوسه القلب بدعة وثبات! وفلسفة الشابي هذه ليست فلسفة دراسة وبحث وإنما هي آثار ثورات نفسية، ونتائج تفكير عميق شحذ الخيال وقاده إلى فضاء بعيد يدهش البصر، ولا يحده إلا الأفق من جميع النواحي.

فهناك يسبح الخيال في البحث عن الحقائق، ويقف المرء متسائلاً أمام تلك العوالم الخيالية، وأثناء ذلك الموقف الرهيب!.

هكذا كانت نظرة الشابي إلى الكون نظرة الهازىء الساخر بسعادته، والمتأمل في حقيقته وتصرفاته! .

ويحق لي أن أعتبره فيلسوفاً لأنه كان يستمد فلسفته من أثر تفكيره، والطبيعة الحالمة، وعبر الدهر، ومآسي الحياة! .

وإني إذا تكلمت عن الشابي الشاعر، والشابي الفيلسوف، فلا بدّ لي أن أتكلم أيضاً عن الشابي الوطني.

فقد كان ـ رحمه الله ـ يحن إلى وطنه ويتمنى له التقدم والرقي، ويعلم الظالم الطاغي بأنه لا ينجح في سعيه ما دام مستبداً يحتقر الضعيف، ويذل الأهلي ويعامله معاملة إساءة تخالف مبادىء الإنسانية، وتأباها النفوس الحرة. وهو مؤمن كل الإيمان بأن شعبه إذا طلب الحياة يوماً ما، فلا بدّ للقدر أن يستجيب لطلبه، ولا بدّ للقيد أن ينكسر وللشعب المهضومة حقوقه أن ينتصر! .

وبذلك كان أبو القاسم يقاسم الوطن آلامه وتعاسته وبؤسه حيث أخذت الوطنية نصيبها في أدبه، وإن لم تكن قصائد هاته الناحية رفيعة، حية، تتمثل فيها الروح الوطنية المتحمسة، والقومية التونسية، بأجلى صورة، وأسمى عبارة.

وهنا ينتهي البحث عن أدب الشابي، وأتناول الكلام عن حظه الذي ناله لدى الجمهور.

أيها السادة الأفاضل! .

هل طالعتم شعراً تأثرتم بأنغامه الموسيقية ورقته وعذوبة أسلوبه أجمل من شعر الشابي؟ .

هل قرع أسماعكم بكاء الأدب، ونواح الشعر، على هذا الشاب النابغة، الذي خفت صوته فجأة، ومات غريباً وهو يتجرع كؤوس الآلام دهاقاً؟ .

هل آن لكم أن تعظموا قادة الفكر، وتكبروا زعماء النهضة الفكرية. وتتركوا التقليد الأعلى. وتكونوا في نفوسكم ملكة انتقادية يميز بها كل باستقلاله النظريات دون اتباع الغير في أفكاره. ولو كان ذا جاه وصيت!.

آه. أيها السادة. يعز عليّ أن أرى أمتي لا يزال مجتمعها مريضاً بهذه الأوهام. يسير القهقرى وغيره في التحسين والتقدم!.

يعز عليّ. أن أرى الأمة التونسية. تجهل قيمة الأشخاص وعظمة النابغين من أبنائها. وترضى بأن تدمرهم تدميراً في حين أنهم يبنون لها المجد. ويسيرون بها إلى مدرسة الحضارة. وسلم الرقي. وقد لقي الشابي هذا كله من أمته عندما أبرز إليها أدبه فإنها أنكرت عليه تجديده. لأنها لم تفهم نشيده. وهزأت بآرائه. ولم تحتفل بربيعه الحافل ورمته بالجنون. وسامت شعوره سوم بخس وألبسته ثوباً من الحزن. وداست زهوره الشذية. لأنها على زعم قادتها. لم تقطف من أرض عربية. ولذلك يجب أن تقام السدود في وجه ذلك المتلاعب. ويهدم بناؤه أين وجد. وتقاوم طريقته حتى يعدل عنها. وما زالت هاته الأمة المغترة تتبعه. وتهتف وراءه هتاف السخرية. وترميه بالحجارة. حتى سئم الشابي الحياة وعانى الآلام دون أن يتوجع إليه أحد. أو يسليه أحد. ومرض وعانقته الكآبة. وفكر ولم تذرف الدمع عيناه. واستغاث بالشعب فلم يهتم بصرخاته، ودعا وصاح، وثار وتبسم ثم. . . ثم ذهب إلى القبر حاملاً بين جوانحه قلباً مكدوداً رسم الألم عليه بريشة الشعر حسرة مؤلمة. وذكرى محزنة. وحياة تعيسة!.

ولم تستفق هاته الأمة من سباتها. ولم تنتبه إلى طغيانها إلا بعد موت الشابي!.

فقد صاحت صيحة مزعجة وهي تقول: أواه! ما أشقاني وما أجهلني. لقد كان لي شاعر أعزني وأذللته. وأسأت إليه في حياته فأين هو الآن؟ ـ واويلتاه! لقد فارقني فراق الأبد! فما العمل يا ترى؟ ـ هل مات بدون رجعة. وغاب بدون إياب؟.

آه أيها الشاعر، ليتني تربصت قليلاً عندما عرفتك واحتفلت بك حياً. وليتني لم أطعنك في الصميم. لقد أنجبتك تونس بعد انتظار طويل، فلم تشعر الأمة بوجودك حتى غيبتك في الصحراء واحتضنتك الرمال. ولست بالرجل الذي يغفل عنه أو يقاوم وينسى. ويموت موتين وقد كتب له موت واحد!.

ولكن من يخاطب هؤلاء القوم؟ إن هاته العبارات لا تسلي أبا القاسم ولا تنفعه ولا تضره. وإن كان واجبنا يحتم علينا أن يحتفل بذكراه. وأن نقيمها السنة بعد السنة.

فهو زعيم المكتب الابتداعي (Romantique) في الأدب التونسي. وهو أول من فتح المدرسة الابتداعية في تونس. (Ecole Romantique) ويحق له أن يسمى أستاذها ومالك ناصيتها يوم تفاخر به تونس أخواتها الشرقيات!.

وستتخرج عن هاته المدرسة نخبة من أدباء المستقبل تسير بالأدب التونسي إلى الأمام بثبات ورصانة، وستجد من أمتها معاضدة ورغبة في الاطلاع على إنتاجها. والآن أيها السادة، دعوني أبكي الفقيد وأنوح عليه! أي أخي العزيز: ود بعض المغرضين لو يهدمون صرحك الذي بنيته، ولكن رسالتك الأدبية بلغت بشبابنا كله وها أنت ذا اليوم تحيا وتعيش رغم أعدائك محبوباً معظماً!.

إن مصابنا فيك لعظيم يا من رفعت علم الوطن، وشدت له مجداً متيناً، ووطدت كيانه ومركزه الاجتماعي، ولحقك من الأذى ما لحقك لأجله أولاً، ثم لأجل عملك الذي ثابرت عليه بإخلاص وتئاد.

فنم في قبرك يا أخا الصفاء، نوماً هادئاً لذيذاً تغمدك الله برحمته وغفرانه[1].

---

(1) «الأفكار» س 1 عدد 3 (1 ـ 1 ـ 1937).

شاعرية أبي القاسم

للأستاذ نور الدين بن محمود

حضرات الأدباء الأفاضل.

سادتي.

هل يتسامح معنا فقيدنا الشابي فيمكننا في هذا المساء من تناول ناحية من حياته هي لعمري أهم النواحي التي تعلق بالذهن وتنطبع في الفؤاد؟.

وهل يتساهل معنا كل التساهل فيرخص لنا أن نتعرض في إسهاب إلى أبرز شيء من شخصيته القوية الفذة فنأخذها بالتحليل والنقد وعهدنا به يغار على أدبه ويتحرج من الذين يحكمون عليه من غير تروٍ ومن غير تربص؟.

هذه محاولة على كل حال أقوم بها مع ما فيها من تبعة ومشقة، لا إرضاءً لضميري فحسب ولكن إنصافاً لذلك الروح التائه وتلك الشاعرية المتدفقة الفياضة، وحسبي أن أكون مخلصاً في محاولتي هذه ليطمئن ذلك الضمير المتطلع إلى جمعنا هذا وكله حيرة ورجاء.

* * *

فقدنا أبا القاسم منذ ثلاث سنوات ولما يجتز من حياته إلا ربيعها وكان أملنا أن يسترسل في دعوته ليكتمل فنه ولتعم رسالته، فسكت بفقده ذلك الناي المحتجب وتجاوبت أصداء الخريف وأصداء الشتاء تنعي ملقنها الأمين وحظها العاثر.

سادتي.

تتفتح الزهرة في الصباح الباكر فيسقيها الطل بدمعته لتتسرب إليها

الحياة مع ما فيها من بهرج وجمال فيعودها الأمل والرجاء ثم يأتيها آتٍ من بعد ذلك يخذل منها الأماني ويقرح منها الفؤاد فتنكمش ثم تذوي على غصنها الشاحب فيتبدل رأيها في الحياة ويذوب في أرجاء الفضاء غرورها الذي ساورها من قبل فتصخب وتتمرد بعد أن فقدت أمانيها وأفراحها.

ذلك الشأن في الزهرة وذلك الشأن في الشاعر غير أن أبا القاسم شذ عن هذه القاعدة وحمل على دهره تلك الحملة التي رعشت لها الرياح واهتزت لها العواصف قبل أن تلقنه التجربة تمرد الدهر وتنكر الأصدقاء. فإذا كان الشعراء ينتقلون غالباً من ربيع الحياة لينتهوا إلى خريفها وشتائها فأبو القاسم ابتدأ بالشتاء لينتهي إلى الربيع.

شعره لو تدبرناه تبرم وسخط وأبياته لو عصرناها دمع دائم وشقاء مستمر. وعفواً نظفر في بعض القصائد بقبس من الرجاء وشعلة من الحب فتخطفها خاطفة قبل أن تكتمل وتشتد وتلقي بها إلى جبابرة الظلام.

هذا النوع من الشعر، شعر التشاؤم، رغم تكرره في الأدب العربي (في ديوان ابن الرومي مثلاً) فإنه لم يحظ بمثل ما حظي به أدب الشابي ذلك لأن الوسيلة اختلفت بين شعراء العربية السابقين وشابينا. فالروح واحدة لا محالة وسبب التمرد في وجه الحياة متماثل بين شعراء التشاؤم في العربية غير أن الطريقة التي اختارها أبو القاسم ضمنت لأبياته البقاء ولمنشدها الخلود فإذا تصدينا اليوم لبيان تلك الطريقة فإنما قصدنا من ذلك أن نسجل هذه الظاهرة الصائبة التي أوجدها في أدبنا المعاصر نبوغ الشابي وعبقريته.

إن الغرض من قرض الشعر وصوغه، كما يراه الشابي، إنما هو التعبير عن فكرة شاردة نروم تسجيلها وبقاءها، بكلمات منمقة فيها براعة النحات وذوق الرسام، ليقبلها الوعي ويرتاح لها الوجدان. رأى فقيدنا ذلك فاعتنى بالفكرة اعتناءه بالأسلوب وأضاف إلى السببين شيئاً من قلبه لتأتي الأبيات كما يرضاها «صدى لنحيب القلب، والصب الغريب».

كانت معالجته لذلك بطريقة لا أثر للكلفة فيها فابتدأ بالعواطف العامة التي يراها كل البشر وصوب عليها شعاعاً من روحه وقارنها أول الأمر بما يشعر به في قرارة نفسه وخلجاتها ثم شرع ينشد للفضاء الفسيح ما أوحت به إليه تلك النفس بصدق وأمانة. فكانت هذه الوسيلة هي التي مكنته من سر العظمة وسر النبوغ.

وطريقته هذه هي الطريقة التي ارتآها شعراء الإبداع في فرنسا Les Romantiques منذ قرن فكان مبدؤهم شدة الاعتداد بالنفس وفرط التحدث عن أحوالهم وشؤونهم (Amour du moi) واحتقار الجمهور الجاهل المتعصب وكان طبيعياً أن يجدوا المقاومة فشهروا الحرب على الناس قبل أن يشهروها عليهم وحملوا على الطريقة القديمة، الطريقة الاتباعية في الشعر Ecole Classique بأن شنعوا بها وبأهلها.

لقد وجدوا شعراً ساذجاً في التزلف والتودد ووجدوا كذلك أبياتاً ذاب فيها سوء الذوق وسوء الاختيار، استنجد أصحابها بالمجازات والكنايات والاستعارات ليعرف عنهم أنهم من الشعراء البارعين فانتصب شعراء الإبداع لجميعهم خصوماً يدعون للجمال بيد تحمل دمية الفن وسيمة، وضاءة، وأخرى تحمل سلاح المقاومة العنيف.

وسايرهم أبو القاسم في ذلك السبيل ورأى مثلهم أن للبيت جمالاً قدسياً لا يمكن أن يغشاه التهاون والابتذال فنفض يديه من ذلك الجمال الموهوم، جمال الصناعة، والكلفة، جمال الاستعارة والتضمين وطفق يطلب الفن من معينه والحسن من ينبوعه.

ولما انتهى من معالجة الفكرة بعد تحوير أغراضها وتبديل وسائلها انثنى إلى الأسلوب ينقحه ويبدله كما فعل قبله الرومانطيقيون فحرر البيت من قيود فرضها عليه الماضي ورجاله، وأحيا وقعه وموسيقاه. فكان ذلك التطور في هيئة الشعر العربي أعظم سبب أرجع إليه الروح بعد اليأس ومدد في حياته.

هذه الناحية الشخصية من شعر أبي القاسم هي التي تغلب على غيرها. والمطالع لأول وهلة ديوان الشابي تبادره كثرة تحدث الشابي عن نفسه فلا شقاء إلا شقاؤه ولا حب إلا حبه ولا جمال إلا جمال أقرته عينه ورضي به قلبه. على أنا نجد ناحية أخرى في أبي القاسم وهي ميله إلى طرق المواضيع العامة التي لا دخل لشخصيته فيها. وهذا الميل نجده في شعره الذي أنشده اعترافاً بهيبة الطبيعة وجمال الوجود.

ونستغرب من الشابي أن يدعو للطبيعة وإلى روعتها بعد أن جحدهما، ونتعجب كذلك عندما نشاهد أن تلك الدعوة لم تحدث قبل بل كان حدوثها عندما شعر أبو القاسم بقرب الساعة فتودد للأرض والطبيعة لأنه يعلم أن مصيره إليهما. فلو فتشنا عن السبب لذهب بنا الفكر إلى أن أبا القاسم كان أول الأمر يشعر بما فيه كامن من القوة والجبروت فسخر من الطبيعة وكائناتها ولم يجد عليها إلا بنثر أحزانه لأن الكون «ليس تستهويه ألحان الطيور»، تلك الألحان التي يعشقها الشاعر ويتطلبها الأديب. ثم إذا ما هدّه المرض وعبث بجسده الهزال تغلبت عليه الطبيعة (والشاعر والطبيعة قوتان تتصارعان إلى الأبد) فأخذت ثأرها منه وأرغمته على درسها فأخذ يقر بآياتها ويرى فيها:

شذى حلواً، وسحراً، وسلاماً، وظلال
ونسيماً ساحر الخطوة، موفور الدلال
وغصوناً يرقص النور عليها والجمال
واخضراراً أبدياً ليس تمحوه الليال

إنا أيها السادة سنعرض في السطور التالية بعض القصائد التي قالها الشابي في مواضيعه الخاصة: في الجمال والفلسفة وغيرهما ثم نختم بشعره في المواضيع العامة كوصف الطبيعة وغير ذلك وعسانا نكون موفقين في بحثنا بعض التوفيق إذا اعتمدنا على بعض ما وصل إلينا من آثاره أما البقية فالله وحده يعلم مصيرها.

الشعر الشخصي:

1) في الحب والتغزل:

وشعر أبي القاسم في الغزل والحب يكاد ينحصر في أمرين: شعر قوي ناضج وشعر رخو لم تمهد له سبل الاكتمال. فإذا كان الشابي في أول عهده يرى الجمال فيحتار أمام هيكله ويتراجع ليشكو جواه مفضلاً الدمعة والتنهدة على الثبات والجلد فإنما هو في ذلك يعمل بنصيحة فيكتور هوفو الذي قال:

إبك! ليبلغ إليك العلم. إن الدموع هبة!
عندما تشعر الروح بأن الشك أخذ يتقهقر
وأن نهاراً سرمدياً بزغ في الليل الحالك
تنشر تلك الروح طلها الرائع الحلو

فإذا كان الشابي في أول عهده بالحب، يقصد حرمته طائعاً مستعظماً لشأنه فيقول:

أيها الحب، أنت سر بلائي   وهمومي وروعتي وعنائي
ونحولي وأدمعي وعذابي   وسقامي ولوعتي وشقائي

فهو في ذلك يسترحمه ويطلب منه أن لا يتصلب معه وأن يرفق بجسمه النحيل السقيم. فهذا النوع من الشعر كثيراً ما تطالعنا به الصحف. فمن أبيات موزونة إلى ألفاظ منتقاة إلى جمال في البيت، غير أن الشعور مفقود والعاطفة محذوفة.

لم يتوصل الشابي في أول عهده بالشعر الغزلي إلى بيان خلجات النفس الكمينة وتشرد الضمير وبلبلته أمام وجه الحبيب فسعى إلى تصوير حال الحب بالنظر إلى المحب الماثل أمامه فيقول وهو يتكلم عن كهرباء الغرام:

كهرباء الغرام في الأعين النجـ   ـل وتيارها بسلك الجفون

فيخونه النفس ولا يقدر على الاسترسال في وصف الغرام وكهربائه فيقف أولاً ثم يستأنف سيره منشداً:

فـإذا مـا انجلـى نقـاب الأمـانـي صـار صبـاً مـدلهـاً ذا فتـون

ألا ترى أن الشابي في مثل هذا الموضع لا يقدر أن يتكلم عن كهرباء الغرام أكثر مما ذكر. لقد تشعبت أمامه السبل فوجد الصب المدله أمامه فأخذه مصوراً لنا حالته النفسية لشدة علاقتها بالغرام.

ولعلنا نجد له عذراً في قرب عهده بالنسيب ووفرة إنتاجه وحداثة سنه وكأن أبا القاسم تفطن إلى هذا الأمر فأخذ في تداركه عندما اكتمل ذوقه وصفت قريحته في هذين البيتين:

نسمـة هبـت علـى ضـوء القمـر نفخـت فـي النـاي أحـزان الخلـد
ضـاق صـدري مـن جـراهـا واستعـر وأراق الـوجـد آسـاد الجلـد

فالحب عنده هو النسمة والقمر والناي والأحزان عندما يلتئم بعضها ببعض وعندما يتكون من مزيجها نفخ من الناي يسمعه الشاعر في خلواته، والفنان في معبده والنحات في معمله.

ثم انظر إلى الشابي كيف يوفق بين الخيل والأسر في مقام التحدث عن فتاة هام بها فؤاده:

قلبي تردى من علا صهوات خيل الهوى فغدا أسير فتاة

ألا يبلغ إليك ذلك السحر اللذيذ الذي نحس به عند ترديد البيت. ألا ترى أن في التوفيق بين الكلمات المتنافرة ومدلولاتها المتباينة وحشرها في مقام النسيب والتغزل عملاً لا يأتيه إلا من نضجت أفكاره وسخرت له القافية تسخيراً.

وإذا كان رأي الشابي أن يكون الحب عذرياً لا يقصد منه الشهوة ولكن العاطفة مجردة عن كل شائبة:

«أنا مأسور لذات الحجب»

تلك التي سترها عفافها وطهرها من تهجم المتهجمين وعبثهم فهو لا يكتفي بذلك بأن يقتصر على نفسه بل هو يدعونا لنفعل مثله فيحذرنا من التحديق في تلك الفتيات المحتشمات والتطلع إلى قلوب تلك الكواعب:

إيــاك والتحليــق فــي   خلـل البـراقـع للحـور
وتطـاول الأعنـاق نحـ   ـو جمـال ربـات الخفـر

هذه سادتي مزايا الشابي على الشعر الغزلي. وبيت مثل هذا:

ماء الحياة بخدها متموج   كتموج الأنوار بالمشكاة

لا ننساه بسهولة ولا نهمله لأنه طريف ومبتكر ومنه ومن مثله يظهر لنا أن طريقة الشابي في النسيب هي اختيار الألفاظ الموسيقية العذبة التي لا يشق على السامع فهمها بل يشق عليه تقليدها. والإكثار من التشبيه وخفة البيت وسمو اللهجة.

(2) الشعر الفلسفي:

يقول جبران: «الفن خطوة من المعروف الظاهر نحو المجهول الخفي. إن حياة الإنسان لا تبتدىء من الرحم كما لا تنتهي أمام القبر».

ويقول الشابي:

نحن نمشي وحولنا هذه الأكوان
تمشـي لكـن لأيـة غـايـة؟

لقد أدرك الشاعران أن في الوجود أشياء نحتقرها ولا ننظر إليها إلا بالنظرة المجردة مع أن لتلك الأشياء حياة مثلنا وتطوراً في أوصافها وهيئاتها ننكره. لأنا لم نطل البحث ولم نتفرغ إلى الدرس وتقصيرنا من هذا الوجه هو ما حاول الشاعران تنبيهنا إليه. تأمل في الطبيعة.

إن أزهار الربيع تبسمت أكمامها

لا عفوا. فلهذا الابتسام أسباب ومقاصد. لقد حيرت الأزهار مثلنا عواطف قوية أضرمت منها الشعور. فهي لا تفتح أكمامها إلاّ حباً في أن:

ترنو إلى الشفق البعيد تغرها أحلامها

تلك الأحلام التي سبق منها أن غرتنا وأوقعتنا في شراك الهوى وهاته الأزهار «في صدرها أمل» غير أن ذلك الأمل ستلحده جبابرة الوجوم».

من هذه الدعوة وغيرها رام الفيلسوفان أن يشرفا على ضمير الزهر وأحوال الكائنات. باحثين. بعد أن أشرفا على قلب الإنسان ليجعلا من جميعها قوات شاعرة تتنبأ بمستقبلها وتتطلع إلى مصيرها لأن لها غاية في هذا الوجود ومثلاً أعلى.

والفيلسوف يهمه قبل كل شيء أن يفهم كنه الأشياء، ولا يقف همه عن هذا الحد بل يتجاوزه بأن يدعو تلك الأشياء إلى فهم ذلك الكنه الذي توصل إليه بعد التفتيش.

لقد مات حب الشابي ومات من بعد ذلك قلبه فهل يكتفي بذلك؟ لا. نراه من بعد يحول أنظاره نحو شيء آخر يشعر مثله بسمو المأمورية وقدسية الواجب فينشد.

فاذرفي يا مقلة الليل الدراري عبرات

ليطمئن ضميره وليعلم أن دعوته بلغت مقلة الليل وأن في الوجود قوات تفهمه وتعطف عليه.

كان الشابي في أبياته الأولى الفلسفية تغلب عليه الحيرة.

ما الذي خلف الغيوم؟

ما الذي خلف النجوم؟

ما الذي يكتمه الدهر ويخفيه الغد؟

ما الذي يحجبه غيم الحياة الأربد؟.

ثم أخذ في التفكير والتفكير لا بدّ له من السكون فتراه ساكناً مثل جميع الكائنات راكد الألحان. إلى أن يرجع فائزاً بضالته فيقول:

«لا! فما هذه الحياة سوى فلك سيرسي على ضفاف اليقين».

فالفلك نشاهده وهو الشيء «المعروف الظاهر» الذي حدثنا عنه جبران وضفاف اليقين هو الشيء «الخفي المجهول» وهذا الشيء المجهول أمكن له اكتشافه في الرعد:

... قـــوة تسعـــى　　　بـاعتسـاف واصطخـاب
يتـــراءى فـــي ثنـــايـــا　　　صـــوتهـــا روح العـــذاب

وهو:

علـى سـاحـل البحـر أيـن يضـج　　　صـراخ الصبـاح، ونـوح المســا

فهل اكتفى بذلك أبو القاسم وهل فرح بالنتيجة كلا! نراه إذا ما قصد البحر يشكوه:

مهجـــة أتـــرعـــت　　　بـدمـع الشقـاء وشـوك الأسـى

ضاع التنهد في الضجة
بما في ثناياه من لوعة

وإذا ما سار نحو الغاب:

لم يفهم الغاب أشجانه
وظل يردد ألحانه

وإذا ما وقف على النهر:

ما خفف النهر من عدوه
ولا سكت النهر عن شدوه

وإذ ذاك يظهر له نكران الطبيعة لجميله فهو الذي أشعرها بما ينبغي لها أن تعلمه وهو الذي لقنها سر الكون فلا تهتم به وتظل تردد ألحانها التي

تهمها وشدوها الذي يخصها. فيبكي من شدة اليأس:

سئمت الحياة وما في الحياة   ولما تجاوزت فجر الشباب

ثم يقر بعجزه:

ما جنينا ترى من السير أمس؟
قد رقصنا مع الحياة طويلا
وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالي حفاة
في شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا
وشربنا الدموع حتى روينا.

لأنه لا يعلم الغاية من سير الوجود. ونفسه إذا ما ساءلته عن هذه الغاية يجيبها بعنف:

سل ضمير الوجود كيف البداية

هو في آخر أمره. فيلسوف حائر. لم تبلغ رسالته للناس ولا للكائنات رغم رجائه وأمله في ذلك.

«فيجف سحر الحياة» أمامه فينادي «قلبه الباكي»:

«هيا نجرب الموت هيا»

فإذا كان الشابي في شعره الفلسفي أقرب إلى تصوير حيرته ورسم صور الأشياء من تعمقه في فهمها ومحاولته تحليل ألغازها فهو رغم ذلك يأتينا ببديع القول لتنفذ تلك النظريات لأرواحنا بطريق الشعور والموسيقى.

إن الشاعر لا يمكن له أن يعالج الفلسفة وغموضها في أبيات يتصرف فيها الوزن وتتحكم فيها القافية. والفلسفة تحتاج إلى بناء الفكرة على الفكرة لنظفر آخر الأمر بالاستنتاج الأخير والشعر لا يمكنه أن يصبوا إلى مثل ذلك لعجزه عن أداء رسالة كهذه يتفرد بها النثر.

فالفلسفة التي نطلبها من الشاعر إذن فلسفة قريبة من المفهوم لا يحتاج فيها الشاعر إلى التحليل والبسط بل يكفيه التلميح والإشارة. وشعر أبي القاسم في الفلسفة هو أرقى شعره وأبلغه. نضجت فيه الفكرة واكتمل فيه الأسلوب وسمت فيه النظرية. ففيها وفق الشابي بين ساحرية الشعر وغموض الفلسفة.

الشعر العام:

وهذا الشعر اكتشفه أبو القاسم أخيراً مع أنه عاش على أبواب الصحراء بين واحات الجريد الغناء. فإذا تركناه يصفها لنا بعد أن تجاهلها ردحاً من الزمن، ففي وصفه لون ناصع، وضيء كله حكاية لما أحس به الشاعر عند مناجاته لها. ألا تراه يصف الطبيعة وليالي الصحراء الصافية:

لست أنسى ليلة حالكة سربلت زرقاؤها بالسحب
لبست ثوب ظلام دامس وسكون هائل ذي رهب

وأغاني الرعاة في منظر أشبه ما يكون بمنظر الحياة الطاهرة المتحركة عندما تتجاوب في أرجائها مزامير الكائنات بالنغمة العذبة المحيرة:

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الغصون المائسة
والصبا يرقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسة

إلى أن ينفحنا في وسط النشيد بأبياته الخالدة:

وإذا جئنا إلى الغاب وغطانا الشجر
فاقطفي ما شئت من عشب وزهر وثمر
أرضعته الشمس بالضوء وغذاه القمر
وارتوى من قطرات الطل في وقت السحر

إن الاسترسال في التشبيه، والابتكار في المعنى، والإبداع في اللفظ،

ووقع الكلمة وموسيقاها هي الأمور التي وفرت الجمال للقصيد وإن أعظم شيء يدلنا على قيمة شاعرنا الفنية هو توفقه في اختيار البيت الخفيف، المرح في المواضيع التي تموج حياة ورقة. فيكفيه فخراً أن تكون أبياته تلك مع رقتها لا تزال تحتفظ بروعتها وموسيقاها ورغم بعده عنا وتلاشي تلك الأبيات.

وللشاعر قصائد تبرم فيها على قومه، كلها حقد وثورة:

فافهمي الناس، إنما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد

لأن:

الناس لا ينصفون الحي بينهم حتى إذا ما توارى عنهم ندموا

وقصائد في وصف الشعر:

يا شعر! أنت مدامع، علقت بأهداب الحياة

يا شعر! أنت، دم تفجر من كلوم الكائنات

غير أن الشاعر لم يسلم من بعض العيوب كالغرابة في اللفظ:

يقولون صوت المستذلين خافت وسمع طواغيت التجبر أصخم

وفساد التشبيه:

فالدهر منتعل بالنار، ملتحف من المآتم والأيام تشتعل

وغير ذلك. على أن بعض هذه العيوب في المواضيع الثانوية تغتفر أمام ذلك اللفظ الجزل وذلك الإبداع في طرق المواضيع الكبرى.

الخلاصة: للشابي طابع خاص يطبع به شعره. وهذا الطابع راق في جوهره. رائق في أسلوبه. أحسن شعره ما قاله في الفلسفة والغزل ووصف الطبيعة ففيها نال الإبداع، ومتوسط شعره أنشده في المواضيع الثانوية، في التشكي من الناس والكلام عن الحق والأمل والقنوط لاختياره الأسلوب القوي واللفظ الغريب على أنا لا نعثر له على شعر قصصي بالمرة.

ولا ننكر فضله على الشعر الحديث بأن مده بقطعتي «من أغاني الرعاة» و «شكوى اليتيم» فإن تأثر بجبران ولامارتين فغيره تأثر به أيضاً. وما قصيدة بشارة الخوري (الهوى والشباب) إلا قطعة من الملل الأليم فبيته:

فأفرغت كاسي ثم حطمتها على شفتيا

نجدها في بيت الشابي:

فحطمـت كـاسـي وألقيتهـا بوادي الأسى وجحيم العذاب

ولو حاولنا زيادة التنقيب في هذا الباب لما عجزنا وحسبنا من ذلك هذا البيت.

سادتي.

إلى هنا انتهى أدب الشابي وإلى هنا وقف شعره فهل من عناية تلم ما تفرق من شعره وهل من شاعر كفء يتلقى من يده الفاترة مشعل السعادة ونبراس النبوغ[1]؟.

(1) «الأفكار» س 1 عدد 2 (1 ـ 12 ـ 1936).

في حفلة أبي القاسم الشابي

كلما تغلغلت ذكرى أبي القاسم في القدم استيقظت ضمائر الناس وازدادوا به تعلقاً، وعاد منهم من كان يجحده إلى النظر في شعره وتذوق معانيه، بل عاد منهم من كان يكفره إلى الإقرار له بالإيمان.

كانت حفلة هذا العام تفوق سابقتها في النجاح، وكثر عدد المحاضرين والخطباء والشعراء إلى حد اضطرت معه اللجنة إلى تأخير سبعة منهم.

والذي افتتح الحفلة هو الأستاذ مصطفى صفر شيخ المدينة. افتتحها بخطبة عن الشابي من تلك الخطب النفيسة التي تستحق الإصغاء والاهتمام.

ثم تلا الشيخ عمر الفلسطيني آيات من الكتاب الكريم جزاه الله أحسن الجزاء.

وكان في نظام البرنامج أن تلقى بعد ذلك قصيدة أمير الشعراء الأستاذ الشاذلي خزندار، ولما كان متخلفاً عن الحضور لعذر شرعي فقد وقع الاختيار على الشيخ جلال الدين النقاش الذي يعد من أرشق وأحلى شعراء إيالتنا ليلقي القصيدة في الحفلة بالنيابة عن أمير الشعراء.

ويجب أن نسجل هنا أن قصيدة أمير الشعراء هي القديمة التي نظمها في العام الماضي، بل يقال فوق ذلك أنه نظمها لمدفون آخر غير أبي القاسم ثم لم يلقها في الحفلة بتاتاً.

وهذا التراجع وقع من أمير الشعراء بإيعاز من بعض السياسيين الذين كان يتصل بهم وقتئذٍ، لأن الحفلة كانت تحت رئاسة السيد محمد بدره

سكرتير الحجرة التجارية ورئيس جمعية الكتاب والمؤلفين الذي لا يرضى أولئك السياسيون أن يقف شاعرهم في حفلة يرأسها ولو كانت لأكبر شاعر عرفته تونس.

وجيء بالقصيدة الغراء استعداداً إلى لقائها، ولكن الأستاذ جلال الدين النقاش ذاب في تلك اللحظة ولم تفلح الإنس ولا الجان في العثور عليه.

وبذلك يكون قد تضافر مع أمير الشعراء على نجاح حفلة المرحوم!.

أعجبتني قصيدة الشيخ مصطفى المؤدب... وأبين لك كيف أعجبتني.

الشيخ مصطفى المؤدب لم يجتمع مرة واحدة بأبي القاسم الشابي، ولم يرَ وجهه لا في شارع ولا قهوة.

فلما وقف لإنشاد قصيدته رفع ذراعيه في الهواء كأنه يريد معانقة أبي القاسم وهو في عالم الأرواح، ثم قال بصوت تخنقه العبرة وتشدخه الحسرة:

«يا صديقي وأنت خير صديق» واستمر يبكي الصديق على روي القاف حتى بكينا مثله جميعاً.

والذي زان هذه الحفلة وجعلها تفوق سابقتها هو حضور الأستاذ الكبير الشيخ المختار بن محمود أحد كبار هيئة العلماء بالجامع الأعظم الذي عندما اعتلى المنصة أقسم للجمهور أن المرحوم أبا القاسم مات مؤمناً بالله مصدقاً لكتبه ورسله.

ولكن ضيق المقام لم يسمح للأستاذ بسرد الأدلة التي تثبت إيمان أبي القاسم، وليس في ذلك من مضرة فالمحتفلون وأنا أولهم يعتقدون أن الشعراء أقرب الناس إلى الله.

لقد غادرت الحفلة وكدت أنسى كل ما فيها من خطب ومحاضرات

ودراسات وقصائد لأن فكري كان شارداً في بيت أبي القاسم صاحب الذكرى:

«يا قلبُ كم فيك من دنيا محجَّبة   كـأنهـا حيـنَ يبـدو فجـرهـا إِرمُ»[1]

* * *

(1) جريدة (الشباب) 26 نوفمبر 1936.

لماذا نقيم الذكريات للشابي

بقلم نور الدين بن محمود

لعلنا قمنا في ماضي الأيام وسالف الأشهر والأعوام بجزء غير يسير من واجبنا نحو الفقيد العزيز سواء بإقامة الذكريات أو نشر غرر الأبيات تعريفاً بأدبه وتنويهاً بشأنه. وسواء في عهد «الرابطة الأدبية» التي كان يرأسها صديقنا الفاضل الأستاذ مصطفى مهذب الجد أو في عهد تولينا للإذاعة التونسية أو في عصر «الثريا» والأفكار «والأسبوع» فلقد كنا أحرص الناس على نشر أدب الشابي وتخصيص الدراسات حول شاعريته. كنا نزرع ونحصد ونسعى ونؤيد حتى أصبحنا نقيم الذكرى تلو الذكرى في هذا الظرف ووراءنا إجماع يؤيد سعينا ويناصر فكرتنا.

ومن الحق أن نقول إن أصدقاء الشابي ما زالوا أوفياء له مخلصين يلبون كل داع، ينشرون أدبه في الأصقاع بكفاءة وباع. وفي مقدمة أولئك الأساتذة محمد الحليوي ومحمد الصالح المهيدي والدكتور أبو شادي ومصطفى خريف وإبراهيم بورقعة والصادق مازيغ وغيرهم كثير.

ومن الحق أيضاً أن نعترف بأن مقدري أدبه والمنوهين بشاعريته قد اتسعت دائرتهم وثقلت في الميـزان كلمتهم حتى أصبح اسم الشابي عندما يذكر تخشع القلوب له وتخفق الأفئدة وحتى أضحى ظهور الشابي في قطرنا السعيد علماً عن نبوغ ومناراً لفكر ورائداً لعبقرية.

كان الأولون كالصحابة فتعزز جانبهم بالأنصار وبفضل أولئك وهؤلاء بلغت رسالة (النبيء المجهول) إلى المؤمن والكافر والمنافق فبددت الحجب ومزقت السحب وظهرت وضاءة الجبين مشيرة باليمين إلى خلود

ذلك الأدب وعصمة ذلك الأديب.

نحن فخورون بأديبنا النابغة الذي نعتبر ظهوره في بلدنا مدعاة للفخر والخيلاء ونعد أدبه نقطة التحول في آدابنا التونسية بل المغربية والعربية ونرى أنفسنا مقصرين مهما بذلنا من جهد وسعينا وراء قصد.

لماذا نقيم الذكريات للشابي؟

وإنه لمما يسلينا عن فقده بقاء مجده وخلود أدبه. وظهور نفثات صدره بين الحين والحين سواء في الكتب والمجلات. وهذا كتاب للصديق الحميم أبي القاسم كرو يظهر للوجود مبشراً ببروز غيره في يوم موعود وهذه «الرسالة» الغراء تنقل ما ينشر في «الثريا» و «الأسبوع» وتقتفي أثرها صحف المهجر والعراق.

ومن نعم الله التي لا تحصى أن كانت عائلة الشابي العريقة في المجد، الغيورة على الأدب، قد حافظت على التراث واعتزت بالديوان سواء ابن عمه النحرير قاضي الجريد الذي جمع بين النبل والعلم أو أخوه العالم المبرز في الأدب شريف المحتد صديقنا منذ عهد الدراسة هو قد بشرنا بأن «الديوان» سيطبع قريباً يضم بين دفتيه كل ما نظمه أبو القاسم ورتّبه وبوّبه. وأن المذاكرة حول طبعه في ثوب قشيب جارية بين دار المعارف بمصر وعدة دور للنشر ببيروت والشرق وقد عهد لنابغة الرسم بتونس صديقنا الأستاذ حاتم المكي بعمل لوحتين رمزيتين للقصيدتين: إلى عازف أعمى وحديث المقبرة وما اشتراك نابغة الأدب الأستاذ محمد الأمين الشابي مع نابغة الرسم الأستاذ حاتم المكي في عمل كهذا إلاّ عربون عن نجاح الفكرة وحسن مظهر «الديوان».

ومما يسلينا أيضاً أن قبر الشابي الذي ظل زمناً طويلاً رمساً مغموراً قد عاد «روضة الشابي» المعروفة بالشابية بفضل اللجنة الأدبية التي كان شقيقنا أحمد بن محمود من أبرز عناصرها.

ولعل اسم أبي القاسم الذي خلده شعره سيبقى ما بقي الدهر والبركة في نجليه الأبرين النابغين (محمد) المحرز على جزء الباكلوريا الأول والساعي للتحصيل على الثاني وله مشاركة في الشعر مذكورة (وجلال) وهو طالب السنة الثانية بالمدرسة الصادقية وقد سارا على غرار والدهما الخالد في خلقه ونبوغه وتواضعه.

وختاماً نشكر كل المشاركين في هذا العدد بالتحرير والنظم ونتمنى على همة أصدقاء الشابي في كل صقع وعسانا نوفق جميعاً إلى إعطائه ما يستحق من إكبار وتقدير إنه بذلك لجدير[1].

(1) ـ الأسبوع (تونس) العدد 311 ـ الاثنين 2 ربيع الأنور 1372 ـ 24 نوفمبر 1952.

ذكرى الصديق الخليف

بقلم العلامة الشيخ الفاضل بن عاشور

قد حصل لي كامل الشرف عندما أوفدني مديرنا الأستاذ نور الدين بن محمود لتبليغ رسالته الشفاهية في شأن مشاركة العلامة الشيخ الفاضل ابن عاشور المدرس من الدرجة الأولى بالجامعة الزيتونية والمعهد الصادقي ومفخرة شبان الزيتونة في عددنا الممتاز لذكرى الشابي. وبمجرد اتصالنا بهذا العبقري في مكتبه بقصره بالمرسى لبى الطلب وشكر سعي أسرة «الأسبوع» وتناول قلمه وبعد لحظات قدم لي رسالته القيمة التالية شاكرين تفضله ما دام هذا الفذ تجمع بينه وبين الفقيد عدة روابط ثقافية وأهمها مولدهما في سنة واحدة وهي سنة (1909) زيادة عن صلة العائلتين.

* * *

«ليست ذكرى الشابي عندي مجرد ذكرى موهبة وإحياء نبوغ وتمجيد عبقري ولكنها فوق ذلك كله ذكرى صديق حميم تبعث في النفس اللوعة التي خطب في شأنها عبد الله بن الزبير عند نعي مصعب أخيه.

وما أنا بمستطيع تناسي هذه الذكرى ولا التغافل لحظة عن تلك اللوعة كما قال النابغة:

أبـــي غفلتـــي إنـــي إذا مـــا ذكـــرتـــه　　تحـــرك داء بـــي فـــؤادي داخـــل

ما ذكرت هذا العبقري إلا تجددت في نفسي عوامل الكآبة والحسرة اللتين خرجت أمشي بينهما وراء تابوته في المستشفى الإيطالي (مستشفى التحرير الآن) في ظهر يوم مكفهر من أيام الشتاء المظلمة وأنا أشعر بأني أولى الناس في ذلك الجمع بالتعزية وأشدهم تألماً لوقع الكارثة.

فقد كانت علاقاتي بالشابي متينة من الطفولة الأولى بسبب ما كان لوالده المرحوم من الاتصال الخاص بمولاي الوالد زيادة على العلائق الموروثة بين بيتنا وبين الشابيين (آل بيت الشريعة).

فكانت معرفتي بأبي القاسم الشابي سابقة لابتداء طلب العلم بجامع الزيتونة الأعظم.

ثم دخلت الجامع فوجدته قد سبقني إليه وأصبحت كثير الملاقات له والحديث معه في حدود العلائق الودية التي يعلوها شيء من الكلفة الملتزمة في اتصالات أمثالنا.

وفي السنة الخامسة من سني تعلمي يومئذٍ أصبحت أحضر دروساً من مقرر السنة السابقة لدرجتي على نية التهيّؤ لامتحان التطويع فكانت تلك الدروس تجمعني معه وتؤكد صلاتي به. فارتفعت فيما بيننا بعض حجب الكلفة وصرت أطارحه أحاديث أدبية كانت تتجه إلى تبادل الإعجاب بمناهج الأدب الرمزي العميق وتتصل بشعر ابن الفارض وشعر جبران والمقارنة بينهما.

فكنت أجد عنده أكثر مما عندي من إكبار لجبران وكنت ألمح فيه إدراكاً لأغوار ذلك المنهج يختلف على الإدراك السطحي الشكلي الذي كان يقتنع به شباب الأدباء المولعين بشعر المهجر وبلهجة التواضع الذي كان شيمته والخمول الغالب على طبعه كان يشعرني بأن له (محاولات شعرية) يجنح فيها إلى اتباع المنهج الرمزي ويعدني بالاطلاع على شيء من ذلك.

وبدأت الصحف تنشر له من روائع شعره فوجدت فيه ما هو أسمى من المحاولات مما كان الناس يحسبونه تقليداً ولكن المتعمقين في النقد يدركون أنه وليد روح شاعرة موهبة فنية أصلية تتلاقى مع آثار الأعلام من أهل الطريقة الرمزية بدون أن تكون تقليداً ومسخاً ولا أثراً من آثار الفتنة.

وكان أستاذنا العظيم رحمه الله سيدي معاوية التميمي على محبته

للشابي ينفر من طريقته الشعرية ويحتد في نقدها بما كان عنده من ذوق المحافظة في المناهج الأدبية، فكنت أجتهد بقدر طاقتي في مراجعته والدفاع عن الشابي بأنه ليس مقلداً ولا مغروراً ولكنه ذو شاعرية حقيقية جديرة بأن يسلم لها النبوغ، ولو من طرف الذين يختارون لفنهم الأدبي طرائق غير ذلك الطريق، فلم أكن أبلغ شيئاً من إقناع شيخنا في تلك المحاورات التي تنتهي دائماً بقوله: (أنا أحب صاحبك كما تحبه ولكني لا أرضى منه بما يصنع من اتباع آداب الأغراب والعبث بأساليب الأعراب).

واشتركت أنا والشابي في امتحان التطويع في دورة واحدة في صائفة 1928 ـ وفي الخريف الموالي ابتدأت اتصل أحياناً بالنادي الأدبي لقدماء الصادقية. وكنت أجتمع بالشابي في من يعمر ذلك النادي من الأدباء الفضلاء.

وحمي وطيس المعركة الإصلاحية في الجامع فكان الشابي من أبطالها وأيقنت بأن شاعريته الروحية لم تكن إلا أثراً من آثار حكمته العميقة التي كان لها مظهر عملي ووجهة اجتماعية فوق مظهرها الأدبي ووجهتها الروحانية.

وتأكد امتزاجي به في ميدان الحركة الإصلاحية كما زاد اتصاله توثقاً بسيدي الوالد وبي أنا أيضاً بعد وفاة والده.

إذ أصبح القيم على رعاية العلائق الموروثة مع العائلة فكنا نعده أقرب الأصفياء وأخلص المناصرين حتى أنه كان بعيداً عن الحاضرة لما اضطر المولى الوالد إلى الاستقالة من إدارة الجامعة سنة 1933 فكتب إليّ كتاباً تهتز جوانبه هلعاً وتوجه بقول أبي الطيب المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر　　فزعت منه بآمالي إلى الكذب

وابتدأت شاعريته تبرز على نسبة ما يضاءل جسمه النحيل وروحانياته تسمو بقدر ما تنحط قواه المادية فأذكى المرض روحه الملتهبة وجمعت العزلة بينه وبين مثله العليا محلقاً في سماء الخلود الشعري حتى انفصل عن

الهيكل الجثماني وأصبح فيضاً نازلاً عن المشاعر وضياء مقذوفاً في القلوب إذ فصله الموت عن الهيكل الجثماني الذي كان من ثقل قيوده في غناء نور تردد في طين إلى أجل.

ثم ارتقى ورمى بالطين للكفن.

المرسى ـ 2 صفر 1372 ـ 20 نوفمبر ـ 1952[1].

* * *

(1) الأسبوع: المرجع السابق.

في ذكرى الشابي

بقلم الأستاذ محمد الصالح المهيدي

كنت أساكن أبا القاسم بالمدرسة اليوسفية بنهج الصباغين بالحاضرة التونسية ودامت معاشرتي له عن تلك المدرسة قرابة الأربعة أعوام كان يتردد علينا خلالها من عرفناهم من المتطلعين للأدب أو الشغوفين به، وكان أبو القاسم في سنة 1928 قد بدأت تظهر آثاره الشعرية في النهضة الأدبية في عهدها الأول. ولم يكن في خطوته الأولى إلا كأحد أدباء الشباب ينظم الشعر في أغراض عابرة إذ لم يبلغ بعد سن تكاليف الحياة.

والشابي اطلع على ما كتبه شعراء عرب عاشوا في بلد بعيد وهم شعراء وكتاب المهجر وما فعله نعيمة في الغربال بشوقي وغيره أخذ يتجنب الأخطاء التي وقع فيها شوقي والمطران ويضرب بسهم بعيد الغور في أغراض الشعر حتى يسلم بقدر الإمكان من النقد.

ومن أغرب ما يسجل هنا أن أبا القاسم لم يعرفه الشعب التونسي إلا على طريق التشهير به وسبه وشتمه على صفحات الجرائد يوم أخرج للناس كتابه «الخيال الشعري عند العرب» وتنكب له حتى من كان مساكناً لنا بالمدرسة اليوسفية وبات عرضه يلوكه كل لسان بذيء إرضاء لرغبات من لم يرَ الشابي أنهم أكفاء لقيادة الشعب فنبزوه في عقيدته وقالوا عنه أنه ملحد وأنه كافر وطالبوا بحرق كتابه.

في ذلك الزمن بدأ الشابي يشعر بالغربة بين قوم لا يفهمون أغراضه ومراميه وبدأ يراسل بشعره مجلة «أبولو» لصاحبها الدكتور أحمد زكي أبو شادي وما كادت تنشر له بعض القصائد حتى تواردت عليه رسائل الشكر

والاستزادة من أدباء وشعراء المشرق أمثال الدكاترة إبراهيم ناجي. علي الناصر. أحمد زكي أبو شادي ورغبوا منه أن يكتب مقدمات لدواوينهم وكتبهم التي قدموها للطبع ففعل ولم تطل به الأيام حتى اشتدت عليه أزمة المرض فمات رحمه الله.

قلت إنني كنت مساكناً له وكان ولا يزال يسكن بالقرب منا الأخ الشاعر النابغ الصديق مصطفى خريف وكان يتردد علينا بالمدرسة كما كان يتردد علينا أخ رابع هو المنعم المرحوم الأستاذ محمد البشروش مدير مجلة المباحث فيما بعد وكان يقضي معنا أيام عطلته الدراسية للتسامر وتجاذب أطراف أحاديث الأدب والنقد.

وفي ذات يوم من أيام شهر نيسان (أفريل) من عام 1930 طلب من ثلاثتنا الأستاذ بشروش أن نصاحبه في جولة قصيرة وراء سور مدينة تونس في الجانب الشرقي (باب البحر) ففعلنا وما كدنا نصل إلى بطحاء البورسة (ساحة لافيجري الآن) إذ طلب منا أن نعرج على نهج الكمسيون ففعلنا وما أن اجتزنا خطوات في النهج وإذا بشاب بهي الطلعة مربوع القامة يقف أمامنا ويطالبنا بالدخول إلى محل عمله فدخلنا واجتاز بنا ساحة الانتظار إلى محل مظلم فظهرت على البعض منا علامات الفزع أما المرحوم البشروش فكان يبتسم لأنه على اتفاق مع الشاب محمد(بالفتح) الشعباني المصور البارع والذي تخرج من مدارس الجزويت واحترف التصوير الشمسي ولا أدري أين هو الآن على أن يأخذ لنا صورة جمعية تبقى تذكاراً لصداقتنا.

وبمجرد ما طلب منا الشاب محمد أن نجلس بل أن نقف على الصورة التي اختارها وأرانا آلات التصوير أخذت الابتسامات تظهر على الجميع وما هي إلا لحظة حتى فارقنا دار المصور وتفرق كل منا ذاهباً إلى عمله.

إن الشابي والبشروش قد تعارفا مدة لا تقل عن تعارفي بالشابي ولكنها كانت أكثر اتصالاً ذلك أن البشروش قدر له أن يكلف بالتعليم

الابتدائي بمدرسة مدينة نفطة الابتدائية والشابي كان مقيماً بتوزر مسقط رأسه بعد أن فارق تونس فكان الشابي يذهب إلى نفطة أحياناً والبشروش يذهب إلى توزر حيناً للتفاهم فيما جد من الشؤون الأدبية أو ما صدر من كتب الأدب بما في ذلك من نقد وشعر.

أذكر أنه في ذات يوم من الأيام كان الشابي والبشروش جالسين بسوق بلدة نفطة إذ جاءت كمية كبرى من الجزر (السفنارية) عرضها صاحبها على البيع فانقض عليها قوم من عرب الجزائر الذين يقدمون إلى الجريد زمن موسم التمر للتزود منه واشتروا كمية من الجزر وأخذوا يأكلونها بعد غسلها ثم شربوا الماء وكان ذلك كامل طعامهم في النهار فتعجب البشروش والشابي من استقامة صحة هؤلاء البوادي بعد أن تكرر أمامهما تناولهم الجزر في كل يوم فاتفق الأديبان على الاقتداء بأهل البادية واشتريا كمية من الجزر وفعلا بها ما رأياه واستمرا على ذلك مدة طويلة أما البشروش فقد انتفع (بفيتامين) الجزر انتفاعاً ظاهراً قد عاد عليه بكل خير في بقية أيام حياته أما الشابي فإن وطأة المرض عليه قد اشتدت ولم يبق لفيتامين الجزر عليه سبيلا.

عمل البشروش بعد وفاة الشابي كل ما في وسعه لإرضاء روح الفقيد فقام بترجمة شيء من شعره إلى اللغة الفرنسية ونشره بجريدة أدبية تصدر بالجزائر كان يديرها المستشرق م. آستر ليطلع أدباء الغرب على نفسية شاعر المغرب ومدى عمق أفكاره في شؤون الحياة رحم الله الشابي والبشروش[1].

---

(1) الأسبوع: المرجع السابق.

صقـر الجـريـد
أبو القاسم الشابي[1]

(وليس لقدم العهد يفضل القائل.
ولا لحدثان عهد يهتضم الحصيف ـ
ولكن يعطى كل ما يستحق)

أبو العباس المبرد

بقلم العلامة الجليل الشيخ الأستاذ محمد المختار بن محمود

في بلاد الجريد ذات السماء الصافية، والجو البديع. والمناظر الجميلة، والحياة المتدفقة، وعرائس النخيل الشامخة برؤوسها لتناطح السحاب.

وفي عرش من أقدم العروش التونسية مجداً، وأكرمها نسباً، وأشرفها محتداً، وهو عرش الشابية العريق في العلم والدين والحضارة، والذي بلغ، من علمه ودينه أن صار يلقب ببيت الشريعة بما كان لأفراده من الحرص على بث العلم والمحافظة على الدين، والضرب في أطراف البلاد لبث المعارف والحرص على مكارم الأخلاق.

---

(1) ولد أبو القاسم الشابي بتوزر يوم الأربعاء 3 صفر سنة 1327 الموافق ليوم 24 فيفري سنة 1909 ـ وتوفي بالحاضرة التونسية ليلة الثلاثاء 29 جمادى الثانية سنة 1353 الموافق ليوم 9 أكتوبر سنة 1934 ـ فيكون قد عاش ستة وعشرين عاماً، وأربعة أشهر، وخمسة وعشرين يوماً.

وفي بيت رجل من أعيان هذه القبيلة. وأكثرها علماً. وأوسعها معرفة، وهو المرحوم الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي الذي تقلد خطة القضاء في عدة بلدان، وكان محاطاً بالوقار والاستقامة وحسن السلوك.

ولد صاحبنا أبو القاسم الشابي منذ خمسة وأربعين عاماً. (صفر سنة 1327) وقد كانت جميع المقدمات تفضي إلى نتيجة قريبة، وهي أن ينشأ هذا الولد نشأة الاعتزاز برفعة بلاده، ومجد عرشه، ورفاهية أبيه، فتتلقاه الحياة بالابتسام، وتقابله عائلته بمظاهر الإكرام، ويقضي حياته في مرح وابتهاج، حيث كانت جميع الظروف المحيطة به تهيء له عيشاً لا تشوب صفوه الأكدار.

ولكن الحياة البشرية قد تنقلب فيها الأوضاع، وتأتي النتائج على عكس مقدماتها فلم يكد هذا الصبي يشب عن الطوق، حيث ظهر أنه قوي الإدراك، مرهف الإحساس، بعيد الغور، وأن الروح التي بين أضلعه ليست مسايرة في نموها لنمو جسمه، وأن عقله ليس متناسباً مع صغر سنه، فترعرع واكتهل قبل اكتهال، كما يقول أبو الطيب[1]، وهكذا يكون أصحاب العقول الكبيرة، والأرواح المرهفة، ترتقي عقولهم إلى الأجواء البعيدة قبل الإبان، وتصعد أرواحهم إلى السماوات بحثاً عن الحقائق واستجلاء لسرائر الأكوان.

وذلك لأن النظر إلى الأشياء تختلف فيه العقول اختلافاً كبيراً، فذلك هو السر الأعظم في تفاوت الناس إلى درجات متباعدة أو متباينة. واختلافهم اختلافاً يرتفع به فريق إلى أعلى طبقات الجو. وينحط به فريق إلى أسفل طبقات الأرض، ولذلك قيل:

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتاً لدى الفضل حتى عد ألف بواحد

(1) إشارة لقول أبي الطيب:

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا قبل اكتهال أديباً قبل تأديب

وقيل أيضاً:

لــولا العقــول لكــان أدنــى ضيغــم أدنــى إلــى شــرف مــن الإنســان

ومحور ذلك كله يرجع إلى البحث عن الحقيقة ذلك الأمر المقدس، والسر الأعظم، الذي أفنى العلماء والفلاسفة والعباقرة أعمارهم في الوصول إليها، ولم يصل منهم إلى ساحل بحرها اللجي إلا النزر اليسير والعدد القليل.

فلو تتبعت - رعاك الله - كلام فلاسفة اليونان، وعلماء الرومان، وحكماء العرب، من أقدم العصور إلى يومك هذا، لوجدت أن الضالة المنشودة من الجميع، والكنز السحري الذي يسعى كل واحد للكشف عنه، والجمال الفتان الذي يكد كل واحد للاستحواذ عليه، ليس هو إلا الحقيقة.

وحقائق الأشياء ثابتة كما هو مقرر في مبادىء علم الفلسفة، ولكن كيف يكون الوصول إليها؟ وكيف يكون هتك الستر عن محياها الجميل؟.

* * *

من أجل ذلك نشأ أبو القاسم الشابي والحزن يحيط به من كل جانب. والكآبة ملازمة له في كل الحالات، فهو لا يكاد يضحك، بل لا يكاد يبتسم وكان كل شعره أو غالبه متشحاً بلون السواد، مجللاً بالظلمة والألوان القاتمة، فهو لا يتحدث إلا عن أكدار الحياة وهمومها فهل كانت حياته العائلية أو حياته الشخصية هي التي فرضت عليه هذه الحالة أم هناك أمر آخر؟.

ويظهر لي كما أومأت إليه من قبل أن حياته العائلية والشخصية لا تقتضيان ذلك وإنما الذي فرض عليه هذه الحالة هو عقله الكبير الجبار الذي صيره ينظر إلى جميع مظاهر الفرح والمرح والسرور بعين الازدراء والاستهزاء والاستنقاص. وأن وراء هذه المظاهر كلها حقيقة خالدة ما دام العقل لم يصل إليها، فهو في حزن مستمر، وكدر ملازم.

على أن مظاهر السرور والفرح هي في ذاتها تنطوي على الأكدار والأحزان إذا نظرنا إلى مثال الأشياء وعواقبها، ومن أجل ذلك لما أدرك على قارون قوته أنه معتز بعلمه وماله مفتخر بهما. قالوا له (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) من أجل ذلك كان صاحبنا أبو القاسم الشابي يتبرم بالحياة ويشكو منها بأسلوب من قهرته حوادث الزمان، وزعزعت كيانه، وعبثت به الليالي والأيام، مع أنه لا يزال قريباً من عهد الصبا.

ألا تراه يقول وهو دون العشرين من عمره:

سئمت الحياة وما في الحياة ولمـا تجـاوزت فجـر الشبـاب
سئمــت الليـالـي وأوجـاعهـا وما شعشعت من رحيق يصاب
فحطمــت كـأســي وألقيتهــا بوادي الأسى وجحيم العذاب
فـأنّـت وقـد غمـرتهـا الـدموع وفرت وقد فاض منها الحباب
وألقــى عليهــا الأســى ثــوبــه وأقبـرهـا الصمـت والاكتئـاب
فـأيـن الأمـانـي وأحـلامهـا؟ وأين الكؤوس وأين الشراب؟
لقــد سحقتهــا أكــف الظــلام وقــد رشفتهــا شفــاه الســراب
فما العيش في حومة بأسها شـديـد وصـداحهـا لا يجـاب
كئيـــب وحيـــد بـــآلامـــه وأحـلامـه، شـدوه الانتحـاب

فكيف يعقل أن يتصور الحياة بهذه الصورة رجل في بداية عمره أحاطت به أسباب السعادة من كل جانب، ومدت إليه الرفاهية يدها من كل ناحية، ثم هو لا يلتفت لذلك، وينظر إلى الحياة بهذه المرآة السوداء القاتمة، ويمعن في وصف سوادها وقبحها، ويشكو من الليالي وأوجاعها ويحطم كأس الشراب التي تقدمت بها إليه، ويتحسر على ضياع الأماني، وتكسير الكؤوس وينكر الحياة في هذا الدار التي بأسها شديد، والداعي فيها إلى الخير لا يجد من يجيبه ولا من يلتفت إليه ويبقى كئيباً منفرداً بحمل آلامه. ويكون شدوه هو الانتحاب.

فمن أين جاء لشاعرنا هذا الحزن الشديد الذي أبدع في وصفه بصور

لا يمكن إلا أن تكون متولدة عن إحساس واقعي بالحزن والاكتئاب؟ ليس لذلك من سبب إلا إدراكه من أول وهلة أن هذه الحياة لعب ولهو وزينة وأنها متاع الغرور لا يحق لعاقل أن يفرح بها ولا أن يقيم لها وزناً، وبهذا يكون الشابي قد بلغ وهو في الدرجة الأولى من سلم حياته، إلى المدارك التي من العادة أن لا يصل إليها الناس إلا في أخريات الحياة.

فهل يكون ذا نزعة صوفية؟ ونظرة انكشفت أمامها حجب الحقائق؟ أما أنا فلا أستبعد ذلك، لأن التاريخ يحدثنا عن عدة أفراد من هذا النوع. ففتح الله عن بصائرهم في أول حياتهم فنظروا إلى الدنيا على حذر.

ولعلك ـ حفظك الله ـ يبلغ بك العجب منتهاه عندما تجدني أقارن بين الشابي وبين أهل التصوف، بينما تتذكر ما كان يتهم به الشابي عندما كان حياً وما لا يزال يقال فيه بعد موته. من أن أفكاره تميل إلى الإلحاد والزندقة.

ودفعاً لهذا العجب عنك، وتقريباً لمسافة الخلف بيني وبينك أقول: إن كل إناء بما فيه ينضح، ولا يسارع إلى اتهام الناس بالإلحاد والزندقة إلا من كان ملحداً زنديقاً، وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه، ولله در أبي الطيب إذ يقول:

وأجرأ من رأيت ببطن غيب على عيب الرجال أولو العيوب

وحاشا أبا القاسم الشابي أن يكون في أفكاره ملحداً وإنما هو رجل شديد الذكاء رقيق الإحساس ينطق بالحقائق مكشوفة واضحة جلية فيستاء لها من تعودوا الخداع والنفاق وتعودوا ستر الحقيقة والارتداء برداء الرياء الباطل الذي قيل فيه:

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عاري

وكأن الشابي أراد أن يتولى إجابة هؤلاء الناس من قبل أن يسمعهم فانظر إليه إذ يقول:

يتقضي العيش بين شوق ويأس والمنى بين لوعة وتأسي
هكذا سنة الحياة ونفسي لا تروم الرحيق في كأس رجس
ملىء الدهر بالخداع فكم قد ضلل الناس من إمام وقس
كلما أسأل الحياة عن الحق تكف الحياة عن كل همس
لم أجد في الحياة نظماً بديعاً يستبيني سوى سكينة نفسي
فسئمت الحياة إلا غراراً تتلاشى به أناشيد يأسي

فهو يكشف بهذه الأبيات عن حقيقة رأيه في الحياة بصورة واضحة جلية، فيصف الحياة بالتلاعب وأن عيش الإنسان ينقضي بين الشوق واليأس وأن أمانيه تضيع بين اللوعة والتأسي وأنه لا يريد أن يشرب الرحيق في كأس من الرجس وذلك من الاستعارات البديعة وأن الدهر مملوء بالخداع والنفاق وطالما انخدع الناس لرجال يتوسمون فيهم الخير والكمال ثم تظهر التجارب أنهم من أحط أصناف الرجال ثم يصف الحياة بأنها إذا سئلت عن الحقيقة تتظاهر بالصمم وتقابل السؤال بالسكوت. ثم يؤكد هذه الفكرة مرة أخرى في شعره فيقول:

صاح إن الحياة أنشودة الحزن فرتل على الحياة نحيبي
إن كأس الحياة مترعة بالد مع فاسكب على الصباح صبيبي
إن وادي الظلام يطفح بالهو ل فما أبعد ابتسام القلوب
لا يغرنك ابتسام بني الأرض فخلف الشعاع لذع اللهيب
أنت تدري أن الحياة قطوب وخطوب فما حياة القطوب
إن بي غيبة الدهور وتباعاً فخطيباً يمر إثر خطيب

فهو يستمر في هذه الأبيات على توضيح نظره إلى الحياة أو يسلك في ذلك أسلوباً آخر من أساليب الإقناع. فهو يجعل الحياة ليست إلا عبارة عن أنشودة للحزن. وأن كأس الحياة مملوءة بالدم. وأن وادي الظلام الذي هو الحياة يطفح بالمصائب والأهوال فكيف يصح للقلوب أن تبتسم مع ذلك. وإن ضحك الناس لبعضهم ما هو إلاّ نفاق وخداع. وهو كالشعاع الذي من

ورائه لذع اللهيب. وإذا كانت الحياة ليست إلا عبارة عن القطوب والخطوب فما هي قيمتها؟ وإن في مرور الزمان وتصافق الأحوال وتداول الدول لعبرة وموعظة ينتفع بهما من يكون مستعداً لأن تؤثر فيه العبر والمواعظ.

وهكذا يسترسل أبو القاسم الشابي في غالب شعره ضارباً على هذا الوتر منفراً من الحياة ومن الانخداع بمظاهرها الجميلة ومباهجها الخداعة وبذلك يصح لنا أن نتفصل على أن رأي الشابي في الحياة هو التشاؤم المطلق من غير قيد ولا شرط حتى أنه إذا مال به التيار أحياناً إلى مدح شيء من مظاهر الحياة فإنه سرعان ما يعدل عن ذلك ويرجع إلى معتاده من التشاؤم والقلق.

والتشاؤم بالحياة مذهب لكثير من الفلاسفة والأدباء على رأسهم في شعراء العربية أبو العلاء المعري الذي لا يزال صديقنا العلامة أبو حيان يتناجى معه في سمره الذي يلقيه في محطة الإذاعة كل ليلة جمعة. وقد قاوم كثير من الفلاسفة والشعراء هذا الرأي وهجموا على قائليه هجومات شديدة، واعتبروا أن تشاؤم الإنسان ناشىء عن شؤم نفسه لا عن شؤم الحياة في ذاتها. وأحسن ما رأيته لشعراء هذا المذهب قصيدة الشاعر المعاصر إيليا أبو ماضي من سفراء المهجر التي يقول فيها:

أيهاذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا
والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

ويضيق النطاق الآن عن التبسط في الرأيين وعرض حجج كل من الطرفين. وخير من إهمال الشيء أن يقع به الإلمام، وأن يكون حسن التفاؤل مسك الختام[1].

---

(1) الأسبوع (تونس) عدد 312 (1-12-1952).

من وحي ذكرى الشابي

بقلم الأستاذ أحمد خير الدين

ألقي إليّ كتاب كريم، من صديق حميم، ففضضت ختامه لأعرف مقصده ومرامه، فإذا هو يدعوني للمشاركة في إحياء ذكرى شاعرنا العبقري صديقنا المرحوم أبي القاسم الشابي فقلت نعم الصنيع من حضرة الصديق وأكبرت فيه إخلاصه للأدب وأهله، ورأيت من واجب الصداقة للراحل والداعي أن أشارك بكلمة في هذا الصدد. وإني أرى أن إقامة حفلات التأبين والإشادة بعبقرية ونبوغ من مات ضرب من ضروب «العبث» الذي لا فائدة فيه ولا حكمة تقتضيه! وأقول ذلك بدون تردد وبكل صراحة لأن النوابغ والعباقرة وجبابرة الفكر في كل عصر ومصر أحياء خالدون بآثارهم وقيمهم. مهما طال عليهم الأمد. ومهما كانت ميولهم وملاهم ونحلهم ومهما اختلفت ألوانهم وتشاكلت أجناسهم، وإلا فعلام تدرس آثار نوابغنا القدامى من شعراء وفلاسفة وعلماء من طرف أعلام الفكر الأجنبي من مستشرقين وغيرهم؟ وعلام نعجب نحن العرب بما أنتجته قرائح أساطين الغرب مثل شكسبير الانقليزي وجوت الألماني وتولوستوي الروسي وموليار وأضرابه من الفرنسيين ودانتي الإيطالي؟ وعلام يقف الإنسان (مهما كانت نزعته وعقيدته) أمام لوحات نوابغ الرسامين فينتقل بروحه إلى عوالم سحرية فاتنة متأثراً بتأثر ذلك الرسام معجباً بنبوغه مقدراً له مقدرته ومجهوده مشيداً بذكراه؟.

ولماذا يسمع السامع قطعة موسيقية رائعة فيحلق بخياله في جو روحي لا يدري مداه ويتأثر بما تأثر به العازف فيحزن لأنغامه المشجية ويرقص طرباً لألحانه المفرحة المرحة ويتخيل ما تخيله ذلك العازف في معزوفاته الوصفية؟.

أرى كل ذلك - يا صديقي - يرجع إلى (قوة الشخصية) التي هي الكفيل الوحيد بتخليد صاحبها وفرض الإعجاب به فرضاً على أهل الأذواق ومقدري المواهب والنبوغ من جميع الأجناس وفي كل زمان ومكان!.

وأرى من الطريف أن أروي لكم حادثة لطيفة تدركون منها مغزى ما أرمي إليه:

قدر لي أن أزور في الصائفة المنصرمة البلاد الأروبية في رحلة استجمام وترويح وكنت في إحدى عشايا شهر أوت القائظ أنعش النفس بنسيم شاطىء مدينة (نيس) الفاتنة. وفي مثل هذه المغاني الساحرة من البلاد الأروبية ترتفع الكلفة وتتوطد أواصر الألفة وتنوب الإشارة عن العبارة. ويتعرف الغريب بابن البلد بمجرد نظرة لطيفة وإشارة خفيفة. تنم عن تحية، وتفصح عن عبقرية. وشاءت الصدف أن ينضم إلى مجلسنا ثلاث فتيات. استرعى انتباههن لساني العربي الذي كنت أتحدث به مع رفيقي الذي كان بجانبي. فاقتحمن مجلسنا معتذرات عن جرأتهن بما جبلن عليه من التعرف إلى كل غريب فقبلنا العرض وأفسحنا لهن المجال وقام صديقي التونسي (وهو من المقيمين هناك) بمهمة التقديم والتعريف بي. وإذا بي أمام أشعر شاعرات البلاد الفرنسية (م - س) صاحبة الروايات التمثيلية والقصصية البديعة والمحاضرات القيمة والقصائد الشعرية الفاتنة. وما كادت تسمع من صديقي صفتي التي قدمني بها (كشاعر تونسي) حتى نهضت من أريكتها مادة لي يدها في لطف وإعجاب قائلة: (شاعرة فرنسا تحيي شاعر تونس الجميلة) ومجالس كهذه تطغى عليها - عادة - روح المجاملة والإطراء، لكن مجلسنا هذا رفرفت عليه روح شعرية غريبة رفعت عنا جميع الكلف والتقاليد وإذا بنا كعائلة واحدة وكان صديقي يقوم بمهمة الترجمة والتعريب بيننا (في شيء من التقصير) ولكن الجو جعل مني (وأنا القاصر عن الإفصاح عما يختلج بضميري في المعاني باللغة الفرنسية) محادثاً ذرب اللسان أنتقي العبارات وأضعها في المكان اللائق بها، فإذا

بالإعجاب يتزايد وإذا بهن لا يؤمن بأنني لا أحسن التخاطب باللسان الفرنسي.

ومالت الشمس للغروب تاركة وراءها خيوطاً ذهبية ساحرة تربط البحر بالأفق وتوجهنا جميعاً إلى ذلك الإطار الطبيعي الفاتن حيث اختلطت فيه زرقة البحر الهادىء بحمرة الشمس الراقدة في غوارب الماء. وإذا (بالشاعرة) تستفزني للإنشاد. وتغريني عن القول وتظافرت العوامل. فإذا بي أملي على الصديق ما أوحى به المشهد والمقام:

هنا ترقد الشمس وقت الأصيل ... وتستيقظ الأعين الساحرة
هنا هيكل الحب، عش الغرام ... هنا مسبح الأنفس الشاعرة
على شاطىء (نيس) حيث العذارى ... يحيين بالبسمة الفاترة
تراهن يمرحن مثل الظبا ... ء ويخطرن في الحلل الساخرة
من الشمس ينسجن ثوباً عجيباً ... به يتقين لظى الهاجرة

... إلى آخر القصيد

وما فهم الحاضرون معاني الأبيات حتى تعالى الهتاف وتوالت عبارات الإعجاب. كما توالت الدعوات لإقامة حفلات التكريم (لا التأبين) بعدما سرى الخبر في أوساط الأدب. وهكذا وجدت من التقدير والإعجاب في بلاد الاغتراب ما لم أظفر به في بلادي بين عشيرتي والأحباب!.

وبعد.. فلنا من أهل الأدب وأرباب النبوغ والعبقرية من يستحقون إقامة مهرجانات التقدير جبراً لخاطر الشيوخ منهم واعترافاً منا بحقوقهم علينا. وتشجيعاً للنشء والشباب الألى يستحقون التشجيع والتوجيه. ومضرة الإغضاء والإهمال مزدوجة على النوعين من أدبائنا شباباً وشيوخاً فعلام لا نقول للمجيد أجدت. وللمقصر قصرت. وعلام نغمض العيون عن القذى حتى نهمل أمر الأكفاء. ونشجع الطفيليين من الدخلاء. وبذلك يختلط الحابل بالنابل والعالم بالجاهل. ويطغى السخيف على الحصيف.

أما إذا انتظر المجيد الاعتراف بإجادته بعد مماته، وتقدير عبقريته، بعد منيته فذاك منا عين العقوق. وضرب من الجنون أو المجون وينطبق

علينا حينئذٍ المثل الدارج القائل: (كيف كان حي اشتهى بسره، وكيف مات علقولو عرجون!).

* * *

هذه كلمتي للعقلاء من (الأحياء)، أما كلمتي للصديق الراحل العزيز فإليه وحده أسوقها:

قبس من شعاع نور الوجود ... قد خبا في ظلام ليل اللحود
كان بدراً أضاء حندس شعر ... طالما كبلته شتى القيود
زان جيد القريض بعد عطول ... بنفيس من كل علق فريد
كان في ذي الحياة كالبلبل ... الشادي طروباً عذب الصدى والنشيد
يرسل الآهة الحزينة شعراً ... يتلاشى كصرخة وسط بيد
فهو لم يجن من حياته إلا ... زهرات العنا! وشوك الورود!

* * *

يا «أبا القاسم» الطروب ويا من ... كنت فينا رمز الوفاء المجيد
هل سئمت (الحياة) لما تجلت ... في ثياب من المناكر سود؟
فإذا بالهزار أمسى كئيباً ... يحتسي خمرة الشقا والصدود
شأن رب النبوغ ينكره الصحب ... ويحيى حياة فدم شريد!
خل ذاك النبوغ بعدك يعنو ... لذوي البأس واللظى والحديد
أنت غادرت عالماً بات يطفو ... فوق بحر من النجيع عتيد
عالماً يصطلي بنيران بؤس ... أججتها ضغينة من حقود!

* * *

يا رفيق الشباب تبكيك عيني ... ولحوني ومهجتي وقصيدي
عشت دهراً أليف حزن ممض ... فإلى عالم الخلود السعيد
رحمات الإلاه كالغيث تهدى ... من عظيم الرجا لروح الفقيد[1]

---

(1) الاسبوع (تونس) عدد 311 (24 ـ 11 ـ 1952).

ذكريات وانطباعات حول الشابي

بقلم علي الجندوبي

مرت ثماني عشرة سنة على وفاة أبي القاسم الشابي وكأنه لم يمت لأن روحه ما زالت ترفرف على المحافل الأدبية تستمد منه نفثاتها التي بذرها لنا لقاحاً لأدبنا في زمن كانت فيه، وظهور شعره نعمة ازدهر بفضله أسلوبه الشعري الممتاز. وإن كان هذا الجو قد كبد الشابي ثمناً غالياً أقدم فيه على تضحية ما يملك وهو احتراق روحه وأحاسيسه لفائدة رفع صوت تونس عالياً في ميدان الشعر الحديث.

وقد ناله ما ينال كل مصلح في قومه تمحضت أعماله لمقارعة ما تعوده الناس، أحس هذا الأديب بشعوره فصرخ تلك الصرخة التي تردد صداها في الفضاء ودفع ثمناً لذلك الصدى حياته التي هي أعز ما يملك في شرخ من الشباب متألماً قانطاً حانقاً على شعبه الذي قدم له أكبر تضحية فقلاه وكواه بنار حامية.

وكانت جريمته أنه رفع عقيرته على منبر الخلدونية في محاضرته (الخيال الشعري عند العرب) وهاجمته الصحافة إذاك سالكة تقبيح أدبه بالتشويه ومذهبه الجديد الذي خالف فيه من يعرفهم الوسط الأدبي قبله. على أن الشابي رحمه الله لم يعدم أنصاراً من التونسيين المعجبين به وبأدبه ومذهبه الشعري الجديد. وكنت أحدهم وما زلت أتذكر وأنا أتردد عليه في بيته مصدر نبوغه وموضع إلهامه وأنقر الباب فلا يجيب وهكذا كان يفعل مع غيري.

وكثيراً ما أقضي اللحظات وأنا أراقبه من ثقبة الباب مقتنعاً برؤيته فقط

والانصراف بعدها، وعندما ألاقيه بعد لأي ألومه على سلوكه فيقول لي:

«قررت مفارقتكم وغاية جهدي في هذه الأيام التي طغت علي فيها الآلام أن أبقى بين يديكم شعري الذي عالجت به مشاكلنا، وأنا ساخر ممن تنكر لي من أبناء بلادي ولا يثنيني هذا التنكر عن عزمي ما دمت راضياً عن نفسي أسبح في سماء الحقيقة التي تجلت لي في عملي الأدبي الذي وهبته حياتي. وسيكون ديوان شعري هو أحسن جواب لقومي والعشيرة».

وأنا كفرد عاش بجانب الشابي في أيام محنته يسرني اليوم أن أكون ضمن الإخوان الذين أفسحت لهم جريدتنا «الأسبوع» عدداً ممتازاً لإداء هذا الواجب الأدبي.

مات الشابي، ومن تاريخ دفنه إلى الآن، ونحن نستمع إلى أحاديث بمناسبات حول طبع ديوان هذا الأديب الفذ الذي ترك ديوانه جاهزاً للطبع مع رصيد للمطبعة، وكان إذ ذاك قد انتهى من نسخه وتبويبه وأجرى مخابرة بينه وبين الشاعر الكبير أبو شادي صاحب مجلة «أبولو». وسبق أن نشر جانباًمن شعره في كل من «مجلة العالم الأدبي» «والثريا» وصفحة «النهضة» الأدبية ومجلة (أبولو) والتزم أبو شادي أن يترجم هذا الديوان إلى اللغة الانكليزية عند بروزه.

ومن يومها ونحن والعالم العربي نترقب بروز هذا الديوان إلى اليوم حتى طلعت علينا مجلة الأديب في أحد أعدادها تبشر بطبع ديوان الشابي في الشرق. وأن الذي يطبعه رجل من الحجاز. ولم تمضِ أيام حتى وقع نظري على كتاب يحمل اسم الشابي معروضاً للبيع فتناولت هذا الكتاب فإذا به دراسة عن الشابي نثرية، إلى جانبها جزء مهم على أصح تعبير من ديوان الشابي يتجاوز عدد أبياته الشعرية (1400) بيت.

ونحن نعلم وأن ديوان أبي القاسم الجاهز للطبع يبلغ عدد أبياته (3500) بيت وهو الذي عزم على طبعه أخوه الأستاذ الأمين الشابي.

هذا الجزء من ديوان الشابي مع الدراسة الممتعة له الذي قام بنشرها

صديقنا الأديب الأستاذ أبو القاسم كرو خريج الجامعة الزيتونية الذي فارق تونس ووجهته العراق أين نال شهادة اللسانس في الآداب العربية وهو مراسلنا الخاص بالعراق ولقد خصص من وقته جانباً درس فيه الشابي وجانباً من أدبه، وهذا الأديب زيادة عن عمله هذا نشر سلسلة من المقالات في زميلتنا جريدة «اليقظة» الغراء هي دراسات لأهم الأدباء التونسيين في مقدمتهم أبي القاسم الشابي وعبد الرزاق كرباكه ومصطفى خريف وعلي الدوعاجي وغيرهم من الأدباء الذين لم يعرفهم الشرق. ومن ذكرياتي عن الشابي موقفه في حفلة استقبال البعثة التونسية الفنية التي شاركت في مؤتمر الموسيقى العربية. ولا زال يرن في آذاننا خطابه البليغ وقصيدته الرائعة اللذين ألقاهما في ذلك المحفل بكازينو بلقيدير. ولا زال موقفه أمامنا وهو يلقي خطابه يوم أن احتفلنا بتكريم المرحوم الشيخ الطاهر الحداد مؤلف كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع رفيقه في المحنة والتضحية والذي هو أيضاً ما زال ديوان شعره جاهزاً مودوعاً عند رفيق له هو الكاتب القدير والمحامي الضليع الأستاذ أحمد الدرعي الذي لا شك أنه يفي بوعده فيبرز تلك النفائس الشعرية هذه بعض ذكرياتي عن المرحوم أبي القاسم الشابي الذي عرفته فعرفت فيه قناة لا تلين وشاعرية لا تنضب وسخرية لا تنمحي. شعره مرآة نفسه المكلومة الجريحة وعواطفه شعلة لا تنطفي تغذيها روحه المتوثبة المتحركة.

أما أخلاقه فهي غاية من السمـو والرفعة وإن كان في أخريات حياته قد انكمش حول نفسه يتلقى من وعيه الباطن إلهام الشوق والحنين والدموع والألم[1].

---

(1) الأسبوع المرجع السابق.

كلمة الندوة

هذا العدد عدد ذكرى والذكريات عند الأمم القادرة، تخلد وتُحيا، بإقامة التماثيل للعباقرة المحتفل بذكراهم، أو بتأسيس النوادي لبعث تراثهم ونشر آثارهم؛ أو بإنشاء كراسي في جامعات الدراسة ومعاهد المعرفة بأسمائهم، تدرس من فوقها منتجاتهم وفلسفاتهم؛ أو على الأقل بإطلاق أسمائهم على أحياء أو شوارع في الوطن الذي أنجبهم.

ونحن هنا لا نستطيع أن نفكر في كل هذا الآن، لأننا ما زلنا بمعزل عن إدراكه. وكل ما نستطيع أن نفعله من أجل عباقرتنا الراحلين، هو تدبيج كلمات عابرة نعترف فيها بأنهم كانوا حقاً عظماء ونوابغ لامعين، فكأننا نبكيهم بها، أو كأننا نحاول بها رفع المذمة والعتب عنا، في نظر الآخرين.

وإلى حين أن يتسنى لنا التفكير في إطلاق اسم الشابي على أحد شوارع العاصمة التونسية، أو إقامة تمثال له في مدخل أحد معاهدنا الثقافية البارزة.

وإلى حين إنشاء الجامعة التونسية المرتجاة، لتأسيس كرسي باسم الشابي لتدريس الأدب العربي.. إلى ذلك اليوم نكتفي اليوم بهذا العمل المتواضع، في تخليد ذكرى الشابي، الذي أخل بواجبهم نحوه، أهله، ومواطنوه[1].

---

(1) مجلة الندوة (تونس) س 1 ع 10 (أكتوبر 1953).

أبو القاسم الشابي الأديب الفنان

تألق نجم أبي القاسم والأدب العربي لما يزل رازحاً في القيود والأغلال التي كبل بها من لدن سقوط دولته بانصراف منتحليه ورواده عن المعاني إلى المباني وعن الروح إلى المادة اللغوية، وافتنانهم بمبدع القول ومزخرفه وبلوغهم فيه شأواً عظيماً. . . تألق نجمه حين ظهوره بنوع جديد من الأدب لم يكن معهوداً في ذلك الوقت أنف فيه أن يتبع خطى من سبقوه ويحذو حذوهم، فكان حينئذٍ حديث المجالس والمنتديات الأدبية التي كثر ما كانت مجالس تندر بأدبه وتهجم عليه وعلى نهجه الذي ارتضى وكانت في غالب الأحيان تنتهي بإجماع أولئك المتجالسين على مروق هذا الشاعر. . . وكنت ترى في نفس ذلك الوقت قلة من المتأدبين الناشئين يجتمعون في إحدى المقاهي أو الرياض البلدية لتكريم أديبهم الذي امتلك إعجابهم واسترق أحاسيسهم بمناسبة بروز قطعة شعرية له في إحدى الجرائد أو المجلات المحلية كانت فتحاً جديداً في الأدب العربي التونسي. . .

كان أولئك الشبان يعجبون بشعر أبي القاسم وآرائه الأدبية أيما إعجاب، وزاد إعجابهم به أن رأوا أدبه مماشياً لنوع حي جديد من الأدب في ذلك العصر انبثق من الدنيا الجديدة ـ مهجر السوريين ـ بتزعم شخصين من أعلام زعماء الأدب العربي الحديث: ميخائيل نعيمة وجبران خليل. . حيث كانت آثار هاتين الشخصيتين طاغية في ذلك الحين على كل المنتوج الأدبي الشرقي يتلقفها شباب ذلك الجيل ويوصي بها بعضهم بعضاً. . . غذاءً جديداً للعقلية الشرقية لا عهد له به. . . وربما كان ذلك هو الأثر الفعال في تكوين أبي القاسم وربما كانت فطرته الصقيلة وعقليته الصافية

غنية عن أن تنهل من ذلك الينبوع فابتدعت بطبيعتها أدباً جديداً خلاقاً كما أثمرت قريحتا ذينك العلمين. . . .

ومهما يكن من أمر، فإن ما ظهر به أبو القاسم في ذلك الحين جعل منه أديب العصر الأوحد و شاعره الفذ ـ ولو كره بعض المتزمتين.

وأراني أنساق بهذا الحديث، وهذه التوطئة إلى رواية ما دار من حديث في مجلس من المجالس الأدبية، فقد أتاحت لي الفرصة أن ألتقي في غضون الشهر الماضي بالأستاذ النيال بإحدى مقاهي العاصمة عفواً، وكان أن جمع إلينا القدر السخي اثنين من أدبائنا وكتابنا المجددين ممن كتبوا في هذا العدد نفسه عن الشابي. . ودار الحديث عن «الندوة» وكان بطبيعة الأمر متناولاً لعددها المقبل ـ عدد ذكرى الشابي ـ فأتى الحديث عن الشابي طبيعياً وبدون تخير. . وكنا نعلم أن الأستاذ النيال من أكبر المعجبين بالشابي وأدبه وفنه. وكنا نعلم أيضاً ـ أو كنت أنا أعلم على الأقل أن الأستاذ النيال قد شارك مشاركة في توجيه الشابي وإرشاده بحكم تجربته وسابقيته في الأدب عنه. . وابتدر أحد الأديبين الأستاذ النيال بالسؤال عن بداية أمر هذا الشاعر الفنان. . وانهل الأستاذ في الحديث بشيء كثير من السخط وبدت أسارير وجهه عابسة وقال: كنت من الملازمين لأحد صحفيينا الكبار، كنت ملازماً له لصداقة تربطنا ببعضنا وإن كنا في بعض الأفكار على طرفي نقيض كثيراً ما تقوم بيننا الخصومات ونشتجر متخالفين ـ وإنكم لتتساءلون عن سر بقاء هذه الألفة والملازمة ـ هي الأخلاق الفاضلة التي يتحلى بها وأدبه الخاص. وكان في إحدى الأيام أن قرأت بالعدد الخاص بجريدته ـ الذي كان يصدره سنوياً ـ قطعة شعرية أعجبت بها كل الإعجاب، أعجبت بما فيها من أفكار تقدمية، وأعجبت بأسلوبها وبقالبها الجميل وألفاظها المؤدية المنتقاة، وصرفت نظري تطلعاً إلى معرفة صاحبها وإذا بي أقرأ ـ أبو القاسم الشابي ـ ولم أتمالك بل لم يستقر بي مقام حتى أتيت صديقي الصحفي أستفسره عن هذا الشاعر:

ـ من هو هذا أبو القاسم الشابي؟.

ـ إنه شاب زيتوني، أقلقني بمقطوعاته المكدسة بمكتبي يرجو نشرها.. وقد رأيت أن آخذ بخاطره فأنشر له هذه القطعة.

ـ عيب عليك يا فلان.. إنه شاعر رقيق، وأعتقد أن له مستقبلاً زاهـراً، فلا يجمل بك مصادمته!...

خرجت من مكتب الصديق وجلست بمقهى «الحداد» بالكتيبة وأنا جد مفتكر في هذا الشاعر الشابي.. ـ إنه زيتوني ـ وتسمح لي ـ يا شيخ النيفر ـ أن أقول: إن الزيتونة لا تكون مثل هذه الفكرة في الأدب... واحترت في أمره وفي سر تأهله لأن يصل إلى مثل هذه الدرجة.. وأيقنت أن له ثقافة غربية أو أنه اقتبس من أدباء المهجر وتأثر بأدبهم... وأخرجت ورقة وقلماً وكتبت نقداً وتقريظاً للقطعة رجوت من صديقي إدراجه بجريدته، وبعد أسبوع برزت الجريدة حاوية لكلمتي وفي عشية ذلك اليوم كنت أنا والشابي في أحد المقاهي، جاءني يقدم شكره على عطفي عليه وعلى أدبه بعد أن يئس واستولى عليه القنوط لما كان يلاقيه من عنت وكبت، وكأنما الدنيا تفتحت له...

وكان بعد ذلك أن ذاع أدبه وحظي بتشجيع بعض مخلصي الصحفيين الذي رحب بشعره وبوأه المنزلة اللائقة به بمجلته الأدبية «العالم الأدبي»، وفي عام 1931 طوحت بي أسفار علمي إلى الجريد فلقيت بها الشابي وخرجنا أصيلاً نرتاد الرياض الزاهرة وجنات النخيل الجميلة وقد آذنت الشمس بالمغيب، فامتلك ذلك المنظر عليّ مشاعري وجعلني أسبح في دنيا من الفتنة والجمال والتفت إلى الشاب الشاعر وقلت له. يا أبا القاسم، إني متتبع لشعرك فلا تفوتني منه فائتة ولم أرَ بينه قطعة أو قطعاً في وصف هذه المناظر الجميلة التي هي مرتع صباك والتي تستحق الإشادة بها، فعلام لا تصور لنا منها إطارات فاتنة بديعة في شعرك؟ وعلام هذا الإغفال؟ فأجابني باحتشامه وتواضعه وخجله: إنني أفكر في صوغ عدة مقطوعات

أصور فيها هذه المناظر طبق رغبتكم وسأزيد على ذلك، بأن أروي مع تصوير كل قطعة أسطورة تاريخية من أساطير أهل الجريد. . . (وأبى القدر ـ ويا للأسف ـ أن يتم ذلك).

ومرت فترة من الزمن لاقيته بعدها وقد أنهك المرض جسمه الفتي وكاد أن يذوي زهرته اللدنة الغضة، كان ذلك بعد زواجه الذي حظره عليه الأطباء، فما كان مني إلا أن ألححت عليه في الذهاب إلى عين الدراهم حتى يسترجع صحته ويبرأ من علته. . . وكان اجتماعنا الأخير بعيد رجوعه من عين الدراهم، فسألته عن صحته فأجاب أن لا بأس. . . .

وما راعني إلا أن قرأت في تلك الليلة على صفحات ـ العالم الأدبي ـ (وكنت ألتذ القراءة ليلاً فوق فراشي على ضوء المصباح الخافت الهادي) قطعته الأخيرة المشهورة:

اسكتـــي يـــا جـــراح   واسكنـــي يـــا شجـــون
مـــات عهـــد النـــواح   وزمـــــان الجنـــــون

فما كدت أقرأ شطراً منها حتى غرقت في خضم من الدموع وحتى انخلع قلبي بزفرات حارة ملتهبة وآمنت بموته. . . نعم آمنت بموت هذا الفتى الجبار، هذا الأديب الفذ، الذي صوح زهرة في ربوع الأدب العربي. . . وكلما زدت في القراءة بيتاً زاد بكائي ـ رغم أن عيني يعوزهما السخاء ـ أيقنت أنه أديب وآمنت بأدبه فبكيت، لأنه بكى نفسه وندد بجراحه، وضاق ذرعاً بشجونه، ولو لم أؤمن بأدبه، ولو لم أؤمن بسموه الفني، لما بكيت، ولما أوليته غير ما أوليت به غيره من الذين كتبوا على قبورهم وندبوا أنفسهم فما بكاهم الفن ولا ندبهم الأدب. . . .

* * *

برواية هذه القصة ونظائرها من أدباء ذلك الجيل وكتابه يتبين لنا ما لاقاه الشابي من خيبة لدى جمهرة منهم وما صادفه من نجاح لدى آخرين.

ومهما يكن من أمر، وسواء أكانت خيبة الشابي أكبر من نجاحه أم كان الأمر بعكس ذلك فإن نفسه لم ترتطم بحجر الصلف والطغيان بل سارت قدماً غير آبهة ولا هيابة لا ترمي سوى إبلاغ رسالتها وأدائها على الوجه الأرضي، أمانة من عالم الوحي والوجدان إلى عالم التلقي والإحساس وإن غلب عليه الجحود والكفران، برئت من الخيانة وأبت الانهزام وأشفقت على مبادئها من عنت حزب الرجعية والجمود. . . .

و«الندوة» إذ تبرز للناس هذا العدد الخاص بالشابي فإنما تحرص على المساهمة ـ بقدر استطاعتها ـ في خدمة أدب نعتقد أنه ما يزال في حاجة إلى كثير من البحث والدرس والفهم أيضاً، وهو أدب الشابي رحمه الله[1].

(1) مجلة الندوة (تونس) س 1 ع 15 (أكتوبر 1953).

أبو القاسم الشابي
خالد الشعر التونسي
بمناسبة ذكراه الثامنة عشرة

بقلم الأستاذ محمد الحليوي

إنه لمما يحزن نفسي ويملؤها حسرة وأسى هو أن أفكر في أن أبا القاسم الشابي ـ رحمه الله ـ لو عاش إلى اليوم لبلغ الرابعة والأربعين من عمر مليء بجلائل الأعمال، وعظائم الآثار. ثم أتصور مقدار الخسارة التي خسرها الأدب العربي الحديث، وخسرتها تونس العربية بفقد هذا العبقري الفذ، فيهولني هذا التصور ويبعث في نفسي عواطف هي مزيج من الألم والحزن والكآبة. فلو عاش الشابي إلى اليوم لملأ الدنيا وشغل الناس، ولو عاش إلى اليوم لجعل لتونس مكانة في البلاد التي تتكلم العربية أضعاف المكانة التي جعلها لها بهذه البلاد في المدة القصيرة التي اشتغل فيها بالأدب.

لقد بدأ الشابي ينشر آثاره سنة 1928 ـ وتوفاه الله سنة 1934 ـ فتكون المدة التي انقضت بين دخوله عالم الأدب ووفاته لا تزيد عن ست سنين ترك لنا فيها ديواناً كاملاً لم ينتشر منه إلا حوالي ستين قصيدة أو مقطوعة ومقالات نثرية تبلغ العشرين زيادة عن دراساته وكتبه التي طبعت أو لا تزال مخطوطة. نعم هي سنوات ست ولكن كم كانت مباركة على الأدب، وكم كانت حافلة بالروائع والآيات الخالدات. ست سنوات أنتج فيها هاته القصائد العجيبة التي لم تكد تنشر في الشرق حتى فتن بها الشرقيون افتتاناً. وتناقلوها في مجلاتهم متنافسين مفتخرين وتناولها

بالدرس كبار أدبائهم وكتبوا عنها في كل بلاد تتكلم العربية وصارت تونس تدعى هنالك بـ «وطن أبي القاسم الشابي». . . . هاته القصائد العجيبة التي امتازت على شعر المعاصرين بما فيها من قوة في التفكير، وسمو في الروح، وجمال في الأسلوب وقدرة خارقة على الإتيان بالصور الشعرية الرائعة التي تبلغ حد الإعجاب في بابها والتي تكاد تتعب الذهن من كثرتها وتسلسلها الواحدة تلو الأخرى، هاته القصائد العجيبة التي تلقفها الشباب التونسي بلهفة وحرارة تشبه الحمى، وحفظها عن ظهر قلب، وتأثر بها إلى حد بعيد حتى ليمكن القول بأنها أنشأت جيلاً جديداً من الشباب الشاعر يصح أن نطلق عليه «مدرسة الشابي» ـ إلا أن عالم الأدب لم يكد ينصرف لسماع هذا الشعر السماوي ويتفرغ لدرسه ومعرفة الينابيع التي يستقي منها صاحبه، ولم يكد يظهر للشاعر إعجابه ويستزيده من هذا الفيض الروحي العذب حتى فوجىء بنعيه ـ فبكته تونس أحر بكاء، وبكاه العالم العربي كما يبكي أعز أبنائه.

فالرجل الذي اشتهر اسمه في الشرق والغرب وأثر على مشاعر جيل كامل، والرجل الذي كان وما يزال محل الإعجاب والإكبار من طرف مواطنيه وغير مواطنيه والذي هو قدوة كل شاب متأدب، وغاية كل مشتغل بالأدب، والرجل الذي ترك فلسفة تامة الحلقات شاملة لأهم مشكلات الحياة، وترك مذهباً أدبياً يمتاز بمبادئه ونظرياته، وأقام هيكلاً عتيداً للأدب العربي في هاته الديار، لم يلبث في الميدان الأدبي سوى ست سنوات معدودات. فأي أدب كان ينتج، وأي شعر كان يخرج، وأي كتب كان يدرج لو لم يخترمه الله لجواره منذ ثماني عشرة سنة؟ بلى وأية روائع فاتتنا، وأية بدائع ضاعت علينا إلى الأبد، وأية آيات خالدات كانت تصدر عن تلك الروح الهائمة التواقة إلى الجمال في كل مظاهره وبكل معانيه.

فوا لهفتاه على ذلك القلب الذي لم يخلق إلا ليتملى من صور الكون ثم يترجمها أغاني وأناشيد ساحرة، وعلى تلك العاطفة التي لا تفلت من مشاعر النفس وهواجسها وانفعالاتها شيئاً. وعلى تلك الفكرة التي تتسامى

فلا تلحق في السمو فتأتي بالتأملات العميقة والصور المعجزة، وعلى ذلك الخيال المجنح الذي يسبغ على كل ما يلامسه سحراً من سحر الأضواء والألحان والمعاني.

* * *

لقد كان الشابي ـ رحمه الله ـ رجلاً بأتم معاني الكلمة. لقد كانت نفسه تبهر بما انطوت عليه من رفعة وشهامة، وبما كانت تتصف به من رقة ولطف وأريحية. وإذا كان في الشعراء من يسرك خبره ويسوؤك خبره ومنهم من يكون سماعك به خيراً من رؤيته، فإن الشابي من الذين إذا التقيت بهم تظل حائراً في أمرهم، متعجباً من حالهم. فمن عرف الشابي بشعره ثم عرفه بشخصه بقي يتساءل أهذا هو الشابي الجبار؟ أهذا الرجل الذي إذا حدث لا يكاد يسمع، وإذا ناقش لا يكاد يجرح، وإذا أثنيت على شعره أو حدثته عن نفسه علت وجهه حمرة الخجل، واستولى عليه الحياء. وتقول لنفسك أهذا حقاً هو ناظم «صلوات في هيكل الحب» و «نشيد الجبار» و «في ظل وادي الموت» و «إرادة الحياة»، فما باله إذا اجتمع بالناس فجاء إليهم أو جاؤوه ظل معهم رجلاً عادياً ليس في حديثه ولا حركاته ما يميزه على غيره اللهم إلا مسحة كآبة تبدو على وجهه وبريق غير معهود يشع من عينيه ووجوم تنطق به شفتاه وهو ساكت ـ والحقيقة أن الشابي كان له ـ ككل عبقري ـ نوعان من الحياة، حياة للناس وحياة لنفسه، حياة يحياها للناس فينزل فيها على أهوائهم، ويلبس لها الزي الذي يروقهم بقدر مستطاعه، وقد يجاريهم في شيء من عبثهم ومهاترتهم مع وقار وحشمة، ثم حياة فردية يحياها لنفسه إذا خلا لدفاتره ومحابره، وأخذ يستلهم عبقريته ويستمد منها آيات الفن الصميم، هنالك يظهر الشابي الحقيقي وهنالك يجب أن يلتمس سر عظمة روحه، وسمو نظرته إلى العالم في شمول وإحاطة.

على أن الشابي ككل فنان مخلص لفنه لم يكن محباً لهاته المجالس الصاخبة المليئة بالهذر والسخف والتي ترغمه آداب اللياقة على أن يعيش

فيها كما يعيش الناس ، فإذا جاءها فإنما يضطر إليها اضطراراً ويستنزل لها كما تستنزل العصم من جبالها:

في شعاب الزمان والموت أمشي   تحت عبء الحياة جم القيود
وأماشي الورى ونفسي كالقبـ   ـر وقلبي كالعالم المهدود
وإذا ما استخفني عبث النا   س تبسمت في أسى وجمود
بسمة مرة كأنى استلـ   ـل من الشوك ذابلات الورود

«وقد وصف الشابي في قطعة نثرية نشرت تحت عنوان «روح ثائرة» أديباً ما أظنه إلا إياه لأن الصورة طبق الأصل الذي أعرفه، قال رحمه الله: عرفته أديباً له حظ موفور من بعد النظر، ورجاحة التفكير، وجمال الأسلوب وعرفته شاعراً، له روح حساسة مرهفة، كالوتر المشدود، وأحلام غريبة لا تخلو من الشذوذ، وخيال قوي وثاب إلى المجهول، وكنت إذا جلست إلى الناس، واستمعت أحاديثهم شعرت بالخمول يدب في مشاعري، ويستولي على نفسي، حتى كأنما انقلبت قبضة من رماد خابية في ليالي الشتاء وأحسست بالحاجة إلى ما يثير عواطفي ويحرك وجداني ويؤجج في داخلي نيران الحياة. أما بجواره فقد كانت مشاعري تتقد وتتوهج وتتدفق وتستجيش كعاصفة من نار وكنت أحس أنني شعلة حية نامية تضطرم في موقد هذا الوجود وتندفع عارمة طاغية في أحشاء الزمان، لأنه كان يحمل بين جنبيه روحاً مشبوبة ثائرة تدوي بتيارات الحياة. لم يكن يحمل بركة راكدة آجنة تعكر صفحتها النائمة أشباح الجبال وأظلال الغيوم ولأنني كنت أجد في صدره تلك النفس الحساسة الطموح الجياشة بشتى المعاني والصور، وذلك القلب الشاعر الملتهب الذي يطبع كل ما يلامسه بطابع من نار».

«وقد مرت أمواج الزمن متعاقبة حاملة إلى خضم الأبد المجهول أشلاء الموت وأنقاض الحياة ولكن صورته ما زالت ماثلة أمامي بوجهه الشاحب المهزول، وقامته المديدة، وعينيه الغارقتين في ضباب الأسى،

وشفتيه الذاويتين بلفح الألم، وما برحت ذكرى تلك العشية الرائعة حية في قلبي كأنها أمسية الأمس القريب، تلك العشية الرائعة التي اكتشفت فيها مناجم قلبه الذهبية، واطلعت على ما في روحه الشجية من كنوز غريبة كانت علة تعاسته وشقائه» ا هـ.

* * *

على أنه وإن توفي الشابي واستأثر الله به لجواره، وقضى أن نحرم من آثاره وآياته فإن في ما أبقاه لنا ينبوعاً وأي ينبوع، ينبوع يستقي منه الجيل الناشىء أسمى العواطف وأنبل الأفكار وأحسن الاتجاهات. فرسالة الشابي إلى الشباب رسالة سامية المعنى، واضحة المعالم، هي رسالة تحرير النفس من كل أسر، والثورة على كل عبودية، والتمرد على كل قيد، هي رسالة تعلم الشباب كيف يميز الجميل والجليل من الزيف والسفساف، هي رسالة تعصم من آمن بها من الإسفاف والكذب والمواربة في التعبير عن شعوره.

لقد ثار الشابي على الأوضاع البالية، والتقاليد السخيفة والنفاق المنمق في مختلف الصور، وثار على أحلاس الجمود وعباد القبور، أولئك الذين ناصبوه العداء، وزادوا عليه من وطأة الداء. وألبسوه من الحزن ثوباً، وتوجوا رأسه بالأشواك على حد تعبيره، وثار الشابي على المرتزقين بالشعر والمتزلفين به إلى الشعب أو إلى الكبراء، أولئك الذين لا هم لهم إلا أن يصفق لهم المصفقون، ويخلعوا عليهم الألقاب الضخمة ولا يهمهم أن يتقدم الأدب أو يتأخر، وينتصر مبدأ أو يتقهقر، ولا يعتقدون لحظة أن الفن رسالة وأن الفنان ـ كما يقول الشابي ـ جم أحزانه وهمومه:

أبـــداً يحمـــل الـــوجـــود بمـــا فيـ ـــه كـــأن ليـــس للـــوجـــود زعيمـــه

وثار الشابي على الظلام المستبدين، والطغاة الجبارين:

ألا أيهـــا الظـــالـــم المستبـ ـــد حبيـــب الفنـــاء عـــدو الحيـــاه
سخـــرت بـــأنـــات شعـــب ضعيـــف وكفـــك مخضـــوبـــة مـــن دمـــاه
وعشـــت تـــدنـــس سحـــر الـــوجـ ـــود وتبـــذر شـــوك الأســـى فـــي ربـــاه

رويــــدك لا يخــــدعنــــك الـــر بيع وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففــي الأفــق الــرحــب هــول الظـ ـلام وقصف الرعود وعصف الرياح
فـــــلا تهـــــزأن بنــــوح الضعيـ ـف فمن يبذر الشوك يجن الجراح

فأية دروس يتلقاها الشباب الناهض من ثورة الشابي على كل الأكاذيب المنظمة، والأباطيل المنمقة فيتعلم أنه ليس هنالك في هاته الحياة ما يستحق الإعجاب والمحبة والتضحية إلا ما بني على الحق والإخلاص والصدق وأنه ليس في هاته الدنيا ما يستحق الإجلال والتقديس إلا الجمال العاري من كل تزييف، والسمو الروحي الذي لا تشوبه شائبة ـ أما البهرج الزائف وأما الأكاذيب المنمقة فهو لا يستحي أن يمزق عنها الحجب وينزلها منزلتها الحقيقية كلفه الأمر ما كلفه من سخط الجاهلين وحماقة الحمقى:

أيهــا الشعــب ليتنــي كنــت حطــا بـاً فـأهـوي على الجذروع بفـاسي
ليتنــي كنــت كــالسيــول إذا ســا لـت تهـد القبـور رمسـاً بـرمـس
ليت لـي قـوة العـواصـف يـا شعـ ـبي فـألقـي إليـك ثـورة نفسـي

* * *

وهناك منبع آخر لرسالة الشابي يمكن أن يستقي منه الشباب وهو ما يسميه بـ «إرادة الحياة» وإرادة الحياة ليست إلا إرادة للقوة لأن الحياة كفاح لا ينتصر فيه إلا من كان قوياً، وليس من الضروري أن تكون القوة مادية فقد تكون القوة روحية بل القوة الروحية هي التي تنتصر دائماً على القوة المادية وإن ظهر في بعض الأحيان أنها هي الغالبة المنتصرة.

قوة الخلق ومتانته، وقوة النفس وإباؤها، وقوة الإرادة في طلب ما يطلب، تلك هي بعض مظاهر القوة الروحية وإرادة الحياة معناها العمل لتكسير كل قيد يمنع الحي من تحقيق ازدهار إنسانيته وغزو حريته:

هــو الكــون يحــب حــي الحيــا ة ويحتقــر الميــت المنــدثــر
فــلا الأفــق يحضــن ميــت الطيـ ـور ولا النحـل يلثـم ميـت الـزهـر
إذا طمحــــت للحيـــاة النفـــو س فــلا بــدّ أن يستجيـب القــدر

هذا هو الينبوع الآخر الذي يجب أن يرده الشباب التونسي إلى جانب الينابيع الفياضة التي يرد منها لتكوين ثقافته، وهذا هو الموال الذي يجب أن ينسج عليه حتى يكون الأدب الذي ينتجه صورة لقوة نفسه وإرادته فكفى من هذا الأدب الضعيف الخانع الذليل الباكي اليائس[1]:

فالمجد في القمم الرفيعة مالىء   جبل الحياة بضوئه الخلاب

* * *

(1) مجلة الندوة (تونس) المرجع السابق.

ما كُتِبَ عن شخصيّته وتكوينه
حياته وثقافته

حياة أبي القاسم الشابيّ

الأستاذ إبراهيم بورقعة

كان عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين، وكنت فيه كثير التردد على مكتبة الخلدونية مساء غالب كل يوم. وكنا معشر الرفاق بالمكتبة نفراً يعد فوق الأصابع، وأعني بالرفاق الذين يندر تخلفهم. وكان من بينهم فتى يدخل علينا بخطى سريعة تدل على الحياة والنشاط، مجهول من الجميع، يأخذ كرسيه بقاعة المطالعة بعد أن يحيـي المطالعين بصوت خافت لا يكاد يسمعه القريب إليه.

ثم يقف بجانبه قيم المكتبة ليحضر له ما يأمر بطلبه وإذا المطلوب مجلدات ضخام وكتب تحار في حملها وتقليب أوراقها يداه الصغيرتان. ثم ينكب على مطالعتها غير محتفل بمن حوله ولا ينصرف بصره من مطالعة كتاب إلا إلى غيره وكان وقتئذٍ لسان حال المطالعين يقول له مالك وهاته الكتب وأين لشاب مثلك أن يفهم ما ترمي إليه وما تحويه أسفارها الضخام. وكان البعض الآخر ينظر إليه نظرة المشفق الآسف عن ضياع وقت هذا الفتى الذي لا يزال الشباب أمثاله يلعبون بالأنهج والطرقات. وهكذا كان ذاك الفتى شغل المطالعين فهم يتحدثون عليه همساً ولا يبخل أحدهم أن يشير إليه إشارة الهازىء الساخر.

وشاءت الظروف أن تجمعني بذلك الفتى إثر مسيري وراء جنازة تلميذ من الجريد يدفن في مقبرة الجلاز. إذ كان يسير بجانبي وجلال الموت يعلو رؤوس الجميع. وطالت المسايرة وإذا به يتألم ويتبرم من الحياة و يلعنها ألف لعنة ولعنة. فقلت في نفسي ما بال هذا الشاب قلقاً

حرجاً وهو يرفل في ثياب الحرير وينعم بالصحة والعافية.

وجرى الحديث والحديث ذو شجون إلى أن سألت الفتى عن اسمه وبلاده فعرفني عنه كل شيء عرفت أنه يدعى أبا القاسم الشابي وليد بلدة توزر وأنه خرج به أبوه مرضعاً منها حيث سمي أبوه قاضياً على مدينة قفصة. وهكذا أصبح بحكم الضرورة الإدارية ينتقل مع أبيه إلى المدن التي سمي بها، من ذلك قابس ومجاز الباب ورأس الجبل، وكان ذلك هو العذر بمحدثكم هذا لعدم معرفة الفتى وإن كنت أسمع بأبيه وورعه وعلمه.

وبعد أن أودعنا الفقيد التراب ورجع المشيعون من حيث أتوا، وكان ذلك اليوم من أيام الربيع الطلق، فسرت وصاحبي بمقبرة الجلاز وهي في فصل الربيع حديقة غناء وروضة فيحاء ولم يمض ذلك المساء الذي لا أزال أتذكره بكل جلال وإكبار، ذلك المساء الذي عرفت فيه أبا القاسم لأول مرة، عرفت عنه كل شيء أطلعني عن كل ما يحمل بجيوبه المثقلة بالتحارير من أشعار وقصص وغير ذلك. أطلعني عن أفكاره في هاته الحياة، ولم يكفه ذلك حتى أخذني من بعد قاصداً بي بيته بالمدرسة فإذا بها الشيء الكثير من التحارير القيمة وألفت نظري أن تلك التحارير والأوراق تشغل مكاناً خفياً من البيت، وإذا به يعلل سبب إخفائها عن الأنظار خشية وقوف المكلف بمراقبته في التعليم من طرف والده، إذ كثيراً ما عثر له عن تقييدات أدبية فأشبعه لوماً وتعنيفاً وربما رفع الأمر إلى والده فتأتي رسائله مملوءة بالتهديد والوعيد.

وقد وجدت وقتئذٍ نثر أبي القاسم أكثر من شعره ووجدت صدره ضيقاً حرجاً بأدبياته ليس له قرين يبادله القول أو يناقشه النظر. ولا يوجد حوله إلا الرقباء والأعين، حتى إذا رأوا بيده ورقة أدبية مزقوها أو كتاباً أدبياً أتلفوه(!!) وكانت تلك الساعة التي اجتمعت معه فيها من أفسح الساعات وأطيبها.

وقد سألته لماذا لا تنشر البعض من هذا النثر والشعر بالجرائد السيارة

والحال أنه بلغ إلى حد الكمال، فوجدت الفتى مرتاباً في نضوج تحريراته ويخشى من الفكر العام أن يقابله بالهزء والسخرية، كما أنه يخشى غضب والده وغضب المتعهد برعايته.

ولم أخرج من بيته حتى تسلمت منه قطعة شعرية رائعة وسلمتها إلى السيد حسين الجزيري صاحب جريدة النديم وقد حان وقتئذٍ بروز عدده الممتاز فنشرها تحت عنوان شاعر الوجدان أبو القاسم الشابي فكان شكر وثناءً وتنشيط من عموم الأدباء ولوم وتعنيف ممن تعلمون.

والمترجم له هو أبو القاسم بن محمد بن بلقاسم بن إبراهيم. ولد ببلد توزر في اليوم الثالث من شهر صفر عام 1327 من أبوين كريمين كل منهما لعائلته شهرة بالفضل والعلم ببلد الجريد. ويكفي أن تعرفوا أن والده بعد أن ملأ وطابه بالعلوم بجامع الزيتونة المعمور عن أمثال الأستاذ سالم بوحاجب وغيره التحق بالديار المصرية وانخرط في الجامع الأزهر وقضى به عدة سنوات وما رجع حتى أصبح علماً من أعلام العلم والتحقيق. وبعد رجوعه من الديار المصرية وذيوع نبئه في ربوع العلماء انتدب من طرف الحكومة للقضاء الشرعي فقبل عن مضض وقد درس مذاهب المتصوفة وحفظ غالب كتاب الاحياء للغزالي. وتراه في كل مجلس من أنصاره ومريديه ويدعو الناس إلى طريقته والعمل بتعاليمه. وقد أثر تأثيراً محسوساً في نفس ابنه أبي القاسم الذي فتح عينيه فوجد أمامه أباً متعبداً ناسكاً يبغض الدنيا ولا يحفل بها ولا تساوي في نظره جناح بعوضة.

وقد حدثني أبو القاسم عن نفسه أن الطور الأول الذي قطعه من حياته الفكرية هو التنسك والانقطاع إلى العبادة. وأنه يقضي اليوم واليومين لا يخرج من معبده وربما يمكث الزمن الطويل بدون طعام أو شراب تعذيباً للنفس وكرهاً لهاته الدار، وكان يؤمل أن يأتيه في وحدته طائف يخبره بالغيب ويبشره برتبة القطب أو الغوث (لست أدري).

ثم فارق أبو القاسم هذا الطور من حياته الفكرية بمناسبة وروده على

الجامع الأعظم، وفي يقيني أنه بقي أثر بنفسه من تلك التعليمات التي قررها حجة الإسلام الغزالي والشمس التبريزي ومحيي الدين بن العربي والتي حررت بتلك الطريقة المحببة للنفوس وذلك الأسلوب الخطابي الذي لا يقدر كبار العقول عن دفعه فضلاً عن طفل صغير وجد غالب مكتبة والده في علم القوم ووجد والده الذي يعتبره أحسن منوال للنسج عليه معجباً بتلك التعاليم.

ثم تغيرت عقلية أبي القاسم الشابي بعد وروده على الجامع الأعظم وبعد أن درس به مدة ثلاث سنوات فقد طالع في بحرها الكثير من كتب جبران خليل جبران وغيره من كتاب المهجر، ووجد في نفسه راحة إلى نثرهم وشعرهم لأن شعر ونثر هؤلاء عليه المسحة الصوفية وذلك لبعده عن الماديات وتعلقه بسر الوجود والحياة. وأصبح أبوالقاسم يكتب بالقلم الذي يكتب به جبران وينظر إلى الحياة بالمنظار الذي ينظر به إليها جبران، وعنون كتائبه وأشعاره بمثل العناوين التي عنون بها جبران كتائبه وأشعاره. وفي طور أبي القاسم الثالث من حياته الفكرية وهو طور النضوج والاستقلال في الرأي والتفكير طور الاختراع في الأدب والابتكار طالع أبو القاسم من كتب الأقدمين آلاف المجلدات وطالع كل ما وصلت إليه يده من كتب المتأخرين وله شغف خاص بمطالعة ما يترجمه أدباء الشرق من كتب الغرب مثل كتب العقاد وهيكل والمازني وله غرام خاص بما يخط العقاد وهيكل. وأبو القاسم إذا طالع الكتاب ومرت على ذلك الأعوام وجدته قائماً بما حوى من الآراء كأنه نفض يده من مطالعته وقت محادثته إليك فيه.

فألم أبو القاسم بأدب الغرب ومذاهبه وتراجم رجاله لا سيما الأدب الفرنسي والانكليزي وصار يتحدث فيهما كما يتحدث المحرز على أكبر الشهادات في الآداب الغربية وقد كان يطالع بشغف زائد كل ما يترجم عن الشاعر لامرتين ويعجب به.

وفي هذا الدور الثالث أصبح أبو القاسم شاعراً عالمياً مثل طاغور ولامرتين وغيرهما من الشعراء العالميين وأعني بالشعراء العالميين الذين ينظمون شعرهم ليقرأه جميع أمم العالم على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم وأديانهم وبذلك فاق أبو القاسم طبقة الشعراء المحليين مثل شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء الشرق والشاعر المحلي أيها السادة هو الشاعر الذي يخاطب قومه ولا يتجاوز صدى صوته المحيط الذي يعيش فيه فيرثي ميتهم ويمدح عظيمهم ويتغنى بمجدهم فإذا مات الشاعر المحلي كان فقده رزءاً محلياً، لا غير. بخلاف الشعراء العالميين فإن رزءهم عالمياً بدون شك ولا ريب.

وأتذكر لطيفة أرويها لكم تصلح مثالاً للشاعر المحلي والشاعر العالمي. وهي أن جماعة من الأدباء المعجبين بشعر شوقي قرروا فيما بينهم ترجمة ديوان شعره وتقديمه إلى اللجنة المكلفة بإعطاء جائزة نوبل في الأدب لعله يحرز عليها مثلما أحرز عليها شاعر الهند طاغور وغيره من شعراء الغرب ولما قدم ذلك الديوان مترجماً رفض من طرف اللجنة المذكورة وعللوا الرفض المذكور بأن صاحب هذا الديوان شاعر محلي شاعر جهة خاصة من الناس وجائزة نوبل لا تعطى إلا إلى شاعر عالمي يخاطب بشعره سكان العالم أجمع ليس في شعره أثر للمحليات والقوميات وبذلك حكم على شوقي وأمثاله بالشعراء المحليين، ولو مد الله في أنفاس أبي القاسم لرأيناه يوماً يتقدم إلى اللجنة المذكورة بديوانه ومن المحرزين على الجائزة المذكورة لأنه من الشعراء العالميين.

لقد أخطأ القول السيد زين العابدين السنوسي عندما ترجم لأبي القاسم في كتابه حيث نسب إليه مديحاً ورثاءً والحقيقة هو أن أبا القاسم لم يمدح ولم يرث مدة حياته الشعرية أحداً وأظن لا يوجد أحد أقرب إليه من والده فإنه لما مات بين ذراعيه عام 1930 لم يقدر على رثائه وقد كاشفني بذلك إلا عدة أبيات قالها فيه بعد الممات بسنوات[1]:

(1) المعروف أن والد الشابي مات عام 1929 وأنه رثاه بقصيدة «يا موت» ـ انظر الديوان =

قد كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
إني سأظمأ للحياة وأحتسي من كأسها المتوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق للحب والأفراح والألحان
ولكل ما في الكون من صور المنى وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت السنون وأقبلت فتن الحياة بسحرها الفتان
فإذا أنا طفل الحياة المنتشي شوقاً إلى الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والهذيان
إن ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الإيمان

إلى هنا تنتهي أبيات أبي القاسم في شأن أبيه ولم أعثر له على غيرها رغم التصاقي به السنين الطوال.

إن أبا القاسم يرى الشعر أعلى منزلة من أن ينزل به إلى درجة النياحة والمديح اسمع قوله في تعريف الشعر:

يا شعر أنت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب
يا شعر أنت صدى نحيب الـ ـقلب والصب الغريب
يا شعر أنت مدامع علقت بأهداب الحياة
يا شعر أنت دم تفجر من كلوم الكائنات

واسمع قوله في قصيدة يحدثنا عن شعره:

شعري نفاثة قلبي إن جاش فيه شعوري
لولاه ما انجاب عني غيم الحياة الخطير
ولا وجدت اكتئابي ولا وجدت سروري
به تراني حزيناً أبكي بدمع غزير
به تراني طروباً أجر ذيل حبوري
لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير

= ص 95 «الناشر».

بمـــــــدحـــــة أو رثـــــاء تهـــدى لـــرب الســـريـــر
حسبـــي إذا قلـــت شعـــراً أن يـــرتضيـــه ضميـــري

بهاته الأبيات أيها السادة قد سطر لنا أبو القاسم بقلمه مذهبه في الشعر وأعطى لنا درساً تطبيقياً في النواحي والأغراض التي يجب على الشاعر الحقيقي أن يتعاطاها.

وقد زادت شهرة أبي القاسم الأدبية عندما سامر بالخلدونية بطلب من النادي الأدبي بتونس مسامرته الشهيرة التي أسماها الخيال الشعري عند العرب، فقد كان لها دوي في الأوساط الأدبية وقد كبرت في نفوس بعض الأدباء الجامدين الذين يرون أن الأدب تراث مقدس يورث عن الآباء والأجداد تجب المحافظة عليه بدون تبديل أو تغيير وأن الأدب العربي غير محتاج إلى التجديد والتحسين. وقد شاغب هذا الفريق أبا القاسم مشاغبة لا تذكر ولم تنشر آراءها فوق الصحف والمجلات واكتفت بانتقاد أبي القاسم داخل البيوت والأمكنة الخاصة، ولا شك أنه يقصد هاته الطائفة بقوله:

وهنـاك فـي أمـن البيـوت تبـادلـوا غـــث الحـــديـــث وميـــت الآراء
وتـــرنمـــوا مـــا شئتـــم بشتـــائمـــي وتجـــاهـــروا مـــا شئتـــم بعـــدائـــي
أمـــا أنـــا فـــأجيبكـــم مـــن فـــوقكـــم والشمـــس والشفـــق الجميـــل إزائـــي
مـــن جـــاش بـــالـــوحـــي المقـــدس قلبـــه لـــــم يحتفـــل بحجـــارة الفلتـــــاء

وهاته الأبيات من قصيدة حبرها أبو القاسم عندما انتابه مرض القلب وهدم من قواه ولم يشفق عليه خصومه في الأدب حتى أخذوا عليه في معتقده الديني وحاولوا إخراجه حتى من حظيرة الإسلام.

واسمحوا لي أيها السادة أن أتلو عليكم ذلك القصيد الجميل الذي يمثل أبا القاسم الرجل المسالم الهادي رجلاً جباراً لا يحفل بالداء ولا بالأعداء.

وحياة أبي القاسم العلمية أيها السادة هو أنه دخل إلى الجامع الأعظم

في عام ألف وتسعمائة وواحد وعشرين وخرج منه برتبة التطويع عام ثمانية وعشرين وانخرط في سلك تلاميذ الحقوق التونسية فأخذ الشهادة الأولى في عام تسعة وعشرين والشهادة الثانية في عام ثلاثين. وكان في هذا العام الأخير يدرس القوانين ويخدم بالإدارة العدلية[1] ويؤلف الكتب والرسائل ويحرر في مفكراته اليومية. وتحت تأثير هذا المجهود والعمل الشاق أصيب الفقيد بمرض القلب وكان أبو القاسم يبغض الوظيف ويراه قيداً لروحه الشاعرة وقتلاً لقريحته الخصبة. واشتد المرض بأبي القاسم فبقي أربع سنوات يغالب الداء ويغالبه إلى أن قضى نحبه صباح يوم الاثنين غرة رجب على الساعة الرابعة عام 1353 وهو ينشد قوله:

الـــــوداع؟ الـــــوداع؟ يـــا جبـــال الهمـــوم
يـــا ضبـــاب الأســـى يـــا فجـــاج الجحيـــم
قـــد جـــرى زورقـــي فـــي الخضـــم العظيـــم
ونشـــرت القـــلاع فـــالـــوداع الـــوداع؟

وقد ترك أبو القاسم ولدين هما محمد وجلال فسلام على أبي القاسم يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً[2].

(1) يقصد الأوقات المخصصة لطلبة الحقوق، للتدرب وليس العمل الرسمي كموظف. «الناشر».
(2) عن مجلة (مكارم الأخلاق) أعداد 4 و 5 و 6 لعام 1355 هـ.

محاولة جعل إطار لترجمة الشابّي

الأستاذ عامر غديرة

اعتاد التونسي منذ أكثر من ربع قرن أن يسمع اسم الشابي على جميع الشفاه وأن يرى صوره في كل مكان وأن يقيم له الحفلات وأن تتحدث عنه الإذاعة وتكتب عنه الصحافة. ولقد اعتاد التونسي أن يختار الشابي للنوادي والشوارع والحدائق العمومية وحتى الكراريس إسماً وعنواناً وهو ينشد شعره من حيث يدري ومن حيث لا يدري، في مواقف الشعور وفي المناسبات الرسمية ثم أنه يرى اسم الشابي قد جاز الحدود التونسية فانتشر في سائر البلدان العربية منذ زمن بعيد وبدأ يعرف في البلدان الأوروبية معرفة دقيقة.

إن أشياء كثيرة كتبت عن الشابي ولقد قيلت فيه أشياء أكثر ولقد عمل شعره أخيراً وغنى فيه من قبل ونقل إلى اللغات الأجنبية أحياناً[1] كل هذا يجعل الشابي شاعراً مشهوراً من المطبوعين الذين يلذ لنا إنشادهم وتروق لنا قصائدهم، غير أنه في الواقع رجل لا نعرف عن حياته شيئاً كبيراً.

نعم ستقول فئة من الأدباء أنه ليس من الضروري القيام بترجمة الشاعر أو الكاتب لكي نتذوق قصائده أو قصصه، فإنا نرتاح إلى شعر المجنون ونحن لا نعلم عنه شيئاً حقاً، وكلنا يقرأ الإلياذة وهاملت وكليلة ودمنة وهو في حقيقة الأمر لا يعلم عن هوميروس ولا عن شكسبير ولا عن

(1) نقل له قصيدتين إلى الفرنسية ابن شنب (الأدب العربي المعاصر الجزائري 1944) ونقلت له مجلة «أبلا» ثلاث قصائد في الأعداد 36 و 37 و 46 ونقل أيضاً إلى الانكليزي (اربرى Arberry لندرة 1950) وإلى السويدية ولقد أصدرنا كتاباً عنه بالفرنسية نقلنا فيه ثلاثين قصيدة (باريس 1959).

ابن المقفع شيئاً كبيراً. ويذهب بعض رجال الأدب إلى أن معرفة الترجمة والأخبار قد تضر الدراسة أكثر مما تنفع ويضربون لذلك مثل الذي سمع أن الشاعر الفلاني قد أحب فتاة في حياته فأراد أن يفسر جميع غزل الشاعر بذلك الحب. يرى هذا الرأي بعض نقاد العرب المحدثين وبعض نقاد الغرب كالشاعر الناقد فاليري. ولقد رأى الشاعر الناقد الكبير بشار بن برد رأياً يقرب من هذا الرأي إذ أنشد شعراً له فيه:

دسست لها أبا مجلز وأي فتى إن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حرم

فقال له رجل: ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ؟ قال: وما حاجتك إليه؟ لك عليه دين أو تطالبه بطائلة؟.....

وفعلاً إنك تستطيع أن تقرأ شعر بشار وشعر الشابي من دون أن تعرف شيئاً عن حياة بشار ولا عن حياة الشابي كما تقرأ معلقة امرىء القيس من دون أن تعلم حتى هل هو حقاً قائلها ولكن امرأ القيس بعيد العهد بنا ويبقى مشكلاً قائماً في الأدب العربي مدى الزمان ونحن لا نريد أن يبقى الشابي ـ وهو معاصرنا أو يكاد ـ مشكلاً قائماً في الأدب التونسي.

ولذا فإنا أردنا في هذا البحث أن نضبط ترجمة الشابي ونجعلها في إطارها الحقيقي متحرين في كل ما وصل بين يدينا متبعين في ذلك طريقة التحقيق العلمي المرتكز على إعمال الرأي ومشاهدة الوثائق والرجوع إلى المصادر التي لا ريب في شهادتها وسؤال من له معرفة بأخبار الشابي. وسيكون هذا العمل إطاراً فقط لا بحثاً كاملاً شاملاً لأن البحث الكامل الشامل يجب أن تتشارك فيه الجهود وأن تكمله الأشياء الممكن اكتشافها على ممر السنين. ولأن البحث الكامل الشامل ليس عمل الفرد بل هو عمل كل من له صلة بالشابي أو بين يديه خبر عن حياته يكتمه.

نشأ أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن إبراهيم الشابي بشابية توزر من الجنوب التونسي ونحن نعلم يقيناً أنه ولد سنة 1327 هـ.

(1909)[1] غير أنا نجد في مطالعتنا وفي محادثاتنا مع أولي الأمر تناقضاً كبيراً واختلافاً ففكرنا في الرجوع إلى مصدر وثيق مثل الحالة المدنية لنعلم بالتدقيق سنة الولادة والشهر واليوم وحتى الساعة فوجدنا أن الحالة المدنية لما تحدث بعد بمدينة توزر عند ولادة أبي القاسم. فأعملنا الرأي من جديد وطالعنا برخصة من عائلته دفتره الزيتوني فلم نعثر مع الأسف على تاريخ الولادة. ورجعنا إلى أخيه الأمين وقد قدم سنة 1955 لأغاني الحياة فلم نره ذكر إلا السنة. أما الشاعر نفسه فإنه رضي بتاريخ نشر في حياته ولا أدري ما مصدره وهو تاريخ 3 صفر 1327 (24 فيفري 1909)[2] ثم نحن تجاسرنا فألححنا في السؤال على أسرة الشاعر فقيل لنا أنه قد يكون ولد حوالي مولد 1327 والمولد في تلك السنة يوافق يوم 3 أفريل 1909[3] على كل فلقد ولد أبو القاسم في ربيع توزر لسنة 1909 ما بين 24 فيفري و 3 أفريل.

وكان أبوه محمد الشابي قد قفل من مصر مجازاً من الأزهر حيث درس على الشيخ محمد عبده المشهور[4] وأنا لا نعلم متى رجع بالضبط وإنما كل ما أتيح لنا تحقيقه هو أنه رجع ليتولى خطة القضاء ببعض جهات البلاد التونسية وأن أول تسمية رسمية اطلعنا عليها هي تسميته بسليانة ولقد صدر له الأمر بتاريخ 11 ربيع الأول 1328 (22 مارس 1910)، حينئذٍ بعد ولادة أبي لقاسم بسنة تقريباً. ثم أنا نجده يعين قاضياً بقفصة في 21 رمضان 1329 (14 سبتمبر 1911) ومن قفصة ينتقل في 15 صفر 1332 (12 جانفي 1914) إلى قابس ومن قابس ينتقل بتسمية جديدة مؤرخة في

---

(1) راجع المهيدي في «الأفكار «ديسمبر ص 83 والسنوسي في ص 11 من كتابه «الشابي حياته وأدبه» المطبوع بتونس سنة 1956 وكذلك فروخ في كتابه «الشابي وطوقان» ص 156.

(2) «الأدب التونسي» جمع السنوسي تونس 1927 ص 202.

(3) كرو (الشابي حياته وشعره بيروت 1952) يقول ص 24 أنه ولد في شهر مارس. وابن شنب (المرجع المذكور) يقول أنه ولد سنة 1910.

(4) المتوفى سنة 1905.

22 رجب 1335 (14 ماي 1917) إلى جبال تالة ثم تأتي تسمية أخرى بتاريخ 17 ربيع الأول 1337 (21 ديسمبر 1918) فيرتحل الشيخ القاضي إلى مجاز الباب. ومن المعقول أن جميع العائلة تتبع الأدب في تنقلاته هذه ولا أدري هل الرحلة تسبق بقليل الأمر الرسمي التي أذكر دائماً تاريخه أم الالتحاق بالمركز يقع بعد الاتصال بالتسمية بأيام قلائل. ويقضي الطفل أبو القاسم في كل هذه الرحلات قسماً وافراً من حياته وأنا نجده في هذه السنة ـ سنة 1918 ـ قد دخل في العاشرة من عمره وهو طفل قد اتفق كل من سمعته وكل من قرأته على أنه كان في أرغد عيش وفي أطيب حياة. ثم يلتحق أبو القاسم ـ وهو لم يبلغ الثانية عشرة ـ بجامع الزيتونة ليواصل تعلمه فيه ويرسم في دفتره بتاريخ 29 المحرم 1339 (11 أكتوبر 1920). ويدخل أبو القاسم بقدومه إلى العاصمة خضم الحياة الواسع كما دخله الكثير منا في حدود ذلك العمر (الثانية عشرة) عندما ينحدر الصبي مما كان يدعى «الآفاق» فينزل أن ساعده الحظ ومعينو الحظ بياتاً بإحدى المدارس الدولية أو ينزل عند قريب له بتلك «الوكالات» الظلماء أو مدارس السكنى قبل أن تنظم مدارس السكنى.

ولمدارس السكنى عندنا أثر عظيم في نفوس كثير من تعلم منا في آخر عهد الحماية ودخل الآن ميدان المعركة القومية. لقد كانت مدارس السكنى ملتقى لكثير من رجال الفكر من بين المسلمين وكانت أيضاً مقراً للفقر والمرض وصومعة للكد والاجتهاد منها برزت نخبة تونسية عتيدة وعليها لاح دوماً شبح الجوع وداء السل ومرض القملة. وكانت كذلك مدعاة للفسق والفساد ومجلساً لشرب الشاي وغير الشاي وميداناً لاحتكاك بجميع معانيه. وأن لكثرة السكان في الغرفة الضيقة الصغيرة لدوراً مزعجاً: فيها يجتمع الكتاب والفحم والبصل والحبر وفيها يغسل الصبي وفيها يطبخ ويدرس ويسرد وينام. . . .

نعم أن بعض مترجمي الشابي[1] قد ذكر قبل الإقامة بالمدارس

(1) السنوسي ص 15.

«وكالة» الخازمي الكائنة بسوق اللفة وراء الجامع الأعظم ولكنا لا ندري متى كان ذلك وكيف كان. ثم إنا نجد أبا القاسم بالمدرسة اليوسفية، نهج الصباغين، في جنوبي المدينة. وكان يسكن الغرفة الثانية على يسار الداخل بالطابق العلوي ومنها انتقل بنفس الطابق إلى الغرفة الخامسة على اليمين وبها بقي إلى سنة 1930[1].

ويجد الصبي نفسه أمام الحرية المطلقة بهذه العاصمة الكبيرة فهو يختلف إلى دروس الجامع حتى إذا كان وقت الفراغ أسرف الساعات الطوال بمكتبة الخلدونية أو بمكتبة قدماء الصادقية. ويبدو لنا أنه كان كلما انصرف من الدرس أقبل على المطالعة وكلما انصرف من المطالعة أقبل على الحياة الناشطة بالعاصمة متردداً على المقاهي العربية (التي عرفها الكبار منا إذا ما انحدروا من الصادقية أو انسلوا من حلقات الجامع أو هاجروا مدارس السكنى فاعتكفوا بمقهى المرابط وأظلتهم قهوة القصبة) أو متردداً على مقاهي الحارة الأوروبية ليسمع الموسيقى ويرى الناس.

ولعل أهم حدث بعد حلوله بالعاصمة إنشاده أول قصيدة له. ونحن لئن استطعنا بإعانة صديقنا الأمين الشابي تحديد تاريخ أول قصيدة لأخيه: 15 ذو الحجة 1342 (18 جويليه 1924) فإنا نظن فقط أنه كتبها بمجاز الباب لا بتونس العاصمة لأنها تقع بعد يوم الأضحى وفي أوائل العطلة الصيفية وإذ كانت أيام الصبي متصلة بين تونس ومجاز الباب، بين الجامع الأعظم والأسرة فلا مبرر لمكوثه بتونس في ذلك الوقت من السنة. وما هي إلا أن تنتهي العطلة ويصبح أبوه فيجد أمراً بتاريخ 10 ربيع الأول 1343 (9 أكتوبر 1924) يدعوه إلى الالتحاق برأس الجبل. ولقد حدثنا بعض من نثق بأن ذكريات لطيفة بقيت للشابي من إقامته برأس الجبل وأعذب هذه الذكريات ذكرى فتيات جميلات قد عشق الشاعق الناشىء بعضهن. ولقد حدثني أيضاً خريف بنفس الذكريات ولكنه ضبطها فجعلها لا في رأس

---

(1) السنوسي ص 17 و 18 وأبو رقعة في «الزيتونة» نوفمبر 1954 ص 6.

الجبل بل في زغوان. وجاءت تسمية الشيخ القاضي بمدينة زغوان في تاريخ 6 شوال 1345 (7 أفريل 1927) ـ ثم إن بالعاصمة أيضاً ذكريات حب ناشىء قد طافت بأزقة المدينة بين نهج الصباغين ونهج الكتبية حيث الجالية الإيطالية مقيمة والجواري متبرجات جميلات. ولكن السيد خريف يعود فيعترف بأن أبا القاسم لم يكن ليذيع سره ولا ليبوح بما هو فيه وإنما كان إخوانه يشعرون بحبه ويفهمون همه على سبيل التقريب، فهم يرجحون حينئذ أنه أحب في ذلك الوقت ولكنهم لا يعلمون عن الواقع الحقيقي شيئاً محسوساً. اختلف الرواة في أمر الفتاة واختلفوا في مواطن الحب ولعل الحقيقة تكون كل ذلك معاً. فلقد يكون أبو القاسم قد أحب في رأس الجبل وأحب في زغوان ثم أحب ثالثة في تونس ولقد يكون قد أحب فتاة بعينها ولقد يكون قد أحب من بعيد مكتفياً بنظرة أو بسماع. ومهما يكن من أمر فإنا نجد بالديوان قصيدتين على الأقل تدلان على حب حقيقي أو خيالي قد فقد بموت حقيقي أو خيالي وهاتان القصيدتان هما «مأتم قلب»[1] و «ذكرى»[2].

وإنا لا نستطيع الآن التعمق في البحث والاستنتاج لأنا نجهل تاريخ جل قصائد الشابي وتاريخ هاتين القصيدتين مثلاً هام. وأنه من العبث ـ في رأينا ـ الاجتهاد لضبط تواريخ القصائد على سبيل التقريب والتخمين لأن هذه التواريخ كلها مضبوطة مسجلة في ديوان الشاعر قد ضبطها بنفسه وأنه لا يسعنا إلا انتظار نشرها ومقابلتها بما لدينا من قرائن إن كان هنالك تفاوت أو اضطراب وتحرير ما هو مظنة سهو أو نسيان.

وفي أثناء هذه المدة، سنة 1927، بدأ القراء التونسيون يطالعون قصائد الشابي في الصفحة الأدبية التي تبرزها «النهضة» أسبوعياً[3].

---

(1) الديوان ص 20.

(2) الديوان ص 53.

(3) السنوسي ص 13 يجعل البداية سنة 1925 ـ الديوان ص 10 يجعلها سنة 1926 ـ الحليوي ص 106 يجعلها في أفريل 1928. أما أقدم نص وجدناه فهو في النهضة =

ويقضي أبو القاسم الصيف بزغوان ثم يعود إلى تونس وإنا نرى ـ على اختلاف من ترجم له ـ أنه في آخر هذه السنة الدراسية يظفر بشهادة التطويع وأنا نحسب أن هذه الاختلافات إنما ترجع إلى أمرين اثنين: أولهما أن المؤرخين يمزجون التاريخ الهجري بالتاريخ المسيحي فتكون كل سنة هجرية مشتركة في الواقع بين سنتين مسيحيتين والعكس بالعكس. وثانيهما أن في هذه السنة بالضبط وافق آخر السنة الدراسية آخر السنة الهجرية في جوان 1928 فلعل العطلة الصيفية بالجامع بدأت مع رأس العام الهجري في تلك المرة. وهكذا فإن يوم 19 جوان 1928 آخر يوم من سنة 1346 (وهذه السنة مشتركة بين 1927 و 1928) فيمتد الخطأ إذن ما بين 1927 و 1929. غير أننا إذا اعتمدنا على دفتره الزيتوني فحسب وتركنا جميع الاختلافات جانباً وجدنا تاريخ 1928[1].

ونحن لا نعلم كبير شيء عن هذه السنة الدراسية وإنما نجد أبا القاسم بعد نجاحه في التطويع وقد انتسب إلى مدرسة الحقوق التونسية واختلف إليها وانخرط في المنظمات الطالبية والجمعيات الأدبية. ونجده ليلة 18 ديسمبر 1928 يشارك في مجلس طالبي لدراسة تعصير التعليم وتجديده بالزيتونة[2] ونجده في نفس السنة يساهم في تكوين «جمعية الشبان المسلمين»[3].

ثم يكون الحدث الأعظم! وذلك في 20 شعبان 1347 (أول فيفري 1929) عندما يصادم هذا الطالب الشاب الذي لم يبلغ العشرين كل من انتصب في مجلس أدباء تونس فأعجبته جلسته وكل من ادعى لنفسه الذود عن التراث الثقافي العربي فقام في وجه الشابي معارضاً. شهد الله أن المحاضرة لم تكن تجديدية محضة ولا تقليدية محضة ولكنها أحدثت الضجة الكبرى.

= نوفمبر 1927.

(1) راجع كرو ص 28 وذكرى الشابي والمهيدي في الأفكار ديسمبر 1936.

(2) المهيدي الأفكار ديسمبر 1936 ص 84.

(3) المهيدي (نفس المرجع) والسنوسي صورة ص 22.

وبعد أيام قلائل تأتي عطلة رمضان وينصرف طلاب الزيتونة ويرتحل أبو القاسم إلى زغوان تاركاً في قلوب كثير من رجال الأدب بالعاصمة صدمة. ثم هو يكتب في 4 مارس إلى صديقه السيد المهيدي رسالة[1] يحدثه فيها عن محاضرته وعن رغبته في نشرها . وأقبل عيد الفطر فانطلق الشابي إلى تونس ثم إلى المرسى ليتفاوض مع السنوسي[2] في أمر محاضرته. نحن نجهل ما دار بين الشاعر الناشيء والأديب والأديب الناشر من الحديث ولكنا نعلم أن طبع المحاضرة سوف لا يكون إلا بطريقة الاكتتاب وأن أبا القاسم نفسه سوف يقوم بتوزيع المقتطعات على أصدقائه وأحباء الأدب الحي ولقد تفضل السيد المهيدي فأرانا مقتطعه الخاص بتاريخ ذي القعدة 1347 (أفريل - ماي 1929) ومبلغه 8 فرنكات ولقد تفضل مرة ثانية فأرانا نسخته الخاصة من المحاضرة المطبوعة وفيها من يد أبي القاسم إهداء بتاريخ 7 أكتوبر 1929 وهكذا نستطيع أن نتتبع محاولات الشابي ومجهوداته لطبع محاضراته من أول فيفري إلى 7 أكتوبر.

وفي أثناء ذلك مر على الفتى صيف مر شديد عسير عرف فيه الأرق والألم والحزن مر عليه صيف فقد فيه أباه. لقد تركنا الشيخ القاضي بزغوان منذ تسميته بها سنة 1345 (1927) وإنا نجده في أول صيف 1929 مريضاً مرضه الذي مات فيه. كان الشيخ إذن مريضاً فرغب في الرجوع إلى توزر(صفر 1348 ، أواخر جويليه أوائل أوت 1929) واستعد أبو القاسم للسهر على أبيه وأعلن في رسالة مشهورة وجهها إلى صديقه السيد الحليوي[3] عن روعه وتألمه أمام احتضار والده وجزع أخوته الصغار وفي يوم 8 سبتمبر 1929 ينتقل الوالد البار إلى جوار ربّه ويبقى أبو القاسم على رأس العائلة.

---

(1) «الندوة» أكتوبر 1953 ص 18.

(2) صاحب «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» وصاحب مطبعة العرب.

(3) «الأفكار» نوفمبر ص 2.

وأنه لا يسعنا الآن إلا مواجهة مشكلة من أهم المشاكل التي تتعرض لكل من أراد درس حياة الشابي وهي مشكلة زواجه وهذه المشكلة عويصة جداً لأن الأخبار مضطربة متناقضة ولأن البحث العلمي يوقفه الحياء وقرب العهد. إن الإخباريين يسكتون[1] أو يطيلون الحديث عن يقين وعن غير ما يقين. فهذا السيد كرو[2] متبوعاً بالسيد فروخ[3] ومتبوعاً ببعض من عرف الشابي فحدثنا رأساً يذهبون جميعاً إلى أن الشابي قد تزوج عن كره إرضاء لوالديه وذويه ورغبة في تكوين عائلة حسب العرف السائد بالجنوب التونسي. وقد زعم بعضهم أنه لم يكن سعيداً في حياته الزوجية وهذا فريق آخر (من بينهم أخواه السيدان الأمين وعبد الحميد) يبتسم عند كل هذا ويذكر في ارتياح وثقة أنه تزوج بعد موت أبيه سنة 1930 وأن ابنه الأكبر ولد يوم 29 نوفمبر 1931.

ولعل الحق مع هؤلاء وهؤلاء إذ كلنا نعلم بتونس أن الزواج الشرعي يبتدىء عند «الكتابة» ويتم عند «الدخول» فلعل الكتابة وقعت حوالي 1928 والدخول سنة 1930 وهكذا يعتبر الشابي متزوجاً في نظر الشرع منذ سنة 1928 وفي الواقع من سنة 1930 فقط. ويؤيد هذا الرأي الواقع التونسي في أيام الحماية وكذلك ما نجده من تناقض ظاهر في كتاب السنوسي إذ هو يجعل الشابي متزوجاً سنة 1928[4] ثم يجعله في فيفري 1930 يتكلم عن «أخي الخطيبة» في سهرة بالمدرسة السليمانية[5].

وفي نفس المدة ـ بين 1928 و 1930 ـ يقوم مشكل آخر ربطه كثير من الأدباء بالمشكل السابق وهذا المشكل لا يقل عن الأول صعوبة وأهمية وهو مشكل العلة التي مات الشاعر منها، غير أن البحث العلمي سيمكننا

(1) الديوان مثلاً ومقدمته.
(2) ص 70 من كتابه.
(3) ص 159 من كتابه.
(4) ص 15 من كتابه.
(5) نفس المرجع ص 18 ـ 19.

في هذه المرة من البت في القضية بالقول الفصل كما سنراه بعد حين.

نحن نعلم أنه مصاب يشكو علته في أثناء كل ذلك ويختلف إلى الأطباء ونحن نعلم أيضاً أنه قد انتهى من دراساته الزيتونية والحقوقية ولم يحاول الارتزاق بشهائده. ثم إنا نعلم أنه يكتب كثيراً في سنة 1930 وسنة 1931 وأنه يستقر بالشابية ويقضي صيف 1932 مع أخيه الصغير الأمين بعين دراهم ثم هو يعود إلى توزر ويرتحل في صيف 1933 إلى المشروحة من أرض الجزائر ثم يذهب إلى تونس ويلتحق منها بمسقط رأسه وفي هذه المدة يشرع معاناً في عمل ديوانه(1).

ويقضي أبو القاسم الشتاء بتوزر وفي شهر رمضان 1352 (أواخر ديسمبر 1933 أوائل جانفي 1934) يعاوده المرض بصفة ألم وأشد من ذي قبل فيلازم الفراش مدة ويمر الشتاء وبرده ويأتي ربيع جديد فيذهب أبو القاسم إلى الحامة طالباً الراحة والشفاء من دائه المجهول.

وفي أثناء كل ذلك يظهر - بصفة غير واضحة إلى حد الآن - بمدينة طبرقة فيتحدث إلى الزعيم السياسي صفر ويكتب قصيدته المشهورة:

«إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر»

ثم هو ينحدر من توزر إلى تونس يوم 26 أوت 1934 وينزل أولاً ببعض فنادق العاصمة ثم يستقر في سبتمبر بضاحية أريانة. أقول يستقر وفي الحقيقة نجده في نفس تلك الصائفة مصوراً بحمام الأنف مع السيدين مازيغ والسنوسي.

ويمر شهر سبتمبر وتتتابع الأيام والناس يتساءلون عن علته: أداء السل أم مرض القلب؟ ونحن كما ذكرنا سابقاً رأينا - لنحقق بصفة واضحة علمية علة أبي القاسم وظروف وفاته - أن نذهب إلى المستشفى الذي ذكر لنا أنه مات به وأن نفتش عن ملفه إن كان له ملف. وقصدنا مستشفى

---

(1) رسالة إلى الحليوي نشرت بالفكر - أكتوبر 1956.

الحبيب ثامر فإذا نص بالإيطالية (كان المستشفى في ذلك العهد يسمى مستشفى الطليان) يخص الشابي وهذا تعريبه:

أبو القاسم الشابي تحت عدد 2567.

العمر: 26 سنة (ذلك أنه يحسب حساباً هجرياً: من 1327 إلى 1353).

الدين: الإسلام.

الحالة: متزوج.

المسكن: أريانة.

تاريخ الدخول إلى المستشفى: 3 أكتوبر 1934.

(الفحص الطبي: مرض القلب.

تاريخ الوفاة: 9 أكتوبر 1934.

هذه خطوط رئيسية لحياة الشابي نود لو تظفر باهتمام كل من يسهر على تحقيق ترجمة الشاعر التونسي فتعارض بعدها الأخبار وتقابل الوثائق وتعالج المشاكل وأنبه عن السهو والنسيان وإني لأنوي العودة إلى الموضوع إن شاء الله[1].

---

(1) عن مجلة «الفكر» التونسية س 5 ع 3 ص 18 ـ 25 (ديسمبر 1959).

ذكرى العظماء

أبو القاسم الشابي
تاريخ حياته

للأستاذ محمد الصالح المهيدي

تمهيد:

لعل الكثير من الشبان لا يعرفون شيئاً عن حياة أبي القاسم الشابي الخصوصية والعمومية. ولعل الأكثر جهلاً بحياته هم الكهول الذين لا يعيرون ـ بطبيعتهم البشرية ـ الشبان وحركة الشبان أهمية تذكر أو يعاضدونهم معاضدة تشكر. وليس عدم تقدير عمل الشباب الناهض بقاصر على القطر التونسي بل العالم العربي كله يسير في هذا السبيل اللهم إلا ما شوهد في العهد الأخير من بعض الحكومات الشرقية كتركيا وفارس والعراق وحتى الحكومة المصرية إذ تكونت فيها جمعيات للشباب وعاضدهم فيها الشيوخ.

وقد كان من حسن حظي في هاته الحياة أن عاشرت المرحوم أبي القاسم الشابي مدة تقارب العشرة أعوام. فاجتمعنا معاً في الدراسة واتحدنا في المسكن. وتشاركنا في العمل الأدبي فحق علي أن أبسط هنا بعض ما عرفته عنه من الحوادث التي مرت به في حياته وعن العمل الذي أمد به النهضة التونسية الحديثة. كل ذلك في حدود معينة ما تسمح به الظروف وما تتسع له صفحات هاته المجلة.

مولده ونشأته:

ولد أبو القاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي بقرية الشابية من عمل توزر الجريد في اليوم الثالث من صفر الخير سنة 1327. وبعد أن ترعرع أدخله أبوه إلى الكتاب يحفظ القرآن العظيم. وفي عام 1341 بعث به إلى جامع الزيتونة الأعظم عمره الله فزاول العلوم العربية والدينية وأنهى دروسه في سنة 1347 حيث أحرز على شهادة التطويع في العلوم من الرتبة الثانية. وفي هاته السنة نفسها التحق بمدرسة الحقوق التونسية فتخرج منها سنة 1349 يحمل شهادتها النهائية.

مطالعاتــه:

كان الشابي وهو يزاول الدروس بالجامع الأعظم ومدرسة الحقوق يطالع من كتب الأدب كل ما وصلت إليه يداه منها وكان ينتقي من الكتب دواوين الأدب وأمهات التأليف العربية كالأغاني وصبح الأعشى والكامل للمبرد. والمثل السائر. ونفح الطيب والأمالي وما إليها. يضاف إلى ذلك العمدة. ونقد الشعر. وكتاب الصناعتين. والدواوين الشعرية وأخصها اللـزوميـات لأبـي العـلاء المعـرّي. وديـوان ابـن الـرومـي. والبحتـري. وبالاختصار فهو لم يكد يترك ساعة من وقته شاغرة دون أن يتناول فيها كتاباً أدبياً أو ديواناً شعرياً يملأ منه وطابه.

أما كتب الأدب الحديث فقد كان في أول نشأته منكباً على كتب جبران خليل جبران. ومخاييل نعيمة وشعر إيليا أبي ماضي وغير هؤلاء من أدباء وشعراء سوريا المهاجرين والمقيمين. كما كان يطالع كتب العقّاد وآراءه في البلاغ الأسبوعي والجهاد. وكتب المازني وما يذيعه في الصحافة المصرية والشامية من الأفكار والآراء الطريفة. وعلى الجملة فقد قرأ الكثير لهيكل وطه حسين وزكي مبارك. كما طالع الكثير من الشعراء أمثال الزهاوي والرصافي وحافظ وشوقي وسواهم يضاف إلى ذلك كله الكتب

المترجمة عن اللغات الأوروبية والمقالات التي نشرتها السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي وجريدة الميزان ومجلات منيرفا والهلال والمقتطف والجديد. فهاته الصحف كان يطالع الشابي الكثير منها وبذلك تحصل على معرفة عامة في الأدب الأوروبي يكاد يجزم من يقرأ شعره دون أن يعرف ثقافته بأنه كان يحسن بعض اللغات الأوروبية.

أعماله الأدبية والاجتماعية:

شارك الشابي في تأسيس عدة جمعيات دينية وأدبية. ففي يوم 28 ذي الحجة سنة 1347 انتخب عضواً مؤسساً لجمعية الشباب المسلمين بتونس فكان يعمل معنا لتدوين قانونها الأساسي ويناقش في فصوله مناقشة الناقد الخبير حتى تم القانون، وانتهت مأمورية اللجنة وسلمت أعمالها إلى أيدي رجال آخرين ماتت الجمعية على أيديهم وهي ما تزال في مهدها.

وفي شهر رجب عام 1347 وضع معنا برنامجاً شاملاً للنادي الأدبي بقدماء الصادقية، ولا زلت أحتفظ بمسودة ذلك البرنامج بخط يده. ذلك البرنامج الذي أمكن للنادي معه أن يقوم أعضاؤه بسلسلة محاضرات بلغت الخمس عشرة في الأشهر الثلاثة الأولى من حياته وكان الشابي وهو عضو النادي النشيط يهيىء الأسباب للمحاضرين فيغير الكتب ويساعد الأدباء مساعدة مشكورة.

وفي 30 شعبان لسنة 1347 ألقى محاضرته المشهورة «الخيال الشعري عند العرب» التي ضاق عنها نادي القدماء فألقيت بالقاعة الكبرى للمحاضرات بالجمعية الخلدونية ودام إلقاؤها أكثر من ثلاث ساعات في بيان جزل وإلقاء متين.

ولما قام الطلبة يطالبون بالإصلاح الزيتوني كان الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي عقدت جلستها الأولى في 5 رجب سنة 1347 وهو الذي وضع برنامج أول عمل للمطالبة بالإصلاح. وما زلت أذكر الليلة الأخيرة من شهر ديسمبر عام 1928 تلك الليلة التي واصلت فيها لجنة الطلبة العمل

إلى الصباح. وذلك إثر إلقاء القبض على بعض الطلبة الذين اتهموا بالتحريض على الاعتصاب وما أبداه الشابي من الثبات في الموقف والشجاعة المتناهية.

ولما وجهت لجنة الطلبة منشوراً إلى رجال الفكر والرأي المصيب بالقطر التونسي تطلب منهم إمدادها برأيهم في الإصلاح كان أول جواب تلقته من والد أبي القاسم الذي حرر تقريراً ضافياً احتوى على نحو العشرين صحيفة ضمنه آراءه في الإصلاح أردفه بمكتوب لطيف مؤرخ في شوال سنة 1347 يعتذر فيه عن التقصير لكثرة أشغاله حيث كان قاضياً على زغوان. ويعزى الإسراع بالجواب إلى نشاط أبي القاسم وما أظهره من الحزم والإخلاص للقضية الزيتونية.

ولما فكر الطلبة بتوزر الجريد سنة 1351 في تكوين جمعية ودادية تجمع شملهم وتضم شتاتهم كان الشابي - رغم اشتداد وطأة المرض عليه - العضد المتين في تأسيس تلك الجمعية وهو الذي وضع قانونها الأساسي.

محاضراته وتآليفه:

أشرنا فيما سبق إلى أن الشابي ألقى محاضرته الأولى في 20 شعبان 1347 عن الخيال الشعري عند العرب وطبعت مع مقدمة بقلم الأستاذ زين العابدين السنوسي الصحافي التونسي الذي يعزى له الفضل الأكبر في تقريب أبي القاسم من الجمهور التونسي وتقديمه إليه على صفحات النهضة الأدبية وفي كتابه الأدب التونسي في القرن الرابع عشر.

وللشابي محاضرات أخرى منها محاضراته عن الأدب العصري في المغرب الأقصى بمناسبة ظهور كتاب في جزئين يحمل هذا الاسم والمحاضرة تتعلق بالجزء الذي اشتمل على شعر الشبان المغاربة.

وألقى بتوزر في شهر محرم الحرام سنة 1351 محاضرة قيمة عن الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم نشرت تباعاً بمجلة العالم للصحفي الأستاذ سعيد أبو بكر ابتداء من العدد السادس لسنتها الثانية.

وفي عام 1348 أعد مسامرة عن الشاعر العربي المعروف «جميل» لتلقى بالنادي الأدبي لكن المرض حال بينه وبين بغيته حيث اشتدت عليه وطأته ولا ندري على التحقيق مصير تلك المسامرة ولعلها الآن في مخلفاته.

أما تآليفه فأهمها ديوانه «أغاني الفجر» وهو ديوان ضخم يقع في جزئين كان يتمنى قبل وفاته أن يتم طبعه على صورة تناسب خياله الرائع وذوقه الطريف. وكان هذا المشروع قريب الإنجاز لو لم يسبق القضاء ويختار الله بجواره الشابي.

وللشابي مفكرات اختص بها صديق الجميع الأستاذ إبراهيم بورقعة المحامي بصفاقس الذي بدأ بنشرها في مجلة مكارم الأخلاق التي تصدر بصفاقس ابتداء من عددها الثاني. وله عدة قصص ومقالات لم تنشر وربما كانت الآن مع مخلفاته بتوزر.

على أن الصحافة التونسية والشرقية نشرت للشابي عدة قصائد وأبحاث عن الشعر والسرقات الشعرية والأدب القديم والحديث. وهو الذي كتب مقدمة ديوان الينبوع للشاعر المصري الأستاذ أحمد زكي أبو شادي. وثارت بينه وبعض الشعراء المصريين مناقشات على صفحات مجلة «أبولو» حول كتابه الخيال الشعري عند العرب. ودارت بينه وبين الشاعر الطبيب الدكتور علي الناصر الأديب السوري المشهور عدة رسائل أدبية تحوم حول القصة في الأدب العربي ورسائل الشابي حرية بأن تدون في كتاب لتدرسها الأجيال المقبلة كما ندرس نحن الآن رسائل أبي العلاء المعري والجاحظ وابن المقفع.

نكباتـــه:

أصيب الشابي وهو لم ينه بعد دراسته بنكبات متوالية فأولى هاته النكبات هي فقده لوالده الذي توفي يوم 8 سبتمبر 1929 وترك له عائلة

مؤلفة من عدة أفراد أكبرهم هو. فمن أخوة صغار إلى أم ثكلى إلى خدم وحشم كانوا في كفالة والده. فأصبح الشابي هو المسؤول عن هاته العائلة أمام ضميره وأمام القانون وقد كان قبل لا يعرف من الدنيا إلا كتاباً يطالعه أو قصيداً ينظمه. أو بحثاً ينشيه. ولا تسأل عن تكاليفه وهو المقدم الشرعي عن أخوته وهو العائل لأبنائه وزوجته وهو المجبور على الوقوف أمام القضاة لمحاسبته عما تصرف فيه من مخلف والده إلى غير ذلك من تكاليف الحياة.

ثم أصيب بكارثة المرض الذي أنهك قواه الجسدية فاستنجد بقالب الأطباء فكان آخر ما أشاروا عليه به هو الاستقرار بالجهات الجبلية وبالأخص ذات الأشجار والغابات. فكان يتنقل من عين دراهم إلى المشروحة (بالقطر الجزائري) ومن زغوان إلى توزر ومن دار شعبان إلى قربص. وكان في تنقلاته كثير العزلة لا يختلط بالناس ولا يتودد إلا إلى الغابات والكهوف يبثها أشجانه وأحزانه. ويحدثها عن أهل المدينة وبني البشر. ونظرة مسرعة إلى شعر الشابي المملوء بالحديث عن الطبيعة وحبها تنبئك عن نزعته الطبيعية الشائعة في شعره.

وفاته وتأبينه:

توفي الشابي في غرة رجب سنة 1353 بالمستشفى الإيطالي بالعاصمة ونقل جثمانه إلى توزر ودفن بمقبرة الشابية هناك وقبره ربما أصبح الآن أثراً بعد عين وليس من السهل الاهتداء إليه بدون دليل في تلك الرمال المحرقة ببلاد الجريد.

وعند مرور أربعين يوماً على وفاته أقيمت له حفلة تأبين كبرى بقصر الجمعيات الإفرنسية شاركت فيه الأقطار الشقيقة والشرقية وأصدرت مجلة العالم الأدبي عدداً خاصاً لتلك الذكرى. كما وضع الشاب النابغ السيد الطيب العنابي نشرة صغيرة إحياء لذكراه. وكان منتظراً أن تقام له الذكرى الثانية في العام المنصرم لكن الأحداث السياسية والعاصفة التي اجتاحت

البلاد من أقصاها إلى أدناها حالت دون ذلك وفي هاته السنة أقامت له الرابطة الأدبية حفلة الذكرى الثالثة وهي التي يشاهد القراء عنها ومنها شيئاً في هذا العدد.

رحم الله الشابي رحمة واسعة وجازى العاملين لتخليد النبغاء والعاملين من أبناء هذا القطر بكل خير ووقاهم من كل ضير.

تونس في 3 رمضان 1355[1].

* * *

(1) «الأفكار» س 1 عدد 2 (1 ـ 12 ـ 1936).

صفحات من كتاب
السنة الأخيرة من حياة الشابي
بمناسبة مرور أربعة أعوام على وفاته[1]

للأستاذ: محمد البشروش

رجع الشابي إلى توزر في أواخر نوفمبر من سنة 1933 فوجد في انتظاره مكتوباً من الدكتور أبي شادي يرجوه أن يكتب تصديراً لديوانه (الينبوع) فكتب التصدير وأرسله إليه وطلع علينا بعد ذلك (ينبوع) أبي شادي مصدراً بقلم أبي القاسم وهو تصدير بديع يطالعنا بفهم الشابي للشعر ونظرة الشابي لشعر أبي شادي.

وقد اشتد على الصديق أثناء شهر رمضان من هاته السنة مرضه حتى ألزمه الفراش وأعجزه عن السير. فظل ما يقرب من الأربعين يوماً لا يغادر سريره وكنت كثير الترداد عليه في هاته الأيام. وكان رغم تعبه لا يفتأ يتطلع إلى أخبار أصدقائه ولا يفتأ يتحدث عن الأدب وحركته بتونس وعن آمال كنا نبنيها ونشيد صروحها فتهدم... وكان يزيد في آلام مرضه أنه لا يستطيع أن يزايل البيت إلى الغاب القريب فمال إليّ ذات يوم وكنت أهون عليه الأمر وأسليه، مال إليّ وقال بمرارة:

(1) قدم محرر الجريدة لهذا المقال بكلمة جاء فيها: «كاتب هذا المقال أديب ناضج دقيق النظر عميق المرامي وهو إلى جانب ذلك صحافي بارع، ومجلته «المباحث» يتهافت على أعدادها الأدباء بلهفة وشوق وقد عرفه قراء الزمان في عهده القديم وقرؤوا له على صفحاته بحوثاً قيمة ونظريات رشيقة، وها هو اليوم يقدم لهم صفحة من كتاب يعده في دراسة أدب صديقه فقيد الشعر العربي ونابغة الشمال الإفريقي المرحوم أبي القاسم الشابي بمناسبة ذكراه الرابعة».

ـ حرمت حتى عطف الطبيعة وحنوها يا صديقي! .

وما كاد يحس بخفة وطأة الألم حتى ذهب إلى بلد الحامة (حامة توزر) لاعتدال طقسه وخفته بالنسبة لطقس بلاد الجريد وكتب إليّ منها يوم 24 أفريل 1934 «وبعد فإن ذكراك يا صديقي أبداً حية في نفسي وأقسم أني لم أنسك منذ حللت الحامة إلى اليوم وفي كل يوم أعتزم الكتابة إليك ثم يصدني الكسل والخمول». ونفهم أسباب هذا الكسل وهذا الخمول فإن صحته بعد المرض كانت أحوج إلى الزهد في كل شيء وإلى الراحة المطلقة. وقد زهد الشابي في كل شيء وأقبل على الراحة المطلقة يقول: «ليس لي من عمل سوى لعب الكارطة والاستماع والمشاركة في الأحاديث التي أكثرها فارغ لا يجدي وقد كنت وعدتني بالزيارة ولم تفعل وفوت فرصاً كثيرة لذلك وبقيت أنتظر بلا جدوى. فوت فرصة (باك) وفوت عطلة الأحد الأخيرة وقد وليته عطلة عاشوراء».

وزرته بعد ذلك بأيام وكان نظام يومه في الحامة أن يستيقظ بكرة ويخرج إلى الغاب القريب حتى الضحى فيرجع إلى القرية ويقضي أوقاته في الأحاديث واللعب بالأوراق وفي المساء يجتمع مع معلمي المدرسة وأعيان البلد ممن ينتسبون إلى العلم ويمر الوقت في الأحاديث والممازحة أحياناً.

وألاحظ أن هذا النوع من الحياة كان يمقته الشابي ولكن العناية بصحته بإغفال جميع الأعمال الفكرية هو الذي دفعه إليه.

وقد كان لإقامته بالحامة أثر طيب على صحته. يقول في الرسالة التي سبق ذكرها:

«أما أنا يا أخي فصحتي إذا نظرت إلى حالتي عند مرضي الأخير وعندما فارقتك فهي أحسن ولكنها ما زالت أقل مما كنت عليه قبل المرض وما زلت لا أحتمل السير ولا أستطيعه إلا عن هون وراحة تتخلله».

ورغم هذا كله فقد كان يفكر في طبع ديوانه تفكيراً جدياً وأراد جمع ما وقع ترويجه من الاشتراكات فكتب إليّ يوم 24 ماي 1934 يقول: «إنني الآن أريد أن أعرف ما وقع ترويجه من الاشتراكات حتى أقدم الديوان للطبع».

وكان ينوي طبع ديوانه بمصر لاتقان الطباعة في مصر اتقاناً يضمن له إخراجه للناس في المظهر الذي يناسبه. فكتب إلى الدكتور أبي شادي في هذا الصدد وأعلمني بمكتوب مؤرخ في 24 جويليه 1934 بما يلي:

الآن قاربت إنجاز نسخ الديوان وإنني أنتظر الجواب من مصر ولكن بقيت بعض القصائد لم تنجز ونفسي الآن موصدة لا تتحرك بها أطياف الخيال ولست أدري ما سيكون الحال».

ومن القصائد التي لم تنجز إذ ذاك قصيدة (الغاب) أنجزها على كل حال قبل موته وترك لنا ديوانه وما اختار جمعه من أشعاره كاملاً غير منقوص. ولم يقع إقبال على الاشتراك في الديوان وهذا نعلمه مما جاء في مكتوبه هذا، قال:

«لاحظت أن الصديق القرقني لم يجبك وهذا عين ما وقع لي مع أكثر أصدقائي الذين طلبت منهم معاضدتي في توزيع الاشتراك، بل إن كثيراً منهم كاتبتهم مرتين طالباً إعلامي بالنتيجة فلم يجيبوني ولو بحرف. وهذا بعض أنواع الذل والهوان التي يلقاها المثقف التونسي في هذا الشعب».

وأثناء هاته المدة تحسنت صحته نوعاً ما:

«صحتي الآن خير مما تركتني عليه وقد عدلت عن مباشرة «الرياضة» واستعضت عنها بالاستحمام الشمسي وأظن أنني سأقضي بالحامة شهراً آخر من الآن...».

إلا أنه إذا كانت صحته قد تحسنت في أوائل الأمر فقد اتبعه مرض زوجته وابنه الأصغر جلال.

«إن أفكاري مبلبلة مضطربة فإن زوجتي مريضة من زمان وهي الآن تحت المعالجة كما أن جلال مريض بعينه مرضاً أتعبه ولا أدري متى تهادننا أحداث الزمان».

وقد وقعت معالجة زوجته وولده ببلد المتلوي وكان يقضي أوقاته «بين الحامة والمتلوي أين تعالج زوجتي الآن بمستشفاه هي وجلال ابني».

وكتب إليّ بتاريخ 4 أوت 1934 يقول:

«إن الحالة الصحية الآن خير من قبل وأظن أنني أفارق الحامة إلى توزر بجملة العائلة بعد أسبوع».

وكتب إليّ بتاريخ 12 أوت 1934:

«إنني اليوم سأرجع إلى توزر بعد غيبتي الطويلة عنها وأحمد الله أنني أرجع إليها أحسن مما فارقتها وفي نيتي أن أزور العاصمة في أواخر هذا الشهر أوت ولا بدّ أن أعلمك بيوم زيارتي إلى العاصمة». ولم يعلمني بيوم قدومه إلى العاصمة كما وعد ولكنني كنت ماراً بالحاضرة في يوم 28 سبتمبر من السنة نفسها فبلغني أن مرضه اشتد عليه يوم قدومه فنصح له الطبيب بالإقامة في أريانة. وزرته في مساء اليوم نفسه ودخلت عليه فوجدته يعاني الأمرين رحمه الله وعلى صدره الثلج كما أمر الطبيب وأعلمني أنه كتب إليّ ولكن مكتوبه وصل إلى نابل بعد أن غادرتها.

والمسكن الذي أقام به بأريانة عدد 5 ـ 9 من بناية «فريوه» رقم 23 طريق جعفر.

وفارقته بعد أن وعدته بالرجوع إليه قريباً ولكنه زاد اشتداد المرض عليه بعدي فدخل إلى المستشفى الإفرنسي ويموت اليوم التاسع من أكتوبر على الساعة الرابعة صباحاً. ويبلغني نعيه في وقت كنت أنوي فيه السفر

لزيارته. وهكذا انتهى أكبر شاعر عرفناه لتونس في جميع عصورها وهكذا انتهى الشاعر الذي يخاطبه أبو شادي راثياً:

أبا القاسم الشابي أبا القاسم الشابي   مكانك في الأخرى مكانة أرباب

ودفن أبو القاسم الشابي في مقبرة أسلافه على تخوم الصحراء التي كانت تلذه ويضيق بها ذرعاً[1].

* * *

(1) (الزمان) ص 4. ع 456 ـ 16 نوفمبر 1938.

مسكن أبي القاسم الشابي
زمـن دراستـه

بقلم الأستاذ إبراهيم بورقعة

لقد كتب الكاتبون كثيراً على أبي القاسم الشابي ونشر الناشرون دراسات عن حياته وأدبه ولم يكتب لحد الآن عن مسكنه أيام تعلمه بتونس إذ أصبح مسكن هذا النابغ العبقري مما يهم الاطلاع عليه لا سيما من طرف هذا الشباب المتعلم المفتتن بأبي القاسم وأدبه أيما افتتان، والذي لم يعرف وجه أبي القاسم ولم يعاصره حتى إذا عرف مسكن هذا الرجل فلربما يحج إليه من حين لآخر، ويقف أمامه معتبراً مكبراً لهذا البيت الضيق الأرجاء الذي قضى بداخله أبو القاسم أيام دراسته ونبغ بداخله. ولا يبعد أن يكون ساكن بيت أبي القاسم الآن لا يدري أن هذا البيت هو مبعث النبوغ وفي جوانبه أسال شاعر عصارة فكرة وأناب غضارة شبابه. وما هذا المكان أيها الشباب إلا المدرسة اليوسفية المقامة فوق مدرسة الجامع الجديد بنهج الصباغين بالحاضرة. ففي بيت من بيوت هاته المدرسة تألق هذا النجم ونبغ هذا العبقري ومن هذا المسكن نشر رسالته الأدبية للعالم العربي وغير العربي وأسس مدرسته الجديدة في الأدب العربي الحديث.

فللمدرسة اليوسفية الفخر من بين جميع مدارس الحاضرة إذ فيها تكونت عبقرية شاعرنا الكبير وفيها أحرز شاعرنا على شهادة التطويع ومن ذلك المكان أحرز على شهادة الحقوق التونسية.

قف أيها الزائر للمدرسة اليوسفية أمام البيت الثالث الذي يجيء على يسارك وأنت صاعد إليها والذي يفتح إلى الغرب ففي هذا البيت الضيق

الأرجاء ألف أبو القاسم كتابه الخيال الشعري عند العرب، وألقاه كمحاضرة بمعهد ابن خلدون أمام الجمهور دام في إلقائها ما يقرب من الساعتين وقد رجع بعد إلقاء هاته المحاضرة إلى البيت المذكور ووراءه صيحة كبرى من الأدباء الجامدين المنكرين عليه آراءه وأفكاره. وكان هذا النقد وذلك النكير داخل البيوت وقد ضاق هذا البيت به لما أصبح أبو القاسم يسكن معه أخاه الأمين وولدي عمه عمارة والصادق، فانتقل بالسكنى إلى البيت الذي يجيء خامساً على يمين الداخل للمدرسة المذكورة وفي هذا البيت الأخير بلغ أبو القاسم القمة في الشهرة وأصبح هذا البيت مقصد العلماء والأدباء، وقد ضمت وقتئذٍ المدرسة المذكورة نخبة من أعز النخب في العلم والأدب، فأول ما يعرضك من البيوت على يدك اليمنى وأنت داخل للمدرسة بيت الأستاذ محمود الباجي الحاج محمود الآن مستشار لدى محكمة الجنايات فنسمعه وهو يصول ويجول وهو دائماً كأنه يلقي في محاضرة وكثيراً ما مكث الزائر في أول البيت من بيوت المدرسة وهو بيت الأستاذ الباجي فتأتي الجماعة كلها إلى ذلك البيت ويكون النقاش والحديث وتجد كل شاردة وواردة عند الأستاذ الباجي.

وكم كان هذا البيت يحفل إذا جاء في زيارة من القيروان شاعر القيروان الشيخ صالح سوسي والشيخ عمر العجرة صاحب جريدة القيروان.

وقد ضمت هاته المدرسة في ذلك الزمن زيادة عن الأستاذ الباجي الأستاذ محمد الصالح المهيدي والأستاذ محمد بورقعة وكاتب هاته السطور والأستاذ محمود خروف، ونظراً للألفة التي حصلت بين سكان هاته المدرسة، فقد وقف جميعهم أمام عدسة المصور وذلك في خلال عام 1926 الذي جلبوه إلى المدرسة وقد كان عدد التلاميذ الذين يسكنون بالمدرسة المذكورة ستة وعشرين تلميذاً ولم يتخلف ـ يومئذٍ أمام المصور إلا الأستاذ الصديق محمود خروف لعذر وهو يأسف كلما ذكر لك وإلى هنا نقف هاته الذكريات ونحن بين حلوها ومرها رحم الله أبا القاسم الذي كان سبباً في إثارتها والحديث عنها[1].

---

(1) جريدة الزيتونة (تونس) عدد 15 يوم 2 ـ 11 ـ 1954.

أبو القاسم الشابي
شاعر النهضة العربية
والتجديد للأدب الحديث

بقلم: زين العابدين السنوسي

مات في الخامسة والعشرين! في ربيع العمر ومجد الشباب.

في السن الذي يتقدم فيه غيره ليلج المجتمع، كان الشابي قد قام بدوره العظيم واهتز لإنتاجه المشرق والمغرب، ونقلت قصائده للغات، وتناقل آدابه أعظم المجلات والصحف في العالم العربي ثم هو كان قد شاخ وعاف الحياة في ذلك العمر.. ومات بعد أن أعلن في قصيدته «الملل الأليم»:

سئمت الحياة وما في الحياة	ولما تجاوزت من فجر الشباب
سئمت الليالي وأوجاعها	وما شعشعت من رحيق بصاب
فحطمت كأسي وألقيتها	بوادي الأسى وجحيم العذاب
فأنت وقد غمرتها الدموع	وقرت وقد فاض منها الحُباب
وألقى عليها الأسى ثوبه	وأقبرها الصمت والاكتئاب
فأين الأماني وألحانها؟	وأين الكؤوس وأين الشراب؟
فما العيش في حومة بأسها؟	شديد وصدّاحها لا يجاب

ونحب أن نتبه، هنا أن الشابي قد كان من أسعد الناس طفولة وحياة، تمد أمامه الكماليات والرغائب وتنبسط له أسباب السعادة المادية من حيث لا يحتسب. إذ عاش في كنف والده الذي كان يشغل منصب «القضاء» في

عواصم الجهات التونسية. وهو بكره الذكر، فدرجه في تعليمه من البيت إلى الكتاب إلى حضور دروس شيوخ البلدة، ويخصصه بدروس يوسع لها من وقته، حتى أرسله إلى العاصمة التونسية فألحقه بجامع الزيتونة سنة 1921 موصى عليه إلى زملاء «القاضي» من المشرفين على نظم التعليم ونظم «المدارس لمبيت الطلبة» معززة الوصاية بالهدايا تصل ديار المكلف بالمدرسة التي تعين لإقامة الشاب. وكان الولد رضياً مرضياً معتضداً بما يسيره إليه والده، وفي مداركه من الطاقة والوسع ما كفل له التدرج النظامي مع توسع طيب في الاطلاع، حتى فاز بالإجازة النهائية للجامع سنة 1927 وأقبل بعدها على حضور دروس التخصص حسب مشيئة والده.

وكان يميل بطبعه إلى الأدب والشعر فكان يملأ جميع أوقات فراغه بمطالعة آثار كبار الأدباء، من العصر الجاهلي حتى الأدباء المعاصرين، على مختلف مذاهبهم وبلادهم. وقد ثافن مطالعة ما ترجم إلى العربية من الآداب الأجنبية وأعجب بالأدب الانكليزي. يطالعه من خلال ترجمته للعربية، كما كان يعجب بالأدب الأمريكي لشعراء العرب المهاجرين هناك من إخواننا السوريين الذين سبقوا إلى استيطانها، فتأمركوا بأرواحهم مع مثافنتهم الإنتاج باللسان العربي مباشرة، فأصبح نتاجهم في العربية صنفاً أمريكياً ممتازاً وهذه المطالعات والتأثر. قد حصلهما من قبل أن يتم دراسته الثانوية، بحيث أنه لما تقدم إليّ إثر تخرجه سنة 1927 رأيت منه ما أعجبت به وأكبرته واخترت له صفحات وفيرة أخرجتها في الجزء الأول من كتاب «الأدب التونسي في القرن 14» وقد قلت فيه لسنتها «هو أنبغ من رأيناهم من شبابنا»[1].

وبالفعل فقد انضم إلى «النادي الأدبي» الذي كان يجتمع في تونس بجمعية قدماء الصادقية ويضم كبار أدباء القطر ونبغاء العاصمة العظام، أمثال عثمان الكعاك وخزنه دار والبهلي والطاهر صفر والعتكي وأبو رقعة

(1) مجلة الندوة (تونس) س 1 ع 10 (أكتوبر 1953).

والمحجوب وابن المختار والسبعي والمازري.. وكان حيياً خجولاً لا يناقش. وإنما يقدم آراءه كتابياً في تقارير مختصرة.

كيف ينظم الشابي:

إن أبا القاسم الشابي لم يكن يعتصر الشعر أو يتطلبه، ولا كان يرتجله فيُ المناسبات ولكن الشعر قد كان يتولد في نفسه ويورق في فؤاده، فيتصيد الشعر لنفسه راحة شاعرنا وهدوءه، فينبجس ويتنزل على لسانه، تنزلاً يستبد به استبداداً ويأخذ عليه نفسه، حتى لا يبقى منه شيء لما حوله، فهو مندفع في صوغ قصيدته بيتاً بيتاً، يتهجى كل بيت بمفرده، في ليله وظلامه الدامس دون أن يشعل ضوءاً. أو على طرف الجابية في ظل الخميلة من حمارة القيظ، أو في كوخه عشية، مستغرقاً فيما يتنزل، يرتله ترتيلاً بشفتيه اللتين لا تخرجان صوتاً!.

ولا تفارقه تلك «الحال» حتى يستفرغ ما جاش به صدره، شعراً محكماً! وبعدها ينام كما لو أنهكه جهد بدني مرهق. أو هو يدخل البيت فيرتمي في أي مقعد أو فوتاي أو على الديوان يستجم الساعة الزمانية، كأنما قد نزع عن ظهره عبئاً.

ثمن الشعر:

على أن تلك «الحال» الغريبة التي تأخذه، قد كان فيها شاعرنا مظهر القدسية والروعة، الروعة التي تثير الإعجاب والهيبة، وترقق المشاعر وتستجلب الرحمة وحنين القلوب، حنينها إلى درجة تفوق كل تقدير عرفته.

لقد بلغ من مفعولها أن زوجتي قد خرجت إليه من حجابها تتلطف به وتؤانسه وتطعمه «لكي يتغذى ويتقوت حتى يعاني الشعر!» فخرجت إليه في غيبتي إذ لم يتسن لي الرجوع للبيت ببلدة «المرسى» في الوقت المناسب. مع أني طالما رجوتها، حتى يئست. فهي محافظة على عادة الحجاب ولو مع أحسن أصدقائي الذين يزورونني وينزلون عندنا الأسابيع، وهي تعرف

قيمة أمثال أبي القاسم من أصدقائي العزيزين. لكنها تكتفي من مؤانستي بهم أن ترسل إلينا ما يلطف المجلس ويبرز عنايتها بهم «إني لم أتعود، تعرفني خجولة، ولا أريد أن أقعد بينكم كالتمثال الذي لا ينفع» فهاته التي تتملص، قد أثر عليها فلم ترَ بداً يوم تخلفت عن وقت الغذاء أن تقوم مقامي فزادت نجاحاً بما فاجأته به إذ وجدها على مائدة الغذاء تطعمه ليتغذى ويتقوى. . أجل فأنا نفسي قد فوجئت وسعدت لما وجدتها تمعن في إيناسه، وهو الخجول المتهيب أمامها، ولكنه لا يرد رغبتها. . .

- إنه من الملائكة، والله! كالولد الصغير. وأنت تتركه لنفسه! فإنه لم يفطر صباحاً ولم يشرب الحليب، وبالعكس، فقد خدم كثيراً بعدك، كنت أراه من خلال «البالكون»، وهو لا يحس بمن يدخل أمامه ومن يخرج من الجنينة، يتأمل ماء الجابية. . . ثم تراه يتمتم دون أن يسمع له صوت. . . ثم يعود إلى الوجوم. . . ولكنه يفكر ويجتهد. . . ولم يبتسم إلا مرة واحدة ثم رجع لتجهمه وتفكيره. . لو أعطوني الملايين لما رضيت أن أكون شاعراً، فأتحمل كل ذلك الوجوم وشرود البصر. . كم تدفعون له ثمناً لقصيدته تلك التي يهلك فيها نفسه؟».

وكنت مغلوباً بالنوم فلم أفطن لكل ما قالت، فإنما هي تسارني بكل ذلك إثر انفرادنا بعد السهرة القصيرة.

بناء قصيده:

بالفعل فإن أبا القاسم لم يكن يكتب شعره بيتاً بيتاً، بل كان يخطر له القصيد «خاطرة» واحدة، نفحة واحدة. فإذا غرق في صناعة تلك النفحة، غرق في نفسه فلا يلتفت لقلم ولا ورق، وإنما إذا أتمه ارتاح لحظة، حتى إذا استجم نشاطه من جديد، أخذ الورق والقلم، وبدأ يستنسخ القصيد أو المقطوع فينقلها إلى ورقه عن الأصل الذي انصاغ في قلبه ونقش في ذاكرته. فهو يحفظها عن ظاهر قلب مثبتة بالرسم الأصلي الذي صممه في خاطرته والوزن الذي اختاره لها والقافية التي اجتلبها الموضوع، ففي هذه

الرسوم والقوالب ومن ملكته قد تولدت القصيد، ولن يمكن أن تزول عنه في مدى استجمامه. فهو يستنسخها مطمئناً مرتاحاً... ومع ذلك فربما شذت عنه الشطرة، فلا يرضى أن يعوضها، بل يترك موضعها بياضاً بورقته حتى تعود الشطرة إلى مقرها من قصيدته في قرارة نفسه. وإذ ذاك يلحقها في مكانها من الورق.

فالقصيدة نفحة تامة ووحدة لا تتجزأ عن نفسه، قد رسم حدودها في نفحة فنية واحدة ثم أنشأها قولاً مترجماً عن تلك النفحة المستقرة فيه، فانسلكت على نفس مطردة متباعضة الكلم شديدة أسر اللفظ والمعنى. وهو لا يؤمن أن في طوقه إبدال شيء منها، أو أن يحذف أو يزيد!.

ومع ذلك فقد تخطر لك كلمة تقترحها عليه، عوض كلمة في قصيده، فيبتسم لك، ولا يعارضك، وتشعر من نظرته التي يرتفع بها وجهه إليك أنه قد ترسمها، ثم هو يستمر في سرد قصيدته، ولكنه قد يأتيك، فيعيد قراءة القصيد بعينه، فإذا به قد أثبت ما كنت اقترحته في الأسبوع الماضي، فكلمتك قد دوت في نفسه حتى وجدت استقرارها واختمرت، حتى تخيرها، فأثبتها على مهل وروية، ويرى من واجبه أن يعرضها عليك، ويصارحك أنها أليق بمكان كلمته، فهذا ما حدث بالفعل في مطلع قصيدته «النبي المجهول»:

«أيها الشعب! ليتني كنت حطا   باً فأهوي على الجذوع بفأسي»

فلقد كانت «هداماً» عوض «حطاباً» والغريب أنه لما أصلحها، كنت أنا قد أنست إلى كلمته الأولى «هداماً» بما تجمعه من المعنى الاجتماعي السامي، فراودته على الرجوع في البادرة التي كنت بادهته بها قبل التأمل في بقية القصيد، ولكن، هيهات، فهو قد تطعمها ورأى ما في «الحطاب» من قرابة للجذوع التي يريد ـ قطعاً ـ أن يقتلعها لتنتعش الغابة بالنشو الجديد في متسعها الكامل، ثم أصبح يقرر لي أن الذي يقتلع الفاسد والموات لا يمكن أن يسمى «هداماً» بل هو مصلح وبناء، ز. س[1].

---

(1) مجلة الندوة (تونس).

عزم الشابي

محمد البشروش

في الخطاب القيم الذي ألقاه الأستاذ بدرة رئيس جمعية الكتاب والمؤلفين التونسيين في حفلة تأبين الشاعر التونسي المبدع أبي القاسم الشابي[1] أشار إلى ما كان عليه عزيزنا الراحل من رسوخ العزم والعمل المثمر المتواصل وقال: إن حياة الشابي يجب أن تكون خير أنموذج يحتذيه شبابنا المتطلع إلى الضياء.

وأصاب الأستاذ بدرة كل الإصابة في لفت الأنظار إلى هاته الناحية من حياة الفقيد فقد كان الشابي قوي الإرادة ثابت العزم بحيث لا يقهر أو يغلب وإن ما يشهد له بذلك ما عناه وهو في سني دراسته بالجامع الأعظم من العثرات والعراقيل، فاستطاع تذليلها واستطاع إبادتها من طريقه وسار إلى غايته حتى وصل، ذلك أنه كان وهو بالجامع الأعظم وسنه إذ ذاك لا تتجاوز الخمسة عشر عاماً تحت رقابة ذوي مزاياه بالحاضرة، وكان منكباً على دراسة دواوين الشعراء وكان مغرماً بالمطالعة إلى درجة بعيدة. ويبتدرونه فلا يجدونه إلا بمكتبة معهد ابن خلدون. وخشي أن تصرفه هاته المطالعة عن دراسته بالجامع فكان التهديد وكان الوعيد وكان افتكاك كتبه، كان تمزيق لأوراقه ومذكراته.. ولكن هذا كله ما زاد الشابي إلا تعلقاً بالأدب وانكباباً على مطالعته ومضى إلى غايته هازئاً بالعراقيل...

(1) يشير بذلك إلى الحفل الذي أقيم بقصر الجمعيات الفرنسية يوم 23 نوفمبر 1934 بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة أبي القاسم الشابي. وقد كانت الحفلة تحت إشراف ثلاث هيئات: جمعية المؤلفين والكتاب وجمعية الخلدونية وقدماء الصادقة».

وهو عزم وهي إرادة ورثها عن أبيه الشيخ محمد بن أبي القاسم الشابي قاضي مدينة زغوان رحمه الله، فقد انتهت دراسته بعد أن حفظ القرآن. ولكنه عير ذات مرة بالجاهل لأنه لم يدرس الفقه والنحو والبلاغة وغيرها من الفنون التي تدرس بالزيتونة. وكان عمره إذ ذاك قد تجاوز الخمسة والعشرين عاماً. فكان هذا التعبير تنبيهاً إلى نقص فيه فرجع إلى الدراسة وارتحل إلى مصر وملأ وطابه من العلوم بالأزهر ثم رجع إلى تونس وتحصل على إجازة التطويع بالجامع الأعظم ثم انتصب قاضياً بالإيالة التونسية. ومن يدرك المشاق التي يتحملها المرتحل إلى مصر في القديم خصوصاً في العلوم التي كان فيها والد فقيدنا يتبين عصمته ومضاء عزمه.

فعزم أبي القاسم يرثه عن والده، وهو عزم جدير بالإعجاب والتسجيل، وجدير بأن يكون كما قال الأستاذ بدرة أنموذجاً يحتذيه شبابنا المتطلع إلى الضياء[1]. . .

(1) (الزمان) (تونس) عدد (260) سنة (6) ـ 25 ديسمبر 1934.

روضة الشابي

بقلم الأستاذ الطيب بن عيسى

على بعد نحو الكيلومتر من مدينة توزر عاصمة الجريد توجد قرية الشابية التي بها (روضة الشابي) حيث مدفن أبي القاسم الشابي، وقد كان قبره وسط حجرة خاصة محاطة بالجدران ويدخل إليها من بابها الحصين، وهذه الحجرة مزدانة بمنابت الأزهار المغروسة في الأحواض بحيث يصح التعبير عنها بروضة غناء في مقبرة الشابية الحافلة بالعلماء والعظماء.

والشابية جزء لا يتجزأ من مدينة توزر وبها في الوقت الحاضر كثيرون من العلماء الأعلام المنتشرين بأنحاء المملكة، فمنهم قضاة شرعيون عديدون ومنهم حكام بالمجالس العدلية، ومنهم المحامون لدى المحاكم التونسية على اختلافها بين شرعية وعادية، ومنهم الكتاب والعدول والمبرزون فالشابية قوية ناهضة دقيقة ولا يوجد بين سكانها الأميون (إلا نادراً)؛ ونهضتها شاملة للبنين والبنات.

وإذا كانت شاعرية الفقيد الشابي فطرية وكسبية في آنٍ واحد فهي وراثية أيضاً، فأبوه أيضاً المرحوم محمد بن أبي القاسم الشابي كان شاعراً من الرتبة الأولى وقد عرفته عندما كان قاضياً بمجاز الباب وأطلعني على قصائد له عديدة غراء، وقد نشر بعضها بالصحف التونسية وهو عالم متضلع وبارع في النثر كما في النظم.

وكان دفنه بمقبرة الشابية نفسها تغمده الله برحمته ومن الصدف أني كنت في إحدى حفلات ذكراه بالجريد وقد كتبت كلمتين عن روضته وأرسلتها إلى لجنة الاحتفال فألقتها في مغيبي.

كما أرسل الرصيف الحصيف المرحوم الأستاذ سعيد أبو بكر كلمته أيضاً من الجريد في موضوع روضة الشابي فتليت كلمته.

واليوم لما عزمت رصيفتنا جريدة (الأسبوع) الغراء على نشر عدد خاص بذكرى الشابي كنت كذلك بالجريد وأثناء هذه الرحلة زرت روضة الشابي ثاني مرة. ولعل صاحب (الأسبوع) يتحفنا بتأليف قافلة (من قوافله) لزيارة قبر الشابي في روضته خدمة للأدب وأهله وهذه الذكرى تكون أوقع في النفوس وأفيد للمجتمع والأوساط الأدبية من جميع الذكريات السابقة[1].

(1) الأسبوع (تونس) عدد خاص رقم 311 (24 ـ 11 ـ 1952).

أدب الشابـي
في مهرجان روضة الشابي

بقلم الأستاذ محمد بورقعة

يحتفل الجريد التونسي اليوم بتدشين روضة زهرة أخرجتها أرضه الطيبة. فعطرت بشذاها تونس والشمال الإفريقي. وضمخت الشرق العربي بطيبها.

ويحتفل شباب الجريد التونسي اليوم بأخيهم البار الذي لم يشجع في حياته الأدبية. محاولاً إنصافه بعد موته واتخاذ روضته كرمز للتاريخ والأجيال. والفخر وكعبة يقصدها الشباب اليوم. وشباب الغد للذكرى.. ومواصلة مراحل العمل والجهاد لمجد الجريد الأدبي. رغم الأنانية والجحود.

أيها الشباب المحتفل بالشابي كم لك من ذكريات خالدة. في روضة أخيك أبي القاسم. وفي هذه القرائح المنتشرة كالنجوم اللامعة في أنحاء الجريد.. وكلها تثبت بأن لها مجداً... وتطلب منا العمل بعزم ثابت لاستمرار اتصال مراحل حلقات تاريخنا الأدبي وتطلب منا المحافظة على أكاليل جوهرية تتوج نخل وجبال وأنهار ربوعنا المخضرة. وترسل أنواراً قوية تنير ماضينا الجليل.

أيها الشباب المحتفل إني لست محدثك عن تاريخ حياة الشابي... لأنها صارت مطروقة. ومعروفة بل إني محدثك في إيجاز عن أدب هذا الأخ الذي عمل لمجدنا رغم علته. ومرضه. وضعفه.. واستشهد في ساحة الجهاد تاركاً لنا ميراثاً... وفخراً.. ونعم الميراث. والفخر. وقد عرفتم

كيف تجارون من استشهد في ساحة الجهاد. حاملاً لواء الفخار. . وفزتم برضاء الشعب. وحكم التاريخ وممنونية الأدباء.

* * *

كنت أداعب الشابي. ونحن على حافة الوادي في ظل نخلة فارعة، سامقة، باسقة، بقولي: أبا القاسم. . يا شاعر الوادي. . إن لك روحين أحدهما غريب متمرد والثاني هادي وديع.

فيبتسم ابتسامة رقيقة ويقول بصوت خافت خجول ولعلك صادق في حكمك. . ثم يشتغل بتخطيط الرمال الناعمة بينما نظرته شاخصة لتجاعيد أمواج الوادي الواهنة.

وذهب الشابي رحمه الله. . . وتصدى الأدباء لدراسة أدبه وفنه في حفلات الذكرى. وفي الجرائد والمجلات. ولكنهم لم يكتشفوا روح الشابي الغريب المتمرد ولم يكتشفوا روح الشابي الهادي الوديع. ولروحه الغريب المتمرد أدب ممتاز. . ولروحه الهادي الوديع أدب ممتاز.

فكان أدب صاحبنا. على نوعين. متباينين. كل التباين. . يجيد في كل نوع منهما. إجادة غريبة. ويتلاقى النوعان في الخيال الشعري. وفي الذوق الشعري، وفي الموسيقى الشعرية.

وكان من ترديد روحه الغريب المتمرد: هذه القصائد ذات المواضيع القديمة من حماس. وفخر، ورثاء. وحكمة. وقد خص شعور هذا الروح المتمرد الغريب بالنسج الكلاسيكي القديم فاستفرغ قواميس الأدب العربي باستعاراتها وكناياتها. ومجازاتها المتعارفة المحفوظة. فطول النجاد عنده كما عند غيره كناية على امتداد القامة وليلى علم الغرام. . . والغضنفر رمز للشجاع. وأكسبت هذه الاستعارات. والكنايات والمجازات المتعارفة شعر هذا الروح الغريب المتمرد هيبة. وعظمة شبيهة بهيبة وعظمة شعراء المعلقات. . وبهيبة وعظمة الشعراء المخضرمين.

وقد حافظ هذا الروح في ترديده على كل شيء للمتقدمين لغة،

وموضوعاً. والتزام القافية. في جميع القصيد مهما طال دون أن تظهر على قوله كلفة أو تعسف ما بل كله جزالة.

وإليكم نماذج صغيرة من شعور وشعر هذا الروح الغريب من قصيدة الأشواق التائهة:

يا صميم الحياة إني وحيد ... مدلج تائه فأين شروقك
يا صميم الحياة! إني فؤاد ... ضائع ظامىء فأين رحيقك
يا صميم الحياة قد وجم الناي ... وغام الفضا فأين بروقك
يا صميم الحياة! أين أغانيك ... فتحت النجوم يصغي مشوقك

ومن قصيد الأمل والقنوط:

ضعف العزيمة لحد في سكينته ... تقضي الحياة بناه اليأس والوجل
وفي العزيمة قوات مسخرة ... يخر دون مداها الشامخ الجبل
والناس شخصان ذا يسعى به قدم ... من القنوط وذا يسعى به الأمل
هذا إلى الموت والأجداث ساخرة ... وذا إلى المجد والآمال تتصل
المجد صنفان: صنف في تمايله ... لحن الخلود وصنف فوقه الخبل
ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها ... فم الزمان إذا ما انسدت الحيل

... إلى آخره

ومن قصيد «الصوت الكئيب»:

لست أبكي لعسف ليل طويل ... أو لربع غدا العفاء مراحه
إنما عبرتي لخطب ثقيل ... قد عرانا ولم نجد من أزاحه

... إلى آخره.

ومن قصيد «الفتنة الساحرة»:

قلبي تردى من على صهوات ... خيل الهوى فغدا أسير فتاة
معطار باسقة الفروع عليلة الأجفان ساحرة بعين مهاة
ترنو فتغزو كل قلب ثابت ... بشفار أشفار وحد قناة
ماء الحياة بخدها متموج ... كتموج الأنوار بالمشكاة

مسكيـــة الأنفـــاس وهنـــاً بضـــة الأطـــراف آنســـة بقلـــب صفـــاة
تعنــو لهــا أســد العــريــن ذليلــة وتخــر خشيــة طعنــة اللحظــات

. . . إلى آخره.

ونلمس روح الشابي الهادي الوديع في المواضيع الأدبية ذات الصبغة الأخلاقية والاجتماعية. فهو في هذه المواضيع لا يتقيد بالقيود القديمة واسع الحرية في اختيار الألفاظ وتوسيع القاموس الأدبي بمئات من المعاني المبتكرة السامية يفرغها أحياناً على الألفاظ الخاملة فإذا هي أصرح في الدلالة من الحقائق وأروع من كنايات واستعارات ومجازات المتقدمين لما فيها من حلاوة التعبير ودقة الإشارة. فالصخر والزنبقة والحمية. والجحيم وكل الكائنات في هذا القسم من بيان روحه الهادي الوديع انقلبت إلى معانٍ نفسية تعبر لنا عن الألم. والتشاؤم. والشكوى واليأس والحنين.

ويتصل هذا النوع من أدبه من الناحية النفسية بتأثيرات هذا الروح الهادي الوسيع، وبتطير هذا الروح الهادي الوديع وببغضه لحياة الألم والجحود. كما يتصل هذا القسم من أدبه من الناحية الفنية بمذهب الحرية والتجديد.

وإليكم نماذج صغيرة من شعور وشعر هذا الروح الهادي الوديع أيضاً.

من قصيد «شكوى اليتيم»:

علـى ســاحــل البحــر أيــن يضـج صـــراخ الصبـــاح ونـــوح المســـا
نهـــدت مـــن مهجـــة أتــرعـــت بـــدمـــع الشقـــاء وشـــوك الأســـا
فضـــاع التنهـــد فـــي الضجـــة بمـــا فـــي ثنـــايـــاه مـــن لـــوعـــة
فســـرت ونـــاديـــت يـــا أم هيـــا إلـــيّ فقـــد سئمتنـــي الحيـــاة

. . . إلى آخره.

ومن قصيد «مأتم القلب»:

ليـــت شعـــري أي طيـــــــــر
يسمـع الأحـزان تبكـي بيـن أحشـائـي الكئيـب
ثـــم لا يتلـــو علـــى الفجـــر أغـــاريـــد النحيـــب
بخشوع واكتئاب

لست أدري أي سر

أخـرس الغـريـد عنـي　　أتـرى مـات الشعـور؟
في جميع الكون حتى　　في حشاشات الطيور!!

أم بكى خلف الحجاب؟

في الدياجي كم أناجي

فمسمـع القبـر بغصـات　　نحيبـي، وشجـونـي
ثـم أصغـي علنـي أسمـع　　تـرديـد أنينـي

فأرى صوتي فريد

فـأنـادي　　يـا فـؤادي

مـات مـن تهـوى وهـذا اللحـد قـد ضـم الحبيـب
فـابـك يـا قلـب بمـا فيـك مـن الحـب الكئيـب

ابك يا قلب وحيد

مـات حبـي　　مـات قلبـي

فـاذرفـي يـا مقلـة الليـ　　ـل الـدراري عبـرات
رقّ قلبـي فهـو قـد　　ودّع أوجـاع الحيـاة

بعد أن ذاق اللهيب

وانـدبيـه　　واغسليـه

بـدمـوع الفجـر مـن　　أكـواب زهـر الـزنبـق
وارقبيـه بجـلال　　فـي ضفـاف الشفـق

ليرى روح الحبيب

. . . إلى آخره.

ولنا أن نتساءل الآن عن الأسباب التي أوجدت في أدب الشابي، روحاً غريباً متمرداً، وروحاً هادياً وديعاً.

وتتبين هذه الأسباب الفعالة لكل مطلع على مراحل الأدب التونسي. وعلى تاريخ عصر إنتاج الشابي، فهو عصر تتمثل وتطغى فيه معركة الأدب القديم، والجديد في مصر، وتونس ووجود قسم من أدباء الشباب هنا وهناك يدعون إلى الطفرة والانقلاب. . . . وقسم آخر يدعو للمحافظة وعدم

التجديد تقليداً. . . . وكانت معارك حاول فيها كل فريق الانتصار. ووقف الشابي كما وقف غيره من شعراء الشباب في تونس، وفي الجزائر. وفي المغرب، وفي مصر، وفي الشرق العربي، في مفترق الطرق. يعملون في حقل الأدب القديم، والجديد في وقت واحد. وآثارهم باقية وملموسة في أدبنا. وفي أدب البلاد العربية. كان لنا أدباء شباب أيضاً في عصر الشابي يعملون مثله في حقل الأدب القديم والجديد.

وكانت خصومة أدباء القديم، وأدباء الجديد سبباً في وجود روح الشابي الغريب المتمرد، وفي وجود روح الشابي الهادي الوديع، وسبباً في وجود أدبين متباينين يتصل أحدهما بمواضيع، واستعارات، وكنايات، ومجازات القدماء. ويتصل الثاني. بمواضيع المجددين.

وقد نجح الشابي ونجح روحه الهادي الوديع، وكتب لشعره ولفنه الخلود. . . لأنه لم يقتف كغيره آثار خطوات الأوروبيين ولم يفقد روح العربية ونسجها الجزل المنسجم ولم يفقد الترنيمة، والموسيقى الشعرية بينما قد انحط غيره حتى عن موسيقى السجع إلى الإرسال المطلق، ولا ترنيمة في الإرسال المطلق ولا نظم تحت تأثير الدعوة إلى التجديد والحرية. وامتلك روح الشابي، ناصية الخيال. والمواضيع المناسبة لروح العصر دون أن تملك عليه مطالعاته لما ترجم من الكتب الأجنبية ذوقة الغنائي وشخصيته العربية وتراكيب لغته العربية.

أيها الشباب المحتفل هذه كلمة صغيرة عن أدب، وفن فقيدنا الحي بذكراه في مخيلة كل واحد منا، ولعلكم تعملون مثله لمجد وفائدة هذا البلد المحبوب.

وقبل الختام إني أبارك لكم هذا المجهود، مبتهلاً للمولى سبحانه طالباً، منه رحمة صاحب الروضة، وفخر شعب، وقبلة أمة، وقدوة شباب. والسلام عليكم ورحمة الله[1].

---

(1) مجلة الثريا (تونس)س 3 ع 5 (مايو 1946).

ذكريـات وحقائـق

بقلم صديقه وزميله العلاّمة الكبير

الشيخ محمد المختار بن محمود

السر في نبوغ الشابي! :

مما لا شك فيه أن الشهرة التي أحرز عليها أبو القاسم الشابي والمكانة التي احتلها شعره من بين شعراء هذا القرن الرابع عشر في سائر الأقطار العربية قلما يحرز عليهما من الأدباء إلا العدد القليل ممن رزقوا الحظوة كما كان يعبر ابن الأثير عن المتنبي.

ولكن الشيء الذي ألفت نظري هو شدة اعتناء الباحثين عن سر هذا النبوغ وهذه العبقرية وشدة تقصيهم عن كيفية تكوين هذا الشاعر من الناحية الثقافية ثم ذهابهم حول ذلك في سبل متفرقة متباعدة متنائية، ثم البعد عن قصد أو عن غير قصد عن الطريق المستقيم الكاشف عن حقيقة التكوين الثقافي لهذا الشاعر فيقول البعض: إن ثقافته نتجت عن مطالعة الأدب الغربي في مترجماته من مختلف لغاته.

ويقول البعض: إنها نتجت من مطالعة الكتب الحديثة العربية.. إلى غير ذلك من الأقاويل والأباطيل ويتباعد هؤلاء كلهم عن الطريق الموصل للمنبع الأصلي لتكوين هذا الشاعر الفحل.

وسبب ذلك ما استقر في أذهان العرب المتخرجين منهم على علماء الغرب وأدبائه وكتابه، من أن الثقافة العربية ثقافة جامدة ميتة لا تصلح إلا أن توضع في المتاحف وأن يسدل عليها ستار النسيان.. فنحوها صعب،

وشعرها عقيم وأدبها ضحل وأفكارها عتيقة بالية!.

وقد ظهرت هذه الأفكار بالخصوص بعدما استقرت أقدام الدول الغربية في البلدان العربية، إذ أن الدول الغربية بعدما أجهزت على البلدان العربية بخيلها ورجالها واستعبدتها وأذلتها مادياً وعسكرياً، اتجهت إلى شيء آخر هو أهم عندها من كل شيء وهو تحقير اللغة العربية في أعين أبنائها بما في أساليبها ومؤلفاتها وما في الأفكار التي تنطوي عليها، ثم العمل على إقامة لغاتها مقام العربية واتخذت لذلك من الحيل ألواناً وأنواعاً وبما أن الحياة المادية هي أهم ما تلفت إليه الأنظار حسب الطبيعة البشرية لقد قربت في نظامها الإداري أصحاب الثقافة الغربية... وأقصت عنها أصحاب الثقافة العربية.

فأقبل الناس على هجران اللغة العربية ثم تطور الأمر شيئاً فشيئاً حتى صاروا هم - أي العرب - أنفسهم من المقاومين للغتهم ومن المزدرين بها ومن العابثين بأصحابها ورميهم بالجهل وبالتفكير العقيم.

وقد قاسينا نحن في تونس من هذا الداء العجب العجاب حتى رأينا في فجر الاحتلال الفرنسي لتونس أن كثيراً من الوطنيين ومن العقلاء ومن أصحاب الأفكار التي لا يستهان بها، رأيناهم يحولون بين أبنائهم وبين اللغة العربية ويصرحون بأنها لغة ميتة وليس لها مستقبل وليس لأصحابها في الحياة رجاء.

هذه لوحة عرضتها عليكم أيها السادة: توضيحاً لما عانته اللغة العربية أيام الاحتلال، عرضتها لما لها من الأهمية الكبرى بالنسبة لكل من يريد درس الحياة الفكرية في جميع الشعوب العربية وإن اختلفت المدد وتعددت الأساليب.

الشابي وهذه النظرة:

لما ظهر أبو القاسم الشابي بشعره البعيد الغور في معانيه، الدقيق

الصنع في مبانيه الذي أحكم نسجه وأبدع صنعه وحرك به أوتار القلوب وألهب به الأسماع نسبه الباحثون عنه من العرب أنفسهم إلى أثر الآداب الغربية المترجمة في تكوينه خوفاً وتجافياً وتباعداً عن أن يعترفوا للعربية ولآدابها بالفضل.

فكانت هذه الطائفة في نظري فرعاً من الشعوبية التي قامت في صدر الحياة العربية، ولكن شعوبية هذا العصر أخطر وأخبث وأعنف من تلك، فالشعوبية السابقة قام بها أعداء العرب فكان العرب منهم على حذر وفي مقاومتهم دوماً على قدر.

أما الشعوبيون في هذا العصر فإنهم يلبسون ثيابنا ويتظاهرون بأنهم على صون العربية أقدر وعلى الذود عن حماها أخبر، مع أنهم يعملون على هدمها وتحطيمها بالفؤوس ويبيعون «الفيروزبادي» وبحره وابن منظور ولسانه «بالبيتي لروس».

الشابي عربي الثقافة أصيل التكوين:

أما الثقافة العربية الأصيلة التي تثقفها أبو القاسم الشابي فهي ثقافة زيتونية لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، فأبو القاسم الشابي تخرج من وسط عريق في أمجاده شديد في عروبته.

فقد ولد في صفر[1] 1327 ـ فيفري (فبراير) 1909 م فحفظ القرآن ورسخت عنده لهجة العرب وسليقتهم، وغذاه والده من علمه الواسع وأدبه الرفيع ما تهيأ به لأن يكون عربياً في ميوله كما كان عربياً في لحمه ودمه.

فلما تقدم للتعليم في جامع الزيتونة وكانت الزيتونة تشتمل على فروع من العلم شتى انصرفت همته إلى منهجين من مناهج التعليم الزيتوني:

فتعلم علوم العربية على نهج مدرسة ابن مالك وابن هشام وما يرتبط بها من خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي، وأساتذة هذه المدرسة من

---

(1) في المنشور الأول «محرم» وهو سهو من الكاتب دون ريب.

العاملين في صميمها أو المهتمين بذيولها، وهي المدرسة ذات الأسلوب الصحيح العميق التي تخرج منها علماء العربية.

وتعلم علوم البلاغة في مدرسة عبد القاهر الجرجاني وسعد الدين التفتزاني والزمخشري وابن الأثير وأبي هلال العسكري ومن قبل هؤلاء الجاحظ والمبرد والثعالبي والأصبهاني وهي المدرسة التي أنجبت علماء البيان وأيمة البلاغة.

ثم هضم هاتين المدرستين بفضل ما أوتيه من الفكر الوقاد والعقل الواسع والذكاء الخارق فخرج في شعره نسيج وحده وفريد عصره ونخبة أقرانه وحلية أخوانه وخلانه.

مؤهـلات شخصيـة:

لقد كان الشابي عند دراسته يمثل الإقبال والاعتناء والحياد، فكان محبوباً مكرماً عند شيوخه عزيزاً عند زملائه يحسن الاستماع ويعرف كيف يكون الانتفاع.

وأعتقد أن شيخاً من مشائخنا رحمة الله عليهم كان له التأثير الخاص في تكوينه هو المرحوم الشيخ عثمان بـن الخوجة فقد كان لهذا الشيخ أسلوب خاص في الدرس وهو تربية عقول الطلبة وترقية مداركهم وعرض المسائل عليهم بأسلوب المناقشة والجدال وعدم الإذعان للتسليم بالشيء قبل فحصه وعرضه على العقل الصحيح زيادة عما كان لهذا الشيخ العظيم من حرية القول وحرية الفكر وحرية الضمير في كل ما يتعلق بقضايا الحياة.

فأنا أعتقد أن لأسلوب هذا الشيخ دخلاً في تكوين «أبي القاسم الشابي» من الناحية الفكرية زيادة عن الناحية العلمية.

وبهذا يمكن لي أن أرد على بعض الزملاء الذين تقدموني في ميدان هذا السباق في زعمهم أن «الشابي» كان منبوذاً من شيوخه ومن زملائه نظراً

لما يتصف به من حرية الفكر، فإن مشائخنا بجامع الزيتونة رضي الله عنهم ما تعلمنا عنهم غير حرية الفكر وكرعنا من مناهلهم حرية القول.

وأنا شخصياً كم كنت أعرض في الدروس من أفكار شاذة وكان رحم الله من مات منهم وأطال حياة من بقي يقابلون أفكارنا على شذوذها بين القول وحسن البيان، نعم هناك أفراد لا يسيرون على هذا الأسلوب ولكن عددهم قليل والشاذ لا حكم له والاستثناء من علامة صحة القاعدة.

مع الشابي من جديد:

ثم إن الشابي بعدما اشتد ساعده من العلوم الأصلية وغاص في قواعدها أقبل على المطالعة فطالع الكتب المترجمة وكتب أدباء المهجر وشغف بجبران وميخائيل نعيمة وبأدباء مصر وخصوصاً عباس محمود العقّاد والمازني رحمة الله عليهما وبالأستاذ الكبير فاتح أبواب النقد في الأدب العربي بلا منازع الشيخ طه حسين، فغرف من هاتيك المناهل وازداد بها خبراً ومعرفة وذوقاً ولكنها كلها كانت روافد.

أما النهر الأصلي الذي هو أصل تكوينه فهو جامع الزيتونة الأعظم أدام الله عمرانه موهبة الله!.

ثم هناك بقطع النظر عن الدرس والتكوين الثقافي المدرسي هناك أمر آخر هو في حقيقة الأمر الفارق الأعظم بين الناس وهو الموهبة أي الفطرة والعقل الكامل الذي يهبه الله لبعض المصطفين من عباده والذي أجاد أستاذنا المتنبي فخر الحكماء والفلاسفة والأدباء عندما عبر عنه فقال:

لـولا العقـول لكـان أدنـى ضيغـم   أدنـى إلـى شـرف مـن الإنسـان

هذا العقل بما وصفناه هو الذي تميز به أبو القاسم الشابي وقد انتفع به في شعره وهو سر نبوغه فهو يفكر في المعنى ثم يستقصيه ثم يرتبه ترتيباً بديعاً ثم يعبر عنه تعبيراً يجمع بين أمرين قل أن يجمعا وهما وضوح الفكرة مع حسن الديباجة ورفعة التعبير.

خصائص شعر الشابي:

فأنت عندما تقرأ أي قطعة من شعره يقع عليها بصرك تجده قد أخذ المعنى وفصله واستقصاه وألم بأطرافه ثم عبر عنه تعبيراً واضحاً جلياً، ثم اختار للتعبير عنه أبدع كلمة وأدق جملة وأرفع ديباجة.. فكان شعره يرغم القارىء على أن ينسجم معه ويسلم بفكرته.. ويطرب لموسيقى نغماته وبديع ودقة نبراته.

وقد كان من المناسب أن استشهد ببعض شعره لتأييد ما قلته ولكني التزمت في هذا الحديث أن لا أنشدكم ولو بيتاً من شعره، إن فرسان هذه الحلبة قد سبقوني إلى ذكر الكثير من شعره.. سواء بنصوص كاملة أو بالإشارة إلى عناوين القصائد وتوضيح محتوياتها.. حتى إنه ليخيل إليّ أن غالب شعره قد وقع عرضه عليكم لذلك فإذا قدر لهذه الدراسة أن تنشر سيكون ترتيبها في آخر الكتاب كما كان صاحبها «آخر المشاركين» وعند ذلك يتسنى للمطالع أن يقف على نماذج كثيرة من شعره في الدراسات السابقة ولكن؟؟.

هل وقعت مقاومة الشابي برميه بالإلحاد أو بالزندقة؟!:

أما الحديث عن مقاومة الناس للشابي برميه بالإلحاد أو بالزندقة أو على الأقل بالطيش فهذا من ترّهات القول إذ الشابي لا يشتمل شيء من شعره على ما يخالف العقيدة أي يدل على الازدراء بها أو على التنطع.

نعم هناك أفكار تجيش بنفوس الناس.. فيعبر عنها الشاعر كالبحث عن المصير، وعن الحياة الأخروية وعن نظام العيش فيها.. وعن الآمال الكثيرة التي يعلقها كل متدين على تلك الحياة.. فيعبر عنها الشاعر تعبيراً حراً، قد يتخذهُ بعض الناس مطية للطعن فيه أو للتشهير به لا لاعتقاده أنه قال كلاماً يؤاخذ عليه، وإنما لمجرد التشهير أو العداء الشخصي أو الاجتماعي.. وهذا ما صرنا نشاهده بإطراد بعدما خبرنا من هذه الحياة

حلوها ومرها.. ورأينا كيد الكائدين ومكر الماكرين وخداع أهل التدجيل وتحطيم القيم والعقول الكبيرة بتهم لا تقوم على أساس ولا ينطبق عليها نص ولا قياس.

إذا الشعب يوماً أراد الحياة؟!:

فالشابي عندما يقول إن الشعب إذا أراد الحياة فإن القدر ولا بدّ أن يستجيب له، فلا يمكن أن يخطر ببال العاقل المفكر أنه يريد: أن قدرة الله يتحكم فيها العبد فهذا لا يقوله حتى الفلاسفة الماديون، وإنما يريد من قوله هذا: بعث الهمم وإحياء العزائم والتحريض على العمل وعدم الإخلاد للتواكل ألا يقول الواحد منا لصاحبه: اجتهد في عملك تنجح لا محالة. فهل هذا حكم على قدر الله.. ثم ألم يقل سبحانه: ﴿ إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أليس معنى ذلك أن الله جلّ جلاله قد التزم بمحض فضله لمن يغير ما بنفسه من الفساد أن يغير الله حالته إلى حالة أحسن.

ومن لطائف المصادفات أن جريدة «الصباح» نشرت في عدد الأمس الأحد 7 ذو القعدة 27 فيفري ـ 66 ـ 85 هـ أن صديقنا الصوفي الشاعر الشيخ الحفناوي الصديق شطر هذا البيت ليزيل عنه ما وهم به صاحبه من الكفر والإلحاد فقال:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة وجاهد حقاً سما وانتصر
وربّك إن قال للشيء كن فلا بدّ أن يستجيب القدر

ونحن نلاحظ لصديقنا الفاضل بأن البيت إذا كان يحتمل هذا التقدير فلا موجب للتوقف فيه إذ الشيء المقدر كالموجود، ولا يعترض عليّ بما التزمته من عدم الاستشهاد بشعر الشابي.. لأنه امتزج بغيره والشيء إذا امتزج بغيره، يتكون منهما عنصر جديد.

على أني شخصياً من أعرف الناس بالصفات الشخصية للشابي وطالما سهرنا في تونس وفي رادس وطالما تحاورنا وكانت له أفكار جريئة حرة

يصرّ على العناد عند مراجعته فيها، ولكنها الحق يقال لا تمس بالعقائد.

نعم إننا نحن الذين كنا شباناً في العقد الخامس من القرن الرابع عشر الموافق للعقد الثالث من القرن العشرين، كنا متأثرين بالمدرسة المصرية لا سيما عندما جاءت مجلة السياسة الأسبوعية وأخذ يبث فيها صاحبها المرحوم محمد حسين هيكل أفكاره التي لا تخلو من مخاطبة الناس بغير ما تعودوه،فحصلت عند ذلك اهتزازات في الأفكار ولكنها لا تخرج في الواقع عن فتح مناهج للتفكير ومسالك للتعبير ثم يرجع كل شيء إلى مجراه ويذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس ماكثاً في الأرض.

ولكن هل كانت للشابي قصة حب؟!:

هذا ومن جهة أخرى فقد تطرق بعض الدارسين إلى ما أراد أن يسميه بقضية الحب الشابي وأقحم نفسه بعض الدارسين من جهة أخرى في أمر عائلي كنت أود أن يقع تجنب الحديث فيه وهو أنه تزوج وخاب في زواجه.

وهذه كلها فروض تعرض لها في هذا المهرجان بعض الباحثين لكنهم تحدثوا عنها كأحاديث الخرافة والأساطير لكثرة الفروض والاحتمالات وهل أحب فتاة من زغوان أو من بلاد «التاميز» عندما جاءت تأخذ بعض الصور من توزر، وهل أحب فلانة وأحب فلانة؟؟ وكل ذلك في نظري من جزاف القول إن سمح الأخوان لي بهذا التعبير.

أما أنا فأعتقد أو يغلب على ظني على سبيل الاحتياط أن الشابي ليست له قضية حب أصلاً.. وإنما له قضية شخصية حيث كانت أفكاره العميقة وإحساسه الرقيق المرهف يشغلانه عن كل شيء.

أما زواجه فقد كان بابنة خاله وهي رفيقة صباه وقرة عينه لا سيما ووسطه العائلي كان من الأوساط العريقة في الأخلاق الفاضلة والآداب العالية.

هل عاش الشابي في فقر واحتياج؟!:

أما حياة الشابي العادية فكانت حياة خير وسعادة، أبوه في سعة من العيش، وله مكانة رفيعة من الشهرة لفضله وعلمه.. فلم يعش عيش ضنك وشقاء، بل كان سعيداً من هذه الناحية وسكناه في المدرسة اليوسفية بعاصمة تونس فترة دراسته لم يكن عن خصاصة وإنما هي حرص أبيه على تربيته تربية الحزم والصرامة والاعتماد على النفس.. وهذا هو نظام الحياة الزيتونية في ذلك العهد.

أما كثرة حديثه عن البؤس والبؤساء فلا لأنه كان بائساً أو شقياً أو محروماً.. كلا وإنما كما يقول الفلاسفة أن الضد أخطر بالبال من خطور المماثل.. ولهذا نرى كثيراً من العاطفين على البؤساء والفقراء هم من طبقة الأثرياء إذ بثرائهم يشتد إحساسهم وعطفهم على من كانوا من المحرومين.

على أن شعره حول البؤس والشقاء والتعاسة هو كرمز لما يعانيه الشعب التونسي من بعض الأحوال من التفريق في المعاملة، من المستعمرين وبين العرب أهل البلاد.. حيث يستعبدون في بلادهم ويعاملون معاملة العبيد.. فتألم الشابي لهذا الوضع وعبر عنه تعبير الرافض للهيمنة والداعي إلى الجهاد وهو إحساس وطني رفيع.

الخيال الشعري عند العرب؟!:

أما كتابه (الخيال الشعري عند العرب) فهو مسامرة ألقاها ثم أخرجها كتاباً.. وقد خصه بدراسة وافية زميلنا الأديب الأستاذ المنجي الشملي، وما أريد أن أعلق عليه بشيء فيما قاله إذ لكل مقام مقال وإنما أردت أن أقول فيه قولة أظن أنها عين الصواب.

فالمسامرة حررها الشابي في أيام قلائل وحررها على عجل ويوم حررها لم يتجاوز العشرين.. وبذلك فالأفكار ألتي بثها في تلك المسامرة أفكار عابرة لم تأخذ حظها من الدقة ولا من التمحيص ولا من استقصاء

المرجع ولا من التثبت في الحكم، مع أن ذلك الموضوع يستدعي من الصبر وطول النفس ومراجعة الأحكام واستئنافها وتعقيبها أعواماً طوالاً.

فأنا أرى أن تلك المسامرة لا يصح أن تعتمد عند دراسة الشابي.. بحال من الأحوال بل أعتقد أنه لا يعتبرها أصلاً من أصول دراسة الشابي إلا من يريد أن يورطه، فلذلك أقترح طرحها من أن تعتبر مادة في دراسة الشابي أو أن يقع التشطيب عليها حسب تعبيرنا في النوازل القضائية والأحكام.

ولا أحكم عليها إلا بما علّق به المعري على ديوان البحتري عندما قرأه فكتب عليه «عبث الوليد».

على أني أعتقد اعتقاداً جازماً أن الشابي لو عاش عشرة أعوام أخرى لراجعها مراجعة من أصلها.. ولحكم بنفسه على أفكاره بالبطلان.

كما وقع للأستاذ «ويليام مارساي» عندما ترجم صحيح البخاري وهو حديث عهد بالاستشراق فلما بلغ أشده من المعرفة ندم على تلك الترجمة وصار يسعى لإخفاء نسخها ولا يتحدث عنها أصلاً، كما ذكر لي ذلك صديقه شيخ الأدباء في هذه الديار العلامة الكبير الشيخ محمد العربي الكابادي.

أيها السادة: قبل أن أختم هذا الحديث الذي صبرتم له كما صبرت وصابرت لكم في أحاديثكم أردت أن أشرك في هذا المهرجان شاعراً من فحول الشعراء في هذه البلاد هو صديقي وصديق الشابي ألا وهو الشاعر مصطفى خريف الذي هو ملازم للفراش في المستشفى العسكري في هذه الأيام، والذي لو كان موفور القوى لشارك في هذا المهرجان بما لا يشق له فيه غبار.

فأردت أن أختم حديثي بأبيات كان أنشدها في تأبين الشابي بمناسبة إنشاء ضريح له في توزر حيث قال:

لذكراك للفصحى وأمجادها عيد تذاع له البشرى وتتلى الأناشيد
وطيفك بعد الموت حي مبارك كريم السجايا طيب الذكر محمود
وشعرك باقٍ نابض متدفق له في الدنيا غناء، وترديد
له من شفوف العبقرية حلة منمقة فيها ابتكار وتجديد
وعمرك موصول طويل على المدى له في امتداد الفكر نبل وتوليد
وروحك أنّى طاف فينا يحوطه من الملأ الأعلى احتفاء وتمجيد
ويعنفه العزم الطموح وهمة لها عند دارات النجوم مواعيد
يحفّ بك الزهر الملائك كلما شدوت فتشجيهن منك الأغاريد
ترى ذلك النور السماوي هادياً لنا منه في سبل الحقائق تمهيد
بيان كان الوحي فيه منزل له صلة بالارتفاع وتوكيد
وفن لآيات الجمال مخلد وكنز من التبيان والعمل مرصود
فيا شادياً في كل قلب مكرماً عزيزاً أحق أنت في الترب ملحود
لئن شيد الأخوان حولك مشهداً وحياك تمجيداً بنو قومك الصيد
فقدماً لقد شيدت صرحاً ممرداً لهم من صريح المجد ما فيه تفنيد
سلام وذكر عاطر وتحية إليك وشوق خافق وتناهيد

فتحية لك أيها الشاعر الفذ والصديق العزيز جزاء ما قدمت وأخلصت وساهمت في سبيل عزة وطنك وتحريض شعبك على رفض الاستعباد والاستقلال والذل والعار والله أكبر ولا إله إلا الله والسلام.

ما كُتب عن شعره

أبو القاسم الشابي
وجون كيتس

للأستاذ خليفة محجوب

عرفت الشابي منذ عامين إذ عثرت على قصيدة من قصائده التي كان ينشرها في مجلة «العالم الأدبي» وإذا بي أقرؤها وأعيدها المرات العديدة لما وجدت فيها من خيال وفن وأفكار حية تنم عن عاطفة رقيقة ونفس حساسة وروح عطشى ـ عطشى إلى الجمال والفتوه ـ وإذا بي أصمم على تتبع قصائده في «مجلة أبولو» المصرية التي فتحت صدرها لشعره وبوأته المكان اللائق به بين شعراء العربية الناهضة! وكم كانت تفعم قلبي سروراً وتملأه تيهاً وافتخاراً تلك الكلمات التي كانت تكتبها أبولو من آن لآخر تنوه بشعره وتباهي به أعداءها! أجل سادتي طار صيت الشابي في الشرق العربي كله وظل اسمه مجهولاً في بلاده مغطى بحسد الحاسدين وجمود الجامدين! وكيف لا يطير صيته وشعره يستشف خلال كل بيت منه روحه الهائمة التواقة إلى الجمال وإلى التمرغ في أحضان الفن وكنف الحب؟ روح هائمة، وفن سام تلك هي ميزات الشابي وتلك هي النتيجة المنطقية لحياته والوسط الذي عاش فيه.

شب بواحة توزر الشهيرة تحت ظلال نخيلها وفي صحرائها فكان أول عهده بالجمال ـ جمال النخيل ـ وبالنقاوة ـ نقاوة الصحراء!.

وهناك ميزة أخرى لشعر الشابي لا يجدر بنا أن نتغافل عنها تلك هي الصدق! فلا غلو في عواطفه أو في عباراته ولا كذب! وهذه ـ في نظري ـ كبرى خلال الشعر بل أقول إنه لشعر جدير بهذا الاسم إلا وله قسط وافر من الصدق.

إن الشابي يهوى الجمال ومن عرف هذا حصل على مفتاح شعره. فهو يفتش عنه في كل مكان ويتغنى به سواء كان في الطبيعة أو في سحر الطفولة أو في ذلك الأثر الفني اللاهي الأكبر ـ أعني الحياة ـ أو فيما يراه هو خلاصة لتلك الحياة: المرأة.

شعر الطبيعة:

قال كاتب مصري إن نوعاً من الرومانتيزم استولى على شعراء العربية المحدثين وفي طليعتهم جبران وأمين الريحاني اللذان يدينان بفلسفة روسو الشهير «الرجوع إلى الطبيعة» فإن صح هذا فالشابي لا يمكن لنا إلا أن نحشره في زمرتهم، نعم إنه لا يحب الطبيعة لما يكون له من الآراء الفلسفية فيها ولكن لأنها جميلة في جلالها نقية من «أنفاس الذئاب» ولأنها تفتنه «باخضرارها الأبدي الذي لا تمحوه الليالي» ومهما يكن من شيء فقد أوحت إليه الطبيعة قصائده الخالدة.

لنصغ إليه في هذه الأبيات التي يصف فيها الطبيعة صباحاً بعين دراهم وهي من قصيدته من «أغاني الرعاة»:

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الغصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسة

* * *

أقبل الصبح جميلاً يملأ الأفق بهاه
فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحي وغنى للحياه
فأفيقي يا خرافي وهلمي يا شياه

* * *

إلــى أن يقــول:

إن فـــي الغابة أزاهيراً وأعشاباً عـــذاب
ينشر النحل حواليها أهازيجاً طراب
لم تدنس عطرها الطاهر أنفاس الذئاب!

شعر الطفولة:

يعجب بتلك الطبيعة التي تتجدد دائماً وبجداولها الفتية وأزهارها فتجيش نفسه بذكريات الطفولة، ذلك العهد الذي كان هو فيه ساذجاً وجميلاً يمرح ويرتع من غير كلال فيقول:

قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيـا كمـا تحيـا البـلابـل والجـداول والـزهـور
لا نحفـل الـدنيـا تـدور بـأهلهـا أو لا تـدور

ثم يصف مرح الطفولة وسعادتها في أبيات قلما نجدها في الشعر العربي قديماً وحديثاً:

أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبـع النحـل الأنيـق وقطـف تيجـان الـزهـور
وتسلـق الجبـل المكلـل بـالصنـوبـر والصخـور
وبنـاء أكـواخ الطفـولـة تحـت أعشـاش الطيـور
مسقـوفـة بـالـورد والأعشـاب والـورق الغضيـر
نبنـي فتهـدمهـا الـريـاح فـلا نضـج ولا نثـور
ونعـود نضحـك للمـروج وللـزنـابـق والغـديـر
ونخاطب الأصداء وهي ترف في الوادي المنير
ونعيـد أغنيـة السـواقـي وهـي تلغـو بـالخـريـر
ونظل نركض خلف أسراب الفراش المستطير
ونمر ما بين المروج الخضر في سكر الشعور
نشدو ونرقص ـ كالبلابل ـ للحياة وللحبور!

ثم يتذكر أن جنة الطفولة التي تحن إليها نفسه قد ضاعت فيذوب قلبه حسرة ويصرخ:

آه! تـوارى فجـري القـدسـي في ليـل الـدهـور
وفنى كما يفنى النشيد الحلو في صمت الأثير!
أواه! قد ضاعت عليّ سعادة القلب الغرير!
وبقيت في وادي الزمان الجهم أدأب في المسير
وأدوس أشواك الحياة بقلبي الدامي الكسير!

حبه للحياة ـ نسيبه:

ولكنه سرعان ما يفهم أنه من العبث أن يبكي عهداً مضى فكفاه أنه عاشه على أحسن حال، وكفاه أن يقدر أن يقول لقد رفرفت بأجنحة الخيال مع الملائكة الأطهار! ليندفع إذا في تيار الحياة فهي هي التي ستعطيه ما يبكيه في أمسه الضائع: الحب! ذلك الحب الذي كان سنى فجره وشذى عطره!.

وحب أبي القاسم ليس كحب هؤلاء الذين يستسلمون لحبهم ويذرفون الدموع كالعذراء الباكية بل يحب من صميم فؤاده، يحب حب الرجل القوي، حب من يجري بعروقه دم الصحراء الحار.

ولكن بأي طرف كان ينظر المرحوم الشابي للمرأة؟ أبطرف الذكر المفتون بجمال الأنثى أم بأي طرف؟ أكان يحبها ويتغزل بها لجمالها الجسدي فقط؟ لا! فهو كان يسحره فيها أولا ذلك الجمال الفتاك الذي يذكره بجمال الطبيعة وبنغمات أجرام سمائها الصامتة:

عذبة أنت كالطفولة كالأحـ ـلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمـ ـراء كالورد كابتسام الوليد
يـا لهـا مـن وداعـة وجمـال وشبـاب منعـم أملـود!
يـا لهـا مـن طهـارة تبعـث التقـديـس فـي مهجـة الشقـي العنيـد

يـا لهـا رقـة تكـاد يـرف الـور ... د منها في الصخرة الجلمود!
أنــت أنشــودة الأنــاشيـد غنـا ... ك إلاه الغنـــاء رب القصيـــد
فيك شب الشباب وشحه السحـ ... ـر وشدو الهوى وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصاً ... قـدسياً على أغـاني الـوجـود
وتهادت في أفق روحك أوزا ... ن الأغــانــي ورقـة التغـريـد
فتمـايلـت فـي الحيـاة كلحـن ... عبقري الخيال حلو النشيد:
خطـوات سكـرانـة بـالأنـاشيـد ... وصـوت كـرجـع نـاي بعيـد
وقـوام يكـاد ينطـق بـالألحـان ... فـــي كـــل وقفـــة وقعـــود
كـل شـيء مـوقـع فيـك حتـى ... لفتـة الجيـد واهتـزاز النهـود

فالمرأة إذا في نظره ملاك تهادى بين الورى ليصبغ العالم بروحانيته وينسى فيه الإنسان الحياة وأعباءها الباهظة. فهي هي التي يلجأ إليها الشاعر ويستمد منها قوته ليؤدي رسالته، وهي هي التي يخاطبها الشابي وهو في نوبة من اليأس اعترته:

وارحميني فقـد تهدّمت فـي كـو ... ن مـن اليـأس والظـلام مشيـد
وانفخي في مشاعري مرح الدنيا ... وشـدي مـن عـزمـي المجهـود
وابعثي في دمي الحرارة علّي ... أتغنّـى مـع المنـى مـن جـديـد
وأبـث الـوجـود أنغـام قلـب ... بلبلــي مكبــل بــالحــديــد!
أنقذيني فقد سئمت ظلامي ... أنقذيني فقد مللت ركودي!

والحق يقال ما كان ليترقب من شاعر يرمي الأدب العربي في شيء من الشطط بالمادية سوى هذا الرأي في المرأة!.

تشاؤمه:

أريد بعد أن تكلمت عن حبه للحياة أن أقول كلمة فيما يسميه الكثير ـ خطأ ـ تشاؤمه. هل يمكن أن يتبرم بالحياة من يعبدها؟ هل من المعقول أن يسخط عليها من هو منتشٍ من أضوائها وألوانها وألحانها؟ أقول كلا، حتى لو كانت الحياة تسحقه بقدميها الجميلتين سحقاً، أما وهو الجبار الذي

ظل إلى آخر نسمة من حياته يصفع الألم ويناضل الأعداء والقدر ويقول متغنياً:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئاً بالسحب والأمطار والأنواء
لا ألمح الظل الكئيب ولا أرى ما في قرار الهوة السوداء
وأعيش في دنيا المشاعر حالماً غرداً وتلك طبيعة الشعراء
أشدو بموسيقى الحياة ووحيها وأذيب روح الكون في إنشاء

* * *

وأقول للقدر الذي لا ينثني عن حرب آمالي بكل بلاء
لا يطفىء اللهب المؤجج في دمي موج الأسى وعواصف الأرزاء
فاهدم فؤادي ما استطعت فإنه سيظل مثل الصخرة الصماء!
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا وضراعة الأطفال والضعفاء

أما من كانت هذه حالته فكيف يخطر بخلد أحد أنه متشائم بالحياة متبرم بها؟ بل لست أفهم كيف يتشدقون بتشاؤم الشابي حتى كادوا يجعلونه شوبنهور العرب بعد أن قال:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأضمأ للحياة وأحتسي من كاسها المتوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق للحب والأفراح والألحان
حتى تحركت السنون فأقبلت فتن الحياة بسحرها الفتان
وإذا أنا طفل الحياة المنتشي شوقاً إلى الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والهذيان
إن ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الإيمان!

نعم نجد في شعره من آن لآخر نبرات الحزن ولكن ذلك لا يرجع إلى طبيعة سوداوية له بل علتها هو الألم إذا طغى عليه، هو عقوق الناس وحسدهم له. ولئن ثار ثائره وسخط فثورته وسخطه على الناس لا على الحياة، أليس هو القائل لنفسه:

أنت كالزهرة الجميلة في الغاب ولكن ما بين شوك ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير والدود من صنوف الورود
فافهمي الناس . . . ، إنما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البريء كالوردة البيضاء كالموج في الخضم البعيد
كثلوج الجبال، يغمرها النور وتسمو على غبار الصعيد!

أسلوبه:

هذه أفكاره وإحساساته ولكن أي رداء يرتديه عندما يعبر عنها أو بكلمة أوضح وأصح أكان أدبه أدب لفظ بعد أن كان أدب معنى؟ أينحرف عن طريقته ويهمل مظهراً من مظاهر الجمال: جمال الأسلوب؟ لا! فلشعر ذلك الشاعر المفتون بالألحان موسيقى عذبة مرحة يصل إليها بإفعام قصائده خيالاً وصوراً شعرية عجيبة وألفاظاً موسيقية خلابة، ذلك الخيال وتلك الصور والألفاظ التي تنسي القارىء هذا الوجود وتحمله إلى عالم الشاعر حيث يعيش مؤجج الآداب، مرهف الإحساس! عالم مسحور كله أضواء وشموس وأناشيد حلوة وبلابل صداحة! ذلك العالم الذي طالما طالعه في ضوء عيون حبيبته والذي تغنى به في هذه الأبيات:

في فؤادي الغريب تخلق أكوان من السحر ذات حسن فريد
وشموس وضاءة ونجوم تنشر النور في فضاء مديد
وربيع كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب السعيد
ورباة لا تعرف الحلك الداجي ولا ثورة الخريف العتيد
وطيور سحرية تتناغى بأناشيد حلوة التغريد
وقصور كأنها الشفق المخضوب أو طلعة الصباح الوليد
وغيوم رقيقة تتهادى كأباديد من نثار الورود
وحياة شعرية هي عندي صورة من حياة أهل الخلود!

كما أنه يصل إلى تلك الموسيقى وإلى خلق ذلك الوسط الشعري

الخاص بكل قصيد مطبوع باختيار البحور كما فعل كبار شعراء أوروبا. وقد رأينا كيف اختار مجزوء الكامل المتوثب المتدفق عندما وصف الطفولة ومرحها واجتنى الطويل عندما عبر عن أشواقه أو عندما هاجم أعداءه لقوته و «نبالته» كما يقولون.

كما أن لشعر الشابي رقة وعذوبة تأخذ بجميع مشاعري وتحلق بها في عالم شعري جميل، تلك الرقة وتلك العذوبة التي تروق لي قبل كل شيء في الأدب الفرنسي والتي كدت أيأس أن أجدها في الأدب العربي. أقول هذا من غير تحفظ فالشابي فتح فتحاً مبيناً في الأدب العربي ووثب به وثبة بعيدة، فتحاً من حق الأدب العربي أن يغتبط به ويفخر، فتحاً سيرفع له رأسه عالياً بين الآداب الغربية الحديثة! ولا غرو فالشابي فنان كبير، فنان حقاً!.

الشابي وكيتس:

والآن أريد إتمام المعرفة بعبقرية الشابي أو بالحري لمعرفة مكانته بين الشعراء العالميين أن أقارن بينه وبين شاعر إنجليزي عظيم: جون كيتس. وحسب كل أديب أن يطلع على أدبيهما لتفرض تلك المقارنة نفسها فرضاً عليه فمن افتتان بالجمال واحد إلى تطلع إلى دنيا أسحر وأهدأ متشابه إلى آلام متماثلة إلى فن وخيال أخوين! كلاهما كرع من ديمومة الجمال وترجم عن أشواقه في قصائد خالدة مفعمة بصور شعرية عجيبة وكلاهما صفع الآلام التي تصده عن التمرغ في أحضان الجمال وكنف الحب، وأنشأ لنفسه «دنياه المنشودة» وعاش فيها حياة شعور وإحساس نابذاً العقل وأهواءه إذ وجد دنيانا قاسية ضالة!.

فإن صاح جون كيتس: لا يوجد في العالم سوى حقيقة خالدة «الجمال» أما الفلسفة فهي محض ضلال إذ لكل مذهب مضاد له على خط مستقيم! فمن لي بحياة إحساس وشعور! من لي!.

فإن صاح كيتس تلك الصيحة قال الشابي: «عش بالشعور وللشعور!»

وإن كتب كيتس «أنديميون» أو قصيدته المهداة إلى البلبل جاعلاً شعاره هذا البيت: The Thing Of Beauté Is A Joy Forever كل أثر جميل غبطته لا تزول! قال الشاعر التونسي نسيبه المشتعل غراماً.

وحمادى القول، خلق كلاهما للغناء وللنشاط الدائم والترنم بالفتوة والجمال والحرية! وكلاهما عاش كالزهرة الغضة منهلاً من الضياء والجمال أكبر قسط ممكن، وكالزهرة التي تحطمها ريح المساء العاصفة قضى نحبه في ميعة الشباب ولكن بعد أن نشر ذكره إلى أبد الأبد!.

ومن هنا نرى أن الشابي يلحق بسلسلة هؤلاء الشعراء الذهبية أولئك الشعراء الذين يرسلهم القدر من آن لآخر إلى الإنسانية ليرشدوها ويفهموها معنى الحياة، أولئك الشعراء الذين يجعلون من هذه الحياة القفار واحة جميلة ساهرة ذات «مياه جارية وبلابل صداحة!.

أبو القاسم الشابي
نظرة في شعره عامة

حسن محمد محمود

يتساءل الناقد الإنكليزي الكبير ماثيو أرنولد في دراسته عن كيتس «هل كان كيتس شيئاً آخر غير كونه شاعراً؟» ولو جاز لنا أن نستعير منه هذا السؤال لقلنا «هل كان أبو القاسم الشابي شيئاً آخر غير كونه شاعراً؟» ـ ذلك أن أبا القاسم كان فنّاناً بكل ما تحوي هذه الكلمة من معنى.

فالشاعر المطبوع هو ذلك الذي يستطيع في لباقة وسهولة أن يصور لك خلجات النفس الإنسانية والطبائع البشرية المتباينة ويصقلها لك في أداءٍ وافٍ وتركيب سليم وهكذا كان أبو القاسم يعمد إلى تصوير تلك الأحاسيس ويجمع ما تبعثر منها ثم يخلع على ذلك روحه وطبيعته الشاعرية الفنانة، ويتعمق في تفسير هذه الأحاسيس الجياشة في نفسه الكبيرة تفسيراً يجعلنا نقف معجبين بهذه العبقرية الفذّة الناضجة الممثلة في شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. وإذا كان لنا من عزاءٍ فهو أنه توفي في سنّ قُبض عندها شاعر من أكبر شعراء إنكلترا الرومانتيكيين المبرّزين في القرن التاسع عشر هو جون كيتس، وكأنّ القدَر أبى إلا أن يمثل هذه المأساة ثانية في القرن العشرين فجاء الشابي من أنبغ شعراء العربية وممن كان ينتظر منهم أن يعيدوا للشعر العربي شبابه القوي، وابتلاه بما ابتلي به كيتس من قبل فراح ضحية داءٍ أقضّ مضجعه، وعجل بركابه إلى وادي الموت في وقت تتطلع فيه الأعين إلى مستقبل معسول الآمال، حافل بشتى ضروب التجديد والحياة على يدي أبي القاسم الشابي.

فلا عجب حينذاك إذا أحسَّ مطالعوه بالهوة السحيقة التي خلفها موت

أبي القاسم وليس بين أيدينا للأسف مجموعة كاملة من شعره الناضج، بل كل ما لدينا هو هذه النتف القليلة التي كان ينشرها في أبولو[1]، ومهما يكن من ضآلتها فهي تدل على أنها إنجاب شاعر مطبوع، وفنان قد قارب نهاية العبقرية، وأديب يحق للعربية أن تفخر بأن أضاف إليها ثروة من المعاني على جانب كبير من القوة والتأمل، ولو أتيح لهذا الشاب أن يجد مستشرقاً يدرس أدبه لطلع على العالم الغربي بثروةٍ لا شك أنه سيهلل لها إعجاباً وإكباراً، وستصبح عبقريته وشاعريته موضع الإجلال والعظمة، ذلك لأن أبا القاسم لم يكن من أولئك الشعراء الذين يسيرون على نهج من تقدمهم، بل كان من أئمة فريق يتطلع على الدوام إلى الأمام، وينظر إلى محيطٍ أعمق مما ينظر فيه شبّان اليوم ويصوّر بريشته السحرية صور عالم لا تحدّه النظرة الواحدة، ولا يستقصي ما فيه التأمل السطحي، بل هو عالم جيّاش بشتى من ضروب الإحساس، فتشعر وأنت تقرأ شعره أنك أمام فيلسوف يجلو صور الحياة المتباينة، ويسمو عن هذا العالم المادي إلى عالم عبقري الخيال، تدوي فيه أناشيد الوجود، وتغني فيه ملائكة الحبّ.

كان أبو القاسم شاعراً، وشاعراً عبقرياً مطبوعاً، ولكن قبل أن نتناول شاعريته بالتحليل نقف وقفة ساذجة صغيرة ونقول: من هو الشاعر؟ وما فائدته للعالم؟ ماذا تكون حالته لو خلا منه؟.

هذه الأسئلة وأمثالها تدور في خلد الكثيرين، ويذهبون في الإجابة عنها مذاهب شتى متشعبة النواحي، بيد أن نقدم بين يدي القارىء كلمة صغيرة عن ماهية الشاعر. أول من يطالعنا من الأمم التي خلد الشعر آثارها الإغريق القدماء فنراهم يسمونه «الخالق» ذلك لأنه يعمد إلى خياله وتفكيره وإحساسه وتذكره ويؤلف بين أشتاتها، ويجعلها كلها تتحد في إبداع صورة جديدة التكوين لم يسبقه إليها أحد، فهم ينظرون إلى الشاعر نظرة فيها

(1) تفضل علينا صديقنا الشاعر التونسي صديق طاهر سعدي بكتاب يسمى (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر) وفيه مجموعة لا بأس بها من شعر أبي القاسم رجعنا إليها فله خالص الشكر.

شيء من التقديس والتأليه، وليس بعد هذه المرتبة منزلة لطامع يتطلع إلى درجات سامية من الجلال. ولو أنك بحثت في شعر أبي القاسم لوجدته يبدع من خياله الفذ صوراً فتانة لم يسبقه إليها أحد وحسبك أن تطالع له قصيدته المسماة «صلوات في هيكل الحب» أو «في ظل وادي الموت» لترى أية عبقرية وأي إعجاز في المعاني وابتكار في الأخيلة، وإلا فمن هذا الذي استطاع قبل أبي القاسم أن يأتي بهذه المعاني النادرة كقوله:

أنت... ما أنت؟ أنت رسم جميل عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجود

فيك ما فيه من غموضٍ وسحر وجمال مقدَّس معبود

أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتهتز رائعات الورود

وتهبّ الحياة سكرى من العطر ويدوي الوجود بالتغريد

ولو شئنا الاستدلال على ذلك لعرضنا شعره جميعاً أمام أعين القرّاء.

لقد رأيت فيما سبق نظرة الإغريق نحو الشاعر وتعريفهم إياه، والآن لنمض بك إلى الأمة اللاتينية، فنراها تطلق عليه كلمة Wates ومعناها (النبي) وبذلك وضعت الشاعر في مرتبة النبوّة، ذلك لأن كلاً من الشاعر والنبي مكلف بتأدية رسالة جديدة لم يأت بها أحد قبله.

هذا هو الشاعر كما يراه الإغريق إلهاً والرومان نبياً، وكلا النظرتين فيها تعظيم لشأنه، ورفعة من قدره، وإجلال له ولرسالته التي كلف بتأديتها، ولعلك ترى تنيسون يصوّر الشاعر صورة مستمدةً من صميم نفسه ووجدانه فيقول: ولد الشاعر في محيط ذهبي، تتلألأ فوقه النجوم المذهبة، وقد ركبت نفسه على حقد الحقد، والإزراء بالمكر وعشق الحب[1] وإنما استدللت بهذه القصيدة بمناسبة ما قصه عليَّ الزميل الكريم الشاعر التونسي

---

(1) راجع هذه القصيدة كاملة في ديوان تنيسون تحت عنوان The Poet حيث يقول:

The Poet in a golden clime was born,
With golden Stars above;
Dowr'd with the hate of hate, the scorn of scorn,
The love of love.

صديق طاهر سعدي من أن أبا القاسم كان ناصع السريرة، لا يكنّ لأحدٍ ما حقداً، فلا عجب إذا بكته تونس والجزائر، ولا غرو إذا قام الشعراء والأدباء بتأبينه.

* * *

كثيراً ما يتجرّد الشاعر عن مادية الحياة، وينساب بنظره وخياله إلى عوالم يصورها له الفكر، فيرى بعقله الباطن ما تعجز العين المجرّدة عن رؤيته، ولعلنا إذا أردنا محجة الحق وجادة الصواب قلنا إن الشاعر المبدع الخالق لا بدّ له من إحساس قويّ يدفعه، ثم يعمد هذا الشعور الجارف إلى تكوين الأفكار التي تتكوّن منها القصيدة ولقد تحسّ بذلك قوياً وتلمس أثر هذا وصحته في شعر أبي القاسم، غزلاً كان أم وجدانياً، ومن مظاهر شاعريته القوية تلك الموهبة التي عرف كيف يستغلها فكانت بعض كلماته المفردة تخلق في مخيلة القارىء عالماً آخر، وترسم صوراً قوية واضحة كما في قوله:

أنت تحيين في فؤادِي ما قد ... مات في أمسِي السعيدِ الفقيد
بعد أن عانقتْ كآبة أيّا ... مي فؤادي وألجمَتْ تغريدي

ثم هو يشعر بذلك شعوراً لا يستطيع أن ينكره أو يتجاهله، وكيف ينكره أو يتجاهله وهو يحسّ به كأنه الموج الصاخب الثائر يلهو بالسفينة وسط الخضم المزبد وقد ينكره وقد يتجاهله ولكن شاعريته وأحاسيسه يكشفان الستر فيقول:

في فؤادي الغريب تخلق أكوانٌ ... من السحر ذاتِ حسنٍ فريد
وشموس وضاءةٌ ونجوم ... تنشر النور في فضاءٍ مديد
وربيع كأنه حلم الشاعر ... في سكرة الشباب السعيد
وربـاة لا تعرف الحلك الداجي ... ولا ثورة الخريف العتيد
وطيور سحرية تتناغى ... بأناشيد حلوة التغريد
وقصورٌ كأنها الشفق المخضو ... بُ أو طلعة الصباح الوليد
كل هذا.. يشيده سحر عينيكِ ... وإلهام حسنك المعبود

فحـرامٌ عليـك أن تهـدمـي مـا ... شـاده الحسـن فـي الفـؤاد العميـد
فـالإلـه العظيـم لا يـرجـم العبـدَ ... إذا كـان فـي جـلال السجـود

* * *

ولأبي القاسم قصيدة أسماها (ألحاني السكرى) وربما أحسّ القارىء في العنوان نفسه شيئاً من قوة الابتكار، وروعة التجديد في المعنى، وتلك من الميزات التي طبع عليها أبو القاسم، وأن هاتين الكلمتين فحسب لتصوّران لسامعهما وادياً سحرياً تتغنى فيه ملائكة الحب، وتدوي فيه أغاريد الشباب المعسول ومثل هذا، غير أنا نترك العنوان ونمضي إلى جوهر القصيدة ولبها فنرى الشاعر فيها يصوّر المحبين كالطائر في الأفق الساجي. ولعلكم تتبينون الرمزية (Symbolism) في قوله:

نحـن مثـل الـربيـع نمشـي علـى أر ... ضٍ مـن الـزهـر والـرؤى والخيـال
فـوقهـا يـرقـص الغـرام ويلْهـو ... ويغنـي فـي نشـوة ودلال

وكما في قوله:

أيهـا الـدّهـر، أيهـا الزمـن الجـاري ... إلـى غيـر وجهـة وقـرار[1]
أيهـا الكـون، أيهـا الفلـك الـدوّا ... ر بـالفجـر والـدجـى والنهـار
أيهـا المـوت أيهـا القـدر الأعمـى ... قفـوا حيـث أنتـم أو فسيـروا
ودعـونـا هنـا تغنـي لنـا الأحـلا ... م والحـب والـوجـود الكبيـرُ
وإذا مـا أبيتـمُ فـاحملـونـا ... ولهيـب الغـرام فـي شفتينـا
وزهـور الحيـاة تعبـق بـالعطـر ... وبـالسحـر والصّبـا فـي يـدينـا

وإنا نلمح بين ثنايا هذه الأبيات السالفة روح الثورة والتمرّد. ولكن أيّة ثورة وأي تمرّد يزأر بهما ذلك الشاب الشيخ؟... إنها ثورة على كل ما

---

(1) لعلنا نرى مظاهر الشبه الكبير بين شاعرنا الشاب في هذا البيت وما يليه وبين قول الشاعر الإنكليزي الشاب بيرسي بيش شلي في قصيدته «الزمن» حيث يقول:

Unfathomed Sea, whose waves are years!
Ocean of time whose waters of deep woe
Are brackish with the salt of human tears.

في الوجود وتمرّد الساخر بالحياة، بل والعطف والحسرة على من فيها، فما أشبهه في ذلك بسقراط، فقد سخر هو الآخر من جهل القادة وإن كا ن رثى لهم في نفس الوقت، وإنا لنحس بجانب هذا في تلك الأبيات بعاطفة وجدانية تبعثه إلى أن يصيح هذه الصيحة الداوية في أذن الدهر ومسمع الحياة، فسواء لدى الشاعر أن يقف الدهر أو يتابع سيره، وسواء لديه الحياة والموت. ثم ها هو ذا يهزأ بالكون والموت وبكل ما على سطح البسيطة من قوى ما دام هو بجانب حبيبته، وهوَ يهتف بهؤلاء جميعاً أن اتركونا في وحدتنا تغنّي لنا الأحلام والحبّ والوجود. ولكنه يرجع إلى نفسه فيرى نفسه أضعف من أن يقف موقفاً سلبياً إزاء هذه القوى المتكالبة عليه. فيتقهقر ولكن في تأنٍّ فيصرخ بها جميعاً إن أبوْا أن يتركوهما في وحدتهما القدسية فليحملوهما ولهيب الغرام في شفتيهما يؤجج فيها عاطفة الحب ويذكي مشعلها الخفاق في قلبيهما الفتيين.

وهو في حبه يتفانى إلى النهاية فيرى أن الغرام أسمى هبة يهبها الله للشاعر، وماذا يكون الأمر لو نضب معين الحب وجفّ ورده؟ فما الحياة إلا أنفاس الحب وليست إلا ألحاناً منغومة موقعة على قيثارته السحرية. إنّ هذا الحب هو الذي يصفه شكسبير «بأنه وشيجة الخلود الأبدية، لا تنال منها العواصف الهوجاء، وهو النجمة اللألاءة للمدلج الساري في غياهب الظلام، وهو الذي يحمل النفس إلى وادي الخلود، حيث تظل على قيد الحياة إلى الأبد».

ولسنا نعجب إذا رأيناه يتفانى في حبه، ويقدّس هذا الغرام الوليد، ولسنا نلومه على أن يبكيه وقد ألقى في لحده مسجّى تطوف حوله الذكريات الحزينة، وتنبعث أنغامه الحنون فإذا في الفؤاد ثورة قلّ أن تنطفىء، وإنما تخمد إلى حين، كأنها اللهب يتأجج تحت الرماد، غير أنا نلوم الشاعر حين يقول لنا إنه يحتقر المجد وأوهام الحياة وإن كنّا نتسامح فنغفر له ذلك حين نرى فيه الإخلاص ممثلاً في قوله:

لستُ يا أمسِيَ أبكيكَ لمجدٍ أو لجاهْ
فـأنـا أحتقـر المجـدَ وأوهـام الحيـاهْ
أو لعمـر بلغـت منـه الليـالـي منتهـاهْ
وتلاشت في خضمّ الزمن الطاغي قواهْ
فأنا ما زلت في فجر شبابي أو ضحاهْ

في هذه الأبيات الخمسة يعرض علينا صورة نفسه وقد رغبت عن المجد والجاه وكل ما يشغل النفوس، وليس يبكي عمره وهو ما زال في فجر عقده الثالث ينعم بالشباب الغضّ، والأمل الباسم، ويأمل في الحياة آمالاً طروبة مشبوبة بقوة الحسن. إذن فما الذي يبكيه، وما الذي يؤلمه، وهو ينعم بكل ما شاء؟.

الجواب عند أبي القاسم نفسه، فهو يبكي... ويبكي.. ولندعه يقص علينا ذلك:

إنمـا أبكيـك للحـبّ الـذي كـان بهـاهْ
يملأ الدنيا فأنّى سرت في الدنيا أراهْ
فإذا ما لاح فجرٌ كان في الفجر سناهْ
وإذا ما غرّد طيرٌ كان في الشدو صداهْ
وإذا ما ضاع عطر كان في العطر شذاهْ
وإذا ما رفّ زهر كان في الزهر صباهْ
فهو في الكوْن جمالٌ يملكَ الأفق ضياهْ
عبقري السحر ممراح وديع في سماهْ
ينسج الأحلام في قلبي بأضواء الحياهْ
ويغنينـي فـأنسـى فـي مسـرّات غنـاهْ
كلُّ ما في الكون من حزْنٍ وأفراح عداهْ

وقد يطلع علينا أبو القاسم في مسوح الفيلسوف الذي ينظر إلى الحياة نظرة فيها شيء من اللذة ونواح من الألم فيهتف من أعماق قلبه الفتيّ

مستصرخاً هذه الجراح الدامية، هاتفاً بها أن كفّي عن نواحك وأنينك، ولكن أنّى لها أن تصيخ إلى هذه الصرخات التي لا تلبث أن تتلاشى في خضم الحياة! فهو يقول:

اسكتـي يـا جـراحْ　　واسكني يـا شجونْ
مـات عهـد النـواحْ　　وزمـان الجنـونْ
وأطـلّ الصبـاحْ　　مِـن وراء القـرونْ

ثم يصف لنا ما حواه هذا القلب الخافق بمعاني الحب الهاتف للجمال، المتغني للشباب السعيد والآمال الباسمة وربيع الحياة قد زينته يد السحر الصناع فتجلى لعين الشاعر في صورة قدسية الخيال، مشبوبة العاطفة فيقول:

في فؤادي الرحيبْ　　مَعبـدٌ للجمـالْ!
شيـدتـه الحيـاهْ　　بـالـرؤى والخيـالْ!
فتلـوْت الصـلاهْ　　فـي خشـوع الظـلالْ
وحـرقـتُ البخـورْ　　وأضـأتُ الشمـوعْ

وكأنّ أبا القاسم في هذه القصيدة قد أحسّ بقرب منيته وأن ركبه قد تهيأ لوادي الردى، وأن سفينة العمر على وشك الإقلاع إلى ساحل الممات، حيث تنعم خالدة في ملكوتٍ صوّره لها خيالها الشعري القوي، فنراه يعلن للملأ أن حينه حان، وأن وقت أفول نجمه آن، وكلما قرأت أبياته هذه أحسست عاطفة لا أدري بماذا أصفها وكيف أصفها، ولا أستطيع تصويرها، هي مزيج من الألم الحاد لفقده، والإعجاب المطلق بشاعريته حين يقول:

مـن وراء الظـلامْ　　وهـديـر الميـاهْ
قـد دعـاني الصباحْ　　وربيـع الحيـاهْ
يـا لـه مـن دعـاءْ　　هـزّ قلبـي صـداهْ!
لـم يعـد لـي بقـاءْ　　فـوق هـذي البقـاعْ

ويقول في نهايتها:

الــــوداعَ الــــوداعْ!　　يــا جبــالَ الهمــومْ!
يــا ضبــابَ الأســى　　يــا فجــاجَ الجحيــمْ
قــد جــرى زورقــي　　في الخضمّ العظيمْ
ونشـــرتُ القــــلاعْ　　فــالــوادعَ! الــوداعْ!

وهو يذكرني في هذا الموقف بشاعر مصري ودع الحياة وهو ما زال في شرخ الصبا ونضارة العمر وميعة الشباب، وآثر أن يختصر الطريق وذلك هو أحمد العاصي فله قصيدة تتناول نفس هذا الموضوع.

ولنرجع إلى أبي القاسم فنقول إن ما تحت أيدينا من شعره الذي تناول فيه هذا الضرب من الشعر قصيدتان إحداهما بعنوان «قلب الأم» والأخرى أسماها «في ظل وادي الموت». أما الأولى فهي في رثاء طفل صغير، وأنه لمن الحق أن أقول إني قرأت هذه القصيدة قبل نشرها فتخيلت هذا الطفل الوليد ورثيت له، وقرأتها مرة أخرى وثالثة فأحسست نفس الشعور الذي اصطخب في جوانحي عند قراءتها أول مرة، وإذ عدت إليها بعد موت أبي القاسم أحسست فيها قوّة وعاطفة جياشة متفجرّة، وشعرت بالألم العميق يحزّ في نفسي، وكأنما كان شاعرنا الشابي يرثي فيها نفسه ويبكي مصرع الإنسانية، ويذكر كيف انقضى الصحاب وعادوا إلى لهوهم ومجونهم، وتلاشت ذكراه عند الجميع وأسدل النسيان عليه ستاراً كثيفاً فجعلوه دبر آذانهم، غير أن هناك بين هذه الجموع المشيّعة كلها قلباً واحداً لم يستطع ولن يستطيع النسيان أن يجد إليه سبيلاً، أتدرون لمن هذا القلب؟.

إنه قلبُ الأم!.... نعم قلب الأم الذي لا يندمل جرحه.

يا له من بائس صرعته آلام الحياة ولم تبق عليه الأيام أو تذر، بل انقضّت عليه انقضاض النسر على فريسته، وقد أنشب فيها مخالبه المعفرة بدماء السرور، وأوغل منقاره في شغافه فمزقه، وألقى به مضرجاً في غياهب الزمن العتيّ فيصرخ أبو القاسم بهذا الميت ويقول إن قلب أمك هذا:

يصغي لنغمتك الجميلة، في خرير الساقيةْ
في أنّة المزمار، في لغو الطيور الشاديةْ
في ضجّة البحر المجلجل، في هدير العاصفةْ
في لجة الغابات، في صوت الرعود القاصفةْ
في آهة الشاكي وضوضاء الجموع الصاخِبة
في شهقة الباكي يؤجِّجها نواح النادبةْ
في فتنة الشفق الوديع، وفي النجوم الباسمةْ
في رقة الفجر البديع، وفي الليالي الحالمةْ
في رقص أمواج البحيرة تحت أضواءِ النجومْ
في سحر أزهار الربيع وفي تهاويل الغيومْ
في مشهد الغاب المجرّد والورود الهاويةْ
في ظلمة الليل الحزين وفي الكهوف العاريةْ
أعرفتَ هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحودْ
هو قلب أمك: أمك السكرى بأحزان الوجودْ

أرأيتم إلى أي حدٍّ يصف الشابي حزن هذا القلب المفجوع، وهو يرى صورة فقيده في كل ما تقع عليه من صور الطبيعة التي لم يفته استغلالها كمظهر من مظاهر الحزن وهي في ذاتها مبعث السرور والجمال، ثم هو يذكرنا بأن هذا القلب سيقضي حياته طريد الآلام والأهوال والذكرى، كلما عصفت به الذكريات تأجّجت نيران الحزن واصطخبت أمواج الأسى، وهو بين هذا وذاك كالسفينة تتلاعب بها الأعاصير الهوجاء؟.... ونحن الشباب ربما لم نكن لنشعر بهذا الحزن، غير أني أحسسته قوياً وإن لم يكن لي ولد، أحسست بالألم يفري نفساً حين تذكرت أبا القاسم فخلته يبكي شبابه اللدن وقد هصرته رياح الموت، فغيب في قاع الثرى وهو ما زال في بُرد الشباب الغضّ، وإن الإبداع كل الإبداع في قوله يصف أمه الحزينة بأنها سكرى؟ ولكن بماذا؟ بأحزان الوجود!.

بيد أنا نتساءل: أليس لهذا القلب الدامي مِن سلوى تنسيه هذا، أو هلا في استطاعته أن يتناسى فقيده؟ الجواب عند أبي القاسم في قوله:

لا ربة النسيان ترحم حزنه وترى بُكاهْ
كلّا! ولا الأيام تبلى في أناملها أساهْ
إلا إذا ضفرت له الأقدار إكليل الجنونْ
وغدى شقياً ضاحكاً تلهو بمرآه السنونْ

وفي وصفه القلب بأنه «شقيٌّ ضاحك» صورة أبدع في رسمها فكانت هيكلاً متجسداً، فقد يستحيل اليأس قوة تجعل صاحبها هازئاً بالحياة ساخراً بما فيها، فيضحك بملء شدقيه ولكن ضحك اليأس والجنون، ويعربد غير عابىء بما في الكون من قوانين، ولا عجب، فالطير يرقص مذبوحاً من الألم!.

* * *

أما قصيدته في «ظل وادي الموت» التي أشرنا إليها سابقاً فنرى فلسفة الحياة والموت وصورة للتفكير العميق: من أين جئنا ولماذا وإلى أين؟ وهذه الشواغل نفسها هي التي جالت بأدمغة المفكرين والفلاسفة منذ القدم، غير أن أبا القاسم يمثل لنا صورة الموت كالرياح تقتلع الأطواد الشامخة والجبال الباذخة، وتثير مياه المحيط الهادئة حتى إذا تم لها ما تريد سكنت وهدأت ثورتها.. وعجيب لشاب في الخامسة والعشرين أن يتجه تفكيره هذه الناحية المظلمة، ولكنا نغفر له ذلك إذا علمنا أنه راح ضحيّة داء الصدر الذي زلزل حياته واجتثَّ شجرتها المورفة الظلال، ولنسمع إليه وهو يصف هذه المسائل الثلاث في لغة سلسة جميلة حيث يقول:

نحن نمشي وحولنا هاته الأكوا ... ن تمشي لكن لأيةِ غايَهْ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس ... وهذا الربيع ينفخ نايَهْ؟
نحن نتلو رواية الكون للمو ... ت ولكن ماذا ختام الروايَهْ؟
هكذا قلتُ للرياح فقالت: ... سلْ ضمير الوجود كيف البدايهْ؟

ثم يقول عن آماله المبعثرة في أباديد الحياة، ويتساءل عن جده المنكود، ويذكر أيامه وهو في صحوة الصبا لم تطحنه الأيام ولم تنل من جسده الأرزاء فيقول عن قبره:

هاتِهِ فالظلام حولي كثيفٌ ... وضبابُ الأسى منيخٌ عليّا
وكؤوسُ الغرام أترعها الفجرُ ... ولكن تحطمت في يديّا
والشبابُ الغريرُ ولّى إلى الما ... ضي وخلّى النحيبَ في شفتيّا
هاتهِ يا فؤاد! إنّا غريبا ... ن نصوغ الحياة فنّاً شجيّا
قد رتعنا مع الحياة طويلاً ... وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالي حفاةً ... في شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا ... وشربنا الدموع حتى روينا
ثم ماذا؟ هذا أنا صرت في الد ... نيا بعيداً عن لهوها وغناها
في ظلام الفناء أدفنُ أيّا ... مي ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوي بصمتٍ ... محزنٍ مضجرٍ على قدميّا
جفّ سحر الحياة يا قلبيَ البا ... كي.... فهيّا نجرّب الموت هيّا!

ولست أعلق على هذه القصيدة أكثر من أن أقول إن ما فيها من تفكير قلّ أن يتاح إلا للنادر، وهي تطلعنا على ناحية من نواحيه النفسية ليس المجال هنا لشرحها وهو فيها أيضاً فيلسوف يبكي حظ الإنسان، ومن القصائد النادرة التي تمثّل لنا هذا النوع قصيدة تسمى «مشعلة النوتي أو الروح الذابلة» سنتكلم عنها في حينها نرى فيها الشبه الكبير بينها وبين قصيدة الشابي.

* * *

ولأبي القاسم الشابي ولع شديد بالطبيعة، فهو يستغلها استغلالاً كلياً وجزئياً في قصائده الرائعة، وأن مُطالِعَ شعره ليرَى صورة باسمةً من بلاده كما صوّرها في شعره الفنان، ولا يفوته أن يستشهد بالطبيعة في ثنايا كثير من أشعاره، وقد يقف موقف الخشوع أمام مظاهر الطبيعة القوية ولكنها

وقفة الجبار المنهزم الأسير، وهو في هذا الضرب يأتي لنا بمعانٍ نادرة قد تستعصي على كثيرين، وإن كنا نلمح فيها الرمزية واضحة. وإن أعجب فعجبي لهذا الشاب الذي يقف أمام الليل، وتداخله الحيرة والعجب والخشوع والاطمئنان، ويشعر باللذة والألم، ويجيل بصره أمام هذا الجبار العنيد كأنه لغز القرون لا تعرف له سرّاً فيقول:

أيها الليلُ يا أبا البؤس والهو ... لِ ويا هيكل الزمان الرحيبِ
فيك تجثو عرائس الأمل العذ ... ب تصلّي بصوتها المحبوبِ
فيثير النشيد ذكرى حياةٍ ... حجبتها غيوم دهر كئيبِ
أنت يا ليلُ ذرة صعدت للكو ... نِ من موطىء الجحيم الغضوبِ
فيك تنمو زنابق الحلم العذ ... ب وتذوي لدى لهيب الخطوبِ
يهجع الكونُ في طمأنينة العصفو ... ر طفلاً بصدرك الغربيبِ[1]

وقد يظهر لنا في مسوح الفيلسوف الناسك الذي خبر الحياة عن قرب فوضح له المبهم منها على الآخرين، وافترع سرّها ولمس ما فيها من أذى وألم، ولا تفوته الحكمة الرائعة يستمدها من صميم نفسه ووجدانه حين يقول:

لا يغرنّك ابتسامُ بني الأر ... ض فخلف الشعاع لذع اللهيبِ
لا تحاول أن تنكر الشجو، إني ... قد خبرت الحياة خبر اللبيبِ
كن كما شاءت السماء كئيباً ... أيّ شيء يسر نفسَ الأريبِ؟!
أنفوسٌ تموت شاخصةً للـ ... ـهول في ظلمةِ القنوط العصيبِ؟!

وقد يثير شاعريته مَرأى المساء وسكونه، فإذا بروحه تحلّق في عالم غير هذا العالم الأرضي وترتفع عن مادية الحياة، ويظل فكره هكذا منساباً في أودية الخيال تحمله على أجنحتها ملائكةُ الشعر إلى مجاهل بعيدة عن عالمنا هذا، فنراه يصوّر كل هذا بريشته السحرية أبدع تصوير، وكأن هذا البيت المفرد الذي نسوقه أروع قصيدة تخلق في ذهن سامعها عالماً آخر إذ يقول:

(1) قارن بين هذه القصيدة وبين قصيدة الشاعر شلي «Night».

مـا سكـونُ المسـاء إلا أنيـنٌ ونشيـدُ الصبـاح غيـرُ نحيـبِ

عجباً!.... كيف يتأتى لشاب هكذا ما زال في فجر شبابه أن يرى هذه الصورة العابسة المتجهمة للحياة؟ ترى ماذا يكون حاله لو مدّ الله في حياته إلى سن الشيخوخة؟ كل ما نظنه هو أنه لو عاش لغنى لنا على قيثارته السحرية أبدع ألحانٍ يترنم بسحرها الوجود، ويطمئن إلى أنغامها الحزين، ولا عجب فلهيب احتراق الشاعر هو شعلة الخلود، غير أنه يصوِّر لنا حزنه الأليم في بيتين:

يـا لقلـب تجـرّع اللـوعـةَ المـرَّ ةَ من جدولِ الزمانِ الرهيب
ومضت في صميمه شعلةُ الحز نِ فغشّتـهُ مـن شعـاعِ اللهيـبِ

ويقول في قصيدة أسماها «الملل الأليم»:

سئمـتُ الليـالـي وأوجـاعهـا وما شعشعت من رحيقٍ وصابْ
فـأيـن الأمـانـي وألحـانهـا وأين الكؤوس وأين الشرابْ؟
لقـد سحقتهـا أكـفُّ الظـلام وقـد رشفتهـا شفـاهُ السـرابْ!

ولم ينس أن يبثّ شكواه من دائه العضال الذي استحكم فيه في كثير من قصائده وكيف لا يشكو وكيف لا يتألم وهو يرى المرض يصارعه ويسير به سريعاً إلى ظلام الفناء؟ فكان يتشبث بالحياة ويودّ لو يرتشف كأسه منها كما يرتشف غيره ممن هم في مثل عمره، ونراه يشكو إلى الشعر هذه العلة التي أودت به وما يلاقيه في مجاهل الزمن من أشواك تقطع نياط قلبه وتخترق شغافه فتنساب قطرات دمه الحار في نهر الحياة شعراً رائقاً عذباً سائغ المورد فيقول:

يا شعرُ: قلبي مثلما تدري شقيٌّ مظلمُ
فيه الجراحُ النجلُ يقطر مِن مغاورها الدمُ
جمدتْ على شفتيه أرزاءُ الحياة العابسة
فهو التعيسُ به مراراتُ القلوبِ البائسة

أبداً ينوح بحرقةٍ بين الأماني الهاوية
كالبلبل الغرِّيدِ ما بين الزهور الذاوية!

ويخاطب قلبه أن يتجلّد فما نال لذّات الحياة إلا الجسور، ويهدّىءُ من روعه المضطرب ويطمئنه علّه يكفّ عن صراخه وعويله فيهتف به:

يا قلبُ! لا تسخط على الأيام فالزهرُ البديعْ
يُصغي لضجّاتِ العواصفِ قبل أنغام الربيعْ
يا قلب! لا تقنع بشوك اليأس من بين الزهورْ
فوراء آلام الحياةِ عذوبةُ الأمل الجسورْ!

* * *

وللشابي قصيدة نظمها وقد ذهب مستشفياً في بلدة تدعى (عين دراهم) خلدها في شعره وهو يصوّر فيها نفسه بين شياهه وخرافه وأسراب الطيور فوق الأفنان تلقي ألحان الهوى ويلقن بعضها بعضاً أناشيد الحياة السعيدة. في هذه البلدة قضى الشاعر عهداً «شعرياً وديعاً خالصاً» للشعر والأحلام حيث الطبيعة العذراء والغابات الملتفة الهائلة والجبال الشمّ المجللة بالسنديان فيقول:

قد أفاق العالمُ الحيُّ، وغنى للحياهْ
فأفيقي يا خِرافي وهلمِّي يا شياهْ
واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيورْ
واملأي الوادي ثغاءً ومراحاً وحبورْ
واسمعي همس السواقي وانشقي عطر الزهورْ
وانظري الوادي: يغشيه الضباب المستنيرْ
واقطفي من كلأ الأرض ومَرْعاها الجديدْ
واسمعي شبّابتي تشدو بمعسول النشيدْ
نغمٌ يصعد مِن قلبي كأنفاسِ الورودْ
ثم يسمو طائراً كالبلبل الشاديَ السعيدْ!

فهو في هذه الأبيات السالفة يعرض عليها صورة مستحبة من صور الطبيعة الفاتنة وقد أخذت الأرض زخرفها وازَّينت، والفجر قد انبثق عموده وغشي الوادي ذلك الضباب الرائع وما إخاله إلا قصيدة ملموسة من صور الطبيعة ومما افتنَّ فيه أبوالقاسم افتناناً يجعلنا نقف معجبين بهذه العبقرية الرائعة. وصف العشب بأنه:

أرضعته الشمسُ بالضوءِ وغذّاهُ القمرْ[1]
وارتوى من قطرات الطلِّ في وقتِ السحَرْ

ولكن هذه النغمة الحزينة التي لمسناها واضحة وعرفنا السر فيها لا تلبث أن تتخذ لها مكاناً في شعره حين يختم قصيدته قائلاً:

لن تملّي يا خرافي في حمى الغابِ الظليلْ
فزمانُ الغاب طفلٌ لاعبٌ عذبٌ جميلْ
وزمانُ الناس شيخٌ عابسُ الوجهِ ثقيلْ
يتمشَّى في ملالٍ فوق هاتيك السهولْ
لك في الغابات مرعايَ ومسعايَ الجميلْ
وليَ الإنشادُ والعزفُ إلىٰ وقتِ الأصيلْ
فإذا طالت ظلالُ الكلأ الغضِّ الضّئيلْ
فهلمّي نرجع المسعى إلى الحيّ النبيلْ!

وبعد، فهذه كلمة صغيرة ألممنا فيها إجمالاً بعبقرية ذلك الشاب الذي فقده الشعر العربي وقد كان يؤمل منه أن يزيده زيادة عظيمة تتمثل فيها روعة المعنى وإبداع التفكير مع فلسفة قوية وعدم الاكتفاء بالنظرة السطحية

---

(1) في هذين البيتين معنى رائع قلَّ أن يتسنى إلا للشاعر المفلق، وقديماً أعجب النقاد بقولي شيلي:

A Sensitive Plant in a garden grew
And the young winds fed it with selver dew
And it opened its fan-like leaves for the light
And closed them beneath the kisses of night.

ولا حاجة بنا للتعليق فالشبه قوي، وفي هذا دليل على عبقرية فقيد تونس.

بل كان يتعمق فيما يراه ويحسه وأن له في شعره تراكيب تخلق أمام القارىء صوراً فتانة تدهش المطالع.

وإذا كان من الواجب أن نلم بحياة الشاعر حتى يكون التأريخ حقاً فمن الأسف أن ليس تحت أيدينا ما نستمدّ منه صورة حقيقية أو أقرب إلى الحقيقة بالنسبة إلى أبي القاسم، وقد طالعنا حديثاً في مجلة (الرسالة) مقالاً بعث به الأديب التونسي حسن سياله أشار فيها إلى أن أبا القاسم إنما كان يكثر من قراءة كتابات جبران خليل جبران النثرية، وكذلك جاء في الكتاب الآنف الذكر (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر) ففيه معلومات شائقة يمكن للقارىء أن يكوّن منها صورة ولو أنها صغيرة إلا أنها تطلعُ القارىء على جانب من حياة أبي القاسم.

وفي هذا الكتاب نفسه يقول مؤلفه إن أبا القاسم كانت له طريقتان في نظم الشعر: أما الأولى فحين يحاكي القدامى وينهج على مناهجهم، فيأتي قصيده على رويٍّ واحد وقافية واحدة، كما يأتي بالكلام العربي الفصيح، أما حين ينطلق من إسار التقليد فهو يشدو أغاني مستعذبة تحسّ فيها بصدى الروح الهائمة في جنان الخيال، وفراديس الحسن والجمال، ومما يطمئن نفس القارىء أن النوع الأول من شعر أبي القاسم قليل نادر، وأكثره ما كان يطلق فيه نفسه على سجيتها دون قيد فيغني للحب والجمال والحرية، ويحلق في أودية عميقة كلها سحر وفتنة، وروعة وعظمة.

ومهما يكن من أمر الشعر في العصر الحديث، فلا شك أنه بدأ يتخذ وجهة تخالف الوجهة السابقة التي درج عليها معظم الشعر العربي في كثير من عصوره الماضية، كما بدأ يتحرر من القيود الصناعية واللفظية، ولم يبال بصرخات الفزع وصيحات الاضطراب المحمومة التي أرسلها أصحابها أنصار التقليد ليقيدوا من حدة الشباب الثائر وليكبلوه بأغلال أبى أن يظل مقيداً بها فثار عليها محطماً إياها، ورأينا صوراً فتانة في الشعر العربي الجديد، سواء في مصر أو سوريا أو العراق أو سنغافورة أو تونس، وكان

لأدباء المهجر الأمريكي في ذلك يد لا تجحد آثارها، فها نحن ذا نلمس في أشعارهم روح الفن متجلية في كتاباتهم النثرية والشعرية على السواء، وها هي ذي آثار جبران وكتابات الريحاني وإيليا أبي ماضي وميخائيل نعيمة والياس قنصل كلها تشهد بما عليه أولئك الأدباء والشعراء من نفس أبت إلا أن تبثَّ في الشعر العربي روح الفن قوية، فاتجهت آثارهم اتجاهاً يخالف من عارضوهم بل هم ابتدأوا من حيث انتهى غيرهم فلا عجب إذا وجدنا في أبي القاسم هذه الروح الكريمة التي نحييها في شعره وذلك لتأثره بأدبهم.

أجل... إن الشعر شعر في كل عصر ومصر، وليس في الشعر ما يسيء إلى نهضته إلا ذلك التقليد الأعمى في المعاني ولو اقتصر الحال على الألفاظ لكان في ذلك جدوى وبعض نفع ولكن الأمر تعدى ذلك إلى الإعارة على الأخيلة القديمة ونسجها في كلمات موزونة مقفاة، ولا شك أن هذا يرجع بطبيعة الحال إلى ضعف ملكة الابتكار وضحولة التفكير الشخصي، والزمن يتطور والإنسان تابع للعصر الذي هو يعيش فيه، فما دامت الحال هكذا وجب أن يشمله هو الآخر هذا التطور وأن يساهم فيه بنصيب ولو قليل، حتى يتسنى له أن يساير الحركات الفكرية التي يتأثر بها الأدب، والتي تختلف باختلاف العصور والأزمنة وطبيعة الشاعر ومؤهلاته العلمية والأدبية بل والبيئة التي يحيا في ظلها لأنها تؤثر فيه تأثيراً ملموساً، لا يمكن لأي شخص أن يتجاهله أو يتناساه.

كان أبو القاسم من ذلك الفريق الذي أبى أن يظل أسير ألفاظٍ وعبد تقليد، فلم يعبأ بكل ما لاقاه من جحود فضله، وثار على هذه المنظومات الرديئة، وحاول أن يحلّق في سماء الفكر العميق فكان له ما أراد، وكانت له من ذلك ذخيرة أدبية ثمينة نلمس بعضاً منها فيما تحت أيدينا من شعره القوي، وإذا كان الرجعيون يعدونه ثائراً فما ذلك إلاّ لأنه أطلق نفسه من القيود الغثة وأرسلها على سجيتها.

قد يسبق الشاعر جيله، فينكر عليه مواهبه، ويحاول أن يحطم

عواطفه، ويرسل عليه الشتائم غير مدقق التفكير، ولو أنه نظر إليه نظرة مجرَّدة عن العوامل الشخصية لرأى تحتَ هذا الرّماد ناراً تتأجج، وجمراً يتقد، وعواطف ملتهبة، ونفساً شاعرة، وإحساساً قوياً، وروحاً تسمو عن معالم هذا الوجود المادي، وتعبر الحياةَ إلى وادي الخيال، فترى بين عقلها الباطن ما يستحيل على النظرة المجرّدة السطحية أن تلمسه أو تشاهده. وفي القرن الماضي أنكر البعض على شلي عبقريته، وحارب فنّ كيتس، بل رأينا بن جونسون يقف موقف العداء إزاء أشعار توماس جراي، وما كتبه في كتابه عن (حياة جراي) إنما هو صورة للحقد المتغلغل في النفس، كما أنكر عليه قوة إبداعه في مرثيته التي كتبها في فناءِ بسهامها الدامية، وتحطم على صخرة الحقيقة والمرض آماله الذهبية المجنحة، وتبعثر هذه الرغبات فإذا هي ذرات تحملها الريح، ويلقى بها في جميع الجهات، ولكنها تلتقي وتتحد ولكن أين؟ في شعره وألحانه التي كتب لها الخلود.

ثم ماذا نرى في الشاعر؟ أتريده أن يكون بوقاً يردّد ما يقوله رجل الشارع، وهو المكلف برسالة سامية جليلة، أم تريده أن يكون ظلاًّ ينظم ما يريده الغير؟ كلا ولكن الشاعر حرّ فيما يكتب وينظم وليس لأحد أن يقيده بوقت أو مكان بل هو كالكروان أو البلبل أو العصفور فحيثما راقته الطبيعة كان، وأينما أثارت نفسه المرائي حنّ لها فغرَّد، ورسالة الشاعر تتألفُ من ثلاث: الحب والجمال والحرية، وإن كان هازلت يقول: إنّ أبوي الشاعر الحب والجمال، فما ذلك إلا لأن أحدهما أو كليهما لا يتحقق إلا بالحرية، أو إن شئت فقل لا تكون الحرية إلا حيث الحق والجمال.

وأين تجد الحق أو الحرية أو الجمال أو الحب؟ وأين تجدها جميعاً؟.

في الطبيعة والمرأة!.

نعم ففي كليهما وحي ينبثق ويوحي إلى الشاعر أغاني الخلود وترانيم الأبدية التي ترنّ في مسمع الدّهر فيخشع لوقعها ويخرّ ساجداً لجلالها،

وهذه هي الطبيعة التي صوّرها الشاعر السوري عمر أبو ريشة في قصيدته في رثاء حافظ إبراهيم حين يقول:

وُلِدَ الشـاعـر العظيـمُ مـلاكـاً أودع الـوحـيُ قبلـةً فوْقَ ثغرهْ
وسَعَـتْ أمُّـه الطبيعـة تَغْـذُو هُ وتلقي سرَّ الخلودِ بصدرهْ
ورمـى الحـبّ قلبـه بنبـالٍ فجرت حولها مَنابعُ شعرهْ
فسـرى شعـره صـدّى لهـواه صادقاً تلمس الشباب بوقْرهْ
ومشـى فـي الحيـاة يقـرأ فيهـا أسطـراً لـم تكـن تلـوح لغيـرهْ

فالطبيعة مورد للشاعر لا ينضب معينه، ومن هذا الذي ينكر أثرها الواضح في شعر وردسورث حتى إنّ النقاد سمّوه «شاعر الطبيعة»، بل وهذا أثرها في ابن حمديس وابن خفاجه وأبي الطيب المتنبي، وكيف يتجاهل الشاعر الطبيعة وهي تلك الأم الرؤوم التي تحتضنه وتسرّ إليه معاني الخلد، وترضعه لبان الهوى، فالطبيعة بصورها الجذّابة تلهم الشاعر وتكشف له أستارها، فيلج بابها فإذا عالم لا يفنى كتب الخلد لمن يعبره. وبواسطتها يتسنى للشاعر أن يجلو خبايا النفس ويفصح عن طبيعة الوجود، ويطالع خفايا هذا العالم الذي يجري ولا ندري مبتداه من منتهاه، ويجد في كنفها بواعث الشاعرية التي تجعلها تتدفّق في غير حدّ، وتأبى أن تقف في مكان خاص، ويستطيع الشاعر الملهم حينذاك أن يصوغ ما رأى في صورة مادية ملموسة تظهر أثر الطبيعة.

وهنا تتشعّب نظرة الشعراء إليها شعبتين، والفارق بينهما جسيم وله خطورته، فهما وإن كانا يبدآن من نقطة واحدة إلا أن كلاًّ منهما ينساق في تيار يخالف التيار الآخر كل المخالفة، ذلك أن الفطرة الأولى التي تصوّر لك الطبيعة صورة فطرية فتذكر لك هذا الزرع الأخضر والكلأ الغضّ والأوراق الذابلة، وتعطيك صورة «فوتوغرافية» غير منقوصة أو مبتورة للمشهد الذي تراه، أما النظرة الأخرى فهي نظرة جديرة بالتمعن والتفكير، وجديرة بالبحث والتنقيب على بعض أسرارها، ذلك أنها نظرة تأبى أن تقف

عند النظر الخارجي بل تحاول أن تستشفّ ما وراء هذا، وتتغلغل في ثنايا ما ترى تغلغلاً يمكنها من أن تطلع على العالم بمشهد رائع مبتكر غير معروف، ومن شعراء هذا الفريق الشاعر الإنكليزي وردسورث فهو في إحدى قصائده المسماة «الشاعر والطبيعة». يقول: «أيهذا الطلل الدارس، لقد كنت أسكن قربك غابراً، ومكثت قريباً منك أربعة أسابيع في الصيف، ويا طالما رأيت شبحك قد انعكس على أديم المياه الهادئة التي حاكت المرآة والسماء صاحية والنسيم رخاء، والأيام بهجة في صفحة الزمن. لقد كنت أبغي أن أكون رسامك لأصوّر ما شاهدته فيك من أنواري الفضية. أيهذا الطلل لشدّ ما أبغي أن أقيمك وسط كون يباين كوننا هذا في ظل خضمٌ بسام. آه يا بومنت يا أخي وحبيبي! ها أنذا أبكيك وأعنّف البحر الثائر والشطوط المحلولكة والجارية التليدة وسط الأمواج الهدّارة تحت قبة السماء الصاخبة»[1].

فأنت ترى من هذا أن الشاعر الانكليزي لم يقف عند وصف الصورة السطحية للبحر أو تصوير منظر السفينة وإنما يستوحي من كل هذا صورة جديدة التركيب، ويتغلغل في تبيان عواطفه ويحللها تحليلاً جميلاً يأخذ بزمام النفس، ويتلاعب بالشعور والوجدان. وكذلك نرى هذا في شعر أبي القاسم، وقصيدته «من أغاني الرعاة» تظهر لقارئها أي عبقرية تنطوي تحت هذا الجسد المتهدم، وقد أظهرنا شديد الصلة بينه وبين شلي في هذه القصيدة وقصيدته عن «النبات الحساس». وليرجع من شاء إلى آثار أبي القاسم فكلها تفيض بهذا النوع من التحليل العميق الممزوج بالفلسفة وإن كان الحزن في كثير من الأحيان طابع الشاعر فذلك لما هيأته له الطبيعة نفسها من آلام، والتي ينسى في حضنها آلامه وجراحه، ويستقبل الحياة مبتسماً هاشاً لها طروباً محيياً إياها في شعره القويّ الرصين، وإنه لمن الحق الذي لا مراء فيه أن الإنسان ينسى متاعبه وآلامه النفسية حينما يفزع إلى

---

(1) كتب وردسورث هذه القصيدة الرائعة وقد شاهد صورة القلعة التي أبدعتها ريشة صديقه الفنان Beaument الذي ذكره في سياق القصيدة.

الطبيعة فيجد فيها موئلاً يقيه آلام الحياة، وينسيه متاعبها ويذهب عنه ما يحطم أعصابه المرهفة، وهنا يجد الشاعر المجال أمامه متسعاً لأن يصوّر بريشته ما يجيش في نفسه وما يحسّ به. وقد نفرد لذلك مقالاً خاصاً نتناول فيه شعراء الطبيعة ونقارن بينهم لنعرف إلى أي مدى أمكنها أن تؤثر فيهم، ولا شك أن لشاعرنا العبقريّ أبي القاسم شعراً يتناول مظاهر الطبيعة ولكن للأسف ليس في استطاعتنا أن نبحث فيه لأنه ليس لدينا، وربما سهل ذلك على الناقد الأدبي حينما يفزع إلى قلمه ليكتب عن شعره إذا ما وجد شعره كاملاً بين ثنايا ديوان يحمل اسمه وحينئذاك يتسنى لنا أن تكون هذه الأحكام أقرب إلى الحقيقة مما هي عليه الآن.

ومما امتاز به أبو القاسم وحدة القصيد، ومُطالع شعره يلمس ذلك فيرى أن القصيدة كلها متحدة الأجزاء قوية التركيب ثابتة الدعائم، فلا تحسّ في أبياتها نفوراً أو في معانيها تشتتاً، وذلك أمر يتطلب في القصيدة.

وعلى أية حال فإن العالم العربي لن يرى تلك الثغرة التي خلفها موت أبي القاسم، ولن يلمس أثره واضحاً، إلا حين يطلع على ديوان شعره كاملاً غير منقوص، ونرجو أن يكون ذلك عن قريب ليرى أدعياءُ التقليد والقدامى أية روعة في التجديد، وليحسّوا بتلك الشعلة الخفاقة في سماء الشعر والتي كتب لها الخلود وإلى روح أبي القاسم تحيات الإجلال[1].

---

(1) مجلة «ابوللو» س 3 ع ديسمبر 1934.

فن الشابي

نظمي خليل

«هيا يا رعاة ! هيّا ! سيطلع القمر عما قليل وسيغمر نوره الكون وسنهتدي إلى أدونيس» ـ قالت فينوس هذا بينما كانت تتسلق شعاب الجبال الصامتة في جهد عظيم ـ «إنه ظلام حالك أيتها الآلهة المحبوبة، لقد دميت أقدامنا من الصخر، وكلت أجسامنا من السير، فلا نستطيع بعد الآن تقدّماً».

كان طريقهم وسط الجبال قد احتجب عنهم القمر ولفهم الظلام فأصبحوا يضطربون في سيرهم كأنهم أشباح الليل أو شياطين الدجى، قد هبّت من نوحها، تسرح في عالمها المظلم الكريه.

«هيا يا رعاة هيا سيطلع علينا القمر عما قليل وسنهتدي إلى أدونيس!» ـ قالت هذا فينوس وقد كادت تلفظ آخر أنفاسها من التعب ولكنها صبرتْ وجالدتْ وسارت في طريقها، والرعاة يتبعونها صامتين كالظلال.

كان الطريق مقفراً حزيناً يبعث الرعب والهلع وكان الظلام يزيد في رهبته وهوله فكان كلّ شيء ملائماً لوحدتهم وحزنهم ثم طلع عليهم القمر بلون شاحب كأنه الواجم الحزين الذي فقد حبيبته وأرسل عليهم أشعة حزينة باردة زادت أحزانهم عمقاً.

كان كل شيء ساكناً فكأن الطبيعة القوية الصخابة قد ماتت في هذه البقعة الرهيبة، وكأن هذا الوادي هو وادي ظلال الموت قد حرم حتى أرواح الأموات ترفرف في سمائه.

استلقى الرعاة على الرمال وظلت فينوس تدير عينيها فيما وراء الجبال، علها تستكشف أدونيسها العزيز، وظلوا هكذا مغمورين بأنوار القمر صامتين، كأن رهبة الطبيعة قد استلت منهم الأرواح وتركتهم أجساماً لا تقوى على الحراك، ثم ما لبثوا أن قاموا يقتلعون أرجلهم اقتلاعاً وفينوس تتقدّمهم حتى وصلوا أخيراً إلى «مقبرة شاعر قد شيّدتْ في غير أوانها لم تبنها أيد بشرية في حنان أو إجلال ولكن بنتها رياح الخريف بما حملته من أعشاب تجمعت فوق عظامه النخرة هرماً وسط البرية الموحشة. لقد عاش ومات وصدح في وحدته، لقد تاق الغرباء لأن يسمعوا نبرات صوته العذبة. لقد مضى قوياً مجهولاً، وكم تاق أناسٌ وتألموا غراماً لرؤية عينيه الفطريتين الساذجتين. إن ينابيع الفلسفة لم تبرح شفتيه الظامئتين لقد شعر وعرف كل أسرار الماضي والحاضر.

فلتبكوا يا رعاة فقد هبت العاصفة واقتلعت الشجرة وأسكت الموت شاعركم الوحيد!.

فلتبكي يا خراف من كان يجيب تناديك!.

فلتبكي يا طيور من كان يفصح عن أغانيك!.

ولتصمتي يا رياح، ولتقف يا نسيم فقد مات من كان يردد صداك!.

أيتها الطبيعة في الجبال والأودية، في البحار والغابات، في الليل والشفق، في النجوم والكواكب، فلتبكِ لسانك الذي ينطق به وقلبك الذي كان يخفق بحبك لقد جف ينبوغ حياتي وكان قوياً جارفاً.

أيا بنات الوادي فلتبكين بلبلكن الذي كان يشجيكن بأعذب الألحان وحبيبكن الذي كان يسكركنّ بصوته الحنون».

أجاب صوت من وراء الجبال: «إن أدونيس لم يمت ولكنه حي في السماء، إنه لم يمت ولكنه ترك عالمنا الشرير ورغب في عالم المجد الإلهي حيث ينشد هناك أناشيد الخلود بجانب عرش الإله السامي وحيث قلبه لن يبرد وشعر رأسه لن يخطه المشيب».

* * *

كل إنسان له في هذا العالم رسالة يؤديها ورسالة الشاعر هي أسمى أنواع الرسالات فهي رسالة العالم الأسمى للعالم الأرضي وما الشاعر إلا رسول أمين يحمل هذه الرسالة فهو الشخص الوحيد الذي يتصل بالعالمين عالم السماء بروحه وإحساسه وعالم الأرض بجسمه ومادته، فما رسالة الشابي إذن؟ ما الموضوع الذي اتخذه مادة لشعره أو بمعنى آخر بماذا نسمي الشابي؟ أنسميه شاعر الأودية والرعاة أم شاعر الأزهار والورود أم شاعر الحب والجمال أم شاعر الطبيعة والشباب؟! إني لا إخال هذه الكلمات إلا مدلولات لشيء واحد هو القلب، فما الأزهار والورود وما الطبيعة وأوديتها وما الحب ولذائذه؟ إلا انعكاسات وأصداء ترنّ بين جوانب القلب الإنساني فالعالم كله قلب وقلب الإنسان هو قلب هذا العالم. قلب هذا العالم الأكبر الذي فيه تجمّع ومحور هذا الكون العظيم قلب الإنسان هو عرش الإله الذي بناه لنفسه يتربعه كلما نزل من عالمه السامي إلى عالم الناس.

ما رسالة الشابي إذن؟ إني أميل إلى الاعتقاد بأن رسالة الشابي هي رسالة القلب الإنساني إلى عالمنا الإنساني، ولكني أحس بشيء من القلق وعدم الاستقرار لهذا الاعتقاد فإني أكاد لا أظفر برسالة كاملة مفصلة لهذا الشاعر الشاب. أنا لا أنكر سحر روحه وعظم تأثيرها وموسيقى أشعاره وما فيها من قوة وحركة، لا أنكر تلك القوة الكامنة والشاعرية الخصبة الدفقة في ذلك العقل العبقري الشاب ولكن الموت لم يمهله حتى يستكمل نضجه فهو ينظر إلى الطبيعة في ظاهرها ولا يتعب كثيراً في النفاذ إلى قلبها، ويلمس الطبيعة بحسه ومشاعره ولا يصل إليها بعقله وفكره، هو شاعر يحس وليس فيلسوفاً يفكر، لذلك نسمع أصداء الطبيعة ترن في شعره ونلمس آثارها تغمر ألفاظه ونعجب لتلك الجدة والعذوبة والموسيقى التي تفيض على شعره.

الشابي شاعر من طراز روسو وبيرون وشاتو بريان يرى الطبيعة مأوى

ومسكناً لروحه ومشاعره التي تأذت وتألمت. فإذا تغنى بالطبيعة فإنما يتغنى بمظاهرها العامة: بجبالها وأوديتها وأشجارها وأزهارها، وهو إذا قدّس الطبيعة فإنما يقدس فيها هذا الجانب الذي كنى عنه روسو «بجمال المقفرة الخالية وسحرها»، وهو إذا أوى إلى أحضان الطبيعة إنما يفعل هذا زهداً في دنيا الإنسان وهروباً بمشاعره من أن تصطدم بحياة اليوم العادي:

ما لنا والكؤوس نطلب منها — نشـوة والغـرام سحـر وسكـرُ
خلّنـا منـك فـالـربيـع لنـا سـا — قِ وهذا الفضاء كأس وخمرُ
نحن نغدو بين المروج ونعدو — ونغنـي مـع النسيـم المغنـي
ونناجي روح الطبيعة في الكو — ن ونصغـي لكـونهـا المتغنـي

الشابي شاعر كبيرون يلجأ إلى الطبيعة كراهية وبغضاً للإنسان فكما أن بيرون يجد في الجبال غذاءً لشعوره وفي رؤية المدن وسماع ضجيجها أذى لسمعه وبصره كذلك يشير الشابي إلى ما في الطبيعة الصامتة من جمال وسحر إذ يقول:

لـن تملّـي يـا خـرافـي — فـي حمـى الغـابِ الظليـلْ
فـزمـان الغـاب طفـل — لاعـب عـذب جميـلْ
و زمـان النـاس شيـخ — عـابـس الـوجـه ثقيـلْ
يتمشّـى فـي مـلالٍ — فـوق هـاتيـك السهـولْ

فالشابي يضيق بالناس وهو إن ماشاهم كان كارهاً وإن خالطهم كان حذراً ينظر إليهم نظرة ريب وشك، وهذا شعور يصاحب كلّ إنسان صُدِم في أمانيه سواءً كان في حب أو حظ أو شهرة، وغالباً ما يلازم هذا الشعور الشبان الذين يخرجون إلى الحياة مفعمين آمالاً فلا يكادون يخطون الخطوة الأولى حتى يصدمهم الواقع فيرجعوا ساخطين متبرمين والقويّ منهم من صمد في الميدان:

فـي شعـاب الـزمـان والمـوت أمشـي — تحـت عـبء الحيـاة جـمِّ القيـودِ
وأمـاشـي الـورى ونفسـي كـالقبـر — وقلبـي كـالعـالـم المهـدودِ

ظلمــــة مـــالهـــا ختـــامٌ وهـــولٌ شـــائـع فـي سكــوتهـــا الممــدودِ
وإذا مـــا استخفنـــي عبـــثُ النّـــا س تبسَّمْـــتُ فـــي أسَـــى وجمــودِ
بسمـــــة مـــــرة كـــأنـــيَ أستـــلُّ مـــن الشـــوك ذابـــلات الـــورودِ

هذا الشعور بالألم النفسي والضيق بالحياة والناس، وهذا المنظار الأسود الذي يرى من خلاله الشابي الحياة هو بعينه الذي لازم بيرون طول حياته، ولا أستطيع التكهّن لو امتدّ بالشابي أجله: أكان يستبدل بالمنظار الأسود منظاراً أبيض شفافاً يريه العالم على حقيقته ويوقفه على ما فيه من جمال أم كان يحتفظ بمنظاره الأسود أو يستبدله بآخر أشدّ سواداً. هذا أمر ليس إلى الحكم عليه من سبيل فقد فصل الموت بيننا وبين الشابي وبين الشابي وبين الحياة فحال بيننا وبين الانتظار، فعلينا الآن إذن أن نبحث عن سبب هذه الكراهية وهذا الضيق الذي استولى على هذا الشاعر الشاب حتى جعله يسخط على الحياة بمثل هذا السخط المرير. أكبر الظنّ أن هذه الحدّة في المزاج، وهذه الحدّة في الشعر، وهذه الحدّة في تلك الصيغة التي صبّ فيها هذا الشعور، هذه الحدة التي غمرت هذا الشاعر طوال حياته القصيرة مرجعها التكوين الفسيولوجي، فكلنا يعرف أن الرجل المريض الجسم غالباً ما يكون مريض الأعصاب فيثور لأقل شيء ويحتدّ لأتفه الأمور، وقد يكون هذا المرض أو النقص الطبيعي في الشخص سبباً في أن يجعله يضيق بالحياة بل ويكرهها. وهذا الشعور نفسه هو الذي لازم بيرون وكاد يفقده عقله في بعض الأوقات، فالمرض أو النقص الطبيعي ثم الإحساس بهذا النقص أو الشعور والتفكير في ذاك المرض هما اللذان يتسلطان على الإنسان وهما يستطيعان أن يخلقا من الهادىء الرزين إنساناً ثائراً متمرّداً. هذه الثورة وهذا التمرّد قد يظهران في القول كما يظهران في العمل، وقد يصل هذا الشعور بالشخص لا سيما إذا كان ضعيف الإرادة إلى الجنون. هذه الحالة النفسية تجدها ظاهرة في بيرون الذي كان نقص أحد قدميه ثم شعوره بهذا النقص مصدر كثير من الشقاء والألم له، هذا الشعور بالنقص هو الذي جعله يصرخ حانقاً: «إذا ابتسمت لشيء فهو لكي لا أبكي، لقد

سرت في طريق للحياة حالك قذر، وسلخت من العمر ثلاثاً وثلاثين فماذا أبقت لي هذه السنون؟ لا شيء غير ثلاث سنين». هذه الأبيات هي جماع فلسفة رجل قد استنزف كل مسرّات الحياة حتى وصل إلى قرارة راسبها الشديد المرارة.

ولقد كان الشابي مصدوراً وكان يشعر بصدره دائماً يعمل فيه هذا المرض القتال فليس غريباً أن يضيق الشابي بالناس وليس غريباً أن يتبرّم بالحياة بل ليس كثيراً على شاعر غزير الإحساس يشعر في قرارة نفسه بمصابه ويفكر فيها دائماً، ليس كثيراً على شاعر وهب شاعرية خصبة كالشابي يرقب أفول نجمه شيئاً فشيئاً كلما تمكّن منه الداء، ألاّ يرى في الحياة إلا الجانب الأسود منها وأن يقول:

فـافهمي النـاس إنمـا النـاس خلـق مفسـد فـي الـوجـود غيـر رشيـد
والسعيـد السعيـد مـن عـاش كـالليـل غـريبـاً فـي أهـل هـذا الـوجـود

قلت إنّ الشابي كبيرون وروس مفتون بمظاهر الطبيعة الخلابة كالجبال والأودية والمراعي ولكنه لم يصل إلى قلب الطبيعة العميق بل استقر على سطحها كالغريب الآيب من سفر طويل لا يكاد يجتاز عتبة داره حتى يلقي بحمله وبنفسه. فالشابي قد تأذى كثيراً من الإنسان وقد أصيب في أعز شيء لديه وهو قلبه موطن إحساسه وشعوره فهو لا يكاد يترك دنيا الإنسان ويصل إلى رحاب الطبيعة حتى يكون السفر قد أضناه فلا يكاد يخطو بعد خطوات في هذا العالم الجديد حتى يلقي بحمله ليستريح، فهو لـم يصـل إلـى مـا وصـل إليـه وردزورث فـي نظـرتـه وشعـوره للطبيعـة: فوردزورث إذا أنصت إلى الطبيعة فإنما ينصت إلى صوت الإنسانية، وهو إذا تغنى بالطبيعة فإنما يتغنى بالتزاوج الحق بين عقل الإنسان والكون. الطبيعة في نظر وردزورث ليست الجبال والأودية والمراعي كما هي في نظر بيرون والشابي ولكنها هي الروح الحقيقية الخالدة. وردزورث يرى أن الإنسانية جزء من الطبيعة لا ينفصل: الإنسان والطبيعة شيء واحد وليس

هناك انفصال ولا تمييز بين حياة الإنسان وحياة الطبيعة. وردزورث يرى أن العالم والعقل الإنساني طاقتان أو قوتان لعالم واحد. هذان هما الجانبان الحقيقيان الضروريان للكمال الإنساني، هما امتزاج الروح المحدود بالتجربة الشخصية، امتزاج أفكار الأبدية بأشياء اليوم العادي.

فالشابي شاعر الطبيعة الظاهرة، شاعر مناظرها: أنهارها جبالها أصدائها، وليس شاعر أسرارها، فهو يكلف بهذه المناظر ويحب ألا يتركها بل يودّ أن يصبح جزءاً منها ومن أجل ذلك جاء شعره مفصحاً عن هذه المناظر، فهو إذا أفصح فكأن الطبيعة تفصح، وإذا أنشد فكأن العالم الطبيعي ينشد.

أجل، لقد أفصح لنا الشابي عن أنغام الطبيعة المسموعة، ولكن للطبيعة أنغاماً صامتة، وهذا ما لم يصل إليه الشابي وربما كانت هذه الأنغام الصامتة أعذب وأكثر موسيقى من تلك الأسجاع المسموعة.

ومن الغريب أن يستقي هذا الشاعر من تلك الينابيع التي استقى منها وردزورث فيأتي شعر هذا الشاعر التونسي قويّ الشبه بشعر هذا الشاعر الانجليزي الذي عاش قبله بأكثر من قرن.

فكلا الشاعرين قد تغنى بالطفولة الأولى وشاد بسعادتها الحلوة العذبة، وكلاهما قد ندم على فراقه لها. كلاهما يعتقد أن مجد الإلّه العظيم قد توارى عن الأرض بذهاب الطفولة، وأن هذا المجد ونور الإلّه السماوي يأخذ في الابتعاد عن الأرض شيئاً فشيئاً كلما أخذ الطفل في النمو. فبعد أن يكبر الطفل ويصبح رجلاً تجرفه الحياة الصاخبة في طريقها فينسى ماضيه الجميل وأيامه الأولى السعيدة، فبينما الشابي يقول:

قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
لا تحفل الدنيا، تدور بأهلها أو لا تدور
واليوم أحيا مرهف الأعصاب مشبوب الشعور

متأجج الإحساس، أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير

إذ يقول وردزورث:

«قد أتى عليَّ وقت كنت أرى فيه المراعي والحراج والجداول والأرض وسائر المرائي متشحة بالأنوار السماوية كأنها مجد وبعث لحلم، وهي الآن غيرها بالأمس. دوري كيفما شئت ليلاً أو نهاراً. إن هذه الأشياء التي شاهدتها سوف لا أراها من جديد، ما أحب الورد يغشيه القمر بنوره البهيج عندما تصفو السماء من الغيوم، وما أجمل المياه في الليالي المرصعة بالنجوم! إن ضوء الشمس ميلاد عظيم، ولكني أدرك مع ذلك حيثما ذهبت أن مجداً قد توارى عن الأرض.

أيها الطفل الصغير العظيم في حمى ـ وليد السماء ـ الحرية التي ترفرف عليك! لماذا تثير السنين بتلك الآلام المضنية لتجلب ذلك النير المحتم وتحارب سعادتك في غير تبصر؟.

إن روحك سرعان ما تندمج بالأرض، وتتسلط عليك العادة بأعبائها الثقيلة كالجليد، العميقة كالحياة».

صلوات في هيكل الحب:

تذكرني هذه القصيدة «بأنديميون» لجون كيتس حيث يقول كيتس في مستهلها «إن الشيء الجميل فرح دائم، إن سحره في ازدياد ولن يتلاشى، ولكنه يحتفظ لنا بخميلة هادئة نرتمي تحت ظلالها ويعدّ لنا نوماً مشبعاً بالأحلام الحلوة والأنفاس السليمة الهادئة».

يرى الشابي في هذه القصيدة ما يراه كيتس في مستهل انديميون أن الحب مأوى آمن من قسوة هذا العالم ومن شروره:

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام، كـاللحـن، كـالصباح الجـديـدِ
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء كـالـورد، كـابتسـام الـوليـد

أي شيء تراك؟ هل أنت فينوس / تهادت بين الورى من جديد
لتعيد الشباب والفرح المعـ / ـسول للعالم التعيس العميد؟
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر / ض ليحيي روح السلام العهيد؟
أنت، ما أنت؟! أنت رسم جميل / عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموضٍ وعمقٍ / وجمالٍ مقدَّسٍ معبود
كل شيء موقّع فيك حتى / لفتة الجيد واهتزاز النهود
أنت.. أنت الحياة في قدسها السامي / وفي سحرها الشجيِّ الفريد
أنت دنيا من الأناشيد والأحلام / والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر؛ والفن / وفوق النهى وفوق الحدود
أنت قدسي ومعبدي وصباحي / وربيعي ونشوتي وخلودي

* * *

فشعره ترجمان لما يجول في ذلك الخاطر القوي الجبار من تصور دنيا جديدة، دنيا بعيدة عن دنيانا، دنيا أقرب إلى دنيا الخيال منها إلى دنيا الواقع. ولكنها على كل حال ليست دنيا العقل والمعنويات الدقيقة ولكنها مزاج من الحقيقة والخيال، مزاج من الحس والفكر. فهو إذا تصور الحب لا يتصوره بين السحاب أو في أودية القمر ولكنه يتصوره في عالمنا. وليس عالمنا المملوء حقداً وبغضاً، عالمنا المملوء شهوة وخبثاً، ولكنه عالمنا النقي الذي خلص من كل الرذائل وتحرر من كل الشهوات ولم يبق فيه إلا الحب يسود ويتحكم.

فالشابي ليس مثالياً في حبه كشلي، وليس حسياً كبيرون، ولكنه شاعر قد وهب إحساساً مرهفاً يحس بكل ما حوله وشعوراً دقيقاً جداً يأبى عليه المكث في هذا العالم فيلح عليه بالانفصال منه والتحليق في وادٍ كله جمال وسحر. هذا الجمال ليس حسياً خالصاً وليس معنوياً صرفاً ولكنه ـ كما قلت ـ فيه من الحسية وفيه من المعنوية حظ كبير.

* * *

حقاً لقد قدم لنا الشابي صوره الشعرية في أسلوب شعر جميل حتى أصبح له أسلوب خاص مطبوع به نستطيع أن نميزه على شعراء هذا العصر: هذا الأسلوب الشعري الخاص هو صوره وتشبيهاته الجميلة كقوله:

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام   كاللحن، كالصباح الجديد

هل هذه مجرد كلمات وضعت بجانب بعضها؟ وهل سحر هذا التعبير الشعري موجود في موسيقى الكلمات وحسن اتساقها وملاءمتها أو توافقها لتحدث نغمة موسيقية بله توافقاً موسيقياً جميلاً؟.

إن جمال هذا التعبير بل خلوده ليس آتياً من الموسيقى الشعرية فحسب وليس آتياً من المعنى الشعري السامي، هذا المعنى البريء كالطفولة، العذب كالأحلام، الموسيقي كاللحن الجديد، كالصباح، ولكنه آتٍ من ارتباط اللفظ بالمعنى وامتزاج الصورتين الحسية والمعنوية: هذا الامتزاج القوي بل هذا التفاني أو التلاشي أو الموافقة التامة ـ سمِّه ماتشاء ـ بين اللفظ والمعنى.

* * *

هذا هو الجديد في شعر الشابي، وهذا هو الذي يميزه على شعراء هذا العصر. فهو الشاعر الوحيد فيما أعتقد الذي استطاع أن يجول في عالمين: عالم الحسّ أو الواقع الذي نشغله بأجسامنا ونملؤه بحواسنا وعالم الفكر والسمو الذي ندركه أو نحاول إدراكه والدنو منه بأفكارنا وأشواقنا، واستطاع أن يقدم لنا صورة كاملة لهذا الجمال المزيج في كلام قوي وأسلوب شعري دافق.

* * *

يـا ابنـةَ النـور، إنني أنـا وحـدي   مَـن رأى فيـكِ روعـةَ المعبـود
فدعيني أعيش في ظلك العذب   وفـي قـرب حسنـك المشهـود
عيشـةً للجمـال والفـن والإلهـام   والطهـر والسنـى والسجـود!

* * *

ليس الجمال في هذه التعابير الشعرية في موسيقى الكلمات أو حسن وقعها في الأذن أو سرعتها وحركتها وانسيابها أو ما فيها من حياة حية فحسب بل لما فيها من نماذج الحسّ وصوره ممتزجة بصور الذهن كقوله «يا ابنة النور». إن هذا التعبير الشعري الذي لم يخطر بذهن شاعر عربي على ما أذكر لا يولد فينا عاطفة حسية فقط ولا عاطفة ذهنية فقط ولكنه يبعثنا على أن نفكر ونحسّ معاً أو نحسّ ونفكر معاً حتى ندرك هذه الصورة الجميلة حقاً البديعة حقاً التي يريد الشاعر أن يتصورها. وهذه الصورة البديعة الجميلة لا يمكن للحسّ وحده أو للفكر وحده أن يهتدي إليها بل لا بدّ من اقتران الحسّ والفكر معاً.

لا بدَّ من عمل العاطفة والعقل معاً حتى نقف على هذه الصورة كاملة في بهاها وجلالها وروعتها.

* * *

وبعد، فهذه خطرات سريعة عاودتني اليوم إذ ذكرتُ هذا الشاعر الشاب الذي لم يفسح له الزمان في العمر فعصف به عصفَ الريح العاتية بأوراق الخريف الساقطة، فطويت من الوجود صفحة حافلة بكل معاني الشعر والحب والجمال وسكت بلبل صداح كان يشجي العالم بأغانيه العذبة وألحانه الشجيَّة.

هذه خطرات طافت بفكري على ذكر هذا الشاعر الشاب الذي قضى ولم يكتمل نضجه بعد، أنشرها اليوم علها تقوم ببعض الواجب نحو هذا الشاعر الغريب الذي لم تره عيني ولم تسمعه أذني ولكن أحبَّه قلبي وكان نعيه شديداً على نفسي.

ولست أدعي أني قمت بشيء نحو هذه العبقرية الشابة التي هوت من سماء مجدها كما تهوي جبابرة الملوك وأعاظم الدول، فإني لأشعر حقاً بعجزي المطلق أمام هذه العظمة الخالدة، وأعتقد في قرارة نفسي بحرية تلك العظمة واستقلالها وغناها عن كل شرح وتمجيد[1].

---

(1) المرجع السابق.

أبو القاسم الشابي

د. أحمد زكي أبو شادي

ألاَ أيُّهـــا الظـــالـــمُ المُسْتَبِـــدُّ حبيـــبَ الفَنــاءِ، عــدوّ الحيــاهْ
سَخِـرْتَ بــأنَّــاتِ شَعْــبٍ ضعيــفٍ وكفــكَ مخضــوبــةٌ مِــنْ دِمــاهْ
وعِشْــتَ تــدنّــسُ سِحْــرَ الــوُجــودِ وتَبــذرُ شــوكَ الأسَــى فــي رُبــاهُ

* * *

رُوَيْــدَكَ لاَ، لا يَخْــدَعَنْــكَ الــربيــعُ وَصَحْــوُ الفَضَــاءِ وَضَــوْءُ الصَّبــاحْ
ففــي الأفُــقِ الــرَّحْــبِ هــولُ الظّــلام وقَصْــفُ الرُّعُــودِ، وعَصْــفُ الــرِّيَاحْ
ولا تَهْـــزَأَنَّ بِنَـــوْحِ الضَّعيـــفِ فمــن يَبْــذُر الشــوكَ يَجْـنِ الْجِـرَاحْ

* * *

تَــأَمَّــلْ! هُنَــالِــكَ، أَنــى حَصَــدْتَ رُؤُوسَ الـــوَرَى، وزُهُـــورَ الأمَـــلْ
وَرَوَيْــتَ بـــالـــدَّم قَلْـــبَ التُّـــرَابِ وأشــربتَــه الــدمــعَ حَتَّــى ثَمِــلْ
سَيَجْــرفُــكَ السّيْــلُ سَيْــلُ الــدِّمــاءِ ويــأكلُــكَ العــاصِــفُ المشتعِــلْ!

كنتُ أَتْلُو مِنْ جديدٍ هذه الأبياتَ لصديقي العبقري، فقيدِ الأدبِ الشاعر التونسيّ «أبي القاسم الشابي» فوجدتُ لها مَذاقاً في جو الحرية الأمريكية، يفوق في أثره ما أَحْسَسْتُه عند تلاوتها، منذُ قرابة عشرين عاماً[1]، عند اطلاعي الأولِ عليها، قبلَ نَشْرِهَا في مجلة «أپوللو»، وقد عنونها «إلى طُغاة العالم»!.

وساقني تَدَاعِي الْخَوَاطِرِ إلى ترديدها في إعجابٍ، وأنا أستمعُ إلى

(1) مجلة «أپوللو»، المجلد الثاني، مايو سنة 1934، ص 810.

«صوت أمريكا» يردِّد في السادسِ من «نيسانَ» سنة ألفٍ وتسعمايةٍ واثنينِ وخمسينَ:

«صَرَّحَ أمس أحدُ كبار موظفي وزارة الخارجية الأمريكية ـ وهو الدكتور (هاري هوارد)، المستشارُ في شئون الأمم المتحدةِ، بمكتب الوزارةِ المختصِّ بالشرقِ الأدنى وجنوبي آسيا وأفريقيا ـ صرَّحَ بأن سياسةَ الولاياتِ المتحدةِ في الشرق الأوسط ترمي إلى مساعدة شعُوبه على الاحتفاظِ باستقلالها، وسلامةِ أراضيها، وبحياتها آمنة ضمنَ أَسرةِ الأمم الحرة. . .».

إن «لأبي القاسم الشّابي» روائع كثيرة ظَفِرَتْ «جميعة أپولـو» ومَجلّتُها التي عُنِيَتْ قبلَ سِواها بإبراز فنِّه، ظَفِرَتْ بالقسطِ الأوفر منها، وإنه لَتصعبُ المفاضلةُ بين قصائدهِ هذه فجميعُها يتَّسِمُ بالجمال الفنّي الأنيقِ بكاملِ عناصره. . أنؤثر قَصيدتَه «صلوات في هيكل الحب»[1] التي يقولُ في مَطلعها:

عَذْبَةٌ أنتِ، كالطُّفولةِ، كالأحلام، كاللحنِ، كالصَّباحِ الجديدِ
كالسَّماءِ الضحوكِ، كالليلَةِ القمراءِ، كالوردِ، كابتسامِ الوليدِ
يَا لهَا مِنْ وداعةٍ وجمالٍ وشبابٍ منعمٍ أُملودِ
يا لها مِنْ طهارةٍ تبعث التقديسَ في مُهْجَةِ الشَّقِيِّ العَنيدِ

وكلها على هذا النسَقِ مِن الاندماج في الطبيعة، ومن الارتفاع بالحسيّات إلى المعنويات القريبةِ والبعيدةِ؟.

أم نُؤْثر قصيدته الفلسفية الواقعيةَ «السعادة»[2] التي يقول منها:

ترجو السعادةَ يا قلبي، ولو وُجِدَتْ ... في الكونِ لم يَشْتَعِلْ حُزْنٌ ولا أَلَمُ
ولا استحالتْ حياةُ الناس أَجمعُها ... وزُلْزِلَتْ هاتِه الأكوانُ والنُّظُمُ
خُذِ الحياةَ كما جاءتكَ مبتسماً ... فِي كَفِّها الغارُ أو في كفها العَدَمُ

(1) مجلة «أپوللو»، المجلد الأول، أبريل سنة 1933، ص 848.
(2) مجلة «أپوللو»، المجلد الأول أبريل سنة 1933، ص 868.

وارقُصْ على الوردِ والأشواكِ متّئداً غَنَّتْ لك الطيْر أو غنَّتْ لك الرُّجُمُ!

أم نُؤثِر قصيدتَه «الأشواق التائهة»[1]، وقد جَمَعَتْ بين ألوانٍ من اليأسِ واحتقارِ الوجُودِ والتصوُّفِ، إذْ يقول:

يا صميمَ الحياةِ! كم أنا في الدُّنيا غريبٌ! أَشْقَى بغُربَةِ نَفْسِي
بين قومٍ لا يَفهمونَ أناشيدَ فؤادي، ولا مَعانيَ بؤسي
في وُجودٍ مكبَّلٍ بقيودٍ تائهٍ في ظلامِ شكٍّ ونَحْسِ
فاحتضنّي، وضمّني لكَ بالماضي، فهذا الوجُودُ عِلّةُ يأسي!

أم نُؤثِرُ قصيدتَه «الجنّةَ الضائعةَ»[2]، التي يذكر فيها عهدَ الطفولةِ، ويَعرضُه عرضاً فنّيّاً بديعاً بِصُوره الفاتنة المنوَّعةِ، ثم يختمها بهذه الْحُرقةِ:

قد كنتُ في زَمَنِ الطُّفُولَةِ والسذَاجَةِ والطُّهُورْ
أحيا كما تحيا البلابلُ والجداولُ والزُّهورْ
لا تَحْفِلُ الدُّنيا، تَدورُ بأهلِها أو لا تَدُورْ
واليومَ أحيا مُرْهَقَ الأعصابِ مشبوبَ الشُّعُورْ
مُتأجِّجَ الإحساس، أَحْفِلُ بالعظيم وبالحقيرْ
تَمْشي على قلبي الحياةُ، ويَزْحَفُ الكونُ الكبيرْ
هذا مَصيري، يا بَني الدنيا، فما أشْقَى المَصِيرْ!

أم نُؤثِرُ قصيدتَه «الأبد الصغير»[3] المفعمة بالتأمُّلاتِ الفلسفيةِ الوجدانيةِ، وبها يخاطبُ دنيا قَلْبِه:

يا قلبُ!.. كم فيكَ مِنْ دُنْيا محجّبةٍ
كأنها حينَ يبدو فَجْرُها (إرَمُ)!...
يا قلبُ!... كم فيكَ مِنْ كونٍ، قد اتَّقَدَتْ
فيه الشُّموسُ وعاشتْ فوقَهُ الأمَمُ

---

(1) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، مايو سنة 1933، ص 1021.
(2) مجلة «أبوللو» المجلد الأول، مايو سنة 1933، ص 1022.
(3) مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، يونيه سنة 1933، ص 1146.

يـا قلـبُ!.. كـم فيـك مِـنْ أُفُـق تُنَمقُـهُ
كـــواكـــبٌ تَتَجَلَّـــى، ثـــم تَنْعَـــدِمُ
يا قلبُ!.... كم فيكَ مِنْ قبر، قد انطفأتْ
فيــه الحيــاةُ، وضجَّــتْ تحتــه الــرِّمَــمُ
يـا قلـبُ! كـم فيكَ مِـنْ غـاب ومِـنْ جَبَـلٍ
تَـذوي بـه الـريـحُ أو تَسْمُـو بـه القِمَـمُ
يـا قلـب! كـم فيـكَ مِنْ كَهْفٍ قـد انبجسَتْ
منــه الجــداولُ تَجْــرِي مــا لهــا لُجُــمُ
تمْشِــي، فتحمــلُ غصنــاً مُــزْهِــراً نَضِــراً
أو وردةً لـــم تشَـــوِّهْ حُسْنَهـــا قَـــدَمُ
أو نحلـــةً جَـــرّهـــا التيـــارُ مُنْـــدفعـــاً
إلــى البحــارِ تغَنِّــي فــوقَهــا الــدِّيَــمُ
أو طــائــراً ســاحــراً مَيْتــاً قــد انفجـرتْ
فـــي مُقلتيْـــهِ جِـــراحٌ جَمَّـــةٌ ودَمُ
يــا قلــبُ! إنــك كــونٌ مُــذهِــشٌ عجَــبٌ
إنْ تسْــأَل النــاس عـــن آفــاقــهِ يَجمُــوا
كـأنـك الأَبَــدُ المجهــولُ... قــد عَجَــزَتْ
عنك النُّهَى، واكفهرَّتْ حولك الظُّلَمُ!...

أم نُؤثر قصيدته الفلسفية المتشكّكَةَ الحائرةَ «في ظلّ وادي الموتِ»، التي يَتَشَوّقُ في ختامها إلى تجربة العَدَمِ:

ثمَّ ماذا؟ هذا أنا: صِرْتُ في الدُّنيا بعيداً عن لهوها وغِناهَا
في ظَلام الفناءِ أَدْفِنُ أيّامي، ولا أستطيعُ حتّى بُكاهـا
وزهُورُ الحياةِ تَهْوي بِصَمْتٍ مُحْزِن مُضْجِرٍ على قَدَمَيَّا
جَفَّ سِحْرُ الحياةِ يا قلبيَ الباكي فَهَيَّا نجَرّبِ الموتَ، هيّا!

أم نُؤثرُ قصيدتَه الوجدانيةَ الغرِّيدةَ «الصّباح الجديد»[1]، التي تَغَنَّتْ بها مَواكبُ عديدةٌ ولا تزالُ:

اُسكتي يا جراحْ / واُسكني يا شُجونْ
ماتَ عهْدُ النواحْ / وزمانُ الجنونْ
وأَطَلَّ الصّبَاحْ / من وراء القُرونْ

أم نُؤْثرُ «أَلحانَه السّكرى»[2] العَذْبَة العَبِقَةَ التي يقول في ختامِها:

أيُّها الدهرُ! . . . أيّها الزمنُ الجاري إلى غيرِ وُجْهَةٍ وقرارِ!
أيُّها الكونُ! . . . . أيّها الفلكُ الدوَّارُ بالفجْرِ والدُّجَى والنَّهارِ!
أيُّها الموتُ! أيها القَدَرُ الأعْمَى! قِفُوا حيث أنتمو أو فَسِيروا
ودَعُونَا هُنا: تُغنِّي لنا الأحلامُ والحُبُّ والوجودُ الكبيرُ
وإذا ما أَبَيْتُمو فاْحمِلُونَا ولهيبُ الغرامِ في شَفَتَيْنَا
وزُهورُ الحياةِ تَعْبَقُ بالعِطْرِ، وبالسّحرِ، والصِّبَا في يدَيْنَا!

أم نُؤثرُ قصيدته الواقعيّة المريرةَ «الناس»[3] التي تُشْجِي منها زفْرَتُهُ:

ما قَدَّسَ المَثَلَ الأعْلَى وجَمَّلَهُ / في أَعْيُنِ النَّاسِ إلاَّ أنَّه حُلُمُ!
ولو مَشَى فيهمو حَيّاً لحطَّمه / قومٌ، وقالوا بخُبْثٍ إنّه صَنَمُ
لا يَعبدُ الناسُ إلا كلّ منعدمٍ / ممنَّع، ولمن حاباهُمو العَدَمُ
حتَّى العباقرةُ الأفذاذُ حَيُّهم / يَلْقَى الشقاءَ، وتَلْقَى مَجْدَها الرِّمَمُ

---

(1) مجلة أپوللو»، المجلد الثاني: يناير سنة 1934، ص 388.
(2) مجلة «أپوللو»، المجلد الثاني، يناير سنة 1934، ص 390.
(3) مجلة «أپوللو»، المجلد الثاني؛ فبراير سنة 1934، ص 481.

النـاسُ لا ينصفـون الحـيّ بينهمـو حتـى إذا مـا تـوارَى عنهمـو نَـدِمُـوا
الـويـلُ للنـاسِ مِـنْ أهـوائِهـم أبـداً يَمْشِـي الـزمـانُ وريـح الشـرّ تَحتـدمُ

أم نُؤثر قصيدتَه «مِنْ أغاني الرعاة»[1] التي جاءتْ مِنْ وَحْي استشفائِه، وكلُّ بيت من أبياتها صُوَرٌ شعرية متألقة بجمال الطبيعةِ، التي كانت تحضنُه وتَرعاه في مرضه، بين جبال وأودية وغابات، وفيها يخاطب خِرافَه وشِياهَهُ بأعذب الألحان؟.

أم نُؤثر قصيدتَه المتفائلةَ «الإيمان بالحياة»[2] وإنْ كانت عليها مَسحةُ الرثاء لوالده؟.

أم نُؤثر قصيدتَه الشامخةَ «نشيد الجبّار أو هكذا غنَّى پروميثيوس» التي يردّ فيها على حُسّادِه الشانئين، ويقول عن نفسه بعد مماته:

فـأنـا السعيـدُ بـأنّنـي متحـوّلٌ عـن عـالـم الآثـام والبغضـاءِ
لأذوبَ في فجرِ الجمالِ السَرْمَدِيّ وأرتـوي مِـنْ مَنهـل الأضـواء...

أم نُؤثرُ قصائدَه التأمّليةَ العاطفيةَ أمثال «الرواية الغربية» و«أيتها الحالمة بين العواصف» و«صوت من السماء»[3] وكلها آيات من الرقة الحسّاسة، والرومانطيقية الجميلة الساحرة؟...

إنَّ ما نؤثرُه هو إنسانياتُ هذا الشاعر المحلّقِ، الذي لم تَعُقْهُ أحلامُهُ عن النُّزولِ إلى ميدانِ المجتمعِ، والسَّيْرِ في مَوْكَبِ البشريّة، عازفاً مشجّعاً هادياً مُهيباً بالصاغرينَ:

إذا الشعـبُ يـومـاً أراد الحيـاةَ فـلا بـدَّ أن يستجيـبَ القَـدَرْ

(1) مجلة «أپوللو»، المجلد الثاني، مارس سنة 1934، ص 608.
(2) مجلة «أپوللو»، المجلد الثاني، مايو سنة 1934، ص 847.
(3) مجلة «أپوللو» المجلد الثاني، فبراير سنة 1934، 481.

ولا بُـــدَّ لِلَّيْـــلِ أن يَنجلـــي ولا بُـــدَّ للقيـــدِ أن يَنكسِـــرْ

* * *

إذا مـــا طمحـــتُ إلـــى غـــايـــةٍ رَكِبْتُ المُنَـى ونسيـتُ الحَـذَرْ
ولـــم أتَجنَّـــبْ وُعُـــورَ الشِّبـــابِ ولا هَبَّـــةَ اللَّهَـــبِ المُسْتَعِـــرْ
ومَـنْ لـم يُحِـبَّ صعُـودَ الجبـال يَعِـشْ أَبَـدَ الـدهـر بيـن الحُفَـرْ!

ولم تزَل قصائدهُ الموجَّهةُ إلى الشّعبِ ترانيمَ سماويّةً خالدةً، وإنْ سَكَنَ جُثمانُه القبرَ![1].....

(1) مجلة القلم الجديد (الأردن) س 1 عدد 1 (نوفمبر 1952) ونشر المقال نفسه في الكتب التي جمعها من إنتاجه بعض أصدقائه والتي كتبت عنه.

شعر الشابي
وأصدقاء (القلم الجديد)

للدكتور أحمد زكي أبو شادي

في الحادي والعشرين من أبريل سنة 1953 كنت في «المركز الإسلامي» بوشنطن ومعي الأديب الفلسطيني الصديق الأستاذ ماجد سعيد فالتقيت بوزير الأردن المفوض الدكتور يوسف هيكل، وكان في طليعة ما حدثته به تهنئتي إياه بظهور (القلم الجديد) في الأردن حينما فقدت مصر أخيراً ثلاثاً من مجلاتها الأدبية الكبرى ألا وهي (المقتطف) و (الثقافة) و(الرسالة). وتمنيت أن تلاقي مجلتكم التأييد الكبير، ابتداء بحكومة الأردن، حتى يكفل للمجلة البقاء والازدهار، فليست عظمة الأمم بمادياتها وحدها، وهذا مشهود أمامي في أميركا ـ على الرغم من الأوهام المخالفة، الشائعة في الخارج ـ بل في كل قطر راقٍ، والثقافة الحرة أعظم غذاء لمدارك الشعوب وخير حافز لوعيها.

وقد رأيت (القلم الجديد) يجمعني بأصدقاء عديدين له، ومن بينهم الأديب التونسي النابه الأستاذ أبو القاسم محمد كرو نزيل طرابلس الغرب (ليبيا) الذي نبهني إلى أن إذاعتي من صوت أمريكا عن الصديق الشاعر الخالد أبي القاسم الشابي (وقد نشرت في مجلتكم) وقع فيها خطأ لا بدّ من تصحيحه، وهو نسبة قصيدة «المستسلم» إلى الشابي مع أنها من شعر سيد إبراهيم. وهو على صواب في هذا التنبيه[1]، والذنب ذنبي، لأني اعتمدت

(1) في المقالة السابقة. وقد حذفنا منها ما ليس للشابي. لكن بقي الخطأ كما هو في كتب أبي شادي التي نشرها باسمه أصدقاؤه الآخرون.

على سواي في النسخ من مجلة (أبوللو) بدل الاعتماد على نفسي كعادتي، فوقع ذلك الخلط، وكان في نيتي تصحيحه عند طبع أحاديثي الأدبية، ولكن خير البر عاجله. وعزائي أنه من السهل جداً تمييز شعر الشابي عن شعر سواه روحاً ولفظاً، فلا يمكن أن يكون قد خفي هذا الخطأ النقلي عن الأدباء البصيرين.

وأنتهز هذه الفرصة لأنوه تنويهاً قلبياً بالمجهود النبيل الصادق الذي بذله ويبذله الأستاذ كرو لنشر آثار شاعرنا الخالد المحلق، وكنت أتمنى لو استطعت الإسهام ـ تلبية لرغبته ـ بموافاته برسائل الشابي إليّ، وكلها رسائل قيمة، لولا أني افتقدتها مع مخطوطات عدة في العهد البائد بمصر، وقد سرق الكثير من تلك المخطوطات ومن بينها كتاب (نزغات إبليس) للزهاوي، الذي تسلمته من الأستاذ سلامة موسى لنشره ـ إبان خزنها أو في فترة إرسالها إليّ منذ سنتين إذ ضاع صندوق ضخم ممتلىء بها، ولم يسلم من الضياع إلا ديوان الشاعر الشهيد محمد عبد الحكم الجراحي الذي حماه القدر بأعجوبة. وهو مكتوب بخط يده، ولعلي أرسله إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة أو أودعه في مكتبة نيويورك العامة حتى لا أعرضه إلى الضياع مرة أخرى، وأما آثار الشابي الأخوانية التي خصني بها فللأسف ضاعت مع نفائس أخرى لأدباء عدة جهيرين راسلوني سنوات طويلة من أقطار شتى، وهي في مجموعها ذخيرة أدبية لا تقدر بمال[1].

---

(1) مجلة القلم الجديد (الأردن) س 1 عدد 12 (أغسطس 1953) ص 53.

أبو القاسم الشابي
(1908 ـ 1934) [1]

الأستاذ محمد فهمي

وهذا معجزة من المعجزات ساقها القدر إلى عالم الأدب العربي لتكون أسطع برهان على أن حياة العبقري ليست إلا سلسلة من المعجزات.. فما حظ تونس التي نشأ فيها الشابي من الثقافة؟ وأي نوع من الثقافات يسيطر على هذا الإقليم؟ إنه لحظ ضئيل وإنها للتقاليد الرجعية في أقسى وأعنف وطأتها...

فكيف استطاع الشابي إذن ـ وفوقه هذا الجبل الصخري من التقاليد المتحجرة الذي كم دك تحت ثقله نفوساً وحطم رؤوساً أرادت أن تتحرك، بله أن تتنفس؟ ـ نعم، كيف استطاع هذا الشاب أن يرفع رأسه الصغير فإذا الجبل دكاً وإذا الصخور الرواسي هباء وإذا النسر يحلق لا يعوقه شيء! ألا إنها لمعجزة لإيمان.. إيمان النبي برسالته، الإيمان الذي يملأ القلب فيزلزل الجبال الرواسي وتميد من تحته الأرض، فما رفع الشابي من تحت الجبل رأسه بل قلبه بإيمانه العميق الهائل.. فإذا الجبل دكاً، وإذا بالأفق يطلع علينا من ناحية تونس بكوكب وهاج جارف النور شُدت إليه الأبصار وانجذبت له القلوب وأخذ بسحره الشعراء... فمنهم من احتقر بضاعته ومنهم من قذف بها ثم هرع يقبس من الكوكب الجديد...

وبينما الشاعر يلقي من سماء الشعر بالمعجزة تلو المعجزة في قصائده: «صلوات في هيكل الحب، الأشواق التائهة، النبي المجهول، أغاني الرعاة، الأبد الصغير»، وغيرها وغيرها، وكأنما إلّهة الشعر كانت قد

(1) هكذا أرخ له الكاتب والصواب (1909 ـ 1934) «كرو».

خبأتها في كهف الزمن حتى تتوج بها قلب هذا الشاعر، إذ فجأة اكفهر الجو وغام الأفق وسمعنا بالأنغام الشجية وقد غيرت ينبوعها فشقت حجب الغيب وفاضت بشجن رهيب وإذا باللحن يدوّي ـ وكأنه صرخات بل انتفاضات حي تجرفه أشواق الحياة ينتفض بين فكي الموت ـ في قصائده: «في ظل وادي الموت»، «ألحاني السكرى»، «الصباح الجديد. .»!.

لقد أنشب الداء بصدر الشاعر أظفاره، يتقاضاه عاقبة النضال وثمن المجد. . فأحسسنا بالخاتمة بل بالكارثة، وما هي إلا هنيهات حتى هوى الكوكب وانقض الشهاب حيث اختفى هناك في قبر بإحدى قرى تونس، بينما لا يزال إشراق صعوده وتألق مغيبه يغمران السماء بطوفان من الأنوار. . .

* * *

وها نحن نرى فرحة الحياة ما انبثقت في قلب انبثاقها في قلب أبي القاسم ولا تفجرت من شعر، تفجرها من أشعاره، رغم ما يشوبها من شجن واكتئاب ولكنه الشجن المقدس الذي يطهر الروح ويسمو بها.

وها هي الألفاظ والتعابير في شعره لا تؤدي فقط معانيها المقصودة بل وكأنما هي مفاتيح سحرية لعوالم من الأنغام والفراديس نطوف فيها مع الشاعر. . فنشجى ونطرب ونأسى ونعجب وكأنما قد سحرنا الشابي. . وأنها لبرهان قاطع على أن الوقت قد حان حيث تتفاوت منازل الشعراء لا بقدرتهم على اصطياد الألفاظ وسبك التراكيب بل بقدرتهم على الانفعال والتحليق في أجواء من المشاعر لم تكتشف، ومدى استطاعة الألفاظ رسمها وتنغيمها.

وإن كل محاولة لتحليل شعره ليست إلا تشويهاً له، فما توجد الكلمات ولا الألفاظ التي تفضي إلى سره سوى كلمات أبي القاسم نفسه وألفاظه، وهذه لو حللناها من عقودها الشعرية السحرية المنظومة فيها لأفقدناها ذلك السر الخفي الذي ينساب إلى النفوس فيفعل فيها فعل الربيع

بالزهر. وغاية ما نستطيع قوله في هذا الشعر أنه نغمات من الخلد انثالت على مزمار هذا الشاعر في ساعة رضا من خالق الأكوان على ساكنيها[1] . . .[2]

* * *

(1) نرجو أن تكون هذه الكلمة فاتحة لدراسات مستفيضة عن هذا الشاعر الفذ «م. فهمي».

(2) الروائع لشعراء الجيل ـ القاهرة جـ 1 ص 42، 43، 44.

وقد قدم الكاتب بهذه الكلمة مختارات من شعر الشابي. ومن المؤكد أن الكتاب قد طبع بعد عام 1938، لأنه يترجم فيه للشاعر الهمشري ويذكر أن وفاته في ديسمبر سنة 1938.

أبو القاسم الشابي

بقلم الشاعر الأستاذ صالح جودت

حديثي هذا عن شاعر ساحر عرفه العالم الأدبي لأول مرة عام 1933 حين بعث لمجلة أپوللو التي كانت تصدر في القاهرة ولا تنشر غير الشعر ودراساته، بقصيدة عنوانها: «صلوات في هيكل الحب» ما أن طلعت هذه القصيدة على الناس حتى هزتهم من أعماقهم وتلفت إليها أدباء العالم العربي وشعراؤه كباراً وصغاراً وتساءلوا جميعاً: من يكون أبو القاسم الشابي هذا، وأين موطنه؟ وما عمره؟ وأين كانت هذه الشاعرية الضخمة مستخفية عن عيون الأدب حتى اليوم؟.

وفي الحق أن هذه القصيدة كانت تستأهل كل هذا التساؤل، لأنها كانت ثورة في تاريخ الشعر العربي الحديث، وتاريخاً خليقاً لأن يؤرخ به لمدرسة جديدة من الشعر. فإن أردت أن تعرف ماهية هذه المدرسة فإني أترك لك أبا القاسم يحدثك عنها في بحث له عن الشعر عنوانه: «الأدب العربي في العصر الحاضر». يقول أبو القاسم:

«ليس لنا أن نطالب الشاعر في شعره بغير الحياة؛ وإذا جاز لنا أن نطالبه بأكثر من هذا فلنطالبه بأن تكون هذه الحياة رفيعة سامية تتكافأ مع ما للشاعر من قدسية الفن وجلاله، ففي الحياة كثير من الحماقات والدنايا يتعالى الفن عن التدني إليها من سمائه العالية. فإذا قرأنا الشاعر وجدنا فيه إنساناً من لحم ودم، يحيا ويتنفس ويشعر ويفكر ويجاوبنا بالعطف والحس والخيال وينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومحقراته».

هذا هو رأي أبي القاسم في الشاعر وهذه هي خطوط مدرسته فلننظر مدى انطباق هذه الخطوط على قصيدته الأولى التي حدثتكم عنها: «صلوات في هيكل الحب» وسأقتطف لكم بعض أبياتها:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال وشباب منعم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد
أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتهتز رائعات الورود
وتهبّ الحياة سكرى من العطر ويدْوي الوجود بالتغريد
أنت أنشودة الأناشيد غناك إله الغناء رب القصيد
فيك شبّ الشباب وشّحه السّحر، وشدو الهوى وعطر الورود
وتهادت في أفق روحك أوزان الأغاني ورقة التغريد
فتمايلت في الحياة كلحْنٍ عبقري الحياة حلو النشيد
خطوات سكرانة بالأناشيد وصوتٌ، كرجع ناي بعيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعود
كل شيء موقّع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود
أنت. أنت الحياة في قدسها السامي وفي سحرها الشجي الفريد
أنت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي

هذه هي أول قصيدة قدمته إلى الأدب العربي وأدباء العربية، كان ذلك في يوم من أيام سنة 1933 أفلا يفجعكم أن أقول لكم إن عاماً واحداً قد مرّ على ذلك اليوم فإذا برسالة حزينة قادمة من تونس تقول إن أبا القاسم قد مات! مات في الخامسة والعشرين من عمره. كيف مات؟ هذه عجالة من حياته:

ولد أبو القاسم في أيام من ربيع سنة 1909 ببلدة توزر بتونس الخضراء.. ولا نعرف عن طفولته إلا أنه نشأ كما ينشأ أي طفل تونسي

فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء العربية. ولما بلغ أشده بعث به أهله إلى العاصمة التونسية فالتحق بالمعهد الزيتوني الملحق بجامع الزيتونة في عام 1921 ونال إجازته في عام 1927. وانخرط بعد ذلك في كلية الحقوق التونسية فنال إجازتها سنة 1929.

وتمضي الآونة بين ذلك العام حتى يأتي اليوم التاسع من أكتوبر سنة 1934 وأبو القاسم يلفظ أنفاسه الأخيرة في مكان يقال له باب حومة العلوج، ويجيء ذووه ليأخذوه بسيارة إلى مسقط رأسه في بلدة توزر. ولكن أبا القاسم يأبى إلا أن يسلم أنفاسه الأخيرة في مأمنه الذي أحبه ومنفاه الذي اختاره لنفسه عند باب الحومة. فماذا كان من أمر أبي القاسم خلال الآونة التي انقضت بين عامي 1929 و 1934؟ من أسف أن ما وقعت عليه من المعلومات عن هذه الفترة من حياة الشابي ليس بالكثير ولكنه كاف كل الكفاية للمؤثرات العظمى التي أثرت في حياة الشابي ووجهت شعره. ذلك أنه قيل إن أبا القاسم أحب حباً عفيفاً عنيفاً، وكان كما أدركتم من قصيدته التي أوردت بعضها لا ينظر إلى حبيبته كما ينظر غيره من الرجال إلى حبيباتهم؛ لم يكن ينظر إلى أنوثتها ولا يستلهم جنسها وإنما كان يراها قصيدة أو لحناً أو هيكلاً للعبادة أو محراباً من النور والطهر أو كعبة لعبدة الفن.

قال أديب تونسي في تأبين أبي القاسم: «إن حباً جارفاً باكر أبا القاسم فغمره وساقه في موكب حافل من العواطف الجامحة والأخيلة الواسعة، ولكن الموت اختطف حبيبته فبكى أبو القاسم ورتل أناشيده العاطفية مرجعاً كل شيء في حياته إلى الحب».

أما المؤثر الثاني في شعر أبي القاسم فهو أنه كان مجدداً جريئاً صاحب دعوة تقدمية كبيرة في الأدب العربي. وقد عكف في أول أمره على نشر هذه الدعوة في صحف تونس وفي بيئة شديدة المحافظة والتعلق بالقديم في الأدب وفيما عداه من فنون الفكر والحياة، فلقي حرباً شعواء

ولقي عنتاً كثيراً ولقي حفائظ وأحقاداً تترى في كل فج، حتى امتلأ قلبه باليأس من الشعب الذي يعيش فيه، وهو في ذلك يقول للشعب في قصيدة عنوانها «النبي المجهول»:

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً ... فأهوي على الجذوع بفأسي
أنت روح غبية تكره النُّور ... وتقضي الدهور في ليل مَلْس
إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي ... لأقضي الحياة وحدي بيأسي
ثم أنساك ما استطعت فما أنت ... بأهل لخمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أناشيدي ... وأفضي لها بأحزان نفسي
ثم أقضي هناك في ظلمة الليـ ... ـل وأفضي إلى الوجود بيأسي

وهكذا صنع أبو القاسم، فقد صدق وعده وهجر الناس وذهب إلى الغاب وإلى الواحات والجبال، وعاش في المنفى الأخضر الذي اختاره لنفسه يطل على البحر الأبيض ويرعى الأغنام ويغني للطيور وينظم الشعر حتى غادرها جميعاً إلى روضته في جوار الله[1].

---

(1) الاسبوع: 1950/10/23.

الشاعر المهمل: أبو القاسم الشابي

بقلم حسن محمد عبد الله شرارة

ما عرفتُ شاعراً رهيف الإحساس، رقيق العواطف، ثائر القلب، متقطعه، مثلما عرفتُ أبا القاسم الشابي، وما عرفتُ شاعريةً فياضةً يغمرها السحر وتزخر بالفن، وديباجةً رقيقةً شفافةً تجري جريان الجدول وتنساب انسياب النسيم مثلما عرفتُ أبا القاسم الشابي، وما عرفتُ شاعراً كبيراً مهملاً متروكاً في زوايا النسيان مثلما أُهمل الشابي وتُرك، حتى أَنه لو لم يتناوله البعض من الأدباء لما عرفه الناس وسمعوا به لظل منسياً لا يُعبأ به بعد موته كما كان في غضون حياته!!!!.

وأحسبُ أن لإهماله وهو حي أثراً كبيراً في توجيه شعره وفي سكب هذه الحرارة، وإضرام نيران هذه الثورة الحامية في كثير من قصائده، ومن روائعه الخالدة التي أعتقد أنها أدخلت أدباً جديداً على العربية، وصبغت الحياة بألوانٍ جديدة من صور الوجدان ومن حياة العواطف؟!.

ولقد أحمدُ لبيئة أبي القاسم ولمعاصريه هذا الإهمال، وأحمدُ أيضاً ما كانت تضع هذه البيئة من حواجز وتقاليد كانت تعذب روح الشاعر وتنكوي على نيرانها عواطفه الرقيقة وإحساسه الرهيف الشفاف؛ أحمدها لأنها كانت أداة فعالة في تفجر هذه الينابيع الثرة الغزيرة التي سال فنُّها على أديم الحياة وتموَّج أريجها في آفاق الإنسانية فطيبها بطيوب الفن وعمَّرها بدنيوات الجمال؟!!!.

ولكنني إذا حمدت البيئة هذا الحمد في العهد الغابر الذي كان يغذي روح الشاعر بالألم، ويستفزُّ عواطفه بالتعذيب والإرهاق، فلست أحمدُ اليوم ما يكتنف هذه الشخصية من إهمال وما يُسبل عليها من نسيان!!.

فلقد مرت سنواتٌ خمسٌ على وفاته ولما ألاحظ أن أحداً من أدبائنا المعدودين تناوله بالدرس أو تناوله بالنقد، ومرت كل هذه الحقبة من الزمن وما رأيت اهتماماً أدبياً جدياً وُجه إلى هذا الشاعر الفذ وأزال عن هذه الشخصية اللامعة الغشاء، اللهمَّ إلا بضع قصائد من قصائده نُشرت في الصحف السيَّارة هنا وهناك.

* * *

كان أبو القاسم الشابي شاعراً وجدانياً بكل ما في كلمة الوجدان من معان، له عشقٌ خاص للجمال، وله غرام فريدٌ في الطبيعة، حتى لكأنه في قصائده يكاد يذوب ويُذيب حواسه ومشاعره في الطبيعة ذوباناً، وأنك لتلاحظ ذلك في كل مقطوعةٍ من مقاطيعه الشعرية ملاحظةً قويةً بارزة، فهو يعشق الجدول عشقاً صوفياً خالصاً، وهو يهيم في الغاب هيماناً فريداً يكاد يصهره في الغاب ويجعله قطعة لاصقةً به، وهو يتمنى أن يكون قطعةً موصولة في كل جزءٍ من أجزاء الطبيعة الجميلة، وفي كل آية من آياتها!؟!! واستمع إليه يتحدث إليك عن ظمأه إلى الجمال العلوي، وإلى شوقه للطبيعة المعشوقة:

وفـي ليلـةٍ مـن ليـالـي الخـريـف ... مثقَّلـةٍ بـالأسـى والضجـر
سكـرت بهـا مـن ضيـاء النجـوم ... وغنيـت للنهـر حتـى سكـر
ظمئـتُ إلـى النـور فـوق الغصـون ... ظمئـتُ إلـى الظـل تحـت الشجـر
ظمئـتُ إلـى النبـع بيـن المـروج ... يغنـي ويـرقـص فـوق الـزهـر
ظمئـتُ إلـى نغمـات النسيـم ... وعـزف الـريـاح ولحـن المطـر
ظمئـتُ إلـى الكـون أيـن الـوجـود! ... وأيـن أرى العـالَـم المنتظـر؟!

هذه الصرخة الأخيرة من هذا البيت الأخير تدلنا أن عواطف هذا

الشاعر وأن إحساساته وميوله وخيالاته كانت فوق عواطف الناس وإحساساتهم وخيالاتهم؛ فلم يكن يُشبعها ما يشبع عواطف الناس من محتويات الوجود ولم يكن يرويها ما يروي العواطف من ملابسات الشعور ومودات الأكوان!.

ولكنها كانت تظمأ إلى وجودٍ آخر وإلى دنيا غير هذه الدنيا يتسع فيها مدى الإحساس وتتمدد فيها رحاب العواطف ولا تتناهى فيها آفاق الخيال!!! من أجل ذلك كان يرى الطبيعة المثل الأعلى لمراميه وغاياته، وكان يرى جمالها اللامتناهي واللامحدود أخصب جمال تسبح في آفاقه مشاعره وتستقي من ينابيعه عواطفه، ويُروي من فتونه نفسه الظامئة وقلبه المتحرق اللهيف واسمعه أيضاً يحدثك في ناحيةٍ ثانية عن الطبيعة ويصف لك موقعها من نفسه وتأثيرها على عواطفه:

إليـك الفضـاء إليـك الضيـاء   إليـك الثـرى الحـالـم المـزدهـر
فميـدي كمـا شئـت فـوق المـروج   بحلـو الثمـار وغـض الـزهـر
فنـاجـي النسيـم ونـاجـي الغيـوم   ونـاجـي النجـوم ونـاجـي القمـر
ولا تسـأمـي نغمـات الحيـاة   ولا فتنـة العـالـم المعتبـر

أنظر إلى هذه الأبيات ولاحظ ما تحتويه من وصف رائع ومن قوة إحساسٍ موجهة إلى صميم الطبيعة وإلى تفاصيل جمالها الفاتن الخلاب؟!.

وقد كان الشابي متبرماً متشائماً في كثيرٍ من قصائده الاجتماعية والوجدانية أيضاً؛ كثير السخط والحنق على شعبه ناقماً أشد النقمة على خمول بيئته واستكانتها إلى الهدوء والكسل حاملاً على هذه التقاليد العتيقة البالية التي كانت ترسف في أغلالها البيئة وتنوء تحت أعباء أحمالها البغيضة الثقيلة وهذه النقمة وهذه الثورة ترجعان إلى أن الظروف السياسية والظروف الاجتماعية التي مرَّ بها أبو القاسم الشابي أثناء حياته في تونس كانت معقدة إلى أبعد حد مريرة إلى غايةٍ من المرارة؛ فالاستعمار يكبل الفكر، والتأخر والجهل المطبقان يحزان في نفس الشاعر ويلوعان عواطف الحساس؟!!.

وقصيدته «النبيء المجهول» تصور ذلك تصويراً بديعاً، وتطالعك بما يعانيه هذا الشاعر من تأخر شعبه وما يقاسيه من خمول أمته واستسلامها إلى أحضان الكرى والسبات؟!! فهو يبدأها بهذه الصرخة الداوية التي تشفُ عن نفسٍ معذبة وشعور مرهف وروح تكاد تنوء تحت خطوب الحياة؟!!:

أيها الشعب ليتني كنتُ حطاباً ... فأهوي على الجذوع بفأسي؟
ليتني كنتُ كالسيول إذا سالت ... تهدُّ القبور رمساً برمس؟

إلى أن يقول معرضاً بذلك لغباوة شعبه وابتعاده عن فهم الحقائق وإدراك معاني هذه الروح السامية، واقتفاء أنوار هذه العبقرية النادرة؟!!:

أنتَ روح غبيةٌ تكره النور ... وتقضي الدهور في ليل ملس
أنتَ لا تدرك الحقائق إن طافت ... حواليك دون مسٍ وجسٍ

ثم ينتقل بك شارحاً لكَ ما يلاقيه من جفاء شعبه، ومن عدم تقديره له، وتذوق هذه الآيات الخالدة التي كان يقدمها له ويُلقيها على مسامعه!:

في صباح الحياة ضمخت أكوابي ... وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها إليك فأهرقت ... رحيقي ودست يا شعب كأسي
فتألمت؛ ثم أسكت آلامي؟! ... وكفكفت من شعوري حسي

ثم بعد أن يُسكت آلامه، ويكفكف من شعوره وحسه، وبعد أن يطغى عليه اليأس، ويغمره الأسى والحزن وتصبح الحياة ضيقةً أشدَّ الضيق عليه، مريرة إلى أقصى حدٍ من المرارة؛ لم يجد أمامه غير الغاب ولم يرَ أنيساً غير الطيور، ولم يعرف صديقاً حميماً لنفسه ولروحه غير هذه المعالم الجميلة التي تفهم أغانيه وتدرك ألحان روحه وتلامس آلامها!!!:

ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعبي ... لأقضي الحياة وحدي بيأسي
سوف أتلو على الطيور أناشيدي ... وأفضي لها بأحزان نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري ... إن مجد النفوس يقظة حس

إذاً فليذهب إلى الغاب، وليتلو على الطيور أغانيه، وليفضي إلى

الظلام البهيم بمرارة هذه النفس، ثم ليسأل الكون بعد ذلك في خشوعٍ وهمس:

عـن مصـب الحيـاة أيـن مـداه وصميـم الـوجـود أيـانَ يـرسـي
وعبيـر الـورود فـي كـل فـجٍ ونشيـد الطيـور حيـن تُمسـي
وأغـانـي الـرعـاة أيـن يـواريهـا سكون الدجى وأيّان ترسي!!!

أرأيت إلى هذه الروح الشاعرة المتلاشية في الطبيعة، أرأيت إلى هذا القلب النابض العظيم الذي لا يسع خفقانه غير الغاب ولا يروي ظمأه غير الجمال العبقري اللامحدود؛ وهذه النفس التي أكدَّها السعي وراء التفتيش عن حقيقة الوجود؛ وأضناها الركوض إثر أغاني الرعاة، وعبير الورود وهمس الطيور هذا هو الشابي في «النبيء المجهول». أما في قصائده «الطفولة الضائعة» «والأشواق التائهة» «والمساء الحزين» فلست تتصور الشابي يتحدث إليك وإنما أنت ترى وتسمع كتلةً من الأعصاب والأحاسيس والشعور تذوب على وهج الألم وتتنزى على لوافح الشقاء والتعذيب؛ ترى غراماً بائساً، وأملاً ضائعاً وقيثارةً تُصعدُ أنغاماً حزاناً تضيع في أعماق الوهاد وفي رحاب الفضاء. وترى نفساً شفافةً وقلباً حساساً شاعراً «تمشي عليه الحياة ويزحف الكون الخطير» كل ذلك في سلاسة ليس بعدها سلاسة وفي ديباجةٍ جديدةٍ وألفاظٍ شعريةٍ ناعمة قل من طرقها من شعرائنا الجدد وأدبائنا المعاصرين!!!.

في هذه القصائد الثلاث يظهر أبو القاسم، يظهر أبو القاسم متحرقاً شديد الحرقة ظامئاً أشد الظمأ، متوتر الأعصاب تكاد تستبين توترها من وراء الكلام، يغلي كأنه المرجل الجائش الذي ألهبته النيران وأجنته الحرارة ولكنه ما يكاد يصل إلى آخر قصيدته «الطفولة الضائعة» حتى تشعر كأن حياته تنتهي مع أبياتها، وأنها تنطفىء مع آخر بيت منها.

وأحسب أن أبا القاسم الشابي مات في شبابه شهيد الإحساس والشعور قتيل الألم والشوق أسيفاً على هذا الوجود الجميل وهذه الطبيعة

الخلابة الأخاذة أن لا تُعمر بأناسٍ يدركون جمالها وينعمون بما فيها من خلابةٍ وفتون!!!!.

واستمع إليه يتحدث إليك في ختام قصيدته «الطفولة الضائعة»:

قد كنتُ في زمن الطفولة — والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل — والجداول والزهور
لا أحفل الدنيا تدور بأهلها — أو لا تدور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب؟ — مشبوب الشعور
تمشي على قلبي الحياة ويزحف — الكون الكبير
هذا مصيري يا بني الدنيا — فما أشقى المصير

هذه قصيدته «الطفولة الضائعة»؛ وأما قصيدته «الأشواق التائهة» فلا تقلُّ مرارةً وتألماً ولهفةً عن أختها الأولى وإليك منها:

يا صميم الحياة، إنّي وحيدٌ — مدلج تائه فأين شروقك؟
يا صميم الحياة إني فؤاد — ضائع ظامىء فأين رحيقك؟
يا صميم الحياة قد وجم الناي — وغام الفضا فأين بروقك؟
يا صميم الحياة أين أغانيك — فتحت النجوم يصغي شوقك

وأما قصيدته «المساء الحزين» فآية من آيات الفن؛ وتحفةٌ من تحف القريض، تتفرد بأسلوب موسيقي خاص - رغم أن كل قصائده موسيقية القافية فتانة مبتكرة الأسلوب والتعابير - ومعانٍ جديدة جميلة وصور بديعة مشرقة الوشي والألوان وأصغ إليه ينشدك:

أظلّ المساء جناح الغروب — فألقى عليه جمالاً كئيب
وألبسه حلةً من جلالٍ — شجيٍّ قويٍّ بهيج غلوب

إلى أن يقول:

وأقبل كلٌ إلى أهله — سوى أملي المستطار الغريب
فقد تاه في معسفات الجبال — وسُدت عليه مناحي الدروب

وظــل شــريــداً وحيــداً بعيــداً　　يغــالــب عنـف الحيـاة العصيـب
وقــد كــان مـــن قبــل ذا غبطــةٍ　　يـرفـرف حـول فـؤادي الخصيـب
ولمــا أظــلّ المســاء الــوجـود　　وأقبــل طيــف الظــلام الكميــد
وقفــتُ وســاءلتــه هــل يـؤوب؟　　لقلبـي ربيــع الحيــاة الشــرود؟!

في هذا المقطع مرارة تضيق بها أحناء النفس، ولوعة وضراعة في هذا الاستفهام تبدوان من وراء موسيقى هذه الألفاظ القليلة؟!!!.

ولا أريد أن أفصل فيما في هذه الأبيات من روعة فنية ومن شاعرية خصبة وروحية قوية تفيض على هذه الأبيات وتتراءى في كل بيت من أبيات الشاعر! تاركاً ذلك إلى القارىء ليحكم عليها حكمه الشخصي المستقل الذي يستلهمه من وراء تأثيراته وما تبعثه فيه هذه الأبيات؟!.

وأما الشابي الوجداني! وأما الشابي عندما يحدثك عن منازع قلبه؛ وعن خفوقه، وعن توقانه للجمال وعبادته له، فذلك ما سنستعرضه بعد حين؟!.

للشابي عدة قصائد وجدانية، وله متفرقات كثيرة في هذا الباب نُشر أكثرها في الصحف بعد وفاته. ومن عيون قصائده الوجدانية، بل من أبرز آيات الشعر الوجداني على الإطلاق بقصيدته المشهورة الخالدة «صلوات في هيكل الحب» فما أعرف شاعراً وما أعرف أديباً أو فناناً استطاع أن يتحدث إلينا بأوصاف خاصة وبتعابير خاصة وبإحساسات للجمال خاصة كما استطاع أن يتحدث إلينا أبو القاسم الشابي!!.

ففي القصيدة نوع جديد من أنواع الوصف، وفي القصيدة ضرب فريد من ضروب التأثر، وفي القصيدة ديباجة وشاعرية فريدتان لم يسبق أن أتى في الأدب العربي شبيههما أبداً!!!.

والقصيدة على الحرارة التي تبدو في أبياتها وفي كل لفظة من ألفاظها تتفرد بمعنى خاص وهو أنه فيها لا يظهر لك أنه عاشق يتحدث إليك عن غرام قلبه وهوى نفسه، وإنما يظهر لك بمظهر الفنان الكبير، والحساس

العظيم الذي يقصُّ عليك مبلغ تأثره بالجمال ومبلغ تأثير الجمال فيه، فهو في القصيدة يتحدث إليك عن الجمال السامي الكامل بصورة نوعية، يحدثك عن الجمال العبقري الذي يتيم قلب الشاعر الشابي ويسكب فيه الفتنة ويريق في صميمه السحر واستمع إليه في مطلع قصيدته:

عذبةٌ أنتِ كالطفولة كالأحلام ... كاللحن كالصباح الجديد!
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء ... كالورد كابتسام الوليد؟
يا لها من وداعة وجمالٍ ... وشباب منعم أملود!
يا لها من طهارة تبعث التقد ... يس في مهجة الشقي العنيد!

وينتقل من الإشادة بجمالها إلى تأويل هذا الجمال وتفسيره فيقول:

أنتِ ما أنتِ! أنتِ رسم جميلٌ ... عبقري من فنّ هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق ... وجمالٍ مقدس معبود
أنت ما أنت أنتِ فجرٌ من السّحر ... تجلّى لقلبي المعمود؟!!!
فأراه الحياة من مونق الحسن ... وجلّى له خفايا الخلود!

أرأيت إلى هذه الألفاظ التي تكاد تختفي من الرقة! ولهذه التعابير الجديدة في هذه المعاني المبتكرة! وينتقل من هذا العالم إلى دنيا ثانية فيقول:

كلما أبصرتك عيناي تمشين ... بخطو موقع كالنشيد
خفق القلب للحياة ورف الزهر ... في حقل عمري المجرود
وانتشت روحي الكئيبة بالحب ... وغنت كالبلبل الغريد
أنت تحيين في فؤادي ما قد ... مات في أمسي السعيد الفقيد
أنتِ أنشودة الأناشيد غناك ... إلّه الغناء رب القصيد
فيك شب الشباب وشّحه السحر ... وشدو الهوى وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصاً ... قدسياً على أغاني الوجود
خطوات سكرانةٌ بالأناشيد وصـ ... ـوتٌ كرجع ناي بعيد؟!!
وقوام يكاد ينطق بالألحان ... في كل وقفة وقعود؟
كل شيء موقع فيك حتى ... لفتة الجيد واهتزاز النهود

أنـتِ قـدسـي ومعبـدي وصبـاحـي   ونعيمـي ونشـوتـي وخلـودي؟!!

ومن هنا بعـدما مرّ بك على هذا الوصف المونق، والتصاوير البديعة في هذه السلاسة ينتقل إلى تصوير ألمه وهمه، ومن هنا يستيقظ من سكرته فيذكر ما هو فيه من عذاب وهموم وعناء فيناشدها العطف، ويناشدها الرفق ويطلب إليها أن تكون به رؤوفاً وفي قلبه رؤوماً!!:

أنقذيني من الأسى فلقد أصبحـ   ـت لا أستطيع حمل وجودي!!!
أنقـذينـي فقـد مللـتُ حيـاتـي   أنقذيني فقد مللتُ وجودي!!!

رحم الله الشابي فقد كان لا يفارقه الألم؛ ولا تفارقه الهموم الروحية؛ حتى في ساعات سكرته وانتشائه، فقد كان حساساً، وقد كان ذكياً وقد كان ساميَ الأمثال العليا بعيد الطموح في الحياة والجمال والحرية والحق؛ يغوص إلى أبعد طيات الطبيعة ليشرف على أسرار الجمال؛ ويفتش في أدق مظاهر الوجود لينتهي إلى الحقيقة؛ ويتطلع إلى ما وراء المرئي والمنظور لينفذ إلى عالمٍ أرحب وإلى دنيا أكثر طلاقة وأرغد مقاماً.

عاش الشابي نحواً من ثلاثين ربيعاً وهو يلحن أنغام الألم على أرق وترٍ من أوتار الشاعرية؛ ومات وقد قدم إلى الأدب العربي تحفة جديدة نادرة ولم يضعها الناس من مكانتها حيث تستحق وما قدروها حق التقدير! فإذا لم يُصغَ للشابي في حياته فما أحراه أن يُصغى له بعد مماته!!!.

الأشـواق التائهـة

د. أحمد زكي أبو شادي

و «الأشواقُ التَّائهة» أحلام عُلويَّة مُجنَّحة، لا تعرفُ القَرار، يَحْدُوها أَلَقٌ ساحر، ثم تستوعبه، وتُفتّشُ عن عوالمَ تُرضيها، حتى إذا ما بلغتْها لم تَقنعْ بها، وراحت تُبدعُ عوالمَ جديدة لها، ثم لم تكتفِ بما أبدعتْه، بل أخذتْ روحُها الخَّلاقة تواصل الإبداعَ متمّمة أو ناسخة، تلك هي «الأشواقُ التائهة» للشاعر الخالد «أبي القاسم الشابّي» الذي وُلِدَ من النُّورِ، ورضعَ منه، وتَغَنَّى به في هيكلِ الحبِّ، صلواتٍ روحانيةً تَفيض بالجمال الإلهيّ.

ولئنْ لم يُعَمَّرْ في هذا الوجودِ فكذلك عُمرُ النُّور: لمحةٌ من الأبد، وهو هو الأبدُ الذي لا أَولَ له ولا آخر. يَصفهُ المولعون العابدون ولا ينتهون، ولا يشبعون، وصفاً وتعريفاً. فلا عجب إذا تعدَّدت الدِّرَاسات الشعرية لعبقريَّة «الشابّي»، ومنها مجموعة الأديب التونسي الأستاذ «أبي القاسم محمد كرّو» ومجموعة الأديب الحجازيّ الأستاذ «محمد العامر الرُّميح».

إنها لعبقرية فذة تُوحي بتأملات لا حصر لها، فتتولَّد من هذه التأملات أطياف وألوان جميلة لا يُغني أحدُها عن الآخر. كذلك شأنُنا نحن، فكلّما درسنا شعرَ «الشابّي» وَدَوَّنّا خواطرَنا فيه؛ ساقنا التأمل إلى الجديد من الخواطر والشَّواعر، وتفرعت عن نشوتنا نشوةٌ أخرى!....

إنَّ شعرَ «الشابّي» هو شعرُ العبقريّة والتفوق؛ فله قُدسية نورانية يصعب تعريفُها، وسواءٌ لدينا فجرُها أو شروقُها؛ لأنّها على اختلاف منازلها تتألق بالجمال وتنمّ عن رسالة سامية، لو لم يقلها شعراً لتألَّقتْ في وجهه

نوراً كما تألّق النُّورُ في وجه «عيسى ابن مريم».

هذا الصبيُّ الصغيرُ الذي لم يبلغ العشرين، يُحسّ في باكورة عمره إحساسَ النبيّ فيقول:

شعـري نفـاثـةُ قلبـي إنْ جـاشَ فيـه شُعـوري
لـولاهُ مـا انجـابَ عنّي غيـمُ الحيـاةِ الخطيـرِ
لا أنظـمُ الشعـرَ أرجـو بـه رضـاءَ الأميـرِ
بِمـدحـةٍ أو رثـاءٍ تُهْـدَى لِـرَبِّ السـريـرِ
حَسْبـي إذا قلـتُ شعـراً أن يَـرتضيـهِ ضميـري

* * *

لا أقـرضُ الشِّعْـرَ أَبْغِـي بـه اقتنـاصَ نَـوَالِ
الشِّعْـرُ إنْ لـم يكـن فـي جَمَـالِـهِ ذا جَـلالِ
فـإنمـا هـو طَيْـفٌ يَسْعَـى بـوادي الضَّـلالِ
يَقضِـي الحيـاةَ طـريـداً فـي ذِلّـةٍ، واعتـزالِ!

لسنا ممن يسوّغ بأي حال وَضْعَ النقد الموضُوعي موضعاً ثانوياً بحيث نُرضخ الحكم على الطاقة الشعرية، إلى ما عداها من الاعتبارات، في تقدير القيمة الفنيّة للشعر، ولسنا ممن يذهبون مذهب التشريح والتَّفلية، الذي يَتناسَى وَحدة القصيد، ولسنا ممن يبخسون أيَّ فنان قدره؛ لمجرد أنه ذو شخصية طالحة، لا تستحقُّ الاحترام، ولسنا ممن يتعصب لشاعر ما؛ لأنه يعبِّر عن فلسفتنا وعواطفنا تعبيراً أكمل، متغافلينَ عن قيمةِ الجوهر الذي يُهديه وعن كفايته الفنيّة الخالصة، ولسنا من عُبّاد التعابير البرّاقةِ، والبيانِ المزخرَفِ الأخّاذِ.. ومع ذلك لا ننكرُ أن الفن إذا امتزج بالتسامي في سبيكة واحدة، وأن الطاقة الشعرية المحلّقة إذا تَشَرَّبَتْ الإيمانَ الرفيعَ تَشَرُّباً لا يُفْصَمُ منها، وأنَّ الفن إذا صار لسانَ النُّبوةِ وترجمان التَّسامي أو توأمه، فإن مثلَ هذا الفنِّ المركبِ الرفيع؛ يكون في اعتبارنا جديراً باعتبار أسمى. وهذه نظرة تختلف جدَّ الاختلاف عن

إرضاخ كرامة الفن أو تقديره للأهواء الذاتية، والتعصُّبات الشخصية، والمسائل والاعتبارات العرَضية. .

وأبو القاسم الشابيّ هو أحدُ أولئك الأفذاذ العالميِّ الرُّوح، الذين لم يبهَرُوا النقد الموضوعيَّ فحسب، من ناحية الطاقة الفنية القوية الغنية، بل بهروا كذلك مقاييسَ المثالية الرفيعة من خُلقيةٍ ووطنيةٍ وإنسانيةٍ، وكانت معجزتهم في الازدواج بين هذه المزايا، وفي الانسجام التام بينها، وهذا قلما يكون إلا للصفوة الموهوبين.

فهذا «أبو القاسمُ الشابيّ» الشاعرُ الوطنيُّ، الثائرُ الرَّائدُ في «تونس الجميلة» و «زئير العاصفة» منذ صباه، هو ذاتُه الشاعرُ الإنسانيُّ في «لَعْلَعة الحق» و «الحرب»، والشاعرُ الوجدانيُّ في «فنّ الظلام» و «الزّنبقة الذابلة» و «الدموع» و «أغنية الأحزان» والشاعرُ المتفلسفُ في «نظرة الحياة» و «مأتم القلب» و «الأمل والقنوط»، والمصلح الاجتماعيُّ أيضاً، وهو كذلك الشاعرُ المتصوّفُ، والعاشقُ المتبتِّلُ في «شكوى اليتيم» و «أيُّها الليل» و «أيُّها الحب» و «حَيْرة» و «جدول الحب» و «يا شعر!.» وكلُّ هذا التراث الثمين، من شعر فتًى لم يبلغ العشرين.

أمَّا بعد هذهِ السنِّ فإننا نواجهُ «الشابيّ» ذاته، ولكنْ في نَفَسٍ أطولَ، ونُضوجٍ أبلغَ وتحليلٍ أعمق، وتفاعلٍ أكمل، وتصويرٍ أشمل. . استمع مثلاً إلى قوله من قصيدته «مناجاة»:

أنتَ يا شعرُ فلذةٌ مِنْ فؤادي	تَتَغَنَّى، وقطعةٌ من وجودي
فيكَ ما في جوانحي مِن حنينٍ	أَبَديٍّ إلى صميم الوُجودِ
فيك ما في خواطري مِنْ بلاءٍ	فيكَ ما في عواطفي من نشيدِ
فيكَ ما في عوالمي مِنْ ظلامٍ	سرمديٍّ ومن صباحٍ وليدِ
فيكَ ما في عوالمي مِنْ نُجومٍ	ضاحكاتٍ خَلفَ الغمامِ الشَّرُودِ
فيكَ ما في عوالمي مِنْ ضبابٍ	وسرابٍ ويَقْظَةٍ وَهُجُودِ

إلى آخر هذه الأبيات التي تبلغ السّتة والثلاثين عَداً، والتي تتلاحقُ

فيها الصور تلاحقاً فنّياً سريعاً؛ لا نعرف شاعراً آخر أُغرِمَ به، ووُفّقَ إليه بهذه الدرجة المدهشة.

لقد اكتَنَفَتْ حياةَ «الشابّي» همومٌ عديدةٌ، ولاقى من عنَت الناس وجحودهم - حيّاً وميتاً - الشيء الكثير، ومات والأدبُ أحوج ما يكون لألمعيته، وصاح والداءُ يُنْشِب أظفارَه فيه:

سأعيشُ رغمَ الدّاءِ والأعداءِ ... كالنّسرِ فوقَ القمّةِ الشّمّاءِ
أرنو إلى الشمس المضيئةِ هازئاً ... بالسُّحْبِ والأمطارِ والأنواءِ
لا ألمحُ الظِّلَّ الكئيبَ ولا أرى ... ما في قرارِ الهوّةِ السّوداءِ
وأسيرُ في دُنيا المشاعرِ حالماً ... غَرِداً، وتلك طبيعةُ الشّعراءِ
أَشْدُو بموسيقى الحياةِ ووحيها ... وأُذيبُ رُوحَ الكونِ في إنشائي
وأُصيخُ للصوتِ الإلهيِّ الذي ... يُحْيي بقلبي مَيّتَ الأصداءِ
وأقولُ للقدرِ الذي لا يَنثني ... عن حربِ آمالي بكلِّ بلاءِ
«لا يُطفئُ اللّهَبَ المؤجَّجَ في دمي ... مَوْجُ الأسى وعواصفُ الأرزاءِ
فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ، فإنّه ... سيكون مثلَ الصَّخرةِ الصّمّاءِ
لا يَعرفُ الشكوى الذّليلةَ والبُكا ... وضراعةَ الأطفالِ والضُّعفاء
ويعيش كالجبّار يرنو دائماً ... للفجر، للفجرِ الجميلِ النّائي
واملأْ طريقي بالمخاوف والدُّجَى ... وزوابع الأشواك والحصباءِ
وانشرْ عليه الرُّعْبَ وانثرْ فوقَه ... رُجُمَ الرَّدَى وصواعِقَ البأساء
سأظلُّ أَمشِي رغمَ ذلك، عازفاً ... قيثارتي، مترنّماً بغنائي
أَمْشِي بِرُوحٍ حالمٍ، متوهّجٍ ... في ظلمةِ الآلام والأدواءِ
النُّورُ في قلبي وبينَ جوانحي ... فعلامَ أخشَى السَّيْرَ في الظَّلْماءِ؟
إنّي أنا النايُ الذي لا تنتهي ... أنغامُه ما دام في الأحياءِ
وأنا الخِضمُّ الرَّحبُ، ليس تزيدُه ... إلاَّ حياةً سَطْوةُ الأنْواءِ

إلى آخر هذه القصيدة العجيبة، ولكنّها ليست بأعجبَ من بقية شعره، الذي يتجلّى فيه جميعاً حُبُّ الاستغراق في المعاني، والتَحليق بالأخيلة،

والمثاليّاتِ النبيلة، والتأنقِ الموسيقيِّ في الألفاظ؛ ـ وكلٌّ ذلك عن طبيعة سمحة مصقولة، رضعتْ من أفاويق اللغة، ومن البيان العربيّ المصفَّى؛ منذ طفولتها، وفي طليعتها القرآن الشريف بكامله.

إنَّ كلَّ قصيدة من قصائد الشابّي ـ طالتْ أم قصرتْ ـ صورةٌ مكبَّرةٌ أو مصغَّرةٌ لهذه المزايا الفنّية، وهو، قبلَ هذا وبعده، المؤمنُ بالحياةِ إيمانَه بالجمالِ والحرّية والساخطُ على طُغاةِ العالم، والمصلِّي في هيكلِ الحبِّ، والمناجي الطبيعةَ دونَ مللٍ، والمتفائلُ دائماً، واللّهفانُ على وطنه أو جَنَّتِه الضائعةِ، وأخيراً المعانقُ الموتَ، في غير وَجَل، عناقَ الفيلسوف الفنَّان، الذي يَنشد التجربة والعلم حتى تجربة الموت! . . . .

لقد كانت حياةُ «الشابّي» سلسلةً متلاحقةً من النكبات والمآسي، في حُبّه وفي أُسرته، وفي وطنِهِ؛ كما كان حسّاساً إزاءَ نكباتِ الإنسانية عامةً، فرثى لسقطاتها، وبكى لها؛ كأنما كان يبكي قومه، وأهاب لتنهض وتَقْوَى وتَنْقَى. وعشراتُ القصائدِ، التي أتحفَنَا بها في فترةٍ من حياته، لم تتجاوزْ سِتَّ سنوات، هي تَرْجُمان صادق لأحاسيسه الشريفة، وذخيرةٌ متميزة في التراثِ الأدبيّ المعاصر، ومبعثُ قوة خارقة لأدب الانبعاث القوميّ، في العالم العربيّ لا في «تونس» فحسب؛ فثورتُه على الطغيان والمتجبِّرين، وعلى الرَّجعية المَقِيتة، وعلى جميع القيود التي ترسف فيها البشرية هي شُعلةٌ متأجّجةٌ هاديةٌ، ولو لم يكن فَنُّ «الشابيّ» قوياً بجميع عناصره، أصيلاً محلقاً؛ لما اكتسبتْ رسالته القوة التي خلعتْها عليها مَواهبُه النادرةُ فالتَّعبيرُ الغثُّ قد يكون عِبْئاً على الفكرة، فيهوي بها بدل أن ينهض ولو كانت طبيعتُها السُّمو، وهذا ما لا يفوت الناقدَ الموضوعيَّ، المستوعبَ، أي الذي لا يَحصر أفقَ تأمُّله ونَقْدِه.

لم يغرّد «الشابّي» سوى ستِّ سنواتٍ، قِيلَ بعدها إنَّه ماتَ، وأمّا هو فقد قال سلفاً:

سأعيشُ رغمَ الداءِ والأعداءِ كالنَّسْرِ فوقَ القمةِ الشَّماءِ

قيل إنَّ النقد الفنّي يجب أن يحصرَ همَّه في الطاقةِ الشعرية وحدها، وكثيراً ما دافعنا نحن عن حقها في التقدير، ومع ذلك فقد لا تتجاوز الطاقةُ الشعرية الضائعةُ طيش النيازك أو عبثَ الصواريخ!... أمّا «الشابّي» فقد أبى أن تحمل طاقتُه الشعرية الخارقة، سوى الحقائق الأزلية الخالدة، أبَى ذلك بطبعه، وبتزاوج الوعي مع اللاوعي في نفسه، تزاوجاً غيرَ مفتَعَلٍ، فخلدَتْ رسالتُه في فنّه وخلّد فنَّه في رسالتِه، ولم يَستطعْ أحدٌ من آلافِ المنتشينَ برحيقهِ أن يُفرِّقَ بين الطعمْ والجوهر؛ فهو وَحدةٌ شاملةٌ، تأبى على الناقد التحليلَ، وتَهَبُ النشوةَ والإلهامَ لصائدي النغم والخيال، ولصائدي المثالية الحيّة على السواء:

أيُّها الشعبُ! ليتني كنتُ حَطّابا ... باً، فأَهْوِي على الجُذوعِ بفأسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سا ... لتْ تهدُّ القبور رمساً برمْس
ليتني كنتُ كالرياحِ فأطوي ... كلَّ ما يَخنقُ الزُّهورَ بنحسَ
ليتني كنتُ كالشِّتَاءِ أغَشّي ... كلَّ ما أذبلَ الخريفَ بِقَرْسَ
ليت لي قوةَ العواصف يا شَعْـ ... ـبي فألقي إليكَ ثورةَ نَفْسي
ليتَ لي قوةَ الأعاصير إنْ ضَجَّـ ... ـتْ فأدعوكَ للحياةِ بِنَبْسي
ليت لي قوةَ الأعاصير، لكنْ ... أنتَ حَيٌّ يقْضِي الحياةَ بِرَمْسِ!

ويَقْسُو على شعبِهِ، ولكنّها قسوةُ المحبِّ المبصِّر، وما كان يأسُه أو استسلامُه إلاّ عارضاً زائلاً، يحفزه إلى همةٍ جديدةٍ:

ها أنا ذاهبٌ إلى الغابِ يا شَعْـ ... ـبي لأقْضِي الحياةَ وحدي بيأسِ
ها أنا ذاهبٌ إلى الغابِ. عَلِّي ... في صميم الغاباتِ أدفنُ نفسي
ثم أنساكَ ما استطعتُ فما أنْـ ... ـتَ بأهلٍ لِخَمْرَتي ولِكَأسِي
سوفَ أَتْلُو على الطُّيور أناشيـ ... ـدِي وأُفْضِي لَهَا بأَحْزَانِ نَفْسِي
فهي تدري معنى الحياة، وتَدْري ... أنَّ مجدَ النفوسِ يقظةُ حِسٍّ!

خدم الشابّي الأدبَ والعربَ والإنسانية بحياته وموته على السواء، ودفع وحده الثمن غالياً لذلك. وبعد أنْ كانت مهمتُنا جدَّ شاقةٍ في الربع

الأول من هذا القرن؛ سعياً للتنويه بأدب الشباب؛ - صار المثل الأعلى الذي ضربه «الشابّي» بشعره يحفز النقاد والمجلات الآن إلى الاهتمام بأشعار شُعراءِ الشَّبابِ - وما أكثَرهُمْ - في هذه الفترة وإذا كان الشباب كالربيع رمز الحياة المتجدّدة، فهو أول من يُطالبُ بإذاعة أدبِ «الشابي» في هذا الشعر المتجدّد الحيّ[1] .

(1) عن كتابه: «قضايا الشعر المعاصر».

أبو القاسم الشابي: حياته وشعره

د. احمد زكي أبو شادي

وأبو القاسم الشابي: «حياته وشعره»، كتاب ممتازٌ لأديب ممتاز عن شاعر ممتاز. ألَّفه أحدُ نوابغ الأدباء التونسيين السيد «أبو القاسم محمد كِرُّو» من خِرّيجي دار المعلمين العالية ببغداد، من الشّبابِ النّاهضِ الواعي الوطنيّ الغيور الذي درسَ وساحَ وفكّرَ، ثمّ بدأ يُزكّي عن معرفته لأبناء الضاد جميعاً، فأتحفنا بِنُخَب من شعره المنثور، في كتابه (كفاح وحب)، ثم نفح العربية بدراسة ممتعة لحياة «أبو القاسم الشابّي» وشعره، سيُتبعها بدراسة أضخم.

وتَقعُ هذه الدراسةُ التي نحن بصددها، في كتاب ينتظمُ ثماني وثلاثين ومائتي صفحة، من القَطْع المتوسّط مطبوعة طبعاً أنيقاً، ومزدانة بصور ملوَّنة جميلة، للقصائدِ البديعة التي أثبتَها أو على الأصحّ لأهمِّها بريشة الفنانّ «ع. شهال»، وقد عُنِيَتْ بإخراجها في صُورة جذّابة «المكتبة العلمية» ومطبعتها، في «بيروت».

وما كان الأستاذ «كِرّو» ولا شاعرُنا العبقريُّ «أبو القاسم الشابّيّ»، بحاجة إلى شيء من البهرج والتزويق، ومع ذلك فإنه يبهجنا أن نرى الطبع الأنيقَ، والشعرَ الأنيقَ، والرسمَ الأنيقَ؛ في مثل هذه الوَحْدَة الجميلة الخلاّبة.

وبروح المعلّم، وأسلوب الأديب الشاعر المعلّم يُحْسِنُ «الأستاذ كرّو» في تقسيمه الكتابَ وفي عَرْضه موادَّه فيتحدّثُ بعدَ مقدّمتهِ البليغةِ، عن الحياة الثقافية في «تونس» القديمة، ثم عن النهضة الحاضرة، فعن حياة

الشاعر وبيئته الاجتماعية، وعن تأثُّره بالأدب المهجريّ، وعن طاقته التصويريّة والتعبيرية، ثم عن زواجه وحُبّه وعن مؤلّفاته، ثم يأتينا بمختارات شائقة من شعره فيقسّمها قسميْن:

أوّلُهما: ما يرجع إلى ما قبل العشرين، **وثانيهما**: ما يَرجع إلى ما بعد العشرين من سني الشاعر حتى وفاته، ثم يختم كتابَه بنماذج رائعةٍ من نثر الفقيد ومعظمه بمثابة شعر منثور.

وليس بوسعنا في هذه الإلمامة أن نتناولَ تفاصيلَ ما عرضَهُ المؤلّفُ الفاضلُ؛ تمهيداً للكلام عن ألمعيّةِ «الشابّيّ» ولكنْ بحسبنا أن نشير إلى أن هذا النابغةَ ظهر ـ ككثير من النوابغ ـ في وسط متأخر بحكم الظروفِ السياسية والاجتماعيةِ المعروفةِ، فلم يتجاوبْ ذلك الوسط معه، ولكنه ارتفعَ فوقَ الوسطِ كما ترتفعُ المنارة، فلا تحسّ بها الأرض التي تحتها، ولكنها تشعّ إلى مسافات بعيدة.

وفي بدايةِ الكتاب اهتمَّ المؤلف بالتَّنبيه إلى أن صحّةَ اسم شاعرنا هي «الشابّيّ» لا «الشّابِي»، نسبةً إلى الشابيّة إحدى ضواحي مدينة «توزر» كُبرى بلادِ «الجريد» بالجنوب التونسيّ. وهذا غير مجهول في الشرق العربيّ الذي يَميل أهله عادةً إلى تخفيفِ النُّطقِ بالأسماءِ ـ ولا سيّما في مصر ـ ومن ثمة نطقوا اسمَ شاعرنا المحلّيّ بالباءِ المخفّفةِ والياء الممدودة، وجاراهم الخاصَّة في هذا النّطق، وإنْ لم يجهلوا الوضعَ الأصليَّ لاسمه.

وقد أُعجبنا بتحليله للعناصر التي أسهمتْ في تكييف حياة الشاعر، وأغلبها مزيجٌ من الأحزان والحرمان، ويا لها من عناصرَ أثيمةٍ تألّبَتْ على كثيرين من الموهوبينَ فصهرتْهم صهراً، وضحّتْ بهم لتغنمَ نورَهم الوهّاجَ المنبعثَ من احتراقهم!...

وبين الخيوط التي حاكها «الأستاذُ كِرُّو» في نَسْجِ سيرة «الشابي» بيئةُ الطبيعةِ الجميلةِ التي حفّتْ بالشاعرِ، ودراستُه الواسعةُ، التي انتهت بتخرُّجه في كلية الحقوق التونسية في سنة 1930 م. وهو في الحادية والعشرين،

ونكبتُه بوفاة والده عائلِ الأُسرةِ، وفَشَلُهُ في زواجه، ومَرَضُه الطويلُ المؤلمُ إلى أن تُوفي في الثامن من شهر أيلول (سبتمبر) من سنة 1934 م غيرَ متجاوزٍ خمسةً وعشرين عاماً، إذْ وُلِدَ مع الربيع في آذار من سنة 1909 م.

يقول المؤلف الكريم في رسالةٍ أدبيّةٍ إلينا بتاريخ الخامس من مايو سنة 1953، جاءتنا إثرَ تسلُّمنا كتابه الممتع:

«يسرّني أن تتفضلوا بإبداء رأيكم.. خصوصاً أنّ لكم صداقةً شخصية قديمة بالفقيد «الشابيّ»، ويعود لكم الفضلُ الأولُ في تعريف القرّاءِ بأدبه منذ عشرين سنة مضتْ، وحتى اليوم، وأنتم تكتبون عنه في مناسبات مختلفة دراسات عميقةً قويةً، ومع ذلك فإنّ أدبَ «الشّابّي» لا يزال بحاجةٍ كبيرةٍ إلى البحث والكتابة والدرس. وكم كان مؤسفاً حقاً موقفُ أهله بعد موته ورغمَ مُرور ثمانية عشر عاماً على وفاته فإنهم لا يزالون مصرّينَ - في عِنادِ الحمقى والجهلةِ - على عدم نشره، لا لسبب سوى عقلية محنَّطة وأفهام متحجّرة. وهكذا لم أَجِدْ مَناصاً من العمل. بكلّ ما لديَّ من جُهود وإمكانيات، على خدمة هذا الفقيد المنكوب في حياته وبعد موته...

لقد كان أهله سببَ موته الماديّ، وها هم أولاء اليوم يتآمرون على قتله المعنويّ، فيرفضون في عِناد نشرَ مؤلَّفاتِهِ وديوانه المُعَدّ للطبعِ رغمَ كلّ العروض المُغْرِية التي عُرِضَتْ عليهم. وقد كان الفقيدُ أعدَّه للطَّبع واتّفق معكم - حسبما أظنُّ - على طبعهِ في مصرَ، ثم عاجله الموتُ قبلَ أن يرسلَ إليكم الديوانَ بيوم واحد. هذه حقائق لستُ أدري إذ كان لكم علمٌ سابقٌ بها أم لا.

وقد رأيتُ - كأحد مواطني «الشابّي» - أن أنشر عنه كلَّ ما هو عندي من أدبه ومعلومات حياته خدمةً له وللأدب العربيّ الذي يعتزّ بالشابّي. فكان أول عمل قمتُ به هو نشرُ كتابٍ يشمل دراسةً طويلةً لحياةِ الفقيد وبيئتهِ ومؤلَّفاتهِ ثم عَرْضُ نماذج مختارةٍ من شعره ونثرهِ لتكون لدى القرّاء صورةً كاملةً عنه. ولستُ أَدري مَدَى نجاحي في عملي هذا، ولكنّي أَعلمُ

مَدَى إخلاصي فيه وحُبّي للشّابّي. على أنّني سوف لا أقفُ عند هذا، بل إنني سأواصلُ العَمَلَ على إنجاز كتاب ضخم عن «الشّابّي» يكون أكبرَ مَرْجع لحياته وأدبه. وأنا الآنَ بصدد إعداد هذا الكتاب الذي يحتاج إلى زمن طويل؛ كي يُنجز على أكمل وجه مستطاع، وإنني أُرحِّبُ سلفاً بكلّ ملاحظاتكم واقتراحاتكم وتوجيهاتكم، ويَسُرُّني كلَّ السُّرور أن ألَقى منكم كلَّ اهتمام وعناية ومعونة!...».

وإننا لنبادر فنقول:

إن العمل المجيدَ الذي قامَ به «الأستاذ كِرّو» هو في حَدِّ ذاتهِ خدمة جليلة لذكرى «الشّابيّ» وأدبه، ونحن على علم بما ذكره، وقد كانت رغبةُ الفقيد العزيز أن نكتبَ مقدّمة دراسية تحليلية لديوانه، وأن تتولّى إصداره في مصر «جمعية أبولّو» التي كان في طليعة أعضائها المراسلين، وأنَّ وصيته لم تُنَفَّذْ!... لقد تَجَمَّعَتْ لدينا رسائلُ كثيرة من الفقيد العزيز، تُعَدُّ بأسلوبها العالي وبصراحتها الوجدانية من عيون الأدب الفكري والعاطفي معاً، ولكنها، مع مئات الرسائل الأدبية من أدباءَ وشعراءَ أعلامٍ شرقاً وغرباً - وبينهم شعراء وأدباء بارزون في المهاجر - وقد ضاعتْ تحتَ وطأة العهدِ البائدِ في مصر قبل هجرتنا وبعدها، وكنا نؤثر ضياعَ بقية مكتبتنا المخزونة على أن تنال الأيدي المتطاولة المتجسّسة ذلك الأدبَ الحيَّ والتاريخ الأدبيَّ المعاصر الذي سُلِبَ منا، وقد جاء ضياعُ تلك الرسائل القيّمة التي تجمعتْ لدينا منذ سنة 1923 إلى سنة 1946 م. من أقسَى المآسي الأدبية المتعدّدة التي نُكبنا بها في حياتنا المضطربة.

أمّا وهذا المصدرُ الهامُّ لدراسة نفسية «الشابّي» ليس تحت أيدينا فليس لنا إلاَّ أن نُشاطرَ الأستاذ «كِرّو» الأملَ في أن أصدقاء الفقيد العزيز، وفي مقدمتهم الأديبُ الموهوبُ الأستاذ «محمد الحليوي»، وشقيقُ الفقيد الأستاذ «محمد الأمين الشّابّي» سيتمكّنون أخيراً من إنقاذ الآثار الباقية للشاعر الفقيد، من أيدي أسرته، ونشرها للعالم العربيّ، ولعالم

المستشرقين، ودارسي الأدبِ المقارَنِ، ففي ذلك تشريفٌ للأسرة بالذات وتشريفٌ لأبناء الضاد جميعاً.

وبعد، فقد رأينا «الأستاذ كرّو» يتحدَّث عن تأثر «الشابّي» بالأدب المَهجريّ، وعندنا أنّه لم يتأثر به أيَّ تأثرٍ خاصّ، ولو جاء شطرٌ أو بيتٌ له في صياغته الكلاسيكية ـ مع اختلاف المعاني ـ مماثلاً لصياغة «جبران» أو سواه، مثلما تقع الحافرُ على الحافر؛ كما يُقال.

لقد كانت للشابّي ذاكرةٌ «فوتوغرافيةٌ»، وهو الذي أتمّ حفظَ القرآن الشريف في التاسعة من عمره حِفظاً كاملاً؛ كما كان له اطلاع واسعٌ ـ عن طريق اللغة العربية التي لم يكن يعرف سواها ـ على آداب شتّى مترجمة لا على الأدب العربيّ وحده، وكانت له قبلَ كل هذا وبعده لوذعيّة أصيلةٌ حَلّقتْ فوق كلّ تقليد وتأثّر حتى منذ نعومةِ أظفاره، وعلى ذلك لنا أن نعتقدَ أنَّ أية مُشابهة بين شعره، وبين بعض الشعراء المهجريين، هي من باب المصادفة لا أكثر. ولعلَّ أعظم تجاوب للشابيّ كان مع زملائه شعراء «أپولّو» حتى قبل ظهور مدرستها!.... ونحن شخصياً أُولعنا بالشابّيّ لا لعبقريته الفنّية فحسب، بل لإنسانيته الرفيعة ولوطنيته السامية أيضاً. وكان التجاوبُ بيننا تاماً مع تميّزه هو بأناقةٍ لا نعرف لها نظيراً إلاّ في قصائد الشاعر الفحل العظيم «بشارة الخوري»، مثالُ ذلك موسيقى «الشابّي» في قصيدته الخالدة «صلوات في هيكل الحبّ» التي يقول في مطلعها:

عَذْبَةٌ أنتِ كالطفولةِ، كالأحلامِ، كاللّحنِ، كالصباحِ الجديد!....

فهي متجاوبةٌ مع قصيدة «عُرْس المأتم» التي كان يُعجب بها «الشّابّي» (ديوان «زينب»)، وقد جاء في مطلعها غير المسبوق إلى طرازه:

عَذْبَةٌ أنت في الخفاءِ، وفي الهَجْرِ، يا أغاني الظلام!...
بلّغِي العاشقَ الأمينَ مَدَى العمرِ شقاءً لقلبهِ المستهامِ!....
وأرقئي أَدْمُعي؛ فحسبي عزاءً أنْ يُسَرَّ الحبيبُ من إيلامي!...

ومثالٌ آخر قصيدتُه العظيمةُ «إرادة الحياة» فإنه متجاوبٌ في مَغزاها مع

الشطر الأخير من قصيدة «النهضة إرادة» «ديوان الشفق الباكي»، وقصيدتُه الجميلة «الصباح الجديد» التي يقول في مطلعها:

اسكتـــي يـــا جـــراحْ   وآسكنـــي يـــا شجـــونْ!

فهو متجاوبٌ فيها بطراز موسيقاها مع قصيدتيْن رائدتيْن هما «قصيدة الوداع»، «قطرة من يراع ـ الجزء الثاني» وقد جاء في مطلعها:

انتَهِـــبْ يـــا شُعـــاعْ   نَبْـضَ قَلْبـي الحـزيـنْ
حـــان وقـــتُ الـــوداعْ   ليتَـــــه لا يَحيـــــنْ
انتهـــبْ يـــا شعـــاعْ   أنـــا ذاك القـــريـــبْ
إنَّ رُوحـــــي مُشـــاعْ   في مَدَاك العجيبْ! . . .

وقصيدة «بعد الصيف» «ديوان «أشعة وظلال»» التي جاء في مطلعها:

اضحكـــي يـــا رِمَـــالْ   مِـــنْ هَـــديـــرِ المِيـــاهْ
غـــابَ مُلْكُ الخَيـــالْ   وتَجَلَّـــــى سِـــــوَاهْ
ذاك بَحْـــرُ الـــدُّمـــوعْ   مِـــنْ بكـــاءِ الـــزَّمـــانْ
فهـــو دَوْمـــاً مَـــرُوعْ   مِـــنْ مَـــآلِ الهـــوانْ
كـــلُّ حُسْـــنٍ بَنَـــاهْ   بيـــديْـــهِ يَـــزولْ
ومِـــراراً رَثَـــاهْ   وأطـــالَ العـــويـــلْ
اضحكـــي يـــا رِمَـــالْ   مِـــنْ فتُـــونـــي العظيـــمْ
أنـــا عبـــدُ الجمـــالْ   الضَّـــريـــرُ الحكيـــمْ!

وكان «الشابّيّ» كما كان «ناجي» ـ رحمة الله عليهما ـ معجباً بكلتا القصيدتين، وكلاهما نَسَجَ على منوالهما. فإذا أراد «الأستاذ كِرُّو» التوسُّعَ في مبلغ تجاوب «الشابّي» مع شعراء عصره، فليتّجهْ إلى الشرق قبل اتجاهه إلى الغرب.

ومهما يكنْ من شيء فإننا نؤمن بأنَّ «الشابّي» كان ذا عبقرية فنّية أصيلة في منتهى الأناقة، كما كان وطنياً عظيمَ الإخلاصِ متأهّباً للزعامة في

بيئته، وفي هذا يختلف عن «ناجي» الذي اقتصر جلُّ شعره على وجدانياته الذاتية، وغنائياته العاطفية، ولم يُسْهِم في الحركة الوطنية.

وكان هذا من أسباب ولوعنا بالشابي الذي يوصف إجمالاً بأنه الفنّانُ المبدعُ المحلِّقُ، والإنسانيّ النبيل والوطني الغيور المضحِّي. وقد حقّقَ بمثاليته الشريفة تأميلنَا في أن يكون الشاعرُ زعيماً هادياً بين بني قومِهِ، إنْ لم يكن أيضاً زعيماً إنسانياً. وفي هذه النّزعة والتعبير عنها كان تَجاوُبُ «الشَّابِّي» معنا كامِلاً، وكنا نعمل كجنود في فرقة واحدة.

أمَّا ما نقترحُه إلى جانب استقصاء التفاصيل للدراسة، فهو شرحُ شعرِ «الشابِّي» ونقدُه نقداً فنّياً مقارناً قصيدة فقصيدة، فتنتج عن ذلك دائرة معارف أدبية لغوية فنّية واسعة يُخدم بها الأدبُ الحديثُ؛ كما تُنصف به مواهبُ شاعرنا الخالد الذكر.

إننا لمشغوفون فخورون بتدريس شعر الشابّي وأدبه وبالتحدث عن سيرته الزكية ولن نملَّ ذلك، ونعتقدُ أنَّ قرّاءَ العربية لن يملوا من قراءة ما كُتِبَ وما سيكتب عنه، ولو تعدَّدت التراجمُ والدراساتُ، ونعتقد أنّ كتاب «الأستاذ كرّو» هو من خيرة الدراسات التي قرأناها عن أيِّ شاعر أو أديب، فإليه نكرّرُ التهنئة كما نُزْجِيها إلى الناشرين المحْسِنين[1].

(1) عن كتابه: قضايا الشعر المعاصر. وكان نشره في أماكن عديدة أخرى.

في ذكرى ميلاد الشابّي

الأستاذ الهادي العبيدي

أيها الجمع الحافل من الشباب المتوثب الطموح من هذا الشعب المتحفز لاقتعاد مقعد العزة والسيادة، تحيات طيبات لكم وسلام عليكم.

لقد أحسن شباب «الاتحاد الصفاقسي الزيتوني» بتنظيم هذه الذكرى الجليلة ذكرى ميلاد شاعر المغرب العربي الشهيد أخينا الحميم وزميلنا البار أبي القاسم الشابي رحمه الله وأرضاه.

ولقد كان إحسان «الاتحاد الصفاقسي الزيتوني» مضاعفاً إذ كانت ذكراه هذه على غير ما تعورف في تونسنا العربية من إقامة الذكريات. فهو يقيم هذا الحفل لذكرى ميلاد الشاعر لا لذكرى مرور كذا من السنوات على وفاته وفي ذلك مغزى طريف وقصد شريف فإن ذكريات الوفاة من شأنها بعث الوهن والحزن في النفوس وإشعارها بفداحة الخسارة التي منيت بها أما ذكريات الميلاد فإنها تاريخ انبعاث النور وظهور البذرة الطيبة والمبدأ الجديد وفي ذلك بعث للحزم الحائر وشد للعزم الخائر ودعوة للأخذ بذلك المبدأ الجديد وتعهد تلك البذرة الكريمة تؤتي أكلها وتستمر على تغذية الأمة التي انبعثت في أرضها. وهذا في نظري سر احتفاء العالمين بذكريات ميلاد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم دون الاحتفاء بذكريات وفياتهم.

وإذن فذكرى اليوم من أنفع الذكريات وأجداها وأعظمها فائدة إذا أخذنا بالمغزى المتقدم وتفهمناها بتلك الروح.

ما كان العصر الذي ظهر فيه الشابي؟ وكيف كانت حال هذه الأمة يوم تفتحت عينا فقيدنا على هذا الوجود وأخذ يحس بنداء المجهول للقيام

بأعباء الرسالة التي كتب الله عليه واجب تبليغها لقومه في نطاق مقدوره البشري وطاقته الإنسانية؟.

لقد كان العصر يومئذٍ عصر تململ وكانت تونس حينذاك في طور الحمل وقد أخذ يتحرك فيها جنين النهضة واليقظة، والأمة قد أخنت عليها سنو الضغط والجدب الثقافي بكلكلها ففقدت وعيها وغشى ذهنيتها ظلام سميك داكن من الإرهاب والاغتصاب، فدب فيها الوهن ومشى في صدور أبنائها اليأس وأهدرت كرامتها فشلت إرادتها وأطبق عليها التواكل والقعود عن السعي للتخلص من حالها، وخيمت عليها سحب العقائد الباطلة والتقاليد المتعفنة فأمست روحاً غبياً لا وجهة له ولا مطمع. وأعمل فيها الدجاجلة والمستثمرون نهباً واستغلالاً بما ليس وراءه فظاعة: أديبها عاكف على اجترار ما طبخه الأولون وقد شاعت فيها وثنية من نوع جديد لا تعبد هياكل الحجارة ولا تحرق البخور عند مذابح أرواح الآلهة الموهومة وإنما تعبد اللحم وتحرق البخور عند مذابح الألقاب وتحت أقدام الطغاة.

ولم يكن الشابي من رجال السياسة أو الإدارة فيسعى لقلب النظام أو قائداً عسكرياً فيشنها ثورة دامية يزحزح بها تلك الهياكل المتجبرة عن عروشها ليفسح للشعب طريق التحرر والحياة حياة إنسانية كاملة، ولكنه كان شاعراً. والشاعر لا يملك إلا قلبه. فتقدم شاعرنا الموهوب الحساس الواعي إلى جند الطليعة من إخوانه وهم جمع قلة وأخذ يستغل مفعول الشعر وسحر البيان في تنبيه قومه والإهابة بهم لكي يخلعوا عنهم ذلك الجلباب القذر من الغفلة والاستسلام والعيش عيش السوائم. وكان هذا خطوة أولى من خطوات الإصلاح إذ خرج بالشعر عما ألفه في ذلك العصر المنحط من أغراض مسفة فسخره في مساندة الدعوة الإصلاحية وجعله بوقاً من أبواق النهضة والإيقاظ.

ولكن أترى المارق عن المألوف الخارج عما اصطلح عليه الخور والخنوع يدرك غايته في سهولة ويسر ويصيب هدفه دون ما أذى وتضحية؟.

إن الجامدين والمستغلين لجمود الشعب لم يستطيبوا صداح هذا العندليب بعد أن طال عهدهم بنعيق البوم. وأن النوم المخدرين لا تستسيغ آذانهم تلك الصرخات التي تقض مضاجعهم وتشوش عليهم أحلامهم الكاذبة وأنهم لا بدّ ثائرون عليه مقتصون منه.

وهكذا مني الشابي رحمه الله بشر ما يمنى به من نصب نفسه لإصلاح شعب طال زمن خذلانه. ولم يكن ـ كما قدمنا ـ يملك قوة مادية يضغط بها عليه ويرضخه قسراً لتجرع الدواء حتى يذهب عنه الداء. فهجم عليه المشلولون الذين لم يستطيعوا مسايرة خطواته العملاقة في دروب الأدب الحي واجتمع عليه الغرابيب السود ينتفون ريش ذلك الحسون الجميل حيث لاح غريباً في سربهم الدميم. أما عباد التقاليد الخرقاء وأصنام الأفن والخطل فقد نصبوا له مجانيقات حقدهم وتعصبهم وأخذوا يرشقونه بحجارة الكفر والإلحاد، وأصبح الشابي هزء بعض الصحف السخيفة ومضغة الأفواه النتنة ولا عجب فالشابي قد انضم لجند الطليعة وجند الطليعة دائماً معرض للخسائر الجسام ما كان المقدم في الكفاح والصدام.

ما الذي جناه هذا البطل؟.

إنه دعا قومه أن ينفضوا عنهم غبار الغفلة وأن تتحرك فيهم إرادة الحياة وعزيمة التقدم وبناء المستقبل المجيد فصاح في الشعب:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي ... ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة ... تبخر في جوها واندثر
ومن لا يحب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر
وقالت لي الأرض لما تساءلت: ... يا أم هل تكرهين البشر؟
أبارك في الناس أهل الطموح ... ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يماشي الزمان ... ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حي يحب الحياة ... ويحتقر الميت المندثر

فويل لمن لم تشقه الحياة   من لعنة العدم المنتصر
إذا طمحت للحياة النفوس   فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولكن أمام هذا الغذاء الروحي الذي ينشط الهمم الخاملة للدأب والسعي والتحرر من حال الموت كان رد الشعب المسير من طرف شرذمة الانتفاعيين والدجاجلة التجديف والسخرية والشتيمة المرة.

وليس الشابي ـ كما قدمنا ـ من رجال السياسة الذين يتحملون هذه الصدمة بالابتسامة والجلد أملاً في انقلاب الوضع وتطور الحال، إنما كان الشابي شاعراً مرهف الحس تجرح عاطفته لأقل جفاء. فتأثر من رد قومه وغضب غضبة تفجر فيها قلبه بهذا القصيد المدمدم المزمجر قصيد ـ النبيء المجهول ـ ذلك القصيد الذي صور فيه حقيقة حال الشعب التونسي يومئذٍ فصرخ:

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً   فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا انسابت   تهد القبور رمساً برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوي   كل ما يخنق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء أغشي   كل ما أذبل الخريف بقرسي

وما تلك الجذوع اليابسة ولا تلك القبور الباردة ولا تلك النباتات الطفيلية السامة التي تخنق الزهور والتي يتمنى الشاعر أن لو كان من أجلها حطاباً فيقتلعها بفأسه وسيلاً عارماً يهدها باندفاعه وريحاً عاتية يطويها ويميتها بنحسه وشتاء قاسياً يغشيها بثلوجه إلا أولئك الجامدون والانتفاعيون الذين يغدرون بالشعب ويمتصون رحيق جهوده وعصارة كده مستعبدينه مذلينه قاضين عليه بالشقاء والحرمان.

ثم أرهف السمع جيداً إلى هذا الألم الوجيع الذي يتنزى في صدر شاعرنا لعدم تمكنه من إبلاغ دعوته وما يجيش بين جنبيه لشعبه المستولي على شعوره وتفكيره من طرف أولئك المجرمين:

ليت لي قوة الأعاصير يا شعـ   ـبي فألقي إليك ثورة نفسي

ليـت لـي قـوة الأعـاصيـر فـأدعـوك للحيـاة بنفسـي

ثم يضيق ذرعاً بغباوة هذا الشعب الذي شل جهاز تفكيره بما موهوه عليه حتى أصبح لا يدرك الحقائق ولا يفقه الزور من الصدق فيقول:

ليـت لـي قـوة الأعـاصيـر لكـن أنـت حـي يقضـي الحيـاة بـرمـس
أنـت روح غبيـة تكـره النـور وتقضـي الـدهـور فـي ليـل ملـس
أنـت لا تـدرك الحقـائـق إن طـا فـت حـواليـك دون مـس وجـس
مـن رحيـق الحيـاة ضمخـت أكـوا بـي وأتـرعتهـا بخمـرة نفسـي
ثـم قـدمتهـا إليـك فـأهـرقـ ـت رحيقي ودست يا شعب كأسي
ونضـدت مـن أزاهيـر قلبـي بـاقـة لـم يمسهـا أي أنـس
وأهـديتهـا إليـك فمـزقـ ـت ورودي ودستهـا أي دوس
وألبستنـي مـن الحـزن ثـوبـاً وبشـوك الصخـور تـوجـت رأسـي
أيهـا الشعـب أنـت طفـل صغيـر لاعـب بـالتـراب والليـل مغـس
أنـت فـي الكـون قـوة لـم تسسهـا فكـرة عبقـريـة ذات بـأس
أنـت فـي الكـون قـوة كبلتهـا ظلمـات العصـور مـن أمـس أمـس
والشقـي الشقـي مـن كـان مثلـي فـي حسـاسيتـي ورقـة نفسـي
هكـذا قـال شـاعـر نـاول الشعـب رحيـق الحيـاة فـي خيـر كـأس
فـأشـاحـوا عنهـا ومـروا غضـابـا واستخفـوا بـه وقـالـوا بيـأس:
قـد أضـاع الرشـاد فـي ملعـب الجن فيـا بـؤسـه أصيـب بمـس

وهكذا جرح الشابي في صميمه وسقط عليه جدار الجمود الذي شاء تحطيمه لإشادة معقل العزة والكرامة لقومه بدله.

وذلك ما يصيب المصلحين في كل عصر ومصر.

واليوم بعد مرور سنوات على موت الشابي تتطور الأمة التونسية بفضل جهود رفاقه من جند الطليعة وبفضل انتباه الوعي القومي فتجتاز تونس طور الحمل لتدخل في طور المخاض وهو الطور الذي نحياه اليوم، فيصبح الشابي مقدساً ويقع الاعتراف بفضله وتصبح أبياته مثلاً لدعاة التحرر

واستفزاز الشعور فيرددون كلما حزب الأمر وجد الجد:

إذا الشعـب يـومـا أراد الحيـاة　　فـلا بـدّ أن يستجيـب القـدر
ولا بـدّ لليـل أن ينجلـي　　ولا بـدّ للقيـد أن ينكسـر

وهكذا يخلد الشابي رغم الداء والأعداء بمبادئه وآثاره وينفخ في الشباب روح التوثب والانعتاق. فليرحم الله الشابي وليكن قدوة للشباب فيما ينتظره من كفاح جد شديد(1).

(1) الاسبوع: ع 109. 110. 111. 112. تاريخ 2 ـ 9 ـ 16 ـ 23 ماي 1948
وهو في الأصل حديث ألقاه الكاتب في مهرجان الشابي الذي أقامته جمعية «الاتحاد الصفاقسي الزيتوني» عام 1948.

مكان أبي القاسم الشابي
في الأدب العربي

بقلم الأستاذ محمد الحليوي

إذا اعتبرنا الأدب العربي الحديث ديواناً واحداً اشترك في تكوينه أدباء العربية المعاصرون، بقطع النظر عن حدود بلادهم الجغرافية واختلاف أوضاعها السياسية وتعدد اتجاهات ثقافاتهم، فما هو مكان أبي القاسم الشابي في تاريخ الأدب العربي الحديث وكيف يكتب مؤرخ الأدب لهذا العصر تاريخ ذلك الشاعر.

يلوح لي أن الجواب عن هذا السؤال أصبح هيناً بعد أن انقضت على وفاة الشابي ـ رحمه الله ـ هاته السنون الثمانية عشرة ـ فمؤرخ الأدب العربي الحديث يكون حكمه على الشخصية التي يؤرخها أقرب للصواب كلما كانت أبعد في التاريخ، لأن عوامل التأثر بمؤثرات المعايشة والمصاحبة تضعف بمرور الزمان فلا يبقى إلا إنتاج الأديب بين يدي المؤرخ ينصفه من أهل عصره إن ظلموه، أو ينصف التاريخ إن أحله أهل عصره مكانة مزيفة جائرة، والشابي من أولئك الأفذاذ الذين ظهروا في عصر لم يكن متهيئاً لفهمهم فأنكرهم أهله وتنكروا لهم.

ظهر الشابي في تونس فلم يفهمه إلا أفراد قلائل، لأن تونس قبل عشرين عاماً لم تكن ناضجة لفهم الشابي، ثم ظهر في الشرق فإذا الشرق يشرئب لهذا الشاعر الجديد، ويتقبل شعره تقبل ظاهرة جديدة في الأدب العربي الحديث، وإذا به يضعه في طليعة المدرسة الحديثة في الشعر

أضراب إبراهيم ناجي، وإيليا أبي ماضي، وعلي محمود طه، ويوسف غصوب وأمثالهم.

فأول ما يسجله مؤرخ الأدب عند كتابة تاريخ الشابي هو ظهوره فجأة كشاعر تام النضج، مستكمل التكوين له مذهبه في الحياة ونظرته إلى الكون، كما له أسلوبه الخاص في الشعر وطريقته الذاتية في الاستعارة والخيال ـ وكما أن مؤرخي الشاعر «لامرتين» يتعرضون إلى ظهوره فجأة في الأدب الفرنسي يجب أن يتعرض المؤرخون إلى ظهور الشابي فجأة في الأدب العربي ـ كان «لامرتين» يحمل مخطوط ديوانه إلى الناشرين؛ وكانوا يرجعونه إليه معتذرين وقال له أحدهم:

«لقد قرأت شعرك ـ يا سيدي ـ فوجدت له حظاً من الجمال والقريحة والذكاء».

«ولكنه خال من البحث والدرس، إنه لا يشبه شيئاً من الشعراء الذي يؤثر عن شعرائنا».

«ولا أدري من أين أخذت هذا الأسلوب، واقتبست هاته الآراء، ونقلت تلك الصور التي لا تجري».

«على سنن الشعر الفرنسي، ولا ترجع إلى قواعده المعروفة، وأبوابه المألوفة، فأعرض».

«عن هذا التجديد الذي ينكره الذوق الفرنسي، واقرأ لفحول أدبنا ممن يجلهم الشعب» «ويفخر بهم الأدب».

ثم ظهر ديوان «لامرتين» فانذهل النقاد. . . . وهذا عين ما تقبل به المسيطرون على ميدان الأدب إذ ذاك شعر الشابي أول ظهوره.

والميزة الثانية التي يجب أن يسجلها المؤرخ لأدب الشابي هي تأثيره العميق في الناشئة الأدبية في المغرب العربي وحتى في الشرق العربي، وتأثير الأديب في أبناء جيله وفي الأجيال الصاعدة ربما كان من أصح

المقاييس التي يستدل بها على عظمة ذلك الأديب وعلو مكانته في ديوان الأدب،فنحن لا زلنا نلمس إلى اليوم في آثار شعراء الشباب هيمنة الشابي على إنتاجهم؛ وإن لم يوجد إلى الآن من استطاع أن يحل مكانه أو يتمم ما بدأ به ـ ذلك أن عبقرية الشابي من العبقريات التي لا تقلد أو تنال بسهولة ـ ومن أعجب ما يلاحظ أن الشابي ـ رحمه الله ـ تأثر بأدب المهرج تأثراً ظاهراً ولكنه حين اقتفى أثر أعلامه تفوق عليهم وغلبهم لا سيما في جمال الأسلوب ونقاوته؛ وقوة الصور الشعرية فالشابي ـ عند أهل المعرفة بالكلام ـ أشعر من جبران وأعمق من غصوب وأمتن من أبي ماضي. أما ماهية أدب الشابي ومعدنه والمجال الذي جرى فيه قلمه فذلك ما سجله راثوه ومقدروه الكثيرون في سلسلة من المباحث والدراسات نشرت في الشرق والغرب وترجمت إلى اللغات. ولا بدّ لمؤرخ الأدب من الاطلاع عليها واستيعابها قبل أن يضعه في مكانه من ديوان الأدب العربي وفي رأيي أنه مكان ممتاز لا يقل عن المكان الذي احتله امرؤ القيس بتشبيهاته وجرير بمناقضاته، وأبو نواس بخمرياته والمتنبي بحكمياته وابن الرومي بهجائياته وأبو فراس برومياته وأبي العلاء بلزومياته[1].

(1) الأسبوع (تونس) عدد خاص رقم 311 (24 ـ 11 ـ 1952).

رأي في قراءة الشعر
ومحاولة تطبيقه على شعر الشابي

بقلم الدكتور الطاهر الخميري

«... وليس «كل» ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه حتى تتدبره.. فإن كان موافقاً لعقلك مصلحاً لحالك، فراع ذلك عندك، وإلا فانبذه نبذ النواة، فليس لكل أحد يبتسم، ولا كل شخص يكلم، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يعامل به كل أحد... ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ويقول:

ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل، ولا مكان يرتاح فيه. فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبهم الحرمان واستحقت طلعتهم الهوان، وأبرموا على الناس بالسؤال، فمقتوهم، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم».

هذه الكلمة قالها ابن سعيد المغربي الذي عاش في القرن السابع للهجرة وكأنها قيلت اليوم في شعرائنا المعاصرين. والمهم فيها هو تلك الدقة في التعبير، واجتناب التعميم وتأكيد ذلك بتكرار «ليس كل» التظلم والتشكي، والتحسر والتحرق، واليأس والتشاؤم، والركاكة والغموض والتهويل هي الصفات الغالبة على الشعر العربي المعاصر وإليك أحدث وأفظع مثال منه:

اللهيب المجنون بين ضلوعي ... والدموع الحمراء تحرق خدي
وشراعي الرهيف في لجة الشك ... غـريـق فـي مـوجهـا الممتـد

ولحـونـي مخضبـات وقلبـي نغـم ظـامـىء يعـذب سهـدي
وصباحي يطل من أفقه الدامي غـريبـاً فـي ليلـه المـربـد
وأنـا طـائـر شقـي الأغـاريـد حزين الرؤى أرفرف وحدي

(مجلة الرسالة 13 ـ 10 ـ 1952).

اللغة هنا لغة الشابي والحالة النفسية تشبه بعض حالاته النفسية. فهل نستنتج من ذلك أن الاثنين من طراز واحد. إن القول بذلك لهو كالقول بأن قصيدة: «أراك عصي الدمع» من فم شيخ سكران، هي مثلها من فم أم كلثوم.

إن وراء يأس الشابي إيماناً من نوع صوفي عميق يؤكده في قوله مخاطباً القلب الإنساني:

تبلـو الحيـاة فتبليهـا وتخلعهـا وتستجـد حيـاة مـالهـا قـدم
وأنت أنت: شباب خالد نضر مثل الطبيعة: لا شيب ولا هرم

وإن مع تشاؤمه تفاؤلاً مشرقاً يحبب الحياة ويدفع إلى العمل:

ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها فم الزمان إذا ما انسدت السبل
ومـن لـم يعـانقـه شـوق الحيـاة تبخـر فـي جـوهـا وانتشـر
ومـن لا يحـب صعـود الجبـال يعـش أبـد الـدهـر بيـن الحفـر
ومـن نـاجـت النـور أحـلامـه يبـاركـه النـور أنـى ظهـر

لقد عاش الشابي وأنتج بين جيلين من الشعراء، الجيل الذي كان يرقص على إيقاع القدماء سراً وعلانية وقد ابتدأ بالبارودي وانتهى بعلي الجارم،وهذا الجيل الحاضر الذي لا يزال يحاول إكراه الشعر العربي على الدخول في الرمزية والوجودية والسريالية وغيرها من المذاهب وسلم مع ذلك شعر الشابي من عيوب الجيلين.

أما تأثره بشعراء المهجر فهو تأثر سطحي خارجي.

إننا نجد في «لغة» الشابي ما يذكرنا بجبران خليل جبران وميخائيل

نعيمة ونسيب عريضة وإيليا أبي ماضي، ولكن المقابلة يجب أن تقف عند ذلك.

إذا سلمنا بهذا وعملنا بوصية ابن سعيد المغربي في قراءة شعر الشابي، أمكننا أن نفهمه حق الفهم وأن نقدره حق قدره[1].

* * *

(1) الأسبوع مرجع سابق.

أبو القاسم الشابي
شاعر تونس الخضراء

الأستاذ حسن كامل الصيرفي

عندما يذكر اسم أبي القاسم الشابي[1] شاعر تونس الشاب الذي سطع كنجم متألق، وخبا كبرق خاطف، تعود بي الذاكرة إلى أوائل الثلاثينات، حيث صدرت مجلة «أپولو» لسان حال هذه الجماعة التي ضمت عدداً من شيوخ الشعر وشبابه، واستقبلها شاعر العربية الخالد أحمد شوقي الذي رأس أول مجلس إدارة لها بقوله:

«أپولو» مرحباً بك يا «أبولو» فإنك من عكاظ الشعر ظل

فحققت في سنواتها القلائل التي عاشتها من سبتمبر سنة 1932 إلى ديسمبر 1934 ـ والتي سطعت فيها هي أيضاً كنجم متألق، وخبت كبرق خاطف ـ أمل شاعرنا الكبير حين قال:

عسى تأتيننا بمعلقات نروح على القديم بها ندل
لعل مواهباً خفيت وضاعت تذاع على يديك وتستغل

لقد بسطت هذه المجلة ـ التي كانت حدثاً تاريخياً في عالم الأدب حيث تنفرد صحيفة بالشعر فتناصره على شتى ألوانه ومذاهبه، وتحتفي بالشعراء من كل قطر على تفاوت أعمارهم ومواهبهم ـ ذراعيها لتحتضن كل المواهب، ما عرف منها وما لم يعرف، وما كان قد كشف عنه وما لم يكشف.

---

(1) الشابي (بتشديد الباء الموحدة) نسبة إلى مسقط رأسه «الشابية» بتشديد الباء الموحدة.

ولم تمض أشهر ثلاثة على صدور عددها الأول حتى كانت تتلقى من الأقطار العربية القريبة فيضاً زاخراً من القصائد والبحوث، وامتدت هاتان الذراعان القويتان لتجذبا إلى روضها المشرق المونق بلابل كانت تصدح بعيداً بعيداً فلا تسمع في أرجاء العالم العربي: من سنغافورة والهند شرقاً، ومن تونس ومراكش غرباً، ثم من الأمريكتين حيث يعيش عدد غير قليل من الشعراء العرب الذين حملوا معهم عند هجرتهم أملاً عريضاً في أن يبعثوا حيث حلوا صورة جديدة من الأندلس تعيد إلى الأذهان ملامح الأندلس التي بعثها أجداد لهم منذ قرون في القارة الأوروبية.

وكانت «أبولو» تنشر في العدد الواحد العشرات من القصائد، بل تنشر لشاعر واحد قصيدتين أو ثلاثاً، على حين كان الشعر لا يشغل من كثير من الصحف الأدبية في النادر إلا أضيق حيز، بل كان لا ينشر منه إلا شعر الكبار من الشعراء.

في هذه الفترة القصيرة في حساب التاريخ الزمني، الطويلة في حساب التاريخ الأدبي، وعلى وجه التحديد؛ في شهر مارس سنة 1933، حمل البريد إلى تلك المجلة «أبولو» من «تونس»، وعلى وجه التحديد أيضاً من تلك البلدة الرابضة في الجنوب الغربي من ذلك القطر وهي: «توزر الجريد»، قصيدتين لشاعر لم يعرف عنه أهل المشرق شيئاً، بل كان غريباً بين أهل المغرب، هذا الشاعر هو «أبو القاسم الشابي»، وكانت القصيدة الأولى بعنوان «صلوات في هيكل الحب»، والأخرى بعنوان «السعادة».

كانت القصيدتان مكتوبتين بالخط المغربي، فدفعت بهما إلى المطبعة ـ وكان لي شرف المشاركة في تحريك تلك المجلة ـ فجاءني صفافو الحروف حائرين مشدوهين سائلين مستفسرين، فاسترجعت القصيدتين، وخلوت إليهما أستوضح ما أبهم من حروفهما، ثم كتبتهما من جديد بالخط المشرقي بين سطور أبياتهما. وكانت هذه المحاولة مني فاتحة معرفتي بالخط المغربي أعانتني بعد ذلك فيما أخذت به نفسي من تحقيق التراث

العربي عند الرجوع إلى بعض المصادر التي حفظتها لنا خزائن الكتب في بلدان المغرب.

وقد نشرت هاتان القصيدتان في العدد الصادر من «أبولو» في شهر أبريل سنة 1933 فلفتتا إلى صاحبهما الأنظار. وكان قد أرسل إلى المجلة نسخة من كتاب له ضم محاضرة ألقاها على جمهرة من المتأدبين في تونس عالج فيها «الخَيال الشعري عند العرب» فتولى زميلنا الشاعر «مختار الوكيل» نقد هذا الكتاب، ورد عليه «الشابي» بعد ذلك.

وفي عدد مايو سنة 1933 نشرنا له قصيدة ثالثة عنوانها «الجنة الضائعة».

وفي يونيه سنة 1933 نشرت له قصيدتان هما: «أنا أبكيك للحب»، و «الأبد الصغير».

وفي سبتمبر سنة 1933 نشرنا له قصيدتيه: «قلب الأم»، و «في ظل وادي الموت».

وفي يناير سنة 1933 نشرت قصيدتاه: «الصباح الجديد»، و «ألحاني السكرى».

وضم عدد فبراير سنة 1934 أربع مقطوعات له هي: «الناس»، و «الرواية الغريبة»، و «أيتها الحالمة بين العواصف»، و «صوت من السماء».

وفي شهر مارس سنة 1934 نشرنا قصيدته: «من أغاني الرعاة»، وكان قد بعث برسالة إلى الدكتور «أحمد زكي أبو شادي» يعلنه فيها أنه يعد للنشر ديوانه الذي سماه «من أغاني الحياة». فأعلن الدكتور «أبو شادي» عن ذلك فيما صدر بعد ذلك من أعداد المجلة، وكان الشاعر قد أبدى رغبته في أن يطبع هذا الديوان بالقاهرة وأن يشرف عليه «أبو شادي».

وفي شهر مايو سنة 1934 نشرنا له ثلاث قصائد هي: «إلى طغاة

العالم»، و «الإيمان بالحياة»، و «نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثيوس».

ثم انقطعت رسائل الشاعر فترة حتى تلقى الدكتور «أبو شادي» في شهر أكتوبر سنة 1934 رسالة كان قد كتبها «أبو القاسم» إليه قبل وفاته مع رسالة تنعاه حيث فاضت روحه في فجر التاسع من أكتوبر بعد مرض طويل هدّ قواه ولم تنفع في درئه العناية والعلاج.

وقد علمنا بعد ذلك أن سر انقطاع رسائله اشتداد العلة عليه، وأنه عاد إلى «تونس العاصمة» في أواخر أغسطس ليعرض نفسه على الأطباء، وأقام في ضاحية «أريانة»، ولكن المرض لم يرحم هذا الجسد الواهي الذي يضم هذا الشعاع الشاعري الإلهي، فاشتدت وطأته عليه، فأدخل المستشفى الإيطالي، ولم يمض أسبوع على دخوله المستشفى حتى كانت نهاية الصراع بين الحياة والموت، وبين التغريد والصمت.

وقامت تلك المجلة التي احتفت بشعره وهو حي، تحتفي بذكراه وهو ميت، تلك المجلة التي كانت المنبر الذي علا صوته من فوقه إلى بقاع الأرض، فنشر الدكتور أبو شادي في عدد نوفمبر سنة 1934 قصيدة في رثائه مطلعها:

أبا القاسم الشابي! أبا القاسم الشابي! مكانك في الأخرى مكانة أرباب

وأشار إلى الرسالتين اللتين وردتا إليه، فقال:

أتـانـي كتـاب الـود منـك وطيـه نعيك! يا للروع ينسف أعصابي!

وصدر عدد ديسمبر سنة 1934 يحمل دراستين واحدة عن شعر الشابي بقلم الشاعر «حسن محمد محمود» (وهو الدكتور حسن حبشي)، والأخرى عن فن الشابي بقلم الناقد «نظمي خليل». وثلاث قصائد إحداها للأخ الشاعر «صالح جودت» عنوانها «بين عالمين» مطلعها:

مـن وراء الغمـام فـي الأفـق الـذا هـل مـن حلكـة القضـاء المغيـب
طـالعتنـي فـي رهبـة وجـلال لمحـة مـن خيـالـه تتـوثـب

ثم خاطب الشاعر بقوله:

أيها الشاعر الذي بعث النشـ ـوة في عالم جريح معذب
كلما رجعوا نشيدك عادوا مهجات بلحنه تتطرب
أيها الساحر الذي هدهد الأر ض سناء هنيهة وتغيب
الهنيهات لا يقسن خلودا فهو كالله عمره ليس يحسب

وقصيدة للشاعر «محمد سعيد السحراوي» عنوانها «زورق الصياد» مطلعها:

رسا زورق الصياد في غسق الدجى على شط بحر موجه متلاطم

ثم قصيدة لكاتب هذه السطور، وقد جعلت عنوانها «الصباح الجديد»، وهو عنوان قصيدة للشاعر الشابي، وقد قلت في مطلعها:

أيها المتعب الذي حطم الناي واستراح
هذه غاية المنى . . . هذه غاية المراح . . . .

وكنت قد أشرت فيها إلى ما لقيه هذا الشاعر من جحود، وما ترك هذا الجحود في نفسه من مرارة، وفي قلبه من جراح، وفي جسده من ضنى، فقلت:

في طريق من الأسى وظلال من النواح
فوق أشلاء بعثرت من أمانيك الرزاح
وصخور . . . . كأنما تنبت الشوك كالرماح
سرت تشكو وتشتكي ألم الجهد والكفاح . . .
ألم اليأس في المنى . . ألم الوخز والجراح
عشت تشدو لعالم قد تلهى بكأس راح
الأعاصير لهوه . . . . . وأغاريده الرياح . . .
كيف يصغى لشاعر وهو جذلان بالنباح

وكان الشاعر نفسه ـ قبل موته بتسعة أشهر ـ قد أطلق صيحته المدوية التي ختمها بقوله:

اسكتـــي يـــا جــراح واسكنـــي يـــا شجـــون
مـــات عهـــد النـــواح وزمـــــان الجنـــون
وأطـــــل الصبـــــاح مـــــن وراء القـــــرون

* * *

مـــــن وراء الظـــــلام وهـــــديـــــر الميـــــاه
قـــد دعـــانـــي الصبـــاح وربيـــــع الحيـــــاه
يـــا لـــه مـــن دعـــاء! هـــز قلبـــي صـــداه!
لـــم يعـــد لـــي بقـــاء فـــوق هـــذي البقـــاع

* * *

الـــوداع! الـــوداع! يـــا جبـــال الهمـــوم!
يـــا ضبـــاب الأســـى! يـــا فجـــاج الجحيـــم!
قـــد جـــرى زورقـــي فـــي الخضـــم العظيـــم
ونشـــرت القـــلاع فـــالوداع الـــوداع !

ومع خفوت صوت هذا الشاعر الذي انطلق في جنبات المشرق والمغرب من فوق منبر «أبولو» من القاهرة، خفت صوت هذا المنبر أيضاً الذي رفع للشعر منارة ما زالت إشعاعاتها حتى الآن تضيء جوانب العالم العربي.

وبعد أن سكت منبر «أبولو» أصدر الدكتور أحمد زكي أبو شادي في سنة 1936 عدداً ضخماً من مجلة «الإمام» التي كان قد بعثها إلى الوجود من جديد، قصره على «الشابي» ضم عدداً من الدراسات عن هذا الشاعر بأقلام طائفة من أدباء العرب.

هذا هو «الشابي» حين احتضنت مصر أدبه وقدمته إلى الأمة العربية جمعاء منذ قرابة أربعين عاماً.

لا بدّ أن يستجيب القدر:

أما الشاعر نفسه ـ قبل أن تعرفه مصر وتحتضن أدبه ـ فقد تمخض

عنه القرن العشرون بعد أن خطا هذا القرن إلى السنة التاسعة منه، في جزء من الجناح الغربي للوطن العربي كان ـ وقتذاك ـ رازحاً تحت نير استعمار بغيض يريد أن يطغى حتى على لغته، يريد كتم أنفاسها، لتنقطع الصلات بينه وبين أخوة له في ذلك الوطن الكبير. هذا الجزء من هذا الجناح هو «تونس».

وسمعت سماء هذه القرية الوادعة الحالمة بين النخيل المتراقص «الشابية» التي تحتضنها مدينة «توزر الجريد» القابعة في الجنوب الغربي من «تونس» صوت صرخات الوليد الصغير تنبعث من بيت وادع ترفرف عليه أجنحة سلام وإيمان، وتغمره تمتمات شيخ وقور غمر الإيمان قلبه، يقضي نهاره قاضياً في أمور الخلق، ويقطع ليله في التأمل والتسبيح للخالق.

وكأنما أراد القدر أن يظل بكاء الطفل عند ولادته متصل الأنين والزفرات ينبعث صداهما من أعماقه في صباه وفي شبابه حين أودع في كيانه سرعة الانفعال وحدة الذهن.

ثم أراد القدر مرة أخرى أن يهيىء نفس هذا الوليد عندما بلغ حد الإدراك لتختزن في أعماقها آلام الناس تكبر معه كلما كبر، وتنمو مع إحساسه كلما نما، ليكون فيما بعد الشاعر المترجم الصادق لآلام البشرية.

وعلى الرغم من جمال الطبيعة ومفاتنها مما كان يحيط بالشاعر في مسقط رأسه، وفي البقاع التي كان يتنقل فيها مع أبيه حين ينقل الأب إلى وظيفة هنا أو هنا، ثم انتقاله هو إلى العاصمة التونسية ليلتحق بجامع الزيتونة وهو في الثانية عشرة من عمره من سنة 1921 إلى سنة 1927 عند تخرجه، فإن هذه المفاتن ـ وإن كان قد استطاع أن يرسم لنا بشعره صوراً ساحرة خلابة منها ـ فإنها لم تستطع أن تضفي على أغوار نفسه الألوان المشرقة التي أضفاها هو عليها، وكأنه كان يحس أن في هذه الأغوار عالماً غير هذا العالم الذي يعيشه، عالماً منفصلاً عن كل ما حوله، عالماً كله أشباح عدم، وأصوات ألم، وصراخ ندم، وصراع سقم.

وما تكاد قيثارة هذا الشاعر تعزف لحناً طروباً حتى يرتد هذا اللحن سريعاً ليرتفع عليه صدى ألحان الأسى وهتاف الغيب المحجب بضباب كثيف.

فما سر ذلك؟.

لقد كان وراء هذا عوامل عديدة. لعل أقواها في نظرنا هذا المرض الذي بكر معه وبدأ يخطو في كيان هذا الفتى حتى استفحل أمره في القلب وفي الرئتين معاً: ضيق في القلب، وضيق في الرئة يتعذر معه التنفس، فكان يضطر إلى التنقل من الجنوب إلى الشمال، يقضي الصيف في مصايف وطنه، ويسكن في الشتاء إلى مشاتيه حسب أوامر الأطباء طلباً للعلاج والتماساً للشفاء.

وقد حرمه المرض منذ نعومة أظفاره من مجاراة أنداده من الصبيان فيما يلهون به، أو مشاركة زملائه من الشبان فيما يظفرون من متع ومراح، حتى لنراه يخط في يومياته في مستهل عام 1930: «ها هنا صبية يلعبون بين الحقول، وهنالك طائفة من الشباب الزيتوني والمدرسي يرتاضون في الهواء الطلق والسهل الجميل. ومن لي بأن أكون مثلهم؟.. ولكن أنى لي ذلك والطبيب يحذر عليّ ذلك لأن بقلبي ضعفاً. آه يا قلبي، أنت مبعث آلامي ومستودع أحزاني! وأنت ظلمة الأسى التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجية».

ولكنه على الرغم من هذا الضيق النفسي كان يحب الحياة فيصرخ في قصيدته «نشيد الجبار»:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئاً ... بالسحب، والأمطار، والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب، ولا أرى ... ما في قرار الهوة السوداء
وأسير في دنيا المشاعر حالماً، ... غرداً.... وتلك سعادة الشعراء
أصغي لموسيقى الحياة ووحيها، ... وأذيب روح الكون في إنشائي

وأصيـــخ للصـــوت الإلهـــي الـــذي يحيـــي بقلبـــي ميـــت الأصـــداء

وينصحه الأطباء بعدم الزواج، ولكنه يتزوج عام 1930 لأن في أعماقه نداء جارفاً بحب الحياة، بأن تستمر حياته في عقب له.

وتشتد عليه العلة في عام 1931 فينصحه الأطباء مرة أخرى بالابتعاد عن كل عمل يرهق فكره وجسده، ولكنه مرة أخرى لم يستمع لهذه النصيحة لأنه يستمع إلى نداء أقوى يطالبه بأن يعمل ليعيش بعد ذلك خالداً فيما يتركه بعده لتستمر حياته في آثاره.

وإني لأراه في قصيدته «إرادة الحياة» كما أرى «البحتري» في قصيدته «إيوان كسرى». فقد وقف «البحتري» يقارن ـ وهو في موقف الأسى والضيق ـ بين ذاته التي تكاد تهوي بها الأحزان، وبين الإيوان الذي يتحدى الزمان عصياً أبياً متماسكاً، فيتماسك هو أيضاً حين أرادت يد الأحداث أن تزعزعه حتى لا يضعف فيحل به الهوان، وحسبه هذه العظة من هذا الإيوان.

ويقف «الشابي» يقارن كذلك ـ وهو في موقف الأسى والضيق ـ بين ذاته التي يريد المرض بقسوته أن يحطم روحها ويزهقها، وأن يطمس معالم الحياة فيها ويغرقها، وبين شعبه العصي الأبي العريق الذي يريد المستعمر الصفيق بقوته أن يحطم روحه فلا تنبض، وأن يطمس معالم عروبته فلا تنتفض، فيريد الشاعر لنفسه القوة والعزيمة، ويريد لشعبه قوة الشكيمة والثورة، فيصرخ في قصيدته هذه الصرخة التي شرقت وغربت:

إذا الشعـــب يـــومـــاً أراد الحيـــاة فـــلا بـــدّ أن يستجيـــب القـــدر
ولا بـــدّ لليـــل أن ينجلـــي ولا بـــدّ للقيـــد أن ينكســـر
ومـــن لـــم يعـــانقـــه شـــوق الحيـــاة تبخـــر فـــي جـــوهـــا، وانـــدثـــر

ثم يهتف في ختام هذه القصيدة بصوت لا يعرف اليأس، وكان القلب الذي يصدر عنه لم يصب بمرض، ونحس أن صوت شعبه يتردد في صدى صوته:

إذا طمحت للحياة النفوس فلا بدّ أن يستجيب القدر

مع صراع الحياة والموت:

ويجيء العامل الثاني، وهو مرض أبيه وتحير نظره بين هذا الراقد أمامه وبين أخوته الملتفين حول سريره صغاراً لا يدرون ما يفعل القدر ثم يفجع بموت أبيه في مارس سنة 1929 فكان لهذه الفجيعة أثران كبيران: أثر في اشتداد وطأة المرض عليه، وأثر في حياته حين يرى أن هذه النهاية ستلقي عليه أعباء الأسرة، وهو الذي أبى أن يلج باباً من أبواب الرزق.

لقد كتب إلى صديقه «محمد الحليوي» في تلك السنة خلال مرض أبيه رسالة تطفح بالأسى وتنضح بالمرارة يقول فيها:

«إنني أحاول أن أخط إليك ما تحسّه نفسي من مرارة الأوجاع وهموم الزمن الجائر فلا أستطيع إلا مثل هذه الكلمات المتقطعة التي لا تكاد تبين عما أكابد من غصص العيش وبأسائه، ولا تفصح عما يساورني من الأفكار المدلهمة كقطع الليل المظلم. لا أذكر أن قد مرت عليّ فيما سلف من عمري أيام أنكد من هذه الأيام أو أشد. في الصباح أجلس إلى أبي الذي أنهكه المرض وأضناه، وأرمضه الألم وأذواه، وطرفي إلى وجهه الشاحب العليل وإلى جفنه الذاهل الذي أذبله الألم وأذوته الحمى، وإلى جسده المهتدم الواهن، وسمعي إلى نفسه المتقطع وتأوهاته المتتابعة، وعهدي به ذلك الرجل الجليد، فما أراه كذلك إلا وتملأ صدري الزفرات، وتملأ عيني العبرات، وتنطلق من قلبي المثلوم وصدري المكلوم أنات القهر ودعوات الرجاء إلى إله الحياة والموت وباسط النور والظلمات أن يشفي هذا الأب الواهي الطريح».

مخاوف الليل وأهوال الظلام:

ثم يجيء العامل الثالث وهو إحساسه بالغربة في وطنه، حين يرى التنكر لأدبه وعدم تقدير البيئة التي يعيش فيها لهذا اللون الجديد من

الشعر، ويشهد صخوراً جامدة تقف أمام هذا التيار لتصده وتعوقه عن المضي في طريقه، فنراه يقول في إحدى يومياته التي خطها في السابع من يناير عام 1930:

«أشعر الآن أني غريب في هذا الوجود، وأنني ما أزداد يوماً في هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعوراً بمعاني هاته الغربة الأليمة، غربة من يطوف مجاهل الأرض ويجوب أقاصي المجهول ثم يأتي ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحداً منهم يفهم من لغة نفسه شيئاً... غربة الشاعر الذي يستيقظ قلبه في أسحار الحياة حينما تضطجع قلوب البشر على أسرة النوم الناعمة، فإذا جاء الصباح وحدث عن مخاوف الليل وأهوال الظلام وحدثهم في أناشيده عن خلجات النجوم ورفرفة الأحلام الراقصة بين التلال، لم يجد من يفهم لغة قلبه ولا من يفقه أغاني روحه».

ويناقش ناقديه الذين يطالبونه بأن يدع خطرفة الخيال ويحدثهم عن الحقيقة فيقول إنه «حينما تحدث عن الحقيقة لم يتحدث بتلك الأحاديث التافهة التي ألفوا أن يسمعوها عن جدتهم في سكون الليل، وهم بين تهويم النوم ومناجاة الأحلام».

ويسخر من الذين يقولون له: صف لنا الحياة! فيقول: «وهل وصفت لهم غير الحياة منذ غنيت لهم أناشيدي؟! ولكني حينما وصفت لهم الحياة لم أصفها لهم من نواحيها القريبة الواضحة.. لقد وصفتها من نواحيها البعيدة الغامضة المحجبة بالضباب».

ويسخر من قوم آخرين يعيبون عليه خلو شعره من التفكير مع أن له أسلوباً جميلاً لا يجدونه عند سواه. فيقول: «ليت شعري! ما هو التفكير إن لم أكن مفكراً في أغاني؟ لست أدري حين يقولون ذلك: هل أنا الشاعر المجنون الذي يترنم منشداً بين القبور، أو هم الأغبياء الذين لا يفهمون أشواق الحياة؟»:

هكـــذا قـــال شـــاعـــر نـــاول النـــا س رحيـــق الحيـــاة فـــي خيـــر كـــأس

فـأشـاحـوا عنهـا، ومـروا غضـابـا　　واستخفـوا بـه، وقـالـوا بيـأس:
قـد أضـاع الـرشـاد فـي ملعـب الجـ　　ـن، فيـا بـؤسـه! أصيـب بمـس
طالما خاطب العواصف في الليـ　　ـل، وناجى الأموات في غير رمس
طـالمـا رافـق الظـلام إلـى الغـا　　ب، ونـادى الأرواح مـن كـل جنـس
طـالمـا حـدث الشيـاطيـن فـي الـوا　　دي، وغنـى مـع الـريـاح بجـرس
إنـــه ســـاحـــر، تعلمـــه السحـ　　ـر الشيـاطيـن كـل مطلـع شمـس
أبعـدوا الكـافـر الخبيـث عـن الهيـ　　ـكـل، إن الخبيـث منبـع رجـس
اطـــردوه، ولا تصيخـــوا إليـــه　　فهـــو روح شـــريـــرة ذات نحـــس

ويغص حلقه بالمرارة، ويحز في قلبه الألم، فيختتم قصيدته بقوله:

يـا لهـا مـن معيشـة هـي فـي الكـو　　ن حيـــاة غـــريبـــة ذات قـــدس

أرقى من تصورات البشر:

وأما شعر «الشابي» الذي خرج جديداً في بيئته على غير ما ألفت من حيث الشكل والمضمون، ومن حيث الأفكار والأخيلة، ثم من حيث الأغراض والأبواب، فهو شعر غنائي عذب ينبع من وجدان متأجج ومن عاطفة متوثبة وحس مرهف وبصيرة لماحة، يجنح إلى الرومانسية، وتغلب عليه الرمزية، ويشف كثير منه عن نزوع إلى التأمل والتفكير اللذين يدفعانه أحياناً إلى القلق والحيرة، وإلى التمرد والثورة.

وهو في كل ما يصدر عنه تتجلى فيه الدقة في التصوير، والصدق في التعبير، لأن هذا الشاعر كان مدركاً لحقيقة الشعر حين قال إنه: «تصوير وتعبير: تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك مغنية ضاحكة لاهية، أو مقطبة واجمة باكية، أو تصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك وتقلبات أفكارك وخلجات نفسك ورفرفة أحلامك وعواطفك. وتعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ملؤه القوة والحياة، يقرؤه الناس فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم ودم وقلب وشعور». ثم يحمل الشاعر ذلك في قوله: «التصوير الصادق الذي يريك تصورات الشاعر

أرقى من تصورات البشر. والتعبير الفني الجميل الذي يكون قالباً إنسانياً حياً لذلك المعنى الذي يشمله.

ويظهر في شعر «الشابي» أثر انكبابه على قراءة الأدب المهجري قراءة مستمرة وحفظاً مستقراً في أعماقه فترك هذا الأدب ـ وبخاصة آثار جبران خليل جبران ـ في تعبيره أو تصويره، وفي أفكاره أو آرائه ـ على حد تعبير مواطنه الأستاذ «أبي القاسم كرو» ـ خطوط واضحة تدل على منبعها الأصلي. وإن تميز «الشابي» بعد ذلك بأسلوب فيه جزالة وقوة.

مع آخر نسمات الحياة:

ثم تمضي السنون منذ أن سمعت سماء «الشابية» قبل خمس وعشرين سنة بكاء الوليد الجديد مؤذناً بخروجه من عالمه الضيق إلى عالم فسيح ولكنه على فسحته قد ضاق بآمال هذا الوليد بعد ذلك، لتعود سماء «الشابية» تردد بكاء قوم قد تجمعوا حول هيكل بشري انطفأت منه الشعلة المتوهجة، وخمد فيه النفس الشعري الجميل، وأغمضت منه العينان اللماحتان اللتان كانتا تروادان هذه الأرض الجميلة فتصور ما فيها من مظاهر الطبيعة الفتانة بعد أن تضفي عليها من خيالها جمالاً علوياً سرمدياً.

ويسكت الصوت الذي غنى فتصاممت أذن الجحود زمناً عنه، وكأن جنبات المكان الذي سجي فيه تهتف بقوله في قصيدته «الناس»:

الناس لا ينصفون الحي بينهم حتى إذا ما توارى عنهم ندموا

وتنتهي غربة الشاعر.

وبانتهاء هذه الغربة التي أقلقت روح هذا الشاعر منذ استقبلت أولى نسمات الحياة في السادس والعشرين من فبراير سنة 1909 حتى أسلمت أنفاسها مع آخر نسمات الحياة في فجر التاسع من أكتوبر سنة 1934، انتهت حيرة الشاعر وتساؤله في مرارة وحسرة حين قال:

«وليت شعري، هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب

البشر فترتل أغاني أرواح الشباب المستيقظة، وتدرك حنين قلبي وأشواقه أدمغة مفكرة سيخلقها المستقبل البعيد؟.

نعم أيها الشاعر الذي مر بهذه الدنيا كنسمة، وبقي فيها كنغمة، جاء اليوم، فطب روحاً كما قال لك شاعر منذ ثمان وثلاثين سنة وهو يرثيك:

نم قريراً فقد سرى — لحنك العذب في البطاح
فجرك الحلو لم يضع — بين أيامك الشحاح
فهو ما زال سابحاً — هاتفاً خافق الجناح
إن يكن غامر الدجى — فلقد شارف الصباح[1]

(1) مجلة الهلال (القاهرة) س 80 ع 4 (إبريل 1972). عدد خاص بالراحلين الشباب.

لحظة الإبداع عند الشابّي

الدكتور إحسان عباس

لا يحدثنا الشابي كثيراً عن لحظة الإبداع في حياته الشعرية، وهو في حديثه عن الخيال الشعري عند العرب يستشهد بتجارب غيره، ولا يقف عند تجربته الذاتية في هذا المجال، وإذا تحدث عن تصوره للشعر اكتفى بأن يقول: «إنه إنتاج قريحة خصبة منتجة وخيال حي صحيح»[1] وتدل آراؤه في الخيال عند العرب على أنه كان يرى الإبداع الشعري ثمرة مباشرة لنشوة مستغرقة في الجمال وبخاصة جمال الطبيعة. أما كيف يتأتى لتلك الثمرة أن تستكمل وجودها حتى تظهر خلقاً شعرياً، فربما كان أقرب ما ينبىء عنه قوله في إحدى رسائله: «أما أنا فلا أفهم من الشعر إلا أنه فيض الحياة، أي أيقظ ساعاتها وأحفلها بنوازع الفكر والشعور، وكما أن السحابة العابرة قد تسيل السيول وقد تسكب القطرات، كذلك نفس الشاعر»[2]. إن كلمة «فيض» في هذه العبارة تشبه التعريف الرومنطيقي للشعر عند ورد زورث حين يقول: «إنه الفيض التلقائي لمشاعر قوية». كما أن تشبيه عملية الخلق الشعري بفعل السحابة يؤكد هذه التلقائية. وقد أورد الشابي هذا التشبيه دفاعاً عن الاكتفاء بالأبيات القليلة (القطرات) ضد من يرون أن يكون الشاعر دائماً ممتد النفس (السيول)، فكان استعماله لصورة السحابة رداً على «تحكم الإرادة» في عملية الخلق، ولا ريب في أن نظرية «الفيض التلقائي» خير ما يصور انعدام تدخل الإرادة على نحو يجعل كمية الماء في

(1) من مقالة «الشعر» في كتاب الأستاذ أبو القاسم كرو: «الشابي حياته وشعره»: 271، ط. بيروت (الطبعة الثالثة) 1960.

(2) رسائل الشابي: 111 بتاريخ 1351/12/21 (17 أفريل 1933).

السحابة وانفصال ذلك الماء عنها أمرين حتميين خاضعين لظروف تمت قبل أن تتكون السحابة. ولكن الشابي يتجاوز تلك الظروف فلا يقف عندها ولا يهمه أن يفعل، وإنما يركز بصره على السحابة نفسها، ولا بدّ من أن يحس قارىء شعر الشابي أن نظرية «الفيض» كانت أقرب النظريات إلى نفسه وطبيعته الشعرية لأنها كانت تمثل جانباً كبيراً من ممارسته الذاتية، فيما يبدو، فتصوره لعملية الخلق إنما هو تصور ذاتي محض، لا يعنيه منه أن يكون مشابهاً أو مغايراً لتصورات الآخرين. ومما يؤكد هذا قول الأستاذ زين العابدين السنوسي في وصف لحظات الإبداع لدى الشابي: «الشابي لم يكن يعتصر الشعر أو يتطلبه ولا كان يرتجله في المناسبات، ولكن الشعر كان يتولد في نفسه ثم ينبجس على لسانه»[1]. فتولد القصيدة في النفس ثم انبجاسها ـ دون اعتصار أو تطلب ـ هو عمل السحابة في ما يفيض عنها من ماء، ولهذا نفى الأستاذ السنوسي «الاعتصار» لأنه يعني كذا في الاستخراج مخالفاً لطبيعة الفيض أو الانبجاس، كما نفى الارتجال لأنه يدل على عدم «احتشاد» سابق لما يفيض أو ينبجس.

ولكن هل يترتب على هذا كله أن يكون ما ينبجس من نفس الشاعر مكتمل الخلق؟ إن طبيعة الفيض تعني أن خلق الشاعر للقصيدة ليس إلا نقلاً لها من حال وجودها بالقوة إلى حال وجودها بالفعل، نقلاً لا يتدخل الشاعر فيه كثيراً لأنه أمر يتم دون تحكم إرادي، وهذا يعني أن القصيدة تجيء في صورة لا قبل للشاعر إزاءها بإحداث أي تغيير أو تبديل، أو تقديم وتأخير، وربما كان هذا التصور هو الذي دعا الأستاذ السنوسي إلى أن يقول في الشابي: «ولا تفارقه تلك الحال حتى يستفرغ ما جاش في صدره شعراً محكماً»[2]، فهذا الإحكام يعني أن كل دقائق البنية في القصيدة

(1) أبو القاسم الشابي: حياته وأدبه: 42 ـ 43 (تونس: 1956) وقد اقتبسه الدكتور عمر فروخ في كتابه: الشابي شاعر الحب والحياة: 212 (الطبعة الثانية، بيروت: 1974).

(2) المصدر السابق نفسه.

قد استكملت، ووضعت على نسقها المحتوم دون حاجة إلى إعادة نظر أوتنقيح، عير أننا مهما يكن إيماننا بإمكان الانبجاس التلقائي، يجب أن نأخذ القول بالإحكام النهائي أخذاً تقريبياً يسمح بكثير من الاستثناءات، ومرجعنا في ذلك شهادة الشابي نفسه، فإنه حين يعيب شعر أبي شادي لا يجد بداً من أن يقول: «ولكن الذي أسقط من قيمة أدبه.. أنه متعجل مكثار لا يصبر على التجويد الذي هو عمل لا بدّ منه للفنان المتسامي»[1]. فقوله: «لا يصبر على التجويد» قد يفيد أنه يبتر عملية الخلق ولا يترك للتجربة أن تنضج في نفسه بل يجهضها قبل أوانها، وما أظن الشابي قصد إلى ذلك إلا أن كان يعني أن شعر أبي شادي كان أشبه شيء بالارتجال، وقد يفيد قوله: «لا يصبر على التجويد» أنه لم يكن يردد النظر في شعره ويجري فيه يد التنقيح، وفي هذا نفسه ما يقلل من معنى «الإحكام» المكتمل في القصيدة أول تسطيرها. ومما يؤيد أن يكون طلب التجويد لوناً من ألوان التنقيح النهائي - تحت سيطرة الإرادة الذهنية - ما أخبرنا به الشابي عن نفسه في إحدى تجاربه الفذة حين نظم إحدى قصائده إذ قال: «ولم أزد عليها إلا نحو بيت أو بيتين وبعض تنقيحات رأيتها لا بدّ منها»[2]. ذلك ما يقوله الشابي في ما جرى عليه في قصيدة واحدة، وليس لنا أن نأخذ ذلك نموذجاً لكل عملية خلق مارسها: وأعني بذلك أنه إن كان الفيض التلقائي في هذه القصيدة نفسها قريباً من درجة الاكتمال، وكان التنقيح بالنسبة إليه ضئيلاً، فليس يعني ذلك أن هذا الأمر كان مطرداً في سائر قصائده، كما سأبين من بعد.

وأحب أن أسرع إلى القول أن لفظة «فيض» قد تكون ذات إيحاءات مضللة، لأنها لا تنبيء عن أية معاناة في عملية الخلق نفسها، بل هي توحي بالسهولة واليسر في التدفق، وربما كان استعمال الأستاذ السنوسي للفظة «ينبجس» (والأحسن منها «يتبجس») أدق دلالة، لأنها تعني انطلاقاً غير

---

(1) رسائل الشابي: 133.

(2) رسائل الشابي: 132.

مشمول بالعفوية المطلقة، وإنما فيه شيء من العلاج الذي تتطلبه لحظة الولادة. وحين يعبر الشابي عن اللحظات التي تهيمن فيها الحاجة إلى انفصال القصيدة عن النفس باسم «نوبة الشعر»، فإنه في أغلب الظن يريد أن يشير إلى الحال التي يشير إليها الصوفي، وهي تتفاوت لدى الشعراء فحيناً تكون حلماً، وحيناً تكون مرحلة بين النوم واليقظة، وحيناً تكون بالعلاقة القائمة آنياً بين الشاعر وبعض المنبهات، وتارة تكون معاناة روحية ينسى المرء فيها أن له جسداً، أو كما يقول الشاعر الإنجليزي ستيفن اسبندر: «إنها اختلال في التوازن بين الجسد والعقل ولهذا السبب يحتاج المرء إلى نوع من العلاقة الحسية بالعالم المادي»[1]. وحول مثل هذه الحال يقول الشابي في إحدى رسائله: «أما الآن إن شئت أن تعرف ذلك، فإن نوبة الشعر تمتلك على عواطفي وأفكاري، وأن ربة الشعر تعزف على قيثارتها الذهبية أناشيدها بعنف هائل ترتج له أعصابي المرهقة ولست أدري متى تسكن النوبة وتتوارى ربة الإنشاد في أفقها الغامض البعيد»[2]. إن هذه النوبة التي تعزف فيها ربة الشعر بعنف فترتج لها أعصاب الشاعر لتشير حتماً إلى نوع من المعاناة لدى لحظة الإبداع، ولكن يجب ألا نجردها من معناها الواسع الذي أراده الشابي وهو أن فترة من الفترات قد تملكه فيها إلحاح الخلق المتواتر المتتابع، فكان يستجيب له رغم ما قد يتعرض له من إرهاق عصبي. وهذا المعنى يتأكد إذا تذكرنا أن هذه الرسالة كتبت في 24 فيفري (فبراير) 1933، وأننا إذا عدنا إلى ما سبقها وما تلاها ـ مباشرة ـ من قصائد، وجدنا أن الشاعر عاش حقاً «نوبة» مليئة بخصب الشاعرية، وأنه نظم في تلك الفترة خمساً من قصائد هي: «من أغاني الرعاة» (6 فيفري) و «أيتها الحالمة بين العواصف» (11 فيفري) و «للتاريخ» (16 فيفري) و «صوت من السماء» (8 مارس) و «ذكرى صباح» (17 مارس)[3].

(1) The Créature Process. p. 106.

(2) رسائل الشابي: 105.

(3) انظر الديوان: 372 ـ 394.

وحين يتأمل الدارس القصائد المذكورة يجد أنه لا يملك ما يسعفه على أن يعين الحافز المباشر الذي دفع بكل قصيدة من تلك القصائد إلى الوجود، لأن الشاعر لم يشر إلى شيء من ذلك، وكل ما يمكن أن تمدنا به الوثائق المتيسرة إنما هو صورة جو عام غلب على طبيعة تلك السنة (أعني سنة 1933). فنحن نعلم أن الشابي - رغم المرض الذي كان يبعث في نفسه الأرق والخوف - قد ارتاح حينئذٍ إلى جمال الطبيعة ارتياحاً شديداً لم يحس بمثله من قبل، وأنه كان يستشرف عهداً من الاطمئنان إلى نوازع الشهرة، سواء في اتصاله بمجلة أبولو ووصول شعره إلى جمهور أكبر، أو بكتابة مقدمة لديوان أبي شادي (وذلك يمثل اعترافاً ذا سمة خاصة، لا لأهمية الشاعر بل لأهمية البلد الذي ينتمي إليه) أو بتخيله أن ديوانه يكاد يصبح حقيقة ملموسة يتناقلها القراء. كل هذه العوامل الإيجابية وغيرها مما هو بسبيلها كانت تجعله يحس أن الشعر لديه يتدفق من ينبوع اسمه الأمل، وأن اليأس وترقب الموت ووطأة الداء، كلها أمور تغور ذلك النبع وتخمد حيوية الطاقة الشعرية، وفي ذلك يقول لصديقه الأستاذ محمد الحليوي: «كذلك يا صديقي أكتب حينما يهيج بقلبي روح الأمل وتطغى حوالي أمواج الشباب، ولكنني إذا رجعت إلى نفسي وثابت إلي أشباحي الكئيبة الدامية وقرت حوالي أمواج الشباب وسكنت ألسنة الحياة الهاتفة: إذ ذاك تتراخى أجنحتي وتغشاني سكرة الموت... فهذا الداء الذي يخايلني كل يوم وساعة بأكفان القبر وظلام الرموس، هو وحده كافٍ لأن يهد عزائم الأقدار»[1]. ونحن إذا طلبنا شواهد ذلك من شعره في ذلك العام وجدنا تدرجاً عجيباً من الاستغراق الوادع في جمال الطبيعة، إلى الرضى الهانىء المكتفي بنعمة الحب، إلى القوة المتمثلة في تحدي الموت ودحر اليأس وإلقاء تحية الوداع - دون أسف - على الهم والأسى، إلى الإيمان المتصاعد بالشعب والتوحيد بينه وبين الشاعر في إرادة الحياة. وما نكاد نربط ذلك كله ببوارق من الأمل كانت تضوىء أفقه رغم الداء الذي كان يخايله كل

(1) رسائل الشابي: 99 (بتاريخ 22 فيفري 1933).

يوم بأكفان القبر، حتى يطالعنا الشابي ملخصاً تجربته في ذلك العام (1933) كله بقوله: «أكتفي بأن أقول أنه لم يمر عليّ مثل هذا العام في كثرة الهموم والشواغل التي لا تعقب إلا الألم والعذاب ووفرة الغم والكمد»[1]. إذن أي شيء فجر ذلك الينبوع - وربما شهد عام 1933 أغزر نتاج للشاعر بالنسبة لسائر الأعوام -: أهو الأمل أم تلك الهموم التي لم تعقب إلا الألم والعذاب؟ وهل يمكن أن يكون للصراع بين الحالين أثر في طاقته الشعرية؟.

يبدو لي أن التعلل بالأمل لم يكن إلا نشوة مثالية في أحضان الطبيعة، وأن عنف الحياة ولد في نفس الشاعر تحدياً عنيفاً مماثلاً، وجنوحاً إلى تلك النوبة الشعرية رغم ما تصيبه به من إرهاق، وأن السحابة لم تتكثف وتحتشد ثم تتبجس إلا بعد أن ساقتها رياح قوية معنفة. حقاً إن اليأس والداء وترقب الموت تغور ينبوع الشعر وتهد العزيمة، ونسي الشابي أن يضيف: إذا استسلم الإنسان لها وواجهها بخور الضعيف، غير أنها تعجز عن أن تفعل ذلك إذا احتقب الإنسان صلابة بروميثوس ووحد نفسه في الجماعة ورأى قوته من قوتها، وهذا وحده يصور كيف استطاع الشابي أن يصهر الألم شعراً بل أن يتحول به في ذلك العام ليغدو وجهاً آخر من الأمل المتفائل.

ذلك جو عام يقرب الصورة ولكنه لا يستطيع أن يحدد الحافز المباشر المتصل بلحظة الإبداع في كل قصيدة على حدة. غير أننا مدينون للشابي بوصف دقيق للحال التي مر بها حين نظم قصيدة «نشيد الجبار»، فهو يخبرنا أن تلك القصيدة تولدت في أجواء أزمة نفسية كان يعانيها، إذ يقول - ولأورد كل ما قاله دون حذف أو إيجاز - «فإني في ليلة من ليالي هاته الأزمة النفسية المرهقة - ولعلها ليلة كتبت لك رسالتي الأخيرة[2] -

---

(1) رسائل الشابي: 126 (بتاريخ 1933/12/8).

(2) المخاطب هو الأستاذ محمد الحليوي، والرسالة المشار إليها كتبت في 1933/12/8 وفيها يشكو معاكسة القدر له، ويذكر ضياع (باقاج) له قيمته تزيد على =

نمت معذب النفس مهموم القلب ثم استيقظت نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فلجت بي الآلام وضربت بي في كل سبيل حتى لقد كان رأسي ينفجر، وأحسست أني لا بدّ مشف على الجنون لو دام بي ذلك الحال إلى الصباح، وتطورت نفسي في غمرة الألم، فبعد أن كانت معذبة باكية في ظلمة أحزانها تكاد تجن من الأسى انقلبت ثائرة هائجة واثقة من نفسها ساخرة بالقدر والداء والأعداء وكل آلام الحياة. وتحت تأثير هذه الحالة النفسية نظمت نشيد الجبار فذابت آلام نفسي وشعرت بالحرية والانطلاق كأنما ألقيت عن منكبي عبئاً ثقيلاً يهد القوى. وقد نظمتها في تلك الليلة ولكن نفسي لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها، وفي نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئناً وأفقت من الغد فلم أجدني قد نسيت منها كلمة واحدة، فكتبتها ولم أزد عليها إلا نحو بيت أو بيتين وبعض تنقيحات رأيتها لا بدّ منها»[1].

وتستطيع أن تستخرج من هذا النص الفريد عدة حقائق، منها:

1 ـ العلاقة بين القصيدة والجو الليلي. ويضيف الأستاذ السنوسي «ما يؤكد أن هذه العلاقة لم تكن دائماً كذلك، وأن ولادة القصيدة كانت تتم في ساعة من ليل أو نهار، وفي ظل الخميلة في حمارة القيظ أو في كوخه عشية»[2].

2 ـ إن الأزمة النفسية المرهقة لم تكن صالحة لنظم قصيدة إلا حين استحالت إلى ثورة واثقة، أي انقلبت من حالة السلب إلى الوجوب.

3 ـ إن القصيدة تمت خلقاً ـ أو كادت ـ في داخل النفس، وأن الشابي كان يتمتع بذاكرة قوية، مكنته من تدوينها دون تغيير كثير أو زيادة. فإذا تذكرنا أن قصيدة «نشيد الجبار» ـ كما هي في الديوان ـ جاءت في 36

= سبعمائة فرنك، وأنه نسي ديوانه في الحاضرة وبعث في طلبه.. الخ.

(1) رسائل الشابي: 132.

(2) السنوسي: 43.

بيتاً تبين لنا أن اكتمال القصيدة وحفظها دون تدوين أمر فذ لافت للنظر.

4 ـ إن الفترة التي استغرقها تحول الأزمة المؤلمة إلى وضع نفسي ملائم ثم نظم القصيدة وترسخها في النفس ربما لم تتجاوز ثلاث ساعات.

5 ـ إن عملية الخلق كانت تفريغاً أو تطهيراً ذابت معه الآلام وحلت الراحة التي تشبه التخلص من حمل ثقيل، وسيطر الإحساس بالاطمئنان، ثم الاستسلام للنوم.

6 ـ إن إعادة النظر في القصيدة كان يمثل احتفالاً بالتجويد، وإذا كانت هذه القصيدة لم تتطلب تنقيحاً كثيراً، فذلك مرده إلى إعجاب الشابي بها، لجزالة خاصة تنتظمها، ولتعبيرها عن انتصار نفسي في مرحلة دقيقة. ولكن ربما تطلب غيرها مزيداً من ترديد النظر.

وإذا قرأنا القصيدة نفسها وجدنا أن بناءها يمكن ـ على نحو ما ـ من تمثلها في الذاكرة دون كتابة، لأنها بسيطة غير مركبة، ذاهبة طولاً، وللوقفات فيها صوى دالة على طبيعة الانطلاق المستأنف، فإذا قلت: سأعيش رغم الداء والأعداء أتبعت ذلك بالحركات المواكبة للعيش: أرنو، أسير، أصغي، ثم تحديث القدر (المسؤول عن الداء) بخطاب طويل نسبياً (أقول للقدر. . .)، ثم تحديث الجمع الناقم (وهم الأعداء) بخطاب آخر (وأقول للجمع)، ولشدة الجلبة في القصيدة يحس القارىء وكأنها تتأدى إليه بصوتين: صوت حركتها في النفس وصوت استعادتها حين دونت. فهل من الممكن أن نتخذ هذه القصيدة مقياساً عاماً لطريقة الشابي في الإبداع؟ للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من أن أقرر أولاً أن هذه الطريقة ربما لم تكن صالحة لخلق قصائد ذات أصوات متعددة أو بناء مركب، أو ذات مبنى توشيحي تتغير فيه القوافي على نظام مرسوم، وخاصة حين تجري التقفية على نظام معقد، ومهما يكن إيماننا بقوة الذاكرة فلا بدّ من أن نقر بأن هذه الطريقة يستعصي عليها قصائد ذات طول متميز، لا يمكن أن تنبجس في

كل مكتمل. تقول الشاعرة إيمي لوول في وصف تجربتها الشعرية، دون أن يكون ما تقوله ملزماً أو صالحاً لكل شاعر آخر: «قد تستغرق القصائد الطويلة شهوراً وهي تعد في اللاشعور، أما القصائد القصيرة فقد تستغرق يوماً أو لحظة أو أي مدى زمني بينهما»[1]. ومع ذلك يمكننا أن نقول مطمئنين إن الشابي قد مرن على هذه الطريقة في قصائد أخرى عدا «نشيد الجبار»، وإذا كنا لا نملك الوثائق التي تثبت ذلك، فحسبنا أن نتبين آثار هذه الطريقة في شعره لنحكم بأنها كانت طريقته المفضلة، ومن أول ما نلاحظه أن أكثر قصائده لا يستطيل إلى حد تعجز الذاكرة عن استيعابه جملة، وأن القصائد ذات الأصوات المتعددة قليلة نسبياً في ديوانه، وأنه يستعيض عن تعدد الأصوات بالصوت البديل، فبدلاً من أن يتحدث هو نفسه يترك المجال للأرض أو الغاب أو غير ذلك، كي تحدثه أو ترد على سؤاله[2]. ويبدو أحياناً أن استجماع القصيدة دفعة واحدة لا يسمح له بالراحة الضرورية في أعقابها ولهذا تجده يعود إلى الموضوع نفسه، والنغمة نفسها ما تزال تدوي في أذنيه فيحاول بلوغ الراحة في قصيدة ثانية. ومن السهل أن يحكم القارىء بأن قصيدة «صوت من السماء» تتمة لقصيدة عنوانها «للتاريخ»[3] فقد حاول الشاعر أن يصور بؤس الشعب حين نظم الأولى ثم إذا به لا يجد الرضى في تلك القصيدة، فيحاول أن يحقق ذلك الرضى بنظم قصيدة أخرى على الروي نفسه يصف ذلك البؤس وانعدام العدالة على نحو يفضي إلى تفاؤل يبعث الراحة في نفسه. وبين القصيدتين حوالي عشرين يوماً. وليست قصيدة «فلسفة الثعبان المقدس» إلا تطويراً جديداً لقصيدة نظمت قبلها بعنوان «الدنيا الميتة»[4]. وأحياناً تتغير النغمة، والموضوع ما يزال يملك عليه نفسه، فهو يقول في قصيدة «أحلام شاعر»:

---

(1) The Créature process. P. 111.

(2) من نماذج ذلك قصيدة «إرادة الحياة»، الديوان: 406.

(3) الديوان: 381، 383.

(4) الديوان: 480، 484.

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا سعيداً بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الـ ـغابات بين الصنوبر المياد
عيشة للجمال والفن أبغيها بعيداً عن أمتي وبلادي

ثم يقول في قصيدة «قيود الأحلام»:

وأود أن أحيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
في الغاب في الجبل البعيد عن الورى حيث الطبيعة والجمال السامي
فأعيش في غابي حياة كلها للفن للأحلام للإلهام
لكنني لا أستطيع .... (1)

فالقصيدة الثانية تطوير فكري للقصيدة الأولى: الأحلام واحدة في القصيدة وهي الموضوع الذي يتشبث بقلب الشاعر وخياله، ولكنه في الثانية يصحو على الواقع فيعد الأسباب التي تحول بينه وبين تحقيق تلك الأحلام. فهذا الميل إلى الإشباع في الموضوع الواحد أو إلى استكماله أو إلى توليد موضوع آخر منه، يمثل انطلاق موجة من موجة، في مدى زمني متقارب الطرفين، وأن جيشان النفس لا يستقر مع انطلاقة الأولى، وإنما يظل يستجمع لانطلاقة أخرى تبعث في نفس الشاعر طمأنينة صحيحة ورضى مكتملاً، وهذا شيء ربما لم يحدث لو كان الشاعر يقيد خطراته، في المدى المتطاول، ليبني من تلك الشذرات قصيدة، أو لو كان يكتفي بتناول قصيدته على شكل فكرة مبهمة، يحاول تطويرها كتابة.

ومن أثر تلك الطريقة في شعر الشابي ـ فيما أقدره ـ اعتماده الروابط التي تعتمد على التداعي المقيد، لكي تسعف الذاكرة على اختزان القصيدة كالاعتماد على فعل الأمر أوائل الأبيات «وامرحي، واربضي، واسمعي»(2) أو التكرار التأكيدي للاستقصاء ـ وهو كثير ـ، أو التكثيف بالتعداد من مثل قوله:

---

(1) الديوان: 285، 288.

(2) الديوان: 375.

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد

أو قوله:

في كل أصوات الوجود طروبها وكئيبها
ورخيمهـــا وعنيفهـــا وبغيضهـــا وحبيبهـــا
ويراك في صور الطبيعة حلوها وذميمها
وحـزينهـا وبهيجهـا وحقيـرهـا وعظيمهـا

وظاهرة التكثيف في شعر الشابي تخدم أغراضاً كثيرة، ولهذا نجدها مبثوثة في شعره على نحو متميز، غير أنها ترتد في الاتكاء عليها إلى تلك «الحمى» التي تواكب التبجس لحظة الإبداع، وهي تشير إلى أن خيال الشابي يتولد من ذاته بحسب التيار الذي يجري فيه السياق. ولهذا لا يمكن أن يقال أن خيال الشابي تلفيقي ـ أعني يلفق بين المؤثرات الثقافية وتجارب الحياة اليومية ـ على مهل وأناة، ومهما تحدث النقاد عن المؤثرات في شعره، كأثر جبران أو شعراء المهجر عامة أو غيرهم فإن تلك المؤثرات تظل لقاء عاماً في حومة الرومنطيقية، حيث تؤدي الاستعدادات النفسية المتماثلة إلى نتائج متماثلة، أما في طبيعة الخيال نفسه فإن تلك المؤثرات تشبه الومضات العابرة، ولأمثل على ذلك بمثلين اثنين: **أولهما**: من قصيدة «قالت الأيام»[1] حيث يقول الشاعر:

يـــا أيهـــا الســـادر فـــي غيـــه   يـــا واقفـــاً فـــوق حطـــام الجبـــاه
مهـــلاً ففـــي أنـــات مـــن دستهـــم   صوت رهيب سوف يدوي صداه

فالقارىء قد يقرن للتو بين هذه الفكرة وفكرة أبي العلاء المعري التي عبر عنها بقوله:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

---

(1) الديوان: 164.

ولكن ما يلبث أن يدرك أن هذه رابطة عابرة وأن الشابي يتحدث عن الجبار الذي يدوس جباه المظلومين، وأن الحق أشد جبروتاً، وأنه إن أغفى ذات مرة فإن في عينيه يقظة تستشرف «الفجر» الذي لا يستطيع أن يبصره ذلك الجبار السادر في غيه.

أما المثال الثاني فإنه مستوحى من قراءة قصيدة «يا رفيقي» لمخائيل نعيمة، وقد جاء فيها[1]:

قل ولجنا قصر الحياة عراة — واقتربنا من الحياة سكارى
فاستطبنا لهاثها ولماها — وعشقنا ظلامها والنهارا
ورضعنا من ثديها ما اشتهينا — ونزعنا عن منكبيها الإزارا
وغرفنا من حفنتيها كنوزا — وقطفنا من وجنتيها ثمارا
غير أنا لما دعينا انطلقنا — وتركنا كما وجدنا الديارا

وخرجنا منها عراة حيارى

قل أطعنا في كل ما قد فعلنا — صوت داع إلى الوجود دعانا
فجنينا من الحياة ولكن — قد أعدنا إلى الحياة جنانا
وأكلنا منها ولكن أكلنا — وشربنا لحومنا ودمانا
ومضينا ولا ندامة فينا — وتركنا كؤوسنا لسوانا
فإذا كان في الحياة حرام — فحرام من مثلنا أن يهانا

وحرام من مثلنا أن يدانا

وكي يصح لي ما أريد استنتاجه لا بدّ أن أفرض أن الشابي قرأ هذه القصيدة ودارت نغمتها في نفسه، وليس لدى شاهد يثبت ذلك على نحو يقيني، ولكن هنالك ما يدل على أن الشابي كان يعرف قصائد نعيمة، وقد بين أحد الدارسين تأثره بقصيدته «النهر المتجمد»[2]. وأستطيع أن أقرن قصيدته «الصباح الجديد» بقصيدة نعيمة «الطمأنينة»[3] لا للاتحاد في النغمة

---

(1) همس الجفون: 78 ـ 79 ط. صادر ـ بيروت 1952.

(2) هو الصديق الأستاذ خليفة التليسي في كتابه «الشابي وجبران».

(3) همس الجفون ق 78 ـ 79 ط. صادر، بيروت 1952.

بل للاتحاد في الروح. فإذا صح الفرض الذي وضعته استطعت أن أقول إن قصيدة «يا رفيقي»[1] ملكت إعجاب الشابي لا بنغمتها وحسب بل بهذه الروح الفلسفية التي تشير إلى الارتواء والعطاء معاً، ولهذا نقل الشابي هذا إلى معنى الاكتفاء بكأس الحب لا بكأس الحياة في قصيدته «ألحاني السكرى» وفيها يقول:

قد سكرنا بحبنا واكتفينا طفح الكأس فاذهبوا يا سقاة
نحن نحيا فلا نريد مزيداً حسبنا ما منحتنا يا حياة

وكانت ظلال هذه القصيدة تخيم على نفسه من قبل حين نظم قصيدته «في ظل وادي الموت» حيث يقول:

قد رقصنا مع الحياة طويلاً وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالي حفاة في شعاب الحياة حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا ونثرنا الدموع حتى روينا
ونثرنا الأحلام والحب والآ لام واليأس والأسى حيث شينا

فانظر كيف كان اللقاء مع نعيمة في المرتين: مرة تحول فيها الاكتفاء إلى صورة للشقاء الإنساني، في ظل الموت (وهذا ليس اكتفاء وإنما هو حظ الإنسان في هذه الحياة) إلى حقيقة واحدة في الحياة هي الاكتفاء في ظل «الحب»، وفي كل ذلك لم يستطع خيال الشابي إلا أن يكون متسقاً مع إحساسه النفسي، وألا يسمح للقاء مع نعيمة إلا أن يكون أمراً عابراً وحسب.

تلك دراسة موجزة لبعض مميزات الخيال عند الشابي تتحمل مزيداً من التحليل بالوقوف عند نماذج أخرى من شعره. وربما كان الاطلاع على مذكراته ـ وهو أمر لم يتح لي عند كتابة هذا البحث ـ كفيلاً بإضافة شيء جديد مسعف على توضيح هذه الصورة المتصلة بلحظة الإبداع لديه.

---

(1) همس الجفون: 73.

نظرات في ديوان «أغاني الحياة»

بقلم: محمد الحليوي

لقد صدر ديوان الشابي «أغاني الحياة» سنة 1955 بعد انتظار إحدى وعشرين سنة كان جمهرة الأدباء والمتأدبين يتحرقون خلالها على احتجابه، ويرتجفون خوفاً من ضياعه إلى الأبد كما ضاعت آثار كثيرين من شعرائنا الأعلام. وكانوا يتساءلون عن مصير الديوان، أو يعاتبون من أوكل إليه أمره عن ذلك التقاعس، وربما ارتفعت لهجة العتاب فصارت أشبه شيء بالتذمر والتوبيخ. وكان عشاق شعر الشابي في هذه السنوات الإحدى والعشرين يبحثون عنه في كل مكان ويستنسخونه من المجموعات الشعرية، ويتقاتلون على الظفر بقصائد لم تنشر وربما بذل بعضهم المال لشرائها ممن أعانوا الشابي على نسخ ديوانه في أواخر حياته.

وكنا نسمع عن قصائد لم تنشر، ونعرف عنوانها مثل «المساء الحزين» و «الدنيا الميتة» و «حديث المقبرة» و «العازف الأعمى» ولكننا لا نظفر بمعرفة شيء عنها وكأنما أوحت إلينا عناوينها روائع أخرى للشابي من يظفر بها فقد ظفر بمتعة عقلية سامية، أو طرفة فنية نادرة. هكذا كنا وهكذا كان أدباء العالم العربي في خلال سنوات الانتظار، ثم قيل لنا ذات يوم إن الديوان قدم للطبع ثم طبع ثم صدر أخيراً في نوفمبر 1955 ووزع في الأسواق وأصبح الحلم حقيقة.. وتنفس الأدباء الصعداء.

وزع الديوان في الأسواق وانتشر في كل بلدة أو مدينة تقرأ العربية، ولكن خلافاً لما كان ينتظر لم يحدث صدوره أية حركة أدبية تليق بمكانته ومكانة صاحبه وشهرته العالمية ولا بالزمن الطويل الذي مرّ في انتظاره. كنا نظن أن الأدباء سيتلقونه بلهفة وسيتحدثون عنه بتطويل، ويحللون ما جاء

فيه من شعر غير منشور من قبل. وكنا نظن أنه سيكون نقطة انطلاق لبعث حركة جديدة يكثر فيها الأخذ والرد والعرض والتحليل، والبحث والنقاش، وتكون نهايتها استخراج ما في الديوان من أشياء جديدة تكمل بها معرفتنا لشعر الشابي معرفة شاملة، وتدرس فيها تطورات تفكيره دراسة مستوفاة ولكن شيئاً من ذلك لم يقع. فقد صدر الديوان وكأنه ليس بحدث في تاريخ الأدب التونسي. فاشتراه من اشتراه، وقرأه من قرأه ولكن لم نسمع له من صدى في الصحف والمجلات اللهم إلا الكلمة التي كتبها الأستاذ البشير العريبي في مجلة «الفكر» والتي اعترف في عنوانها بأنها «نظرة عجلى في الديوان».

فبماذا نعلل هذه الظاهرة؟.

أقول إن صدور الديوان في أواخر سنة 1955 دون أن يحدث ضجة ربما كان يرجع إلى أحد أمرين:

إما لأن الظرف السياسي في ذلك الوقت كان قد صرف الأنظار عن كل حدث أدبي، ولم يترك المجال للاشتغال بأي شيء آخر في حياتنا التونسية. ناهيك أن صدوره كان في ظرف مليء بالأحداث الجسام وأنه سبق الإعلان عن استقلال تونس ببضعة أشهر لا غير، وإما لأن المنشور من شعر الشابي سابقاً وشعره الجديد في الديوان لم يزدنا معرفة بأفكار الشابي وبطريقته في نظم الشعر، وأن صوته المألوف لدينا قد بقي في حدوده فلم يسمعنا نغمات جديدة، ولم يظهر لنا في ثوب جديد وهذا تقريباً ما ذهب إليه الأستاذ العريبي في كلمته عن الديوان ومن قوله في هذا الموضوع: «إن كثيراً من شعر الشابي الذي لم ينشر طالما تشوف الناس إليه في لهفة مبعثها يقين أو شبه اليقين بأنه سيختلف قليلاً أو كثيراً عن شعره القديم لأنه أنتجه في أخريات أيامه بعدما مارس الحياة وانتفع بتجاربه فيها، وعدل من آرائه ونمى مواهبه.. فمن أجل ذلك يكون شعره في هذه الفترة أشد رصانة وأدل على صاحبه. ولعل هذا قيل لنا عن القصائد الجديدة قبل أن نرى

الديوان. . . ولكني لا أجد مصداقه في «أغاني الحياة» نفسه، نعم إن القصائد جديدة النص لدينا بيد أنها على كثرتها لم تحمل بين سطورهاإلا تلك الروح التي التقينا بها في شعر أبي القاسم من قبل وذلك النفس الذي عرفناه له».

ويعلل الأستاذ العريبي ذلك بأن شاعرية الشابي لا يخلو حالها من أحد أمور ثلاثة:

إما أنها اكتملت منذ بواكير شعره وإما أنه ترسم في شعره الأخير خطى شعره الأول، وإما أنه قال أكثر شعره في فترات متقاربة ولكنه نشر بعضه وادخر باقيه لينشره في الديوان.

هذا رأي الأستاذ العريبي والحقيقة أنه لا يمكننا القطع بشيء ما دمنا لا نعرف تاريخ نظم هذه القصائد الجديدة. فهل هي من شعره المتأخر أم من شعره القديم الذي بقي في المسودات ناقصاً رهن إعادة النظر والإتمام، يدل على ذلك أنصاف الأبيات التي لم يتهيأ للشاعر إتمامها وعاجله المرض فصدرت في الديوان بيضاء أو مبتورة.

وقبل أن نبدي رأينا في هذا الشعر الجديد يجدر بنا أن نلقي نظرة على الديوان نفسه لنحصي ما فيه من القصائد الجديدة ونشير إلى القصائد المهملة أو التي لم يخترها الشابي وزيدت في الديوان عند نشره.

أما القصائد الجديدة التي لم تنشر من قبل فقد بلغت تسعاً وعشرين قصيدة تختلف طولاً وقصراً، وتشمل في مجموعها (715) سبعمائة وخمسة عشر بيتاً، ويمكن تقسيمها حسب موضوعاتها إلى تسعة أقسام. وهي جل الموضوعات التي نظم فيها الشابي كل أشعاره. أولاً: العدم والموت. وهي قصائد: حديث المقبرة ـ إلى الله ـ إلى الموت ـ شكوى ضائعة. ثانياً: الطبيعة والغاب وهي القصائد: الطفولة ـ المساء الحزين ـ بقايا الخريف ـ قيود الأحلام ـ رثاء فجر ـ الغاب. ثالثاً: الغربة الروحية، وهي القصائد: «الكآبة المجهولة ـ مناجاة عصفور ـ أغنية الشاعر ـ إلى عازف أعمى ـ

صوت تائه. رابعاً: الحب والغزل وهي القصائد: الحب ـ ذكرى ـ صفحة من كتاب الدموع ـ ذكرى صباح. خامساً: القلب وهما قصيدتان: إلى قلب تائه وأكثرت يا قلبي. سادساً: الوطنيات وهما قصيدتان: خله للموت ـ وقالت لي الأيام. سابعاً: الهجاء الاجتماعي وهي قصيدة الدنيا الميتة. ثامناً: الشعر السياسي وهي قصيدة فلسفة الثعبان المقدس. تاسعاً: الحكم وهي قصائد: حرم الأمومة ـ متاعب العظمة ـ شجون ـ سر مع الدهر.

وقد حذف الشابي من ديوانه ثماني عشرة قصيدة كانت نشرت له في حياته ولكن ناشر الديوان الأستاذ الأمين الشابي نبه في المقدمة على أنه أثبت ثماني قصائد لم يثبتها الشاعر حين أعد ديوانه للطبع. وهذه القصائد الثمانية المثبتة رغم حذف الشاعر لها هي: نظرة في الحياة ـ أنشودة الرعد ـ في الظلام ـ أيها الليل ـ شعري ـ أيها الحب ـ أغنية الأحزان ـ جدول الحب. أما القصائد التي حذفت نهائياً وكانت نشرت للشاعر من قبل في مختارت الأستاذ السنوسي: فهي القصائد التالية: جمال الحياة ـ إياك ـ كهرباء الغرام ـ صيحة الحب ـ الحرب ـ وعود الغواني ـ ليلة عند الحبيب ـ الفتنة الساحرة ـ ليت شعري ـ في سكون الليل.

والحقيقة أن هذه القصائد هي من بواكير شعره الذي لا يمكن أن ينشر في الديوان نظراً لضعفه الظاهر.

وهناك قصائد عديدة ظهرت في «أغاني الحياة» تحمل تنقيحات كثيرة بالنسبة لما ظهرت عليه أول مرة ـ وبعض القصائد وقعت فيه زيادة بيت أو بيتين وبعضها نقص منه بيت أو أبيات عديدة. مثال ذلك قصيدة «الحياة» التي كانت عدتها سبعة عشر بيتاً. فأصبحت في الديوان ثلاثة فقط.

وللشابي رأي في شعره القديم كتب به إليّ مرة خلاصته أن قسماً كبيراً مما نشر له لا يود نشره في الديوان لأنه لا يرى أهمية إلا في أسلوبه ولا في روحه بل يرى فيه سذاجة كسذاجة الأطفال.

ولما كانت القصائد الجديدة لم تلق حظاً من الشهرة والذيوع ولم

تظفر بجانب من النظر والفحص فإننا سنحاول التعريف بها وبمحتواها وتقدير مستواها بالنسبة لروائع الشابي المعروفة، ونبدأ الكلام بالقسم الأول الذي يشمل الحديث عن الموت والعدم. وأول قصيد في هذا القسم. وأهمه القصيد المطول بعنوان «حديث المقبرة».

موضوع هذا القصيد مشكلة الفناء والخلود، وقد جعلها حواراً بين شاعر أداه المطاف إلى مقبرة القرية وبين روح فيلسوف جاءت تزور جسمها الذي أصبح رمة بالية. في أول القصيد يتساءل الشاعر في لهفة وتفجع عن مصير الأكوان والبشرية. فهل هي ستفنى حقيقة؟ وهل ستزول هذه الحياة بما فيها من مناظر خلابة ـ وصور جميلة فاتنة.

هل سيخبو حقاً توهج الخدود، وتذوي من الشفاه الورود، ويتهدم القوام الرشيق وتربد الوجوه الصباح.

هل سيندك حقاً هذا الفضاء الرحب، وتهلك هاته الأكوان بما فيها من نجوم قديمة وأصباح بديعة وشمس توشي رداء الغمام وبدر يضيء أمواج الظلام وبحر فسيح مملوء دوياً وضجيجاً، ورياح وعواصف ذوات عويل وعجيج:

أيسطو على الكل ليل الفناء ليلهو بها الموت خلف الوجود
فينضب يم الحياة الخضم ويخمد روح الربيع الوليد

إنه ليشق على النفس هذا العفاء وأنه ليصعب على القلب هذا الهمود العام. فهل كان يعجز القدر أن يجعل الحياة مستمرة، وأن ينعم الناس فيها بالخلود.

وماذا على القدر لو لم يقدر على الكائنات أن تؤول إلى الخراب وتفجع في الأوداء والأحباب.

ماذا على القدر لو جعل الخلود ميسوراً دون أن نسلك إليه طريق الرد، وهذه اللحود المظلمة؟ ماذا على القدر لو عاش الورى في سلام وأمن وعيش رخي؟.

وهنا أشفقت روح الفيلسوف على الشاعر المسكين من آلامه الروحية وحيرته فأرادت أن تعلمه الحكمة، وأن تسكب في قلبه برد اليقين فخاطبته قائلة:

تبـرمـت بـالعيـش خـوف الفنـا ولـو دمـت حيـاً سئمـت الخلـود
وعشـت علـى الأرض مثـل الجبـال جليـلاً رهيبـاً غـريبـاً وحيـد

فما جدوى حياة لا ترشف فيها من رضاب الحياة ولا تدري فيها ما فتنة الكائنات.. وما سحر الربيع، وما نشوة الحب، وما صرخة القلب؟ وماذا ترجي من الكون إذا كنت مقيماً لا تبرح مكانك، لا تخاف ولا ترجو. إن نظام الحياة نظام دقيق:

فمـا حبـب العيـش إلا الفنـاء ولا زانـه غيـر خـوف اللحـود

وأعجب الشاعر حديث الروح، فأخذ يحاورها قائلاً:

إذا كان لا بدّ من الفناء فلماذا إذن وجدت هذه الحياة؟ وما هي فائدة هذا الصراع العنيف وما جدوى وجود هذا الجمال المنبث في الأكوان؟ ولماذا هذا الظلام والضياء وهذه الأرض والسماء؟ ولماذا نمر بهذه الدنيا سراعاً ثم نذهب بلا عودة.

وتجيب روح الفيلسوف:

إنما خلقنا لنبلغ شأو الكمال ونصبح أهلاً لمجد الخلود ولنطهر أرواحنا في الحياة بنار الأسى. ولكن أفكار الشاعر الثائرة كانت لا تزال تلح على الروح بالأسئلة الكثيرة. فقال مناجياً روح الفيلسوف: ولكن إذا ما حصلنا على الخلود وبلغنا الكمال ألا نمل هذا الخلود ونود كمالاً جديداً؟ فكيف يكون هذا الكمال الجديد؟ وما هي حدوده؟ إن أجمل ما في الكمال الطموح وهو يدرك بالفكر فكيف نتصوره غداً إذا أصبح واقعاً يحس ويشاهد؟ هل يبقى فيه سحر يغري بتطلبه؟ ومن يضمن لنا. إذا بلغنا الكمال. أن نصبح وقد انطفأ في نفوسنا كل حنين وشوق فلا نطمح بعدها

لمنزلة أخرى هي فوق الكمال وفوق الخلود. وفي هذه القضية، قضية الكمال، لا يخلو الحال من أمرين إما أن شوق النفس للكمال. وهي في دار الخلود، يظل باقياً فيها وفي ذلك الهم الناصب والعناء المديد لأن في بقائه بقاء للصراع والجهاد، والانتصار والانكسار، وإما أن شوق النفس للكمال يزايلها وفي ذلك الجمود والفناء، ولو كان المرء ينعم في عرصات الخلود، إذ ما معنى الخلود الذي لا شوق فيه ولا حنين.

وتنتهي القصيدة دون أن يظفر الشاعر بجواب وتضيع أسئلته في ظلمة الليل الذي لا يسمع ولا يجيب.

لقد حوى قصيد «حديث المقبرة» واحداً وسبعين بيتاً التزم فيه الشاعر قافية واحدة فجاء من ناحية الشكل ضعيف النسج مهلهل النظم. وقد اضطرته وحدة القافية إلى استعمال كلمات نابية متعسفة وإلى الإتيان بصيغ صرفية متروكة أو غير جائزة في قواعد اللغة. وأما من ناحية المضمون فالقصيد لا يخلو من اضطراب وتناقض. والراجح عندنا أن الشابي قد وقع على مبحث فلسفي في مسألة الخلود والكمال وهل أن الخلود بعد الموت يكون مرغوباً فيه إذا كانت نفوس الخالدين لا تطلب كمالاً جديداً أو لا تحن إلى معان أخرى هي فوق الخلود وفوق الكمال فخطر له أن ينظم هذه الفكرة في حوار يدور بينه وبين روح فيلسوف جاءت إلى مقبرة لتزور جسدها وأن يقحم في هذا الحوار آراءه الرومانتيكية في الفناء والعدم وهي آراء تعتبر وجود الحياة من باب العبث المحض إذ كان مقدراً لها أن تفنى وتطوى في ضمير العدم. ووجه الاضطراب في القصيدة هو أن الفيلسوف يقول للشاعر المتبرم بالعيش الفاني:

تبــرمــت بــالعيــش خــوف الفنــا ولــــو دمــت حيّاً سئمت الخلــود
وعشــت علــى الأرض مثـل الجبـال جليـــلاً رهيبـــاً غـــريبـــاً وحيـــد

فهل معنى الخلود عنده أننا لو أتيح لنا الخلود في الأرض نصبح مثل الجبال بلا إحساس ولا شعور وأن هذه المنزلة لا تكسبنا سوى الجلال

والرهبة والوحدة. على أننا في بقية القصيدة لا نفهم هل يعني بالخلود ما يكون دون أن نموت أو هو الخلود الذي يكون بعد الموت أو هما معاً. كل ذلك يمكنك أن تستنتجه من القصيدة.

ونتحدث الآن عن القصيد الثاني وفيه يتحدث عن مشكلة الموت والعدم ورفض الحياة وهو قصيد «إلى الله» وفيه يصور الشاعر أزمة نفسية من تلك الأزمات الحادة التي يشعر فيها المرء. كما يقول الشابي في مقدمة القصيدة. وكأنما أنبت ما بينه وبين الكائنات من وشائج الرحم والقربى. وتحت تأثير تلك الحالة النفسية الجامحة نظم قصيدته موجهاً فيها الخطاب إلى الله الذي أنزله إلى ظلمة هذه الأرض ورماه في سبيل الدنيا المتشعبة المسالك، ثم خلفه فريداً وحيداً واقفاً على لجة الحزن، متجرعاً مرارة الأسى بعد أن كان في ضمير الوجود سابحاً في الأفق كالشعاع الجميل مغنياً بين الينابيع كالبلابل. . . أنزله الله إلى ظلمة الأرض وقضى عليه بأن يكون غريباً بنفسه بين قومه فأقام كارهاً للحياة وما فيها، يحمل قلباً لا يفتأ عن الشعور والانتباه، تعذبه الدنيا التي لم يرقه منها إلا جموده الساهي، لقد أنزله الله إلى الدنيا وعذبه فيها رقة حسه وتعقبه بكل الدواهي من أسى عبقري وسقام وهم ووحشة ويأس وشقاء متناهٍ ومنايا تغتال أشهى أمانيه وتفجعه في أعز أحبائه، فإذا هم حفنة من تراب. ثم يوجه الخطاب إلى الله في صورة العتاب بعد أن كان موجهاً إليه في صورة تعداد الآلام التي قضى بها عليه:

يا إله الوجود مالك لا ترثي لحزن المعذب الأواه
قد تأوهت في سكون الليالي ثم أطبقت في الصباح شفاهي
وتغزلت بالحياة وبالحب وغنيت كالسعيد اللاهي
وزرعت الأحلام في قلبي الدامي وحوطتها بكل انتباهي
ثم لما حصدت لم أجن إلا الشوك ماذا ترى فعلت إلهي؟

وتبلغ نفس الشاعر نهاية الجموح والثورة حين يطلب من الرياح أن

تسير بعنف وأن تنفحه من روحها الفخم ما يبلغ به صوته إلى هذا الإله الذي يصغي للأقوياء ولا يصغي لصوت واهن بين العواصف. وكذلك حين يطلب منها أن تعصف بشدة حتى تنثر كل الورود وتبددها فوق الثلوج بداداً وحتى تصعق كل بلبل صداح، فهذا الوجود غير جدير بالأغاني ولا بالجمال. . . يا رياح:

إسحقي هاته الكائنات كوناً بكون ... قبل أن تنتهي أذل التناهي
فالإله العظيم لم يخلق الدنيا ... سوى للفناء تحت الدواهي

ثم يحول الخطاب إلى قوى الوجود وعوالم الأرواح قائلاً:

خبروني هل للورى من إله ... راحم مثل زعمهم أواه
إنني لم أجده في هاته الدنيا ... فهل خلف أفقها من إله

لا بدّ أن تكون حالة الشاعر النفسية قد بلغت مبلغاً عظيماً من الآلام والأسى ليكتب مثل هاته الأبيات الجاحدة وهو الذي عاش في وسط محافظ وتعلم في معهد ديني ودرس كتب التصوف التي كانت في مكتبة أبيه. ولكن مهلاً. . . لا تعجل على الشاعر المسكين فإن ثورته لا تلبث أن تهدأ فإذا خلف هذا الجحود والتجديف صلاة قلب خاشع مؤمن كأشد ما تكون صلاة المؤمن خشوعاً وإيماناً:

ما الذي قد أتيت يا قلبي الباكي ... وماذا قد قلته يا شفاهي
يا إلهي قد أنطق الهم قلبي ... بالذي كان. . فاغتفر يا إلاهي
قدم اليأس والكآبة داست ... قلبي المتعب الغريب الواهي
فتشظى وتلك بعض شظاياه ... فسامح قنوطه المتناهي
فهو يا رب معبد الحق والإيمان ... والنور والنقاء الإلاهي
وهو نأي الجمال والحب والأحلام ... لكن قد حطمته الدواهي

وهكذا تنتهي القصيدة على هاته النغمة المستغفرة المنبتة، ويرجع الشاعر في نهاية المطاف إلى إيمانه وآلامه.

وها هي ذي قصيدة أخرى تحمل ذات الفكرة التي وجدناها في «حديث المقبرة» وفي قصيدة «إلى الله» وهي قصيد «إلى الموت» ففيها يرفض الشاعر الحياة لما فيها من آلام ومآس ويرى أن الملجأ الوحيد للسلام والراحة إنما هو الموت:

الخطاب في مطلع القصيدة إلى صبي الحياة ولعله يعني نفسه.

هل تطمع يا صبي الحياة الشقي بأن تسمع صوت الحياة الرخيم؟ وهل تبحث عن ورد الصباح المخضب؟ ألا لقد ضللت ضلالاً بعيداً. فكيف تطمع بأن تسمع صوت الحياة وأنت في سجن هذا الوجود؟ وكيف تطلب ورد الصباح وأنت في حقل جديب قاحل.

فإن شئت صوت الحياة الرخيم فإلى الموت وإن شئت الشراب الروي.. فإلى الموت لأنه لا منبع يرويك إذا ما ظمئت إلا كأس الموت الروية أيها المتعب الذي سدت عليه سبل السلام.. إلى الموت.

أيها المعذب الذي أنهكته الدهور... إلى الموت. ففي الموت قلب الدهور الرحيم وفي الموت تنزع الحياة عنها رداء الأسى فتبدو غضة باسمة قد اتشحت بظلال الخلود. فما خير حياة طعامها الحزن وشرابها الدموع:

إلى الموت لا تخش أعماقها ... ففيها ضياء السماء الوديع
وفيها تميس عذارى السماء ... عواري أنشدن لحناً بديع
وفي راحهن غصون النخيل ... يحركنها في فضاء يضوع
تضيء به بسمات القلوب ... وتخبو به حسرات الدموع

وما هو الموت؟ هو طيف الخلود الجميل. هو نصف الحياة الذي لا ينوح هو هذا الجبار القوي الصبوح الوجه الذي يعيش خلف الفضاء البعيد.. إنك إن نزلت برحابه وجدته كريماً مضيافاً:

يضم القلوب إلى صدره ... ليأسو ما مضها من جروح
ويبعث فيها ربيع الحياة ... ويبهجها بالصباح الفروح

وإلى جانب الموت هناك جبار آخر يملأ فكر الشابي وشعره ويسيطر على حياته سيطرة مطلقة ألا وهو القدر.

لقد كان الشابي شديد الإحساس بسطوة القدر وسلطانه على هذا الوجود ولا تكاد قصيدة من قصائده القديمة أو الحديثة النشر لا تخلو من ذكره، وقصيدته «شكوى ضائعة» هي من القصائد التي لم تنشر سابقاً وقد تحدث فيها عن غلبة القدر وانتصاره على الحياة وعلى كل الأحياء.

يبدأ الشاعر القصيدة بسؤال الليل هذا السؤال المحير:

يا ليل ما تصنع النفس التي سكنت هـذا الـوجـود ومـن أعـدائهـا القـدر
ترضى وتسكت؟ هذا غير محتمل إذاً فهـل تـرفـض الـدنيـا وتنتحـر

هذا هو السؤال المحير حقاً. هل تنتحر؟ إذ لا مخرج من هذا الوجود الذي أرغمنا على خوض عبابه سوى الانتحار.

لكن الانتحار جنون وجزع باكٍ، ورأي مريض كله خور ـ كما يقول ـ على أن الهرب من القدر بالانتحار إنما هو هرب إلى ضرب من حبائله الكثيرة وهو الموت. فكيف العمل وإلى أين المفر؟:

قـد كبـل القـدر الضـاري فـرائسـه فمـا استطـاعـوا لـه دفعـاً ولا حـزروا
وخـاط أعينهـم كـي لا تشـاهـده عيـن فتعلـم مـا يـأتـي ومـا يـذر
لا الموت ينقذهم من هول صولته ولا الحياة. تساوى الناس والحجر

هذا هو شأن البشرية مع القدر: حيرةِ وروع، وعجز عن الهرب ثم استسلام وانتظار... إن هذا العدو الألد لا يمثل أمامنا فنراه وجهاً لوجه بل هو يملي إرادته سراً فنعنو له قهراً، ونأتمر بأوامره، ولو رآه ضحاياه المساكين لهبّوا لمحاربته زمراً تتلوها زمر، ولثارت إليه في نقمة وغضب جميع البرايا من أنس وجن وأملاك، ومن بر وبحر وأفلاك.

وتنهد الليل تنهدة كادت تنتثر لها النجوم، ويموت من زفيرها الإنس

والجن ثم عاد إلى صمته يصغي للدنيا الشاكية حزيناً مكتئباً. . . أما هو فقد قهقه ساخراً:

وقهقــه القــدر الجبــار سخــريــة بالكائنات. . تضاحك أيها القدر
تمشـي إلـى العـدم المحتـوم بـاكيـة طوائف الخلق والأشكال والصور
وأنـت فـوق الأسـى والمـوت مبتسم تـرنـو إلـى الكـون يبنـى ثـم ينـدثـر

ففكرة الفناء والعدم والموت تلح على الشاعر وتلاحقه أبداً.

فهل الشابي ذو الروح الرومانتيكية كان متأثراً بما كتب الرومانتيكيون في هذه الأغراض وهي من أهم ما كتبوا فيه مثل تمني الموت والشعور الملح بالألم وطلب الراحة من جهاد لا طائل تحته وكراهية لهذا العالم الذي لا يشبع توقهم إلى عالم مثالي يسود فيه الكمال المطلق والخلود الأبدي والجمال، أم كان يصف نفسه كما برأها الله ويصدر عن روحه الظمأى إلى المثل العليا وإلى المطلق دون أن يكون مقلداً لغيره أو مردداً لأصداء مسموعة.

الحق أن هناك حالة روحية تسمى «النفسية الرومانتيكية» وهي حالة واقعية مشاهدة تعرف بمعالمها الواضحة وخطوطها المميزة. فالأبطال الرومانتيكيون من روى بلاس: بطل هيجو إلى شترتون بطل ده فيني إلى فرتر بطل جيته إلى روني بطل شاتوبـريان إلى منفرديد بطل بيرون كلهم يتعجلون الراحة الكبرى بالانتحار أو يعلنون التمرد المتعالي ويتحدون الموت والقدر وهذا ما وصل إليه الشابي أخيراً في «نشيد الجبار».

فالشابي رغم استعداد نفسه لتقمص الروح الرومنتيكية قد انتزع من تجاربه في الحياة وشعوره بمحاربة القدر له في أعز آماله وأحبابه ورميه بالداء العضال، قلت قد انتزع هاته الروائع الفنية التي نقرؤها فنرى قلباً هو ـ كما يقول عنه ـ متأجج الإحساس مرهق الأعصاب مشبوب الشعور ونرى شاعراً يعيش مأساة الحياة كلها في مأساته.

والقسم الثاني من الشعر الحديث النشر: الطبيعة والغاب. ولفظ

الغاب وإن كان يعني الطبيعة إلا أنه عند الرومانتيكيين ربما أريد به العزلة والوحدة بين أحضان الطبيعة والهرب من المدينة ومجتمعاتها الصاخبة. ومن المعروف أن الشعراء الرومانتيكيين يمتازون جميعاً. شرقيين وغربيين. بهذه النشوة التي يجدونها بين أحضان الطبيعة. وهذا الخشوع الذي يلقونها به، وهذا الاعتقاد بأن الطبيعة وحدها هي التي تقدم لهم العزاء والسلوى لما يشعرون به من وحشة وغربة بل ربما نقلوا وحشة نفوسهم إلى الطبيعة نفسها فتكلموا عنها وكأنما هي الموحشة الحزينة وبعضهم يرى أنها تسحقهم لأنها باقية وهم زائلون.

والشابي كغيره من الشعراء الرومانتيكيين تغنى بالطبيعة والغاب في قصائد كثيرة من شعره القديم. أما في شعره الجديد في الديوان فإننا نراه يخصها بعدة قصائد. ففي قصيدة «المساء الحزين» وصف لنا الشاعر مساء ولكنه نقل إليه كل معاني الأسى والكآبة، فمساؤه هذا يظل الوجود وفي ثغره بسمات الشجون، وفي طرفه حسرات السنين. لقد أقبل من بعيد يحمل معه سر الظلام، وصرخات القلوب فإذا الوجود كله يتعلم منه كيف تأسى النفوس، وكيف يموت لديه كل حنين. ولماذا كان هذا المساء حزيناً؟ لأن الشاعر هو الآخر كان حزيناً، لقد رأى كل شيء في المساء رجع إلى أصله، واطمأن إلى أهله، فنامت الزهور على العشب، وآبت الطيور إلى أوكارها، وولى رعاة السوام إلى الحي يزجون مواشيهم فتثغو حنيناً لحملانها، أما الرعاة أنفسهم فكانوا ينشدون أهازيجهم بصوت طروب ويستخرجون من مزاميرهم كل لحن عجيب. وكانت نسمات الغروب تحمل تلك الألحان البهيجة إلى الشفق البعيد وكانت نظرات الصبايا توحي لهم أناشيد عهد الشباب.

نعم! لقد رجع كل إلى أهله، واطمأن إلى أصله إلا الشاعر فإن حبيبه وأمل حياته لم يرجع إليه. لقد تاه في شعاب الحياة وسدت عليه كل الدروب فأقام شريداً وحيداً. وقد كان من قبل يرفرف حول فؤاده الخصيب. ولعل الشابي يشير هنا إلى حبه الأول الذي تحدث عنه في

بواكير شعره والذي تدل بعض إشارات الشاعر في قصائد عديدة على أنه نعم بحبه في أول الأمر ثم اختطفته يد المنون فإن صح هذا الاستنتاج فقصيدة «المساء الحزين» يمكن أن تندرج مع أوائل شعره الذي نظمه ولم ينشره. وهذا ما نفهمه من قوله:

فقــد تــاه فــي الحيــاة وسـدت عليـه منـاحـي الـدروب
وظـل شـريـداً وحيـداً بعيـداً يغـالـب عنـف الحيـاة المهيـب
وقـد كـان مـن قبـل ذا غبطـة يـرفـرف حـول فـؤادي الخصيـب

لقد وقف الشاعر يسأل ذلك المساء هل يؤوب إليه حبيب قلبه بل ربيع حياته حتى يعود إليه سلام ذلك القلب، وتختال فيه عروس الصباح بعد أن كبلته بنات الظلام وألقته في عراص الجحيم وفي ظلام اللحود حسب تعبيره الشعري المجنح.

وأصغى المساء إلى لهفه المستمر فخاطبه قائلاً:

تعـود ادكـارات ذاك الهـوى ولكـن سحـر الهـوى لا يعـود

فعند ذلك جاشت بنفسه مآسي الحياة وسخط القنوط فأهاب بقلبه الهلوع وهو الذي كان من قبل جلداً شديداً وخاطبه قائلاً:

تجلـد ولا تستكـن لليـالـي فمـا فـاز إلا الصبـور الجليـد
ولا تـأس مـن حـادثـات الليـالـي فخلـف الـديـاجيـر فجـر جـديـد

فنحن نلاحظ أن الشابي لا يرى في المساء إلا وحشة وكآبة ذكرته بماضيه الذي نعم فيه بعض الوقت بسعادة الحب، ولكن لم يبق له من كل ذلك إلا الذكريات ونلمح في قوله:

تعـود ادكـارات ذاك الهـوى ولكـن سحـر الهـوى لا يعـود

شبهاً بقول ميسي في قصيدة «التذكار» التي ترجمها إبراهيم ناجي وجماعة آخرون للعربية والتي ذكر فيها «أن سعادة الحب تمضي أما ذكرى تلك السعادة فباقية».

أما قوله فخلف الدياجير فجر جديد فإرهاص للطور الذي نظم «الصباح الجديد» وكان حام حول هذا المعنى في قصيد «صوت من المساء» وذلك في قوله:

الفجـر يـولـد بـاسمـاً متهلـلاً في الكون بين دجنة وضباب

وفي قصيد «بقايا خريف» ننتقل إلى نوع آخر من شعر الطبيعة. نحن نعرف أن الرومانتيكيين يحتفلون بالخريف أكثر من احتفالهم بأي فصل من فصول السنة. إذ يروقهم منه الجليد والضباب وتجرد الغصون من أوراقها وعصف الرياح بالأوراق الجافة وتعطل الحياة في هياكل الأشجار وفي كل ذلك معنى الذبول والفناء وفيه أيضاً تجاوب مع مشاعر الرومانتيكيين الحزينة الآسية. ونحن إذ نذكر الخريف نذكر قصيدة لامرتين الشهيرة التي تبدأ هكذا:

«سلاماً أيتها الغابات المتوجة ببقايا الخضرة
والأوراق المصفرة المنثورة
على العشب. سلاماً أخريات الأيام الجميلة
إن حداد الطبيعة يتجاوب والألم ويروق لنظراتي

وإذ نذكر أوراق الخريف نذكر قصيدة ميخائيل نعيمة اللطيفة «أوراق الخريف»:

تنـــاثـــري تنـــاثـــري يـــا بهجـــة النظـــر
يـا مـرقـص الشمـس ويـا أرجـــوحـــة القمـــر

فماذا يقول لنا الشابي في قصيدة «بقايا الخريف».

بدأها بإعلان سأمه من رؤية القصور وسكانها وما حولها من صراع عنيف يكيد فيه القوي للضعيف ويعصف فيه بجهده، وذكر كيف يحطم في هذا الصراع قلب الفقير وكيف تسفح دموع اليتامى. فجاشت نفسه بالدمع وذهب بأحزانه إلى الغاب ففي الغاب كل ما تهوى نفسه المحزونة. هناك

فضاء «شاعر» حالم يناجي السهول، قد دثرته غيوم المساء بظلال حزينة مفرجة، وهناك وقف الشاعر ونظر حواليه فرأى غديراً مواتاً وقد مات ما حوله من الزهور فجاد عليها الخريف بكفن من الصقيع. ولم يبق حول الغدير من حي سوى زهرة واحدة شقيت بالحياة هنالك. فما مقامها بهذا المكان المخيف يروعها قصف الرعود ويحزنها ندب زفيف الرياح، يغشيها السديم في الصباح وتطوف عليها الأحلام المريعة المخيفة في الليل. غاديات الغمام ترهبها، والرياح العاصفة تؤلمها. تنظر حولها فترى رفيقاتها صرعى جافة سحيقة يا لها من مسكينة! إنها تبكي بكاء الغريب وتشكو أساها بياض النهار. ومن أين لها الرفيق وما ثم هنالك إلا الصخور القاسية والصدى الهتوف. وأخيراً جادت بروحها الشقي المعذب وغادرتها الحياة بقاع صفصف ضنك. وما أجمل قوله في وصف مصرع الزهرة:

فبانت حيال الغدير الأصم ... وقد أخرس الموت ذاك الحفيف
وقد خضبتها غيوم السماء ... كغانية ضرجتها السيوف

ولا يلبث الشاعر أن يتخذ من مصرع هاته الزهرة شبهاً لحظة ورمزاً لحياته فيقول:

ذكرت بمضجعها المطمئن ... ومرقدها في السفير الجفيف
مصارع أمالي الغابرات ... وخيبتها في الصراع العنيف

فما أشبه هذا الحظ الذي قطعت فيه كل خيوط الأمل بما ختم به ميخائيل نعيمة قصيده الشهير «النهر المتجمد»:

يا نهر ذا قلبي أراه كما أراك مكبلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو لا . . .

كما أن بعض أبيات القصيدة يذكرنا بقصيدة «موت الفراش» لإيليا أبو ماضي وبقصيدة «في القفر» للشاعر نفسه وهي التي تبدأ هكذا:

سئمت نفسي الحياة مع الناس وملت حتى من الأحباب

وتمشت فيها الملالة حتى ضجرت من طعامهم والشراب
ومن القبح في نقاب جميل ومن الحسن تحت ألف نقاب
قالت اخرج من المدينة للقفر ففيه النجاة من أوصابي
وليلك الليل راهبي وشموعي الشهب والأرض كلها محرابي

وهذا دليل على أن الرومانتيكيين جميعاً يصدرون عن وحي واحد وينهلون من معين واحد.

ومن قصائد الشابي في هذا الباب قصيدته بعنوان «قيود الأحلام» وموضوعها أن الشاعر طالما تاقت نفسه لأن يحيا بفكرة شاعر فنان ولكن هذا الحلم لا يمكن أن يتحقق له إلا إذا قطع أسبابه من أسباب الدنيا وعاش لوحدته في الغاب وكما يقول:

في الغاب في الجبل البعيد عن الورى حيث الطبيعة والجمال السامي

نعم! إنه يود أن يعيش في الغاب عيشة زاهد متنسك ويهجر الجماعة تورعاً عنها وهرباً من بطش الحياة الدامي. إنه يود أن يعيش في الجبال تمشي حواليه الحياة خفيفة الأقدام كأنها الحلم الجميل وتخر تحت قدميه أمواج الزمان في يمها المترامي، إنه يود أن يعيش في غابة عيشة كلها للفن والأحلام والإلهام. لكنه ويا للأسف لا يستطيع فهو مكبل بسلاسل حية وقيود متينة. فهذه أمه يحول حنانها دون تحقيق أحلامه وهؤلاء أخوته الصغار يرون سلامتهم رهن سلامة أخيهم وعائلهم. أليس هو كهفهم المنيع الذي يصد عنهم غوائل الأيام بعد أن فقدوا الأب الحاني..

حقاً إنه لا يستطيع تحقيق أحلامه. فهو سيظل من سكان المدينة مكرهاً، وسيظل يصغي إلى الدنيا السخيفة مرغماً، وسيظل عائشاً بالأوهام مثل الناس في أرض قفراء مدعوة للشك والآلام. لقد هجمت به الدنيا من غير إنذار إلى خضمها الطامي العميق فتحطمت نفسه على شطآنه. وتأججت آلامه في جوه العاصف. فلو أنذر قبل المجيء للدنيا فلعله كان حمل معه عدته حتى يخوض ذلك الخضم خوض السابح العوام. ويختم القصيدة بهذا البيت:

الـويـل للـدنيـا التـي فـي شـرعهـا فـاس الطعـام كـريشـة الـرسـام

على أننا بعد قراءة هذه القصيدة لا نلبث أن نتذكر قصيدة جبران المطولة «المواكب» فهي تحمل نفس الفكرة في تفضيل عيش الغاب ونفس الأسباب التي منعته من تحقيق رغبته.

يقول جبران في خاتمة المواكب:

العيش في الغاب والأيام لو نظمت في قبضتي لغدت في الغاب تنتشر
لكن هو الدهر في نفسي له إرب فكلما رمت غاباً قام يعتذر
وللتقادير سبل لا تغيرها والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا

لماذا لم ينشر الشابي القصيدة مع جملة ما نشره من قصائد الغاب؟ هل كانت هاته المشابهة في الفكرة بين قصيده وقصيد جبران هي الحائل دون نشرها؟.

ثم نصل إلى القصيدة الأخيرة من قصائد «الطبيعة» التي بعنوان «الغاب». هي قصيدة مطولة احتوت واحداً وسبعين بيتاً. وقد تفنن الشابي ما شاء له التفنن في وصف حياة الغاب. فما شئت من جداول شادية حالمة، ومخارم مفروشة من يابس الأوراق والأكمام، يحنو عليها الدوح بالظل والأنغام والأنسام. ولكم أصغى فيه لنوح الرياح وترنم الشبابة بألحان الغرام، ولكم تسمع فيه للطير المغرد في الفضاء. ولأناشيد الرعاة وإلى الصدى بين الفجاج الفيح والآكام. واستمع إليه يروي قصة غدوه للغاب لأول مرة:

لله يوم مضيت أول مرة للغاب أرزح تحت عبء سقامي
ودخلته وحدي وحولي موكب هزج من الأحلام والأوهام
ومشيت تحت ظلاله متهيباً كالطفل في صمت وفي استسلام
أرنو إلى الأدواح في جبروتها فأخالها عمد السماء أمامي
قد مسها سحر الحياة فأورقت وتمايلت في جنة الأحلام

والقصيد أغلبه على هذا النسق العالي، لم يترك فيه شاعرنا العبقري معنى من معاني الجمال في الطبيعة لم يتفطن إليه، مما دل على أن الشابي كان حقيقة يحن إلى حياة الغـاب ويقدسه كالمعبد ويجعل الحياة فيه المثل الأعلى للحياة، وأنه حقاً لو سمحت له المقادير بتحقيق أحلامه لم يكن يبغي بالعيش فيه بديلاً.

وهذه أبيات أخرى من هذا القصيد الرائع يخاطب فيها نفسه ويجعل الغاب معبداً وهو «كاهن الأحزان والآلام» وهي تسمية عجيبة ملفتة للنظر:

المعبـد الحـي المقـدس هـا هنـا   يـا كـاهـن الأحـزان والآلام
فاخلع مسوح الحزن تحت ظلاله   والبـس رداء الشعـر والأحـلام
وارفـع صـلاتـك للجمـال عميقـة   مشبـوبـة بحـرارة الإلهـام
واصـدح بـألحـان الحيـاة جميلـة   كجمـال هـذا العـالـم البسـام
واخفق مع العطر المرفوف في الفضا   وارقـص مـع الأضـواء والأنسـام

والقسم الثالث من شعره الحديث النشر في الديوان يتحدث عن «الغربة الروحية» وهو موضوع كثيراً ما تناوله في بقية شعره.

والغربة الروحية قضية شهيرة من قضايا الرومانتيكية. فالشاعر الرومانتيكي سواء كان شرقياً أو غربياً. يرى أنه غريب في عصره بإحساسه وشعوره ومثله الأخلاقية والجمالية وأنه لأجل هاته الغربة حزين لا يتسلى. وقد عبر الشابي عن هاته الفكرة في قصيدة «الكآبة المجهولة» تعبيراً لا غاية بعده في الشدة والمرارة إن لم أقل في التلذذ بالحديث عن هاته المرارة. يقول في مطلع القصيدة:

كـآبتي خـالفـت نظـائرهـا   غـريبـة في عـوالـم الحـزن
كـآبتـي فكـرة مغـردة   مجهولة من مسامع الزمن

ويقول وفي قوله نبرات الصدق والعمق:

كـآبتـي شعلـة مـؤججـة   تحت رماد السكون تستعر

سيعلم الكون ما حقيقتها ويطلع الفجر يوم تنفجر

أي أنه حين يموت تنفجر كآبته وتتلاشى ويطلع الفجر برجوع روحه إلى منبعها الأول.

ومن أشهر من تناولوا هاته الفكرة جبران في قطعة «الشاعر» في كتابه «العواصف» ومن كلامه في هذا المعنى: أنا غريب في هذا العالم. أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية، ووحشة موجعة غير أنها تجعلني أفكر أبداً في وطن سحري لا أعرفه ويملأ أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني.

ويقول في خاتمة هذه القطعة: أنا غريب وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني.

وأصل هذه القضية يرجع ـ فيما أرى ـ إلى فكرة فلسفية قديمة فقد كان أفلاطون يرى أن النفس روح كانت عند الخالق فأثمت فهبطت من السماء ودخلت جسم الإنسان فهي دائماً تحن إلى موطنها السماوي الأول. وقد تصور أفلاطون النفس فرساً مجنحة غذاؤها الجمال والحكمة والصلاح فلما هبطت فقدت جناحيها ودخلت جسم الإنسان. وقد جرى ابن سينا مجرى الفيلسوف الإغريقي في هذا الاعتقاد إلا أنه جعل النفس ورقاء ذات تعزز وتمنع هبطت من محلها الأرفع على كره منها ولكنها حين ألفت سجن الجسد أو «الخراب البلقع» كما يسميه نسيت عهودها الأولى ومنازلها العلوية التي ما تزال آسفة لفراقها.

وهذا كلام الشيخ الرئيس بنصه:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره إليك ـ وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
ألفت ـ وما سكنت فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنع...

وقد أعجبت الشابي هذه الفكرة فاعتنقها لأنها تتفق مع شعوره

بالغربة، ونفوره من قيود المجتمع ورياء المدينة وقسوة الناس وظلمهم فزعم أنه خلق ليحيا في عالم من النور والضياء وليسبح مع كواكب السماء ولكن القدر أنزله إلى الأرض ظالماً ورماه في هاته الدنيا وحيداً أعزل ثم قضى عليه بالإقامة في كون أكره على الإقامة فيه إكراهاً. يقول في قصيدة «إلى الله»:

أنت أنزلتني إلى ظلمة الأرض وقد كنت في صباح زاه
كالشعاع الجميل أسبح في الأفق وأصغي إلى خرير المياه
أنت أنشأتني غريباً بنفسي بين قومي في نشوتي وانتباهي

ويقول في قصيدة «صوت تائه»:

شردت عن وطني السماوي الذي ما كان يوماً واجماً مغموما
شردت عن وطني الجميل أنا الشقي فعشت مشطور الفؤاد يتيما
في غربة روحية ملعونة أشواقها تقضي عطاشاً هيما

وعلى ضوء هاته العقيدة نفهم قوله في «نشيد الجبار»:

أما إذا خمدت حياتي وانقضى عمري وأخرست المنية نائي
وخبا لهيب الكون في قلبي الذي قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فأنا السعيد بأنني متحول من عالم الآثام والبغضاء
لأذوب في فجر الجمال السرمدي وأرتوي من منهل الأضواء

أي أنه بعد الموت يرجع إلى عنصره الأول وهو عنصر «النور» على أنه ليس وحده الذي شرد عن وطنه السماوي فكلنا تائه مروع في حال الإقامة ومروع في حالة الرحيل، كلنا يدعو الحياة فلا يجيبه إلا الردى. فإذا جاء الردى ولفه في طياته استمرت الحياة في سيرها كأن فقيدها لم يكن في يوم من الأيام صاحباً لها وحميماً:

شردت للدنيا وكل تائه فيها يروع راحلاً ومقيما
يدعو الحياة فلا يجيب سوى الردى ليدسه تحت التراب رميما

وتظل سائرة كأن فقيدها ... ما كان يوماً صاحباً وحميما

على أن شعوره بالغربة لا يكتسي دائماً هذا الحنين إلى المصدر الأول الأزلي بل ربما يبدو في مظهر دنيوي يتمثل في ضجر الشاعر من معاشرة الناس والسآمة منهم ومن دنياهم السخيفة وعيشهم الغث.

يقول في قصيدة «مناجاة عصفور»:

ما في وجود الناس من شيء به ... يرضى فؤادي أو يسر ضميري
فإذا سمعت حديثهم ألفيته ... غثاً يفيض بركة وفتور
وإذا حضرت جموعهم ألفيتني ... ما بينهم كالبلبل المأسور
متوحداً بعواطفي ومشاعري ... وخواطري وكآبتي وسروري

وكيف يعاشرهم وهو إن سكت ضجروا منه وإن تكلم تذمروا من تفكيره المخالف لتفكيرهم وشعوره المرهف المضاعف. إنه بلا الناس فما ازداد بهم إلا تبرماً وضجراً ولهم كراهية وقلى، إنه بلا الناس فلم يجد إلا الخبيث الماكر والخب الغادر المتربص بغيره شر المصائب ولم يعثر إلا على الجشع المقاتل الذي يود أن يملك الدنيا كلها ويرمي بأهلها في الجحيم.

والمدينة ماذا يود منها؟ إنها هي الأخرى غريقة في الآثام فوارة بالدماء قاسية لا ترحم المتفجع، ولا ترثي للموتور. وهي بعد كل هذا مباءة كل دعارة وفجور. لذلك فهو يأنس بمناجاة الطائر ويعرض عليه مودته لأنه هو أيضاً مثله طائر مغرد مترنم... أيها الطائر:

غرد ففي قلبي إليك مودة ... لكن مودة طائر مأسور
غرد ولا ترهب يميني إنني ... مثل الطيور بمهجتي وضميري
أنا طائر متغرد مترنم ... لكن بصوت كآبتي وزفيري...

دائماً الكآبة والأسى... والزفير. على أن القصيدة التي جمعت أكبر مجموعة من عبارات الأسى هي قصيدة «أغنية الشاعر» التي يقول في طالعها:

يــا ربــة الشعــر والأحــلام غنينــي فقد سئمت وجوم الكون من حين
يـا ربـة الشعـر غنيني فقـد ضجـرت نفسـي مـن النـاس أبنـاء الشيـاطيـن

ففي هذه القصيدة نراه يركز العمل الفني في النظم على إيراد كل الكلمات والعبارات التي وضعت في اللغة للحزن والأسى ليصف لنا حالته النفسية فيحشر في أبيات القصيدة الثمانية عشر 20 كلمة للتعبير على كآبة نفسه كقوله أناخت بنفسي المآسي، هدّ من خلدي النوح. أنا أبكي لشقوة الحياة. لذت بالظلماء منتحباً. إني بائس تعس قلبي قبر مظلم. بلوى الحياة. أحزان المساكين. بيت الأحزان (ويعني به بيته) كما سمى نفسه في قصيد الغاب (كاهن الأحزان)... إلى آخر ذلك.

فإفراط الشابي في استعمال أمثال هاته الألفاظ بل قدرته الفائقة في تركيب الصور الشعرية منها لإثارة الروع أو إبلاغ إحساسه الحزين لا يلبث أن يصبح شنشنة معروفة أو نغمة مألوفة تثير الإعجاب بقوة الشابي في تنسيق الكلمات واستحضارها ولكنها لا تفلح في إيجاد الأثر النفسي والتأثير الذي قصد إليه في الوصف والتصوير. إلا أننا لحسن الحظ نرى الشابي يعمد في قصائد أخرى إلى القصد في اللفظ ويركز اهتمامه، لتكوين الجو الإيحائي الملائم فيوفق إلى بعث أصداء بعيدة في نفس القارىء، وإذا الأثر الأدبي قريب من نفوسنا محبب إلى قلوبنا، تنبعث الكآبة في نفوسنا، حين نقرؤه، لا من هاته الثروة اللفظية المرصوفة ولا من هاته المجازات المتتابعة المكدة للذهن بل من هذه البساطة وهذا القصد والاعتدال والقدرة على استخدام المؤثرات الأخرى كموسيقية الأوزان والجو العاطفي الذي يخلقه الشاعر. وأحسن مثل لهذا التوفيق قصيدته «إلى عازف أعمى». وأستأذنكم في قراءة بعض أبيات القصيد الجميل المؤثر لندرك الفرق واضحاً بين الأسلوبين.

إلى عازف أعمى:

أدركت فجر الحياة أعمى وكنــت لا تعــرف الظــلام

إشارة إلى مذهبه في مجيء الإنسان إلى الدنيا من عالم النور:

فأطبقت حولك الدياجي وغام من فوقك الغمام...

أشهد أن هذا القصيد آية في الصدق والجمال والبساطة. وقد بلغ به الشاعر من التأثير ما لم يكن يبلغه لو حفل بالثروة اللغوية وأهمل الجانب الفني في صوغ القصيدة وإننا لنلمح فيه نفحة علائية. ومن ذا الذي يقرأ قوله:

«وكلنا في الحياة أعمى» ولا يتذكر قول أبي العلاء: ويصير الأقوام مثلي أعمى. ومن أهم الأغراض التي تناولها الشابي في شعره الحديث النشر الكلام على «القلب» والحقيقة أن المتأمل في شعر الشابي في الديوان كله يرى أنه خص القلب بالحديث في قصائد برمتها مثل قصيدي «الأبد الصغير» و «قلب شاعر» أو بمقطوعات في ثنايا قصائد الأخرى مثل القصائد «يا شعر» و «أغاني التائه» و « الجنة الضائعة». أما في شعره الحديث النشر فقد وجدنا له قصيدين يتحدث فيهما عن القلب وهما: «إلى قلبي التائه» و «أكثرت يا قلبي» ولا شك أن هذه الظاهرة قد لفتت أنظار كثيرين من دارسي شعر الشابي خصوصاً وأن الشاعر قد استطاع أن يتحدث عن القلب حديثاً جميلاً رائعاً، وأن يستخرج في الكلام عنه نغمات مؤثرة، وصوراً عجيبة وتعبيرات مبتكرة لم نرها لشاعر قديم أو حديث، ولم تخطر على بال مصور أو فنان. وقد كنا أول من تكلم عن هذه الظاهرة فيما كتبناه عن أدب الشابي في حفلة الذكرى الأولى. فقلنا في هذا الغرض:

«فقلبه الذي كان يكثر من ذكره في شعره ويشكوه في غدواته وروحاته كان «هو الحاسة القوية» التي يتصل بها مع العالم الخارجي، ويحتفظ فيها بالصور والرؤى وكان يحيا به حياة مضاعفة ويحس به في اللحظة الواحدة ما لا تحسه القلوب العادية في السنين المتتالية».

فكيف يصف لنا الشاعر قلبه في قصيد «إلى قلبي التائه». لقد حدثنا عن قلب محطم صامت واجم وقال عنه: إنه أسود الآفاق حالكها، وروده

صفراء بين الشوك طيوره صامتة لا تلغو. ومزماره واجم لا يشدو. هو قلب أنضجته الزفرات، وعش نفرت منه طيوره فحملته الرياح العاتية إلى النهر الجاري فإذا العش فوق التيار أوراق منشورة وأعواد بالية. إنه حقل مجدب يسخر منه الرعاة، وليل معتم لا يصلح إلا للباكيات، بل هو كهف مظلم تأوي إليه البائسات. إنه قبر دفن فيه رفات أيامه الأولى. إنه لحن يخبط في التيه ويسير مع الظلمة في الصحراء سير الناقة العشواء. البحر موار بأمواج الحياة والقارب مشدود إلى الصخوز والشاطىء قريب لكن القارب لا ينطلق في بحر الحياة لأن ربانه مات منذ زمان بعيد. هكذا يصف الشاعر قلبه التائه وعندنا أن هاته القصيدة الحزينة مرثية من مراثي حبه الأول الدفين وأنها من قصائده الباكرة التي تنقصها البراعة الفنية. ومما يدلنا على أنها مرثية حبه الأول قوله:

ما لأنغامك لا تنطق إلا باكيات
ولقد كانت صباح الأمس بين النسمات
كعذارى الغاب لا تعرف غير البسمات

وقوله متحدثاً عن ذكريات الحب التي بقيت أصداؤها في ذلك القلب الدامي:

أنت عود مزقت أوتاره كف الحياة
صامت كالقبر إلا من أنين الذكريات

وقوله أيضاً في نفس القصيدة:

أنت قبر فيه من أيامي الأولى رفات

وما هاته الرفات إلا ذكرى الحبيبة التي تحدث عنها في قصائد كثيرة من شعره القديم والتي وجدناه يشير إليها إشارات أخرى في «بقايا الخريف» و «المساء الحزين» و «مناجاة عصفور».

أما قصيدة «أكثرت يا قلبي» فإنها أشبه بالحوار بين الشاعر وقلبه وكان

الشاعر يريد أن يقنع قلبه بالإقلاع عن هذا الحزن الدائم والكف عن حمل هذه الكآبة المرهقة. ولا يتردد في نعت قلبه بالغلو والمبالغة. فهو يقول مخاطباً قلبه:

إلام هذا الوجوم! إلام هذا الحزن؟ أما علمت أن الحزن فظ غشوم؟ انظر! هذه كؤوسي ليس فيها غير عصير الهموم، وهذا ناي صامت ساكن. فحتام البكاء كفاك حزناً. إرحم شبابك واستمع إلى صوته الرخيم. أرقص مع النور. ما لك لا تصغي لغير الأسى؟ ما لك لا تنظر لغير الجراح؟ انظر:

أمـا تـرى البلبـل فـي غـابـه ... يشدو وفوق الغاب تخطو النجوم
أمـا تـرى الأسحـار تبـدو بهـا ... الغابات كالأحلام خلف السديم
أمـا تـرى الآمـال فـي سحـرهـا ... أمـا تـرى الليـل ينـاغـي النجـوم

ويستمر الشاعر في خطابه للقلب سائلاً معاتباً عن دوام هذا الأسى والوجوم ولكن قلبه لا يجيب بشيء ويبقى الحوار من جانب واحد. ومرة أخرى نلمح في هذا القصيد إشارة إلى حبه القديم الذي ما انفك يرثيه ويشير إليه دون أن يعطينا عنه معالم واضحة أو يصوره لنا في زمانه ومكانه من الدنيا فقوله في هذه القصيدة:

وذاك نـاي صـامـت واجـم ... يصغي إلى صوت الغرام القديم

وقوله:

يـا قلبـي البـاكـي إلام البكـا ... مـا فـي فضـاء الكـون شـيء يـدوم
فـانثـر غبـار الحـزن فـوق الـدجـى ... واسمع إلى صوت الشبـاب الرخيـم

يدلان على أن هاته القصيدة أيضاً هي من مراثي حبه القديم وأنها قيلت في الفترة التي فجع فيها الشاعر الشاب بموت حبيبته.

أما قصة هذا الحب فإننا نستطيع أن نستنتج بعض فصولها من شعره أو كتاباته. ويمكن أن نقسم هذا الشعر إلى عهدين: عهد السعادة بالحب وعهد الشقاء بذهابه.

فمن شعره في طور السعادة قصيدة «ذكرى صباح» التي يقول فيها:

قدس الله ذكره من صباح ساحر في ظلال غاب جميل
كان فيه النسيم يرقص سكراناً على الورود والنبات البليل
وضباب الجبال ينساب في رفق بديع على مروج السهول
وأغاني الرعاة تخفق في الأغوار والسهل والربى والتلول
ورحاب الفضاء تعبق بالألحان والعطر والصفاء الجميل
والملاك الجميل ما بين ريحان وعشب وسنديان ظليل
يتغنى مع العصافير في الغاب ويرنو إلى الضباب الكسول
وشعور الملاك ترقص بالأزهاروالضوء والنسيم العليل

وفي قصيدة «تحت الغصون» يخاطب ملاكه الجميل فيقول:

ها هنا في خمائل الغاب تحت الزان والسنديان والزيتون
أنت أشهى من الحياة وأبهىمن جمال الطبيعة الميمون
ما أرق الشباب في جسمك الغض وفي جيدك البديع الثمين

وهي طويلة وفيها فنون من الغزل العذب والحوار الرقيق الذي يقال بين المحبين. وفي قصيدة «السَاحرة» يروي الشاعر موقفاً غرامياً طلبت فيه ساحرته من الشاعر أن يقلع عن عصمته ووجومه وأن يغرد بشعره وأن يمشي في روضة الشباب طروباً وهذا بعض إغرائها:

أتـل للحـب والحيـاة أغـانيـك وخـل الشقـاء تـدمـي كلـومـه
واحتضنـي فـإننـي لـك حتـى يتوارى هذا الدجى ونجومه
وانس في الحياة فالعمر قفر مرعب إن ذوى وجف نعيمه

وفي قصيدة «أراك» يقول للحبيبة:

أراك فتحلــو لــدى الحيــاة ويمــلأ نفسـي صبـاح الأمـل

وتنمو بصدري ورود عذاب وتحنو على قلبي المشتعل
ويفتنني سحر تلك الشفاه ترفرف من حولهن القبل

وفي قصيدة «ألحاني السكرى»:

نحن نلهو تحت الظلال كطفلين سعيدين في غرور الطفولة
وعلى الصخرة الجميلة في الوادي وبين المخاوف المجهولة
نحن نغدو بين المروج ونمسي ونغني مع النسيم المغني
ونناجي روح الطبيعة في الكون ونصغي لقلبها المتغني. . . الخ

كل هاته القصائد تحدثنا عن حبيب كان يهواه الشاعر ويلتقي به بين أحضان الطبيعة ويبثه لواعج الغرام ويبادله الحبيب عاطفته ويغني له ويمر يده على شعره ويدعوه لاحتضانه وقطف ورود خده. إلا أننا مع ذلك نظل، نتساءل هل هو حبيب بعينه أم أحباب كثيرون ركز فيهم الشاعر كل معاني العطف والشوق ونهم نفسه إلى الحب. إنما الذي نعرفه على التحقيق أن إحدى هاته الحبيبات قد ماتت فأصابت قلب الشاعر برجة عنيفة فراح يرثيها بهاته المراثي المتفجعة المريرة وكان ذلك في عهد مبكر حين بدا يشتد أسره في نظم الشعر وتتضح طريقته وميزاته فيه ولكنه قبل أن ينضج وينتج روائعها التي اشتهرت وسارت مسير الشمس.

وهذه المراثي تزيد عن العشر منها في شعره القديم القصائد التالية: مأتم الحب ـ أيها الليل ـ الزنبقة الذاوية ـ أغاني التائه ـ الدموع ـ الذكرى ـ جدول الحب ـ أنا أبكيك ـ وفي شعره الحديث النشر بقايا الخريف ـ المساء الحزين ـ مناجاة عصفور ـ إلى قلبي التائه ـ وأكثرت يا قلبي.

وهذه نماذج من هذا الرثاء المتفجع: في قصيدة «مأتم الحب»:

مات من تهوى وهذا اللحد قد ضم الحبيب
فابك يا قلبي بما فيك من الحزن المذيب
ابك يا قلب وحيد

وفي قصيدة «أيها الليل»:

كنت أرنو إلى الحياة بلحظ باسم والرجاء دون لغوب

ذاك عهد حسبته بسمة الفجر ولكنه شعاع الغروب

جرفت من قرارة القلب أحلامي إلى اللحد جائرات الخطوب

وفي قصيدة «الزنبقة الذاوية»:

وقد أترع الليل بالحب كأسي وشعشعها بلهيب الحياة

وجرعني من ثمالاته مرارة حزن تذيب الصفاة

وفي قصيدة «الدموع»:

ضاع أمسي وأين مني أمسي وقضى الدهر أن أعيش بيأس

وقضى الحب في سكون مريع ساعة الموت بين سخط وبؤس

لم تخلف لي الحياة من الأمس سوى لوعة تهب وترسي

وفي قصيدة «الذكرى»:

كنا كزوجي طائر في دوحة الحب الأمين

نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون

ملأ الهوى كأس الحياة لنا وشعشعها الفتون

حتى إذا كدنا نرشف خمرها غضب المنون

فتخطف الكأس الخلوب وحطم الجام الثمين

وأراق خمر الحب في وادي الكآبة والأنين

وشدا بلحن الموت في الأفق الحزين المستكين

وفي «جدول الحب» وهي قصيدة طويلة:

هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفـان فـاتنـة أرتنيهـا الحيـاة لشقـوتـي
أجفان فاتنة تراءت لي على فجر الشباب
كعروسة من غانيات الشعر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الغـيوم
حيث العذارى الخالدات يمسن ما بين النجوم

وفي قصيدة «أنا أبكيك» يخاطب أمسه قائلاً: أنا لا أبكيك لمجد فاتني أو جاه سلبته مني الدنيا أو نعيم لم ينل قلبي منه حظه:

إنمـا أبكيـك للحـب الـذي كـان بهـاه
يملأ الدنيا.. فإني صرت في الدنيا أراه
فـإذا مـا لاح فجـر كـان فـي الفجـر سنـاه
وإذا غـرد طيـر كـان فـي الشـدو صـداه

فهذا الحب في عهديه هو إذن مفتاح نافع نفهم به جانباً من شخصية الشابي الحزينة كما نفسر به ما نراه في شعره من إسراف في ذكر اللوعة والأسى.

ومن القصائد الحديثة النشر في الديوان ذات اللون الاجتماعي الذي برع فيه الشابي إلى جانب الشعر الغنائي الذاتي نجد القصائد التي بعنوان «خله للموت» و «الدنيا الميتة» و «قالت لي الأيام».

فأما قطعة «خله للموت» فهي ثلاثة أبيات لا غير. و ندري هل كانت في أول الأمر قصيدة فتناولها الشاعر بالحذف والتحوير حتى لم يبق فيها إلا الأبيات الثلاثة كما فعل بالنسبة لقصيدة «الحياة» التي كانت سبعة عشر بيتاً فصارت في الديوان ثلاثة فقط. على أن هاته الأبيات لا تمتاز بصياغة بارعة

ولا جمال ظاهر بل كانت القافية فيها ثقيلة نابية ومحصل المعنى أقل من جلبة الألفاظ وهذه هي الأبيات:

كـل قلـب حمـل الخسـف ومـا ... مـل مـن ذل الحيـاة الأرذل
كـل شعب قـد طغت فيـه الـدما ... دون أن يثـار للحـق الجلـي
خلـه للمـوت يطـويـه... فمـا ... حظـه غيـر الفنـاء الأنكـل

أما قصيدة «الدنيا الميتة» فإنها قارعة من قوارع الشابي التي كـان يوجهها إلى الشعب في قسوة لا نظير لها، وفي صرامة تتحدى كل صرامة والتي متى أضيفت إلى قصائده المعروفة «النبيء المجهول» و «إلى الشعب» و «أبناء الشيطان» كونت أعظم بركان يغلي بالسخط والغضب والنقمة ويقذف بالحمم الملتهبة والشواظ المحرق.

فكيف صور لنا الشاعر شعبه النائم الغافل الذي لا يستجيب لأية دعوة من دعوات النهوض واليقظة ولا يقدر أية قيمة من القيم الروحية.

يقول في هاته القصيدة إنه يفتح عينه حين يفتحها فلا يرى إلا جموعاً كثيرة تحيا بلا ألباب. إنها لعب تحركها المطامع والهبات وتدفعها الأحقاد الصغيرة والأمال الحقيرة. إنهم موتى يتحركون كما تتحرك الأصنام ويعيشون كما تعيش الأنعام. لا يعرفون شوق الحياة وعزمها. يمر الزمان من حولهم وكأنه يمر حول الصخور والجنادل. إن استجابوا لدعوة الزمان كانت استجابتهم التذاكر والتباغض والتراشق بالأشواك والحجارة. إنهم دائماً يحدقون في التراب ولا يرون نور السماء وإن مشاعرهم لتنمو في التراب الميت بل في الصوان الأصم ثم تموت خاملة كما تموت الزهرة البائسة تنمو وتذبل في ظلام الغاب. وإن نفوسهم لكالدخان الجامد الميت بل كأنها أشباح تبدو ومن وراء الضباب. خبا فيهم لهب الوجود فكأنهم بقية من أخشاب محترقة إنهم فرحة غيلان التعاسة والفناء وبغية كل طامع سلاب:

لا قلـب يقتحـم الحيـاة ولا حجـى ... يسمـو سمـو الطـائـر الجـواب

بل في التراب الميت في حزن الثرى   تنمـو مشـاعـرهـم مـع الأعشـاب

يعيش بينهم الشاعر الموهوب في كون عقيم ميت. ويهرق فيه فنه هدراً تحت أقدامهم وعلى أعتابهم ويقضي العالم النحرير عمره في الدرس والبحث ويضني نفسه بالعكوف على آثار الماضي وعلى القديم المجتوي ليخرج لهم علماً نافعاً ومعرفة مهذبة، بينما هم يظلون عائشين كما يعيش القطيع الضائع لا هم له إلا الأكل والشراب.

هكذا يصف الشعب في قصيد «الدنيا الميتة». أما في قصائده الأخرى فهاك بعض أوصافه: هو كائن لا يفهم. كافر بالحياة والنور. هو قوة كبلتها ظلمات العصور وروح غبية تكره النور هو داء يبيد الحياة ويعبد الموت. هو روح شقي ذو قلب حجري وعمر ميت هو قلب خواء هو قفر جهنمي لعين. أبداً يرمق الفراغ بطرف جامد، ويتملى الجمال في رمم الموتى هو شعب عجوز محطم في إهابه، يعبد الأمس، ويسكن في قبر الأمس. هو دنيا مات فيها الزمان إلا أمسها الدابر، هو كاهن الظلام بل حياة تعبد الموت. . إلى آخر ذلك.

فهل كان الشابي يكره الشعب وهل هاته الأوصاف والنعوت صادرة عن قلب محب وامق له ومعتد بحياته ووجوده؟.

والجواب عن هذا التساؤل نجده عند من كتبوا عن هاته الناحية في شعره وهم فيها جد مختلفين. فمنهم من اعتذر للشابي بأن شعوره نحو الشعب كان شعور إشفاق وحسرة وأنه إنما قصد إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان وفساد الأوضاع، وبالي التقاليد. وبعضهم كان يرى أن الشابي حاول الكفاح عن كيان الشعب واستخدم ما لديه من قوة جارفة وجرأة صاخبة ليدفعه إلى الوعي الحقيقي بل ذهب بعضهم وهو صديقنا الأستاذ أبو القاسم كرو، إلى القول بأن ما جاء في قصيدة «النبيء المجهول» خاصاً بالشعب هو أعظم شعر قاله شاعر عربي في حب الشعب والتعلق به ورغبة الخير له. ومنهم من يجعل سبب هاته القسوة على الشعب غضب الشاعر

لعبقريته المزدراة وفنه المزهود فيه على حد قوله:

الشاعر الموهوب يهرق فنه هدراً على الأقدام والأعتاب

يقول الدكتور إحسان عباس في كتابه «فن الشعر» متحدثاً عن الشابي:

«وقد عرفنا أن حملته على الشعب ليست لنقص حقيقي في الشعب نفسه بل لنقص اعتباري لأن الشعب أبى أن يعترف بعبقريته الشعرية التي رمز لها الشاعر بالكأس والأزاهير». ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه «دراسات في الأدب العربي المعاصر» «ولا يمكن تفسير هاته الثورة على شعبه إلا بأنه كان يستقبل شعره استقبالاً فاتراً فصب جام سخطه عليه حين رآه لا يعترف بمواهبه ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التي ينبغي أن تستقبل بها وربما كانت ثورة خاصة فعممها، فهو يثور على خصومه من ذوي النفوس الدنيئة ويتسع بثورته إلى الشعب جميعه».

وفي رأيي أن الشابي؛ في الفترة التي نظم فيها «النبيء المجهول» كان يعم بسخطه الشعب الذي لم يؤمن برسالته الأدبية، ولكنه عاد يعمه بهذا السخط لأنه غير مستجيب لداعي اليقظة والنهوض وغير غاضب للحمى المستباح، والكراهة المهانة. وهل يمكن أن نعد قوله في قصيدة «إلى الشعب» انتقاماً لنفسه وغضباً لنكران شعبه عبقريته. يا شعب:

قد مشت حولك الفصول وغنتك فلم تبتهج ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف والأنواء حتى أوشكت أن تتحطم
وأطافت بك الوحوش وناشتك فلم تضطرب ولم تتألم
يا إلهي.. أما تحس؟ أما تشدو.. أما تشتكي.. أما تتألم؟

فهل بعد هذه الأسئلة من شك في أن الذي يحز في قلب الشابي من هذا الشعب إنما هو عدم إحساسه وسكوته عن الشكوى والتألم من حاله، وأنه كان يود أن يدفع إليه من وقدة أشواقه وحرارة نفسه بقبس لاهب لعله يكسر قيوده ويخرج من ركوده وجموده.

وأي إيمان بالشعب أشد من إيمانه حين يعترف بأن للشعب، أي شعب، قلباً خافقاً وروحاً فناناً شاعراً، وفناً خلاباً ساحراً، لكن هاته الصفات التي تشترك فيها جميع الشعوب لم تظهر بعد في الشعب التونسي فهو يستبطىء ظهورها ويتعجلها ويتساءل أين هي:

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس أين الطموح والأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان أين الخيال والإلهام؟
أين يا شعب فنك الساحر الخلاق أين الرسوم والأنغام؟

فقسوة الشابي في مخاطبة الشعب قسوة مبعثها رغبة التقويم والإصلاح من طريق الإثارة على حد المثل الفرنسي الذي يقول «الذي يحب ملياً يعاقب ملياً». على أن الشابي اقتنع أخيراً بأن تطور الشعوب أمر حتمي واقع لا محيد عنه وذلك حين يدفعها عزم الحياة للانسياق في تيار الرقي وهذا ما تحدث عنه في قطعته بعنوان «سر النهوض»:

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه

وفي قصيدته الشهيرة «إرادة الحياة» يشرح هذه الإرادة التي تطبع الحياة بطابع التجدد الأبدي.

أما قصيدة «قالت لي الأيام» فهي من نوع تنبؤات الشابي بالمستقبل، وإيمانه بأن الشعب لا بدّ مستيقظ من سباته طال الزمان أو قصر وأن هذه اليقظة سيكون لها صدى تتزلزل منه صروح الظلم والطغيان، وتندك له عروش الجبابرة العتاة من مضطهدي الشعوب وجلادي الأمم. وهذا معنى قد تكرر في أشعاره القديمة بكل قوة ونجده أيضاً في قصيدة «قالت لي الأيام» من القصائد التي لم تنشر قبل صدور الديوان يقول فيها:

يا أيها السادر في غيه يا واقفاً فوق حطام الجباه
مهلاً ففي أنات من دستهم صوت رهيب يدوي صداه

يــا أيهــا الجبــار لا تــزدري   فــالحــق جبـار طــويــل الأنــاه
يغفــى وفــي إغفــائــه يقظــة   تـرنـو إلـى الفجـر الـذي لا تـراه

ومن تنبؤاته التي تحققت لا بالنسبة للمغرب العربي فحسب بل بالنسبة للقارة الإفريقية نذكر هاته الأبيات:

إن ذا عصــر ظلمــة غيــر أنــي   مــن وراء الظـلام شمـت صبـاحـه
ضيـع الـدهـر مجد شعبي ولكـن   ستــرد الحيــاة يــومــاً وشــاحــه

ومن قصيدة «إلى طغاة العالم»:

حـذار فتحـت الـرمـاد اللهيب   ومن يبذر الشوك يجن الجراح
سيجرفك السيل سيل الدماء   ويـأكلـك العـاصـف المشتعـل

ومن قصيدة إلى الطاغية:

لك الويل يا صرح المظالم من غد   إذا نهــض المستضعفــون وصممــوا
إذا حطــم المستعبــدون قيــودهــم   وصبــوا حميـم السخـط أيـان تعلـم
وفي صيحة الشعب المسخر زعزع   تخــر لهــا شــم العــروش وتهــدم

فهل رأيت كيف ينقلب ذلك الشاعر الباكي المتفجع. الحالم في ظلال الغاب بين الزنابق والورود إلى شاعر جبار الغضب عاصف الثورة، إذا خاطب طغاة العالم. وهنا جانب آخر من جوانب شخصية الشابي محبب جعله في مقدمة شعراء العربية الذين كان لهم ضلع كبير في بعث اليقظة والوعي لا في وطنه التونسي فحسب بل في العالم العربي.

* * *

فما هي إذن الخلاصة التي نستخلصها من هذه النظرات الفاحصة في التسع والعشرين قصيدة الجديدة النشر في الديوان؟.

هل ظهر لنا من خلالها شاعر يختلف عن الشاعر الذي ألفناه؟ هل أسمعنا فيها نغمة جديدة؟ هل كان في هذا الشعر شيء جديد في نصه

وروحه بالنسبة لأشعاره المنشورة سابقاً أم هل هو يتضمن اتجاهاً جديداً في الفكر والأسلوب واستبقاه الشاعر كعنصر مفاجأة لديوانه حين أعده للنشر.

للرد على هذه التساؤلات نقول إن فن الشابي قد مر بأطوار ثلاثة متميزة، وإن كل طور من هذه الأطوار طابعه الذي يدل عليه وإن حرمنا من تاريخ القصائد المنشورة في الديوان.

فهناك الطور الباكر. طور المحاولات الأولى وقد نشر له فيه شعر بين الضعف، ظاهر التقليد. أشبه بعبث الأطفال كما يقول هو عنه، ففيه نلمح تأثر الشاعر الناشىء بشتى الأساليب والتيارات ابتداء من صفي الدين الحلي إلى جماعة المهجر قويهم وضعيفهم.

فكان يقول مثل هذا الشاعر الذي لا نورد منه إلا مطلع القصيدة:

كهرباء الغرام في الأعين النجل وتيارها بسلك الجفون

أو يقول:

قلبي تردى من علا صهوات خيل الهوى فغدا أسير فتاة

أو يقول:

عللتني بارتشاف الرضاب   من جنى ثغر جميل أشنب

أو نحو:

أنا مأسور لذات الحجب   بنبال صوبت عن كثب

وقوله:

إياك والتحديق من خلل البراقع للحور

وهذا من تأثير شعراء عهد الانحطاط.

أو نراه يقول متأثراً بشعراء المهجر وألفاظهم المعروفة:

أيهـا الليـل الكئيـب   أيهـا الليـل الغـريـب

ومثل:

نسمـة هبـت علـى ضـوء القمـر   نفخت في ناي أحزان الخلد. . . الخ

وقد حذف من شعر هذا الطور تسع عشرة قصيدة مجموع ما فيها حوالي الأربعمائة بيت وقال عنها في إحدى رسائله (الرسالة التاسعة والعشرون):

«إن قسماً كبيراً مما لا أريد نشره لأنني أراه لا أهمية له إما في روحه أو في أسلوبه، ولأنني أرى فيه سذاجة كسذاجة الأطفال «أبتسم لها». الآن وأعجب لنفسي كيف سمحت لي بنشره في حينه».

لكن ناشر الديوان 1955 أنقذ من تلك الأشعار تسع قصائد تشتمل على مائتين وواحد وستين بيتاً وهي القصائد التالية: نظرة في الحياة - أنشودة الرعد - في الظلام - أيها الليل - شعري - أيها الحب - أغنية الأحزان - نشيد الأمل - جدول الحب - وأنقذ الشابي من شعر طوره الأول القصائد التالية فاختارها هو للنشر في ديوانه وأعني: شكوى اليتيم - مآسي الحياة - الدموع - لعلعة الحق - الملل الأليم - يا شعر - مأتم القلب - الزنبقة الذابلة - الحياة - الأمل والقنوط - الصوت الكئيب وتعرف أيضاً بتونس الجميلة - ولعله أنقذها من الإهمال لأنها ظهرت له أحسن حالاً وأشد تماسكاً. وبقيت لديه من قصائد الطور الأول التي لم تنشر في أي مكان فضمها إلى الديوان وهي التي سميناها وسماها الناس قصائد جديدة وما هي بجديدة إلا من حيث النشر. هي هذه القصائد التي استعرضنا محتواها آنفاً ولفتنا النظر خلال العرض لما فيها من عيوب فنية ظاهرة واضطرار الشاعر فيها لاستعمال قوافي متعسفة واعتماده على الثروة اللفظية للتأثير ولا أستثني منها إلا قصيدة الغاب التي طالعها:

بيت بنته لي الحياة من الشذى   والظـل، والأضـواء والأنغـام

فهو قد نظمه سنة 1932 في مصطافه بعين دراهم.

والسؤال الذي يرد على الذهن هو لماذا لم ينشر الشابي تلك القصائد في جملة ما نشره في حياته.

ألأجل أنها لم تزل على المنوال كما يقولون؟ أم لأنه لم يكن راضياً عنها كعدم رضاه عن إنتاج طوره الأول بعد تجاوز المحاولات الأولى؟.

هل كان يرى أن عيوبها الفنية لا ترضي تطلعه للكمال الذي بدأ يشعر به فأرجأ نشرها ليعيد فيها النظر ثم يضمها للديوان بعد أن تستوي له على وجه أكمل؟ لا شك أن الشابي أحس بتطور جديد في تفكيره وفنه بعد مروره بتجربة حبه الأول وامتحانه إليه فخرج شاعراً ناضجاً ومفكراً متفلسفاً لا يحب أن يصدر عنه إلا الشعر الصادق المتولد عن تجربة حقيقة. لكنه عندما جمع الديوان ورأى أنه لن يتاح له أن يعيش أكثر، وأن ينظم الشعر كما أصبح يحب أن يقوله آثر ضم تلك القصائد على علاتها لتكون شاهداً على مدى هذا الطور.

ومهما يكن من أمر فابتداء من سنة 1930 إلى مارس 1933 نرى تطوراً حاسماً في شعر الشابي الذي نشره في هاته الفترة في «مجلة العالم الأدبي» ففي هذا الطور تأتي قصائد: النبي المجهول ورثاء والده وفكرة الفنان وفي ظل وادي الموت والساحرة وقال قلبي للإله وغيرها. ويمتاز هذا الطور بظهور أثر الحياة العامة التي دخلها الشابي قبيل ذلك محاضراً ومشاركاً في النوادي وتأسيس الجمعيات الأدبية والإصلاحية. فإلى جانب اهتمامه بمصير العالم والماورائيات نراه يهتم كذلك بشأن الشعب ومشاكل الحرية والثورة بل يصبح شاعراً ثورياً بأتم معنى الكلمة، وإذا بأسلوبه يتخذ شكلاً جديداً تقوى فيه الصور الشعرية وتضمحل صعوبات القافية وتصفو لغته وتعذب وتزداد موسيقية وسحراً. لم يعد يحشر الألفاظ حشراً بل هو يستعملها ببراعة وفن آسر.

ويطول بي القول لو رحت أفصل أهمية هذا الطور في حياة الشابي الذي طارت إذ ذاك شهرته في تونس وفي أقطار المغرب العربي قاطبة.

ولكن الشابي في أفريل سنة 1934 يدخل الطور الثالث حين يبدأ بنشر شعره في مصر في مجلة أبولـو، فتنشر له ـ أول ما تنشر ـ قصيدة الخالد صلوات في هيكل الحب فيقوم له الشرق ويقعد. لأن الشرق في ذلك الوقت كان رومانتيكي النزعة والتفكير. وكان هناك إبراهيم ناجي وعلي محمود طه وم.ع.م الهمشري والشاعر السوداني التيجاني بشير وغيرهم، وكانوا قد تربّعوا على قمة الشعر الرومانتيكي، فإذا الشابي بين عشية وضحاها يستوي على القمة معهم، وتتوالى الآيات الشعرية التي تسمى نشيد الجبار والصباح الجديد وقلب الأم وغير ذلك، وفي هذا الطور نشرت له جريدة العمل التونسي قصيده الخالد «إرادة الحياة».

فهل نعجب بعد هذا إذا كانت القصائد الجديدة لم تحدث حركة ولم تلاق الإعجاب الذي لاقاه شعر الشاعر المنشور في العالم الأدبي وأبولو، ولم ترج على الألسنة كما راجت قصائده التي قالها في عهد النضج والاستواء على قمة البراعة الفنية وعدم تقدير هاته الأطوار والعوامل التي صاحبتها ودرسها هو الذي جعل بعض شعرائنا الشبان يهاجمون الشابي من حين لحين زاعمين أنه لا يستحق هذه الشهرة التي يتمتع بها ولا هاته القمة التي يشرف منها على الشعر التونسي المعاصر. وما ذنب الشاعر وهو الذي قال عن بعض شعره أنه لا يرضاه وأنه يراه عبثاً كعبث الأطفال ثم يستبعده من ديوانه ويضم بعضه الآخر مضطراً ما ذنبه إذا أخذه الذين ضاقوا بمكانته واحتجوا به على ضعفه وتكلفه دون أن يراعوا الوضع الذي أوقعه ناشرو شعره أولاً وأخيراً.

إن الرجل لم ينشر شعره بنفسه ولم يختره كما يختار أي شاعر أشعاره للنشر، فلماذا يحمل أوزار الناشرين؟ ولماذا يحاسب على أشعار الصبا والتجارب الأولى ثم يقال بعدها إنه لا يستأهل المكانة التي وضع فيها وأنه يجب أن نضرب صفحاً عن ذكر الشابي فقد أصبح حديثاً مملولاً.

ولكن التاريخ قد تكفل بهاته القضية فلن يقدر المتخرصون والذين ضاقوا بمكانته أو سد عليهم باب الشهرة لن يقدروا أن ينزلوا الشابي من قمته السامقة وإن تظاهروا بالإنصاف والموضوعية. وسيبقى الشابي مناراً مضيئاً في ديوان الأدب العربي ما بقي أناس يتذوقون الشعر العربي الحق ويقدرون الفن الصميم[1].

القيروان في 20 فيفري 1966

* * *

(1) مجلة الفكر (تونس: س 11 ع 7 (1 ـ 4 ـ 1966).

أبو القاسم الشابي والشاعرية الحق

بقلم الشاذلي بويحيى

مضى ربع قرن على وفاة أبي القاسم الشابي وما انفك شعره تردده الألسن بتونس وسائر البلاد العربية. وتصدر المجلات وقل أن تتوالى أعداد منها خالية من مقال حول الشابي أو قصيدة له تنشر. ونوادي الأدب ومحلات السمر زين ما تتحلى به حديثها عن الشابي.

وما الفوز في الشعر إلا هذه السيرورة وانتشاره هذا الانتشار.

غير أن العلم لم يقل بعد قوله الفصل وكل ما كتب عن الشابي ليس إلا مجرد اللهج بما فتن الناس وهو إن دل على شيء فعلى أن الشابي لم يزل مجهولاً. فله آن أوان البحث العلمي الصحيح الذي له وله وحده حق إنزاله منزلته بين أعلام الأدب العربي أولاً والبشري آخراً؟.

فلقد نشر «الديوان» وهذه أخبار الشابي في متناول الباحثين غزيرة. وبيئته لم تبعد عنا صورتها.

لكن البحث النزيه يتطلب تقصي الأشعار والأخبار ونحن نعلم أن قصائد للشابي لم تنشر بعد وكذلك يومياته ومقطعات ورسائل. وممن عرفه من لم يؤد بعد الشهادة. وكذلك فإن العهد جد قريب لدراسة أثره في الأدب والأدباء. ثم إن العقبة الكأداء في سبيل تناول هذا البحث التام عدم استقصاء الأبحاث الجزئية شتى نواحي الشاعر وشعره.

فلا بدّ إذن من الانتظار ريثما تجتمع دراسات يفردها الباحثون كل في

وجهته التي له حتى يتسنى من جملتها وضع دراسة شاملة(1).

ولئن قصدنا إلى شيء من هذا الغرض المتواضع فلنتساءل أولاً ما هو نصيب الشابي من الشاعرية الحق.

من شأن الشاعر الحق أن ينظر إليه من نواح ثلاث قارة زيادة عما قد يتصف به من خاصيات تتصل به وحده وتميزه من غيره فهو أولاً شاعر قومه ووقفته هي تلك فيترنم بمعسول النشيد ولا يشعر إذ الشعر ليس شعره. طابع القوم والعصر لا يفوت الباحث أثرهما في شعر الشاعر:

وأبو القاسم الشابي ولد وعاش بتونس في الفترة الحاسمة التي أفاقت فيها أمته إلى معنى الحياة وبدأت تتوق إلى تحقيق ما تراءى إليها. فهي فترة اليقظة بما لليقظة من تمط وحرص ونهم واندفاع وما يصحب كل ذلك من عطب وألم وانكسار.

وانظر إلى شعره تر قفز الفتى وكبو المهزوم يخيم على كل ذلك أمل بل إرادة جبارة في إرادة الحياة.

ثم إن الشاعر الحق إنسان. هو أحد المجموعة البشرية يتصف بصفاتها القارة السرمدية ويحس بأحاسيسها. فلا تحول الحدود الإقليمية ولا الزمنية ولا اللغوية بينه وبين الالتحاق بجو المعاني البشرية الخالدة، بذلك الجوهر الإنساني الثابت الكاهن في العنصر البشري. فهو هو على مدى القرون وتطور العقول.

وكم من قصيدة للشابي تتلوها أو تنصت إليها فتسمع من ورائها صدى أغاني شينيي Chénier أو زفرات فاوصت Faust أو تحرقات صافو Sapho. تسمع صوت شبابة الإنسان البدائي وهي هي شبابة راعي فرجيل

---

(1) نشر الأستاذ عامر غديرة دراسة بمجلة «الفكر» (5 ـ 3 ديسمبر 1959) تحت عنوان «محاولة جعل إطار لترجمة الشابي».

وبالمجلة الفرنسية Arabica(6 ـ 3 ـ سبتمبر 1959) تحت عنوان «Essai d'une Biographie d'Abù-L-Qàsim al-Sàbbi».

Virgile وهي هي شبابة راعي الشابي راعي جبال خمير وراعي الواحة والربى. وتنسى فلا تدري ولا أنت تريد أن تدري أعربي ما تسمع أم فرنسي أم جرماني أم يوناني. أنت تسمع «أغنية الحياة» وأغنية الحياة خالدة خلود النفس. خالصة خلوصها.

وبين القومية والإنسانية منزلة إذ جهلها الهوى فليس للباحث الفطن مجال لإغفالها وهي التي تجمع شعراء من وراء قوميتهم الضيقة في نطاق مجموعة دون الإنسانية بدرجة هي مجموعة أقوام ضم شتاتهم التاريخ أو الإقليم أو العنصر جنسياً كان أو لغوياً:

فشعراء الغرب الأوروبي يؤلفون أسرة لا تفك أوصالها ضغائن الألمان والفرنسيين ولا انزواء إنكلترا بل ولا تطرف سكنديناڤيا فصله ما بين مسرح أوربيد Euripide وراسين Racine جلية أو تلك التي بين مشاهد شكسبير Shakespeare وغوطا Goethe وهوقو Hugo وروح أوسيان Ossian كم هبت خطراتها على شعراء المدرسة الرومنطيكية جنوباً. بل هل تستطيع فصل ما بين طلسطوي Tolstoi وزولا Zola.

وكذلك لا أشك أن بين الصين واليابان ما ليس بينهما وبيننا من ألوان التفكير والإحساس وكذلك قل في مجموعات معدودات إن لم تكن متعددة إذ الكون يضيق وأرجاؤه تقترب أمام غزو الإنسان المحتوم إياه.

ولعلك لو كنت بدأت ففاجأتك بأن قلت لك أن الشابي شاعر عربي إسلامي لسخرت أو ظننتني أسخر. أما الآن فأنت تنظر إلى الشابي كما كنت نظرت إلى كل شاعر حق بمنظار ثالث هو الذي يجعله رغم ما له من العبقرية الفذة وما له من الإنسانية الشاملة ينتمي إلى أسرة تضمه والعراقي والمغربي واليمني بل والإراني والتركي أحياناً.

فهو إذا رنت قيثارته أتاك منها أنين «اللزوميات» وشذى «الرباعيات» واستيحاء جبران ثم تذكر أنك سمعت لهذا صدى في صادحات الأزجال.

وتخلص من قراءة قصيدة الشابي أو قصائد فإذا ظمؤك إلى رحيق

الشعر الخالد قد شفي لأنك إنسان تريد لو رجعت أو أرجعت إلى إنسانيتك المجردة الخالصة. وإذا ما عطفت لديه على أنات قوم واصطكاك جيل وجدت في شعره شاهد الحق المبين. وإلى ذلك كله أنت لا تعدم أهازيج الخليل.

فها هو الشابي حينئذٍ شاعر تونس في فترة من حياتها هي تلك التي عاشها الشابي فكان صوتها في أنينها ونداءها وفخرها فهو شاعرها بلا منازع.

ثم هو يوقع على قيثارة عربية هي تلك التي حبك أوتارها فحول ربيعة ومضر وفطاحل العراق والشام وقرطبة والقيروان.

وكذلك هو الشاعر الخالد الفذ المجرد عن المكان والزمان يرتفع من قيثارته لحن الخلود فلا لون له يميزه عن جيل من الأجيال أو قطر من الأقطار بل في نغماته مناجاة الروح البشرية المطلقة.

أبو القاسم الشابي شاعر تونس:

تفتح الديوان ديوان الشابي فينفتح عن حنين الشاعر «من وراء الظلام» إلى «تونس الجميلة» يوم ترد الحياة لشعبها وشاح مجده. وها قد أنار الصباح الذي شمته لوطنك «ولست هنا يا أبا القاسم».

بكيت لآلامها ورثيت لعذاب أبطالها لكن حبك لم يفقد الأمل يوماً. فبكاؤك بكاء إباء الضيم وأملك أمل اليقين وتنبؤك أوضح ما علمنا من رؤى الشعراء للوعد القريب.

ذلك أن الشابي بحساسيته المعهودة لبس شعور قومه فكان في نفسه أقصى ما كان في أنفسهم من ألم وأمل يدمي قلبه المكلوم لكل جرح أصاب قومه وتشوفه إلى الفوز القريب كان من يقين القادة الجبابرة لا من خيالات الأحلام فلذا صدح في قومه حاملاً أمامهم مشعل التضحية قائلاً:

«لست أنصاع للواحي ولو مت وقامت على شبابي المناحة».

وهكذا لا يكتفي الشابي أن يكون بعبقريته مجرد شاهد لعصره بل هو يحمل لواء النضال منادياً «يا ابن أمي» في نشيده للحرية ودعوته إلى كسر القيود تاركاً للموت «كل شعب»... لم «يثأر للحق الجلي». ويقودهم ببث الحماس في جأشهم بوعيده المدهش «إلى الطاغية» حيث يتكهن بما رأته أعيننا نحن بعد موته عندما يقول:

إذا حطـم المستعبـدون قيـودهـم وصبوا حميم السخط أيان تعلم

«وإلى طغاة العالم» يقول: «حذار! فتحت الرماد اللهيب» وينبئهم «بزئير العاصفة».

ولئن تنبأ فهز قومه بالوعد واتجه إلى الطغاة وبالوعيد، فلطالما تفطر قلبه لعجز الشعب وقعوده عن النهوض وعبادته الأمس. ونداؤه «إلى الشعب» قد لا يسمع فهو «النبيء المجهول» في يأسه وسخطه معزراً تارة قائلاً:

أيهـا الشعـب ليتني كنـت حطـابـاً فأهوي على الجذوع بفأسي..

يائساً تارة أخرى فيقول:

إننـي ذاهـب إلـى الغـاب يـا شعبـي لأقضـي الحيـاة وحـدي بيـأس

إلا أنه لا يفتأ يرشد إلى «سر النهوض».

نرى إذن عند الشابي نضالاً صادقاً مستميتاً هو نضال الشعب بل نضال قادة الشعب وزعمائه ثم هو شاعر القوم ينير السبيل ويهدي ويهز الحماس ويقود العزائم وينعي على الطاغية عماه ويبشر بكسر القيود وانفجار موج الحياة. ويرتفع صوته فوق ساحات الوغى مستفزاً للأبطال وثيداً على الخصوم مترنماً بجمال الغد السعيد:

فما علمنا منذ أحقاب كشعره للنضال لسانا

والشاعر المناضل إنما هو جزء من الشاعر القومي ليس إلا وعبقرية المناضل وحدها ليست في ميدان الأدب كل العبقرية فهناك النضال نعم

ولكن هناك أيضاً حياة القوم وتربة الوطن وسماء البلاد وسحب الجبال. فكم أحب الشابي العيش بين هاتيك الربوع فتغنى بجمال الواحة وحبب إلينا بمسحور شعره وارف ظلالها وخرير جداولها وألعاب الأطفال بين كثبانها.

وبتونس الواحات لكن بها الجبل والغاب ولست أدري أجدة الجديد خلبت مشاعر الشابي أم هي طبيعة نفسه ومزاجه جذبته نحو غيوم الشمال وبرود الجبال فههنا كان عنده الانتشاء وههنا التجأ من الملل والسقام وههنا جنى من العيش لذيذ اجتناء وأوحت له غابات «عين دراهم» وجبالها وأغاني رعاتها وثغاء القطعان بمروجها وسيولها وورودها وطيورها وسحبها ما لا نعلم له مثيلاً مما أوحته طبيعة أقطار العرب لشعرائها.

كم رأيت في نظرات شبابنا تطلعاً لأثر وحي الطبيعة في شعر شعرائنا لو استطاع الأستاذ يوماً أن يبشرهم به في ما يدرسون من تراث أدبهم. وعبثاً يحاول ويحاولون في بحثهم فالطبيعة خرساء لكن ها هو ذا الشابي أنطقها لأنها أرضعته فلذ له طعم ألبانها. ثم إن الباحث قد يحجم عن الحكم أو البت في الحكم لأن «ديوان» الشابي ليس إلا منتوج عمر قصير فماذا كان يكون لو أتيح إلى الشاعر بقاء طويل؟ فلا يسعنا إلا البناء على ما بين أيدينا وما بين أيدينا له شأن كبير.

أفنعجب بعد هذا لإقامة قومه المحافل لمر نصف قرن على ولادته وربع على وفاته؟ بل هل من عجب إن أسلفنا أن النوادي لا تفتأ تردد صداه والمجلات لا تخلو من ذكره مذ ذوى غصنه وما دام بهذه البلاد نوادٍ ومجلات؟.

أجل! إن في ذلك فخر القوم بنبوغ الشاعر بينهم والفخر قديم عند العرب وعبقرية الشابي ذات مدى يحق معه لقومه الفخر الكبير.

غير أني أرى مع هذا الشعور بالحمية والاعتزاز القومي وفوق ذلك الابتهاج بصحيح العبقرية والنبوغ الفذ والشاعرية الحق نوعاً من الإنس من شعب ظمآن إلى من روى لغبه وشفى غليله. ففيه رأى رمزه وفي صوته

تبين نجواه وفي شدواته عرف خلجات روحه. فأحبه فهل من ملوم في هواه؟.

الشابي شاعر عربي

هي صفة لعلها أقل ما يظهر من صفات الشابي. فلا هو عنترة ولا امرؤ القيس ولا كبير شبه بينه وبين جرير أو المتنبي بل قل أن تجد عنده ما لحافظ أو الرصافي من صدى نظيم العرب.

فلا معانيه معانيهم ولا سبيله سبيلهم. وقد يلتقي بهم لكن في عالم الإنسانية المطلقة حيث لا هم عرب ولا هو.

ويكاد يكون هذا الانفصال انفصاماً صارماً وقد تظنه صدى تهم الإعلان عنه في حملته على «خيالهم الشعري» لو لم يستوقفك منه اللسان ولون البيان.

فللغة عند الشابي أوفى نصيب في ما لشعره من السحر والكمال يردد على مسامعنا مآسي الزمن فلا يصدنا عن الشجى ذكر وصفها عند المعري أو «ملطن» Milton ويرقصنا على رنات أغاني الحياة فنندفع في المروج نشاوى كأن لم نرقص مع أبي نواس أو مع رونصار Ronsard.

وسر هذا سحر الكلم. ولم يكن ليكفي لو انحصر في البلاغة والتبحر لكن الشابي جدد لغته وبعث العربية بعثاً أعني أنه اتخذ منها مادة كيفها ولونها حتى تكون له الآلة، فاصطبغت العربية عنده بصبغة هي صبغته وولد واختار وماز ونفخ في اللفظ فصار لفظه، وأحدث في العربية ما لا تخجل أن نسميه ثورة وإن كان لها بعض الرواد.

والتجديد عند الشابي تجديد دون كفر بالقديم فالوزن والقافية والبلاغة والبيان بل والنحو واللغة كل ذلك يحترمه الشابي مع انطلاقه في جو التجديد القويم تجديد القوي القادر لا العاجز الملتوي، فأنت تشعر بالجديد الطريف دون أن تقطع بك الصلة بالفحول القدماء. والبون شاسع

كبير بينه وبين كثير ممن يدعي التجديد وما تجديدهم إلا عجز عن البليغ الصحيح.

وأعجب ما يتجلى لدارس لغة الشابي أنها بليغة إلى أقصى حد البلاغة جزلة زاخرة بالمعنى المتدفق إلى حد الفيضان عن اللفظ تفيد، ثم تزيد فتفتح أمام الوهم آفاق التوليد والخيال وبهذا تتجاوز البلاغة المعهودة إلى حيز الإيحاء، ومع هذا كله فلا تكلف ولا افتتان بالغريب ولا سعي وراء الزخرف وتجميل البنى والتركيب إذ اللفظ عادي بسيط وسياق النظم يماشي الطبع طبع فصحاء العرب، ولا يشذ عن مألوف العادة أو مفروض العقل. وقد تقول بل إن هذا هو البلاغة. أجل. ولكن من أين السحر؟ والبلاغة ـ ما علمنا ـ ليست كل أسرار الافتتان؟.

لعلنا هنا نلمس ظاهرة من أبرز صفات شعر الشابي وإن خفيت عن كثير ممن كتب في شعر الشابي وقال. بل ولعلنا نصل إلى أهم عنصر من عناصر شاعرية الشابي إذ له هو أوفر نصيب في بلوغ هذا الشعر إلى العبقرية. وذلك أن النبوغ عند الشابي ليس أساسه سعة الخيال فغيره في اختراق آفاق الوهم كثير. ولا التفرد بالحساسية وإن كانت عنده أشد ما تكون مرهفة ولابسط الحقائق وإصابة الحكمة ولا النفاذ إلى أسرار الكون أو الوجود. ليس أساس نبوغه هذا كله وإن شارك هذا كله في النبوغ غير أنك تجد من بين قدماء فحول الشعراء ومحدثيهم من قد يجمع كل هذا أو أكثر أو أقل إلا أنك لا تجد لشعره في نفسك صدى كالذي لشعر الشابي فحتم على الباحث إذن أن يلفت نظره إلى غير هذا حاسباً لكل خصلة من تلك الخصال حسابها ـ طبعاً. ولا يبعدن عما نحن بصدد ذكره إذ سر هذه اَلعَبقرية ـ عندي ـ في اللغة على ما أسلفنا من أن البلاغة ليست كل سر الافتتان ولا الغرابة ولا السهولة.

فماذا إذن؟.

ليس جوابنا بتعديد صفات في هذه اللغة وهذا الأسلوب. فلا الأمر

في الإحصاء الكبير ولا هو في التحليل والحجاج إنما هو في التنبيه إلى حال نفسية تعتري السامع لشعر الشابي وتحصل له من عوامل شتى أهم ما فيها: اللغة.

وهذه الحال هي تلك التي يطلق عليها «بول فاليري» Paul Valéry عبارة «الحال الشعرية»، ولعل هذا هو الذي يقصد إليه العرب بقولهم: «السحر».

ولا يصدننا هول كلمة السحر عن محاولة بيان محتواها وقد خطونا في سبيل ذلك خطوة حاسمة.

فإذن مم هذه الحال الشعرية أو إن شئنا ما هو هذا السحر الذي منه تنتج الحال الشعرية؟.

ولئن اقتصرنا هنا على تحليل ما يمتاز به السحر عند الشابي فلا يفوتنك عوامل عديدة قد لا تهمنا إلا أنها تشارك عند جميع الشعراء على إحداث الحال الشعرية. وما تعليل ابن قتيبة وابن رشيق وغيرهما لابتداء مقصد القصيد بالنسيب المحبب للنفوس إلا تفطن من نقاد العرب إلى هذا الذي نسميه بالحال الشعرية ولعل توقيعات الموسيقيين قبل الشروع في الغناء من هذا القبيل أيضاً ومنه دور القافية أو السجعة والوزن والخرجة وهلم جرا.

ويتفنن في ذلك الفنانون ويخطئون فيه ويصيبون وقد يبرز الفحل منهم ويمتاز وتكون له أساليب هي ليست أساليبهم.

ولئن تشارك جميع كتاب العربية وشعرائها في استغلال ما للغتهم من رنة ومرونة واستعداد طبيعي لملك الأسماع وهدهدة النفس وبعثها على الشجى. فالنجاح في ذلك يختلف عندهم ويتفاوت تفاوتهم في العبقرية وهو ما يجعل الشاعر شاعراً حقاً ويميزه عن الشويعر النظام.

ولقد أبدع في ذلك المعري ما شاء وقل من فطن إلى موطن النبوغ

الحق عنده وكذلك جماعة من بينهم الشابي.

إلا أن المادة الواحدة يجعل منها كل شاعر آلة خاصة به يصيغ بها شعراً هو شعره لذا فنبوغ الشابي غير نبوغ المعري وإن اتفقا في موطن من مواطن النبوغ. وقل مثل ذلك في غيرهما.

والآن دونك شعر الشابي واقرأه أو استمع إليه ولا تنس ما أنبئت وتتبع القصيد والقصائد والبيت والفقرة والجملة واللفظ تر لغة خاصة أو إن شئت تناولاً للغة خاصاً هو للشابي ولعله له وحده.

ودعك من السؤال هل أراد ذلك وسعى إليه أم هو فطرته وعنوان النبوغ فأنت مستمع فاستمع واستمتع.

لفظ عادي يكاد يكون من لغة التخاطب بساطة وانتشاراً يأخذه الشابي ويكسوه كسوة غير مألوفة إلا أنها ليست غريبة فيحلو بها في مسمعك ودونه اللفظ المألوف. أفطنت إلى سر «المرج الخضير» هو لأنه ليس المرج الأخضر. وتتبعه في صيغ الصفة عنده وعطفه على كل ما جاء على فعيل وفعول وفعال تنتبه إلى أن اللفظ صوت عند الشابي بعد كونه معنى ويتخذ منه نغماً ويلقيه لكن بين أنيسه من اللفظ والنغم.

وهنا تصل إلى عنصر ثالث من شاعريته هو انسجام اللفظ مع اللفظ في جوار خصيب من حيث المعاني يولدها بمجرد وجوده لذيذ من حيث النبرات يؤلف بينها نغمة ونشيداً. ويا له ما أدراه بها غنيمة يقف عندها بعرفة تكاد تكون العرافة فيلقى بها ألفاظ تتلو الألفاظ وتكثر ويطول بذرها، وتحللها فلا تجد كبير مبرر لوجودها. لكن الشعر غير المنطق. فإن لم يرض المعلم فقد رضي الهواة. وأرى للشابي مقدرة جبارة غريبة على تنسيق الكلام وتأليفه حتى يصير موسيقى لا نهائية تنبو عن القواعد كما هي نشأت عن غير مفروض البلاغة.

وهب أنك لم تهتد إلى مغزى قصيدة أو مدلول لفظ أو عبارة فلا تعدم ما يسميه الجاحظ الشجى.

أرأيت قريشاً فهمت من القرآن ما قضى المفسرون أحقاباً في توضيحه وشرحه فآمنت لاقتناعها بما حواه من حكمة وحق مبين أم هي آمنت خشوعاً لما سمعت من كلام كالسحر نسيق؟ ومن قبل كان لهذيان الكهان عليها سلطان كبير ولم يزل للكلام على العرب الوقع الخطير ولن يزال.

وجنى الشابي من هذا الحقل الخصيب وحصد ما لم يتح للكثير من شعراء العربية إلا أنه غرف مما يغرفون وبهذا يتبوأ الشابي رغم انفلاته إلى عالم الشعر الإنساني الخالد ورغم التحامه بموطنه التونسي الصغير مقعداً بين فحول الشعر العربي.

الشابي شاعر الإنسانية

لا نؤمن بالالتزام صورة للفن أو الفكر إلا إذا اقتصر على أن يكون ثوباً شفافاً ترى من ورائه الإنسان إنساناً وترى من خلاله للحياة مثالاً.

والإنسان خالد في جوهره والحياة حياة في ذاتها وما الالتزام إلا درن عليهما يزول زوال العارض عن الجوهر الحر.

ونؤمن بأن الأدب حياة والحياة أمل وأسى وغناء وبكاء.

فمن هنا تختبر الشابي حتى ترى نصيبه من الشعر الخالد ومقامه في عليين إن كتب للشعراء المقام بعليين.

أما الجمهور فقد نطق وقال قوله فتغنى بأبيات الشابي بياناً لما في نفسه من خالص الإنسانية المجردة عن الوطن والزمن، واخترقت قصائده محيطها التونسي بل العربي ونظر إليها مهتماً رجل الغرب ورجل الشرق.

أصحيح ما جاءنا من الأنباء أن نشيد اليابان الوطني الجديد ضم من بين أبياته بيت الشابي الذي ضمه نشيد وطني تونسي في إرادة الحياة؟

فيتجاوب الوطني التونسي إذن والوطني الياباني من وراء الفضاء الشاسع في صمود الإنسان في وجه القدر عندما يرددان:

إذا الشعـــب يــومــاً أراد الحيــاة فــلا بـــدّ أن يستجيـــب القـــدر

ويتصفح العالم المنقب ديوان الشابي فإذا هو يورق صفحات الحياة تتوالى أمام عينيه ناطقة أسماء قصائدها بمشاكل الإنسان والكون والكيان:

فهذه قصيدة اسمها «الحياة» وهذه «نظرة في الحياة» وأخرى «إلى الموت» و «يا موت» و «في ظل وادي الموت» و «الدنيا الميتة»: وهل شغل الإنسان شيء كما شغله مشكل الوجود والعدم؟.

ثم ههنا «الدموع» و «شجون» و «شكوى اليتيم» و «أغنية الأحزان» و «قيود الأحلام» و «نشيد الأسى» و « الجنة الضائعة».

فقل لي بربك أما تربى أشواك الحياة على أزهارها؟.

وتقرأ تضرع الإنسان واستجوابه في «قال قلبي للإلاه» و «إلى الله» و «صوت من السماء» وترنو أنت معه إلى «الصباح الجديد» أملاً منك في ما وراء الحياة بعد صمت القدر عن غصتك والإنسان في هذه الدار ليس لغصته انتهاء:

كلها صور لمأساة الإنسان الخالدة. لألم الوجود وانكسار الأمل وحيرة الفكر.

لكن لا تتسرع تسرع من نادى بتشاؤم الشابي وهم ـ يا للأسف ـ كثير. فكيف تنفي الرجاء والأمل ولذة الحياة عن شاعر خلد أغاني الحب والعطف والأمل بل وصولة القوي الجبار؟.

أين التشاؤم بل أين اليأس إذا قرأت قصيدة «الحب» فاقرأها.

وهذه قصيدة «أيها الحب» وتستمـع إلى «صلوات في هيكل الحب» فترى عبادة لأخلص ما تنطوي عليه الحياة. بل هو ذا يعطف على الطفولة

الطاهرة رمز الأمل والغد الجميل وينطفىء لهيب الشجون في حنو فيتغنى به في «قلب الأم» و «حرم الأمومة».

بل. بل وله «المجد» وله «نشيد الجبار» وله «إرادة الحياة» خرساً لمن قال بتشاؤم الشابي بعد هذا ولم يتل قوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا قوله:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

فماذا إذن؟ أفلسفة هناك؟ وما هي؟ وما ثمارها.

ليس هناك فلسفة. إنما هناك استجواب بل استفهام الكون والوجود.

وهناك أنشودة الأمل الخالدة والتغني بعذب الحياة وقفز الإنسان وكفاحه وعدم انصياعه إلى اليأس المميت وإيمانه بالقوة وإرادته الجبارة للحياة، وإن كانت الحياة من وراء الموت والنشور من وراء القرون والضياء من وراء الظلام.

وإذا ما شاك طريق الحياة فكم قطف فيه الشابي من زهرة وكم رقص فيه مع النسيم يداعبه الضياء في طهر الوجود:

.... «سوف يأتي ربيع إن تقضى ربيع».

ولم يأت الشابي لهذا التناقض وهذه المشاكل بحل وليس له أن يفعل فهو شاهد الإنسانية بل هو الشهادة أمام الوجود الصامت عن رد الجواب.

ولذلك اعتبر شعره أغنية من أغاني الدهور.

ولئن زخر ديوانه بالمعاني البشرية العامة مما هو في متناول كل إنسان لأنها في خلد كل إنسان فالشاعر الحق من استطاع الإعراب عنها وجوهرتها وإبرازها في صيغتها التي تكتب لها الخلود ثم جعلها حية تنفذ إلى قلب

الإنسان فتهيج في النفس أسرارها. إذ هذا هو الفن.

وقف الشابي أمام الوجود والقدر تلك الوقفة التي يود «الإنسان» لو استطاعها: فبكى بكاء الإنسان وضحك ضحكته وسأل سؤاله وخاب خيبته وثار ثورته ولعن لعنته وانصرف. وكذلك يموت إنسان ويجيء إنسان ووقفته هي تلك فيترنم بمعسول النشيد ولا يشعر أن الشعر ليس شعره. فأنت الشابي والشابي أنت في ساعات نجواك[1].

* * *

(1) مجلة الفكر (تونس) س 5 ع 8 (مايو 1960).

الشابي ناقداً ومنظراً

بقلم خليفة محمد التليسي

ألقت أزمة الضمير العربي الحديث عبئاً ثقيلاً على الشاعر العربي المعاصر، منذ رفع راية التجديد، وشغل بإعادة تنظيم الواقع العربي، مما دفع به، في كثير من الحالات إلى الخروج عن حدود الوظيفة التي اصطلحت الأجيال على حصره في نطاقها، وربما كانت مفاجآت التجديد، ومغامراته، وما يقترن به من خروج عن المألوف، وصدم وتهديم وبناء وما يلحق بذلك من مشكلات عديدة وقضايا مختلفة هي السبب في رصدنا لظاهرة بروز الشاعر الناقد، والشاعر المفسر، والشاعر المنظر، فلم يعد الشاعر الحديث يكتفي بصياغة الشعر وإرسال القصائد، ثم ينام عنها نومة المتنبي عن شواردها ليسهر الخلق من جرائها ويختصمون. وقد كان الخصام حول الشعر القديم هيناً ليناً يسيراً يقتصر على قضايا لغوية وبلاغية. أما الخصام حول الجديد من الشعر فقد بلغ من العنف ما جعل الشاعر يخرج عن حدود وظيفته ليحمل ديواناً بيده يبني به هذا الجديد الذي يريده. ونقداً وتفسيراً بيد أخرى ينظر به هذا الجديد ويدافع عنه ويبرره ويفسره.

وقليل هم النقاد الذين استطاعوا أن يسايروا الشاعر الحديث في مغامراته ومشكلاته. مما جعله ينهض بهذا العبء وحده، دون مساعد، وقد زاد ذلك من توتره وعمق إحساسه بالغربة واللاتفاهم واللاتواصل.

وقد كانت مشكلات الشعر الحديث من العمق والتعدد والتنوع بحيث أنها أصبحت أضخم من أن تستوعبها بيسر وسهولة وعفوية نفسية القارىء المتلقي، وكان لا بدّ أن يشعر الشاعر بالعجز عن الإيصال فيسعى إلى مديد

العون للقارىء ليساعده على فتح مغاليق نفسه وإلقاء الأضواء على عالمه الخاص ويرسخ القواعد التي يتبناها ويأخذ بها.

ومن هنا قرأنا «حياتي في الشعر» لصلاح عبد الصبور «وتجربتي مع الشعر» لعبد الوهاب البياتي وزمن الشعر لأدونيس وغيرها من الكتابات المتفرقة التي تشكل نوعاً من البيان الذي يحدد المفاهيم ويوضح الغاية ويبرر الموقف والتصرف.

وما من شك في أن هذه الأعمال كانت جيدة، شكلت في الواقع نوعاً بين المعاناة الجديدة في البحث عن نظرية شاملة تفسر الشعر الحديث وتبرره وتدافع عنه، وأفادت في كثير من الحالات في إلقاء الضوء عليه.

وقد تناولت هذه الأعمال مفهوم الشعر ذاته وعلاقته بالقارىء، ومشكلة التراث والحداثة، ومشكلة الشعر والفكر والفلسفة، والشعر واللغة والتواصل وقضية الرمز والأسطورة إلى غير ذلك من القضايا التي أصبح يطالعنا بها الشعراء أكثر مما يطالعوننا بأشعارهم المنظومة في إطار هذه المفاهيم. وأخطر كل الخطر أن تطغى هذه النزعة النظرية، بكل ما يقترن بها من تحديد ووضوح فتتحول إلى نوع من التعقيل الذي يقضي على نوازع الفطرة والعفوية لدى الشاعر ويحوله إلى مفكر أو صانع محترف يشتغل وفق تصميمات وقوالب فكرية محددة.

هذه لمحة تمهيدية، أردت أن أنتهي منها إلى القول، إننا إذا كنا نقرأ اليوم عن شعراء جدد يهدمون القديم الموروث بنقدهم وكتاباتهم النثرية، ويبنون الحديث بقصائدهم وإبداعهم الشعري ويحاولون تنظير تجاربهم وتفسيرها، فليذكروا الرواد الذين عبدوا لهم الطريق وأزاحوا من دروبهم كثيراً من الأشواك والصخور، وخففوا، عنهم شيئاً من العبء بما حققوه بتضحياتهم من تجاوز لبعض المفاهيم التي لم تعد قائمة، واختصروا لهم مراحل الطريق.

كان الشابي من الأوائل الذين سعوا للبحث عن فكرة شاملة تستوعب

تجاربه ونظراته إلى الوجود وفكرته عن الفن والحياة.

ولقد كتب الكثيرون عن الشابي الشاعر، ولم يتحدث إلا القليلون عن الشابي الناقد والشابي المنظر، ولعل الوقوف عند هذا الجانب، وقفة تستوعب بعض آرائه ومفاهيمه المنشورة في مقالاته ودراساته المتفرقة، تكشف لنا عن أهمية الدور التجديدي الذي مارسه أدب الشابي في الوجدان الحديث، كما تكشف لنا عن عناصر البقاء والاستمرار والمعاصرة في ثورته التي لا تزال تطالعنا في هذه المحاور الرئيسية التي يتحرك حولها الشعراء المعاصرون في تفسيرهم لثورتهم وتنظيرهم لتجاربهم على ما بينهم الآن من انفصال واختلاف فالقضايا التي عاناها الشابي ما تزال تفرض نفسها بعنف على الوجدان الشعري الحديث.

لا ريب في أن العصر قد تغير، ولا ريب في أن القصيدة العربية الجديدة قد انفصلت انفصالاً تاماً عن القصيدة كما تصورها الشابي وأبدعتها عبقريته الخلاقة، ولكن الشيء الثابت الذي لا ريب فيه هو أن الشابي كان رائداً كبيراً من رواد التجديد في الشعر والوجدان الحضاري. واجه في وقت مبكر مشكلات التجديد، وتحمل متاعبه وخاض في سبيل تأكيد مفاهيمه معارك عنيفة بشعره ونثره كان لها أعنف الأثر على صحته وأزمته الروحية العاصفة، حين استيقظت نفسه على عالم روحي أسمى وأغنى من العالم الذي يحيط به، فرفض النموذج الثابت المستقر، وثار عليه ودعا لتجاوزه من أجل إيقاظ حس الأمة وزيادة رصيد الإبداع لديها، والخروج بها من عالم الموت والظلام إلى عالم النور والحياة.

لقد اتخذ الشابي من الشعر قضية يعيش من أجلها، وتحولت لديه إلى قضية تستوعب التزامه وثورته الحضارية فكان التجديد في الشعر عنده تجديداً في الثقافة وبعثاً حضارياً شاملاً.

لم يكن الشابي ظاهرة عابرة، أو بدعة من بدع الأذواق المتقلبة، ولم يكن جدولاً صغيراً ينساب في الرمل، ويغيب في وادي النسيان، ولكنه كان

تياراً هادراً كاسحاً حفر مجراه بعمق في الوجدان العربي الحديث. كان علامة بارزة في تاريخ الكلمة العربية الشاعرة لا يستطيع المرء أن يعدوها أو يتجاوزها، ولا بدّ من أن يقف عندها لتحديد المرحلة وبيان المسافة. إنه شاعر من الشعراء الذين ينتهي بظهورهم تاريخ ويبتدىء تاريخ. وفي ذلك تفسير لهذه الخطوة التي ما يزال يظفر بها أدبه وتفسير لتلك المكانة التي ظل يحتفظ بها منذ برز اسمه في الثلاثينات حتى اليوم، وتفسير لهذه الصلة التي ما تزال تشده بأوثق الروابط إلى القضايا الراهنة للشعر الحديث فتؤكد أن ثورته في بعض وجوهها ما تزال قائمة. فأدب الشابي ما يزال يمارس حضوره الحي في وجداننا بما يشيعه من التزام حضاري وثورة مبدعة. وقد ينكر عليه الذوق الراهن بعض أشكاله الفنية أو بعض إسرافه العاطفي ولكن أحداً لا يمكن أن ينكر عليه أنه كان شاهداً واعياً من شهود عصره، ومن شهود اليقظة العربية الحديثة، ورائداً من الرواد الأوائل المعبرين عن أزمة الضمير العربي الحديث.

واجه الشابي، في وقت مبكر، قضايا الشعر ومشكلات الشاعر المجدد في كتاباته النثرية النقدية، فأوشك أن يصوغ فكرة متكاملة من نظرته إلى الشعر وكان ما أنجزه منها كافياً لتفسير عمله الإبداعي.

لقد سبق الشابي هؤلاء الشعراء النقاد والشعراء المفسرين المنظرين بمحاولاته الجريئة في صياغة مفاهيمه عن الشعر ورسالة الشاعر، وما تزال القضايا التي تعرض لها تشكل همّاً دائماً لكثير من الشعراء والنقاد، وتوضح لنا اهتمامات هذا الشاعر وعمق انشغاله بالشعر وقضاياه.

وفي إطار هذا الانشغال اهتم الشابي بإبداء الرأي في هذه القضايا:

1) مفهوم الشعر ومقياسه الصحيح.
2) مفهوم الشاعر ورسالته وصلته بالوجود.
3) مشكلة الحداثة والتراث.
4) تقييم لنظرة التراث للأسطورة والطبيعة والمرأة والقصة الشعرية.

5) نظرة للشعر المعاصر له، وأحكام متفرقة على واقعه وشخصياته.
6) تقييم للروح العربية.
7) صلة الشعر بالفكر والفلسفة.
8) الفنون والنفس العربية.
9) الأدب العربي المعاصر.
10) موقف من الآداب الأجنبية.
11) يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة.

وسنحاول أن نلقي نظرة عابرة سريعة على بعض هذه القضايا كما تبدو من خلال معالجات الشابي ومواقفه.

من أهم هذه القضايا إخلاص الشاعر لنفسه وصدقه في التعبير عنها. وقد رفض الشابي كل الأطر والصيغ المستقرة الثابتة التي تحول دون تحقيق ذاته، واتخذ من أصالته الذاتية منبعاً يستمد منه طابعه المميز الفريد فأبى أن يعيش تجربة غير تجربته، وعصراً غير عصره، ولقد حافظ رغم قصر تجربته الشعرية على تفرده الذاتي، وخصائصه المميزة التي جعلت منه صوتاً نادراً ضمن الأصوات الفريدة في الشعر العربي ومرجع ذلك إلى يقظة حسه «فإذا تيقظ الإحساس في قلب الشاعر الفنان كان له بالرغم عنه استقلاله الذاتي الذي يشعره بأنه قوة حية منتجة من المستحيل أن تندمج في سواها، وأن لا تشق لنفسها سبيلاً بكراً للمجد والحياة، وكانت له كرامة ترتفع عن أن تذوب في غيرها أو تنحط إلى درك التقليد وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج في قلب الحياة، وطائراً سماوياً يتغنى بأفكار وأحلام البشر».

أما ارتباط الشاعر بقضايا عصره، وانشغاله له بهمومه وأحزانه فقد عبر عنهما الشاعر في بيتين رد بهما على حبيبته الساحرة التي راعها منه صمته ووجومه فقال:

بل هو الفن واكتئابه والفنان جـم أحـزانه وهمـومـه
أبداً يحمل الوجود بما فيه كأن ليس للوجود زعيمه

كان ذلك مفهوماً جديداً يطرحه الشابي في بيئة لم تعتد أن تخلع هذا المعنى الجليل على الشاعر الفنان.

أما مفهومه للشعر فقد حدده في هذه الكلمات (إن الشعر يا صديقي تصوير وتعبير، تصوير لهذه التي تمر حواليك مغنية، ضاحكة لاهية أو مقطبة واجمة باكية، أو وادعة حالمة راضية أو محترقة ثائرة ساخطة، وتصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك وتقلبات أفكارك، نفسك، ورفرفة أحلامك وعواطفك، وتعبير عن تلك الصور وهاته الآثار، بأسلوب فني جميل ملؤه القوة والحياة، يقرأه الناس فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم ودم، وقلب وشعور، لأنهم يحسون أنه قطعة من روح الشاعر وعبق عواطفه أو فلذة حية من فؤاد الحياة).

«هو هذا أسلوب الذي يكون عنيفاً كالعاصفة يمثل سخط الحياة أو فورات العواطف، ويكون رقيقاً مشجياً كأنات ناي بعيد يمثل أحلام الحياة ويحوي القلوب المتحابة، ويكون كئيباً مظلماً كقلب الظلام حينما يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر».

«فالتصوير الصادق الذي يريك تصورات الشاعر أرقى من تصورات البشر والتعبير الفني الجميل الذي يكون قالباً إنسانياً حياً لذلك المعنى الذي يشمله هو الذي ينبغي لك أن تبحث عنه كلما قرأت قصيداً أو رتلت مقطوعاً أو تصفحت ديواناً فإن وجدته فكن على يقين أنك إنما تقرأ شعر الحياة، وإن أخطأته فاعلم أنك تقرأ شعراً زائفاً لا قيمة له في سوق الخلود».

(ولا يهمك بعد أن تجد التصوير الصادق والتعبير الصحيح، أكان ذلك شعراً غنائياً يتغنى بخوالج النفس وعواطف الإنسان، أم كان قصصياً يقص عليك فصول الحياة كما هي، أو يرسم لك مثلها العليا كما توحيها إليه أحلامه أم كان تمثيلياً يمثل لك كثيراً من حقائق النفس وصور الحياة ومشاهد الوجود، وإنما الذي يهمك بعد أن استوثقت أن الذي بين يديك

نتاج قريحة منتجة وخيال حي صحيح، هو أن تعرف أنك تقرأ مثلاً أعلى من الشعر الإنساني الذي يكاد يسمو إلى درجة الإلهام أو أنك تقرأ مثلاً دون ذلك، ولكي تدرك هذه الحقيقة، فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك، ويجعلها تحس تيارات الوجود أكثر مما تحس وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك، وينسيك وجودك الإنساني لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك، أقول، أنظر إذا كان من هذا النوع، فاعلم أنك تقرأ شعراً إلاهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً، وإلا فاعلم أنك تقرأ مثلاً دون ذلك).

ذلك هو الشعر في نظري يا صديقي، وهذا المقياس الذي أعرف به الشعر من غيره وأدرك به المثل الأعلى مما عداه ولكنني قبل أن أفارقك أقول إن هذا المقياس يقضي عليك إن اتبعته أن تلقي بكثير من أصنام الشعر ودواوين الشعراء إلى النار، إلى سلة المهملات.

فإن كنت رقيق القلب جم العواطف، فإني أنصح لك في إخلاص أن لا تأخذ هذا المقياس يا صاحبي، وأن تقنع بمقياسك، إن كان لك مقياس تقدر به قيم الشعر في عالم الأدب، وإن كنت من الإخلاص للأدب والفن بحيث لا يحزنك مشهد الأصنام البشرية تحترق في صميم الحياة، ولا يحرك نفسك أو يهز مشاعرك رؤية الأسفار الكثيرة تندثر في ظلام الإهمال، وتنبعث منها رائحة الموت، فلتأخذ هذا المقياس ولتكن مخلصاً في استعماله، وأنا الكفيل بأنك تكون قد حزت مقياساً دقيقاً تعرف به كيف تفرق بين شعر الحياة الخالد وبين شعر السخافات والتقاليد).

ذلك هو مفهوم الشعر عند الشابي. ويدرك الشابي خطورة هذا التعريف في عصر لم يألفه، وفي بيئة توارثت ذلك الاصطلاح التقليدي الذي يعرف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى فينبه إلى أن هذا المقياس خليق أن يدفع بصاحبه إلى التضحية بالأصنام التي أقامتها الأجيال.

أما صورة الشاعر لدى الشابي فهي صورة (ذلك الفنان الذي يكون في روحه شيء من طبع النبوة التي تبصر ما لا يبصره الناس وتشعر بأسمى ما يشعرون، وعنصر من معنى الألوهية التي تخلق من المادة الصماء حياة ساحرة وفلكاً دائراً ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره فلذة من روحه وسمة من حياته، فإذا هي ناطقة تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر وجمال، ويتغنى بما يزخر به قلبه الثري من عطف وبغض ويأس وحنين ولذة وألم وغايات ومثل. ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر، ليتحدث بلغة السماء عن ثورة الروح وحيرة الفكر التائهة بين نواميس العالم وبهاء الوجود).

هذا هو النموذج الذي يضعه الشابي مقابلاً للنموذج الذي وضعته الأجيال القديمة وحددت وظيفته في نظم الكلام الموزون المقفى ونذر ملكاته للمدح والهجاء والارتباط بالأحداث العامة والمناسبات العابرة.

أما ثورته ضد التراث فقد كانت عنيفة عارمة ولكنها لم تفقد احترامها وتقديرها للقديم، فهو يشعر بأهمية الدور الذي يلعبه هذا الأدب، ويكبر ما قدمه للأجيال القديمة من تعبير عن تجربتهم في إطار عصرهم ومفاهيمهم السائدة ولكنه كان يدعو إلى شعر يعانق التجربة الحديثة للإنسان العربي الحديث، ويعبر عن تجربته التي يخوضها في وجوده المعاصر. إنه يبحث عن تلاؤم بين الحياة التي نعيشها والتعبير عنها، فلم يكن من المعقول لديه أن يعيش فكرنا على صور الماضي، ويتخذها وسيلة للتعبير عن حاضر منفصل كل الانفصال عن قيم العالم القديم، إنه يبحث عن إضافة إبداعية، والإبداع لا يتم إلا بالتجاوز والتخطي للقديم.

لقد كان الشابي يدعو للتجاوز ويعتبر إبداعاً ويرى في الوقوف عند القديم جموداً. «عندما أقول ذلك الرأي عن الأدب العربي لا أزعم أنه لا يلائم أذواق تلك العصور ولا أرواحها، ولكني أقول إنه لم يعد ملائماً لروحنا الحاضرة، ولمزاجنا الحالي ولا ميولنا ورغائبنا في هذه الحياة. فقد

أصبحنا نرى رأياً في الأدب لا يمثله ونفهم فهماً في الحياة لانجده عنده، ونطمح بأبصارنا إلى آفاق أخرى لم تحدثها أحلامه ولا يقظاته. لقد أصبحنا نتطلب أدباً جديداً نضيراً يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور، نقرأه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا، وهمسات أمانينا وأحلامنا، وهذا ما لا نجده في الأدب العربي القديم. لقد أصبحنا نتطلب أدباً قوياً عميقاً يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة بما فيها من شوق وأمل، وهذا ما لا نجده في الأدب العربي ولا نظفر به، لأنه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون، وإنما خلق لقلوب أخرستها سكينة الموت. أما نحن فما زلنا أبناء الحياة، ولهذا فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه بل يجب أن نعده كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس إلا. أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا، لأن لكل عصر حياته التي يحياها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب ،

وانطلاقاً من هذه الفكرة التي كونها عن الأدب العربي الذي يرى أنه لا يسد حاجتنا النفسية، كانت دعوته إلى الانفتاح على الآداب العالمية والاستفادة منها والتفاعل مع نماذجها الجديدة على الوجدان العربي.

وتلك أيضاً قضية من القضايا التي ما تزال تثقل بمشاكلها على الوجدان الشعري الحديث، وتطالعنا الآن آثارها في الاتهامات التي تتردد من حين إلى آخر حول استلهام الشعراء للنماذج الأجنبية واستعارتهم لملامح غريبة عن تراثنا القديم.

ولا يتسع المجال لاستعراض كل القضايا التي يثيرها الشابي بشعره وآرائه النقدية ونظرياته في الشعر. وكان خليقاً لو امتد به الأجل أن يزيد من بلورة هذه المفاهيم وتعميقها. وما من شك في أنه قد تأثر فيها بالآراء النقدية والمعارك الأدبية التي كانت شائعة في عصره والتي كانت تتردد على

أقلام الكبار من رواد الأدب العربي الحديث في المشرق وفي المهجر[1] على أن هذه العوامل المؤثرة لا تنفي ما تميز به الشابي من طابع ذاتي قوي وأصالة واضحة برزت مستقلة عن كل تأثير، وبلغ من أصالتها وعمقها أن كانت مؤثرة في من جاء بعده من الشعراء والنقاد.

وإنني لعلى يقين بأن إعادة النظر في تراث الشابي على أساس من النظرة النقدية التي توحد بين شعره وما يعبر عنه من ثورة حضارية، وبين نقداته وتنظيراته وربطها بقضايا الشعر المعاصر ستزيد من توسيع آفاق الدراسات الشابية وتبين مدى اتساع الدائرة التي تفاعل معها وأثر فيها، وتبرهن على أن ثورته ما تزال قائمة تعمل عملها، وتمارس حضورها في الوجدان.

على أن ثورة الشابي لا ترفض أن تتجاوز حتى مبدعها عندما يتحول إلى نموذج ثابت وقالب من القوالب أو صيغة من الصيغ التاريخية التي فقدت صلتها بالواقع وذلك حين يقرر (بأن لكل أدب حياته التي يحياها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب)[2].

---

(1) انظر بحثي العوامل الفعالة في تجربة الشابي الشعرية ـ الطبعة الثانية من كتابي (الشابي وجبران).

(2) مجلة الفكر (تونس) س 20 ع 4 (يناير 1975).

ما كتب عن الخيال

النقد والتأليف عندنا

بقلم الكاتب الاجتماعي محيي الدين القليبي

في تونس كما في غيرها من الأوساط الشرقية الناهضة طبقة متعلمة ذات نسبة في عددها وثقافتها والوسط الذي وجدت فيه ولقد كانت حركة اليقظة التي تمخض بها الوسط التونسي ذات تأثير في هذه الطبقة ابتداء أو بوجه أخص فكانت منها دعائم الجمعيات العلمية والأدبية وكانت منها موارد تغذية العقول والشعور العام بواسطة الصحافة والمحاضرات والمحادثات.

والفكر العام - وفي طليعته النشء الجديد - أصبح منقاداً لتلك الطبقة بحكم التأثر بما أذاعته وتذيعه في هذا الوسط من الآراء والوثوق بحسن اتجاهات أولئك القادة وصلوحيتها للحياة التي نريدها لهذا الوسط الذي نعيش فيه، والذي يدفعنا الإفراط في حبه إلى حراسته ورعايته والإيمان بأمن الجادة التي يريد أن يسير فيها إلى سعادته والوثوق من كونها موصلة إلى تلك السعادة، فلقد عمل العاملون من تلك الطبقة ما رأوه صالحاً لهذا الوسط ففكروا ودونوا ما وصل إليه تفكيرهم في هذا الصدد ومر على نشرهم لتلك الأفكار الوقت الكافي للتأمل فيها وفحصها ونقدها ولكنها لم تقابل من ناحيتها العلمية والأدبية إلا بالسكوت والإهمال. ويمكننا أن نقول إن الجهة الاجتماعية من حياتنا بوجهيها العلمي والأدبي لم تمحض مثلما محضت الجهة السياسية بل تركت وشأنها، وكما طرحها الذين دونوها وأرسلوها إلى المجتمع بوسائط النشر والإذاعة كما أن الجهة الاقتصادية لم يقع الخوض فيها مرة واحدة ومن كلا الطرفين.

فالأستاذ عثمان الكعاك والأستاذ أحمد توفيق المدني قد وضعا للمجتمع التونسي دراسة جديدة في التاريخ في كتابي التاريخ العام للجزائر وقرطاجنة في أربعة عصور زيادة عن رسائلهما العلمية المبعثرة هنا وهناك، ولكن آراء هذين الرجلين اللذين يفاخر بهما الشباب التونسي الناهض في ذينك الكتابين وفي غيرهما لم يقع الالتفات إليها بالتأييد أو التفنيد من الطبقة التي لها علاقة بفن التاريخ بين أولئك المتعلمين فكأنما صاح ذانك الرجلان في وادٍ أو نفخا في رماد، ولربما أطفأ هذا الإهمال من أنفسهما شعلة النشاط وأقعدهما عن مواصلة العمل وفي خسارة مثل هذه القوى نكبة عظيمة وصدمة مؤلمة يلاقيها هذا الوسط السائر إلى الرقي بفضل عزمات أبنائه من أمثال المتحدث عنهما.

وليس الكعاك والمدني هما اللذان انفردا بالعمل بل قد عمل عملهما في الناحية الأدبية السيد: زين العابدين السنوسي والشيخ أبي القاسم الشابي فالأول بكتاب «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» الذي ترجم فيه لشعراء العصر واقتطف ما رآه صالحاً من شعرهم لتصوير مناحي تفكيرهم للناس. والثاني بمسامرته التي نشرها بعنوان الخيال الشعري عند العرب. وهذان أيضاً قد طلعا على الناس بآراء جديدة في النقد ودراسة الأدب وتصوير الشخصيات وتحليل خصائصها ورغماً من تكاثر المنتمين للأدب ووجود من يطلق عليهم اسم أديب بحق فإن هذه الكتب لم تنشر عنها كلمة أيضاً لا عليها ولا لها.

وقد أصدر الشيخ الطاهر الحداد كتاب العمال وصدره بمقدمة فلسفية لها علاقة بحياة المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، ثم سرد حوادث أراد أن يثبتها كما يراها هو للتاريخ. ورغماً من وجود أفراد بيننا لهم باع في هذا المضمار ولهم سعة اطلاع على الموضوع الذي تناوله الشيخ الحداد بالبحث والتحليل فإننا لم نسمع على كتابه من نقد إلا كونه لم يبتدىء بالبسملة وهو نقد لا علاقة له بموضوع الكتاب.

وهناك كتب تعليمية مثل رسالة الكتابة والخطابة لعلامة القطر الشيخ الطاهر بن عاشور وكتاب في الإنشاء للشيخ الصادق البليش وكتاب في التاريخ للسيد محمد الحبيب، ثم غيرها من مثل ما ألفه الشيخ الركباني والشيخ سومر والشيخ محمد مناشو، فهذه الكتب سواء كانت للمطالعة أو للدراسة ما هي إلا مادة لتثقيف الناشئة فهي من هذه الجهة يجب فحصها والتنبيه على مقدار ما فيها من الفائدة للمتناول أو على انعدام الفائدة منها أو على ما تجلبه للمتعلم من ضرر في ثقافته لذاتها أو للغلط في طرق تناولها. ولا ننكر أن في تونس من فيه المقدرة الكافية على القيام بهذا العمل ولكن عدم الاهتمام والكسل والشح بالوقت على المصلحة العامة هو الذي ترك التفكير يتدهور تدهوراً مؤذناً بالخطر.

طبع من شعر الحماس ديوان محمد الشاذلي خزندار وطبع من الشعر الاجتماعي ديوان مصطفى آغا وديوان سعيد أبو بكر فهل تحرك شاعر أو أديب ـ وما أكثرهم في غير هذه المواقف ـ للكلام عن الشعر ومبلغه من الكمال في اتزانه ولغته ومتانة تراكيبه وبلاغة معانيه وإشراق خياله؟ اللهم إلا كلمات أبلغتها الخصومة السياسية إلى آذان شاعر الحماس تتعلق بالجزء الأول من ديوانه وكلمات أخرى متقطعة قيلت في شعر السيد مصطفى آغا.

ونحن إذا تركنا جانباً القائمين بالمناقشات السياسية من الذين أصبحت عندهم السياسة هي كل شيء لم نجد بعدهم غير هؤلاء الذين يكدون ويجهدون قرائحهم باستمرار من أمثال الأستاذ الكعاك والمدني ومن لفّ لفهم يبحثون ويؤلّفون ويقدمون إلى المجتمع نتائج كدهم وتفكيرهم.

أما غيرهم وهم كثيرون من علماء الدين والأخلاق والاجتماع والأدب والاقتصاد والصحة فلا تكاد تحس بوجودهم في هذا الوسط ولطالما رأينا ميدان الدين والاجتماع والأخلاق ينزل إليه المهاجمون فلا من يرد هجماتهم من هؤلاء الذين لهم علاقة بهذه الجهات من الحياة فيعمد أولئك المرتبطون في المناقشات السياسية إلى تولي خطة الدفاع في هذه الميادين

أيضاً، وهو أمر من الخطورة بمكان. إذاً الواجب أن يتوجه كل لما خلق له ولما اختص به ووقف عليه وقته من بحث وعلم. فالمؤرخ يجب أن يكتب لنا التاريخ وأن ينتقد الآراء التي لا يراها فيما يكتب في هذا الفن. والأديب يجب أن يكتب لنا في الأدب وأن ينتقد ما يراه مخالفاً لما اعتقد صحته في علم الأدب وهكذا إلى آخره.

أما أن يعطى لهذا الشعب ولنشأته عماد حياته الغث والسمين والحلو والمر والناضج والفج، وأهل المعرفة ينظرون متكئين على الأرائك فهذا ليس من الإخلاص للعلم ولا للوسط في شيء لذلك يجب وضع تلك الآراء والتساؤلات على محك النقد حتى نستخلص منها الصالح القويم ونترك الفاسد السقيم ليعتمد المؤلفون والمفكرون ما يستقر عليه الرأي فيما عسى أن يرسلوه إلينا من مؤلفاتهم في المستقبل وليؤمنوا بأن في هذا الوسط رجالاً تزن الأقوال فلا يبتعدون عن التحري ووزن أقوالهم وآرائهم بميزان العقل والعلم الصحيح والنظريات الموصلة للحقية.

مجلة العالم (تونس) .ع. 1. ص. 12

30/1/1

كان للنداء الذي نشرته في (العالم) ـ حول النقد والتأليف ـ صداه، وكان له بين الأدباء التأثير الذي كنت أرجوه منه، وكان اشتمل عليه من التحريض على نقد المؤلفات والآراء ـ التي يدلي بها بين حين وآخر رجال الأدب والعلم عندنا ـ؛ برداً وسلاماً على قلوب المفكرين منهم، وهذا ما شجعني على تناول الموضوع مرة ثانية وإن كنت لست من فرسان هذا الميدان. ولي من العمل في غيره ما يشغل كافة أوقاتي ويحول بيني وبين العمل اللازم لنقد المؤلفات وتمحيص الآراء.

وزادتني تشجيعاً كلمة مجلة المقتطف الغراء شيخة مجلات الشرق وأكبرها قيمة وأعظمها انتشاراً إذ قالت في عدد شهر مارس 1930 صحيفة 355 ما نصه بالحرف الواحد:

«العالم» مجلة عربية تصدر في تونس وتنشرها مكتبة «العرب فيها

تحتوي على خير من كل فن نذكر منها طرفاً من سيرة (غليلو غاليلي العالم الإيطالي المشهور ومقالة في «أدب الحرب» وأخرى في «لاروشفوكو» الأديب الفرنسي ونبذة في علم (الأقيانوغرافيا) ومن المقالات التي يجدر بأدباء العالم العربي الاطلاع عليها لمعرفة تطور حركة التأليف والنقد في الجزائر مقالة الأستاذ محي الدين القليبي صفحة 12. فإننا والله نخجل أن نقول أن نعرف عن حركة الأدب في أوروبا وأمريكا أكثر مما نعرف عنها في الجزائر ومراكش. فعسى أن تعنى مجلة العالم بهذا الجانب من الأدب فتتفرد به وتؤدي خدمة كبيرة للآداب الشرقية بإذاعة أسماء الأدباء العلماء التونسيين وغيرهم فيها» اهـ.

وإذا كان محرر فصل «مكتبة المقتطف» من المقتطف قد أعجب بتطور حركة التأليف والنقد عندنا إعجاباً دفعه إلى ترغيب الأدباء في الاطلاع على ما نشرته لي مجلة العالم. فإني أرى من واجب التضامن الصناعي عليّ أن أتحف رصيفي هذا بعينة من هذا النقد أخص بها كلمته، وأرسلها على صفحات مجلتي إلى مجلته، ذلك ليس أنه من المخجل أن يعرف أدباء المشرق عن حركة الأدب في أوروبا وأميركا أكثر مما يعرفون عنها في المغرب العربي، بل المخجل أن لا يعرف أدباء المشرق موقع تونس وأن لا يفرقوا بين الشمال الإفريقي الثلاثة - تونس - الجزائر - المغرب - فبينما يجد القارىء على ملف مجلة العالم بالخط العريض «نشر مكتبة العرب بتونس» ويجد المقالة التي تعرض لها الرصيف محرر المقتطف معنونة بما نصه: «النقد والتأليف عندنا» ولا يجد بين التآليف التي ذكرتها فيها ما أنتجته الحركة الفكرية في القطرين الشقيقين الجزائر والمغرب، بعد كل ذلك نجد محرر المقتطف يقول: «ومن المقالات التي يجدر بالعالم العربي الاطلاع عليها لمعرفة حركة التأليف والنقد في الجزائر (كذا) ويقول «إننا والله نخجل أن نقول إننا (كذا) نعرف عن حركة الأدب في أوروبا وأميركا أكثر مما نعرف عنها في الجزائر ومراكش» (كذا) وأين تونس؟ لا يعرفون مكانها من شقيقتيها، لذلك لم يذكرها الكاتب إلا عندما ترجى مجلة العالم أن

تعنى بهذا الجانب من الأدب وأن تذيع أسماء الأدباء وأن تذيع أسماء الأدباء العلماء التونسيين وغيرهم فيها. وليس ما نراه اليوم في مجلة المقتطف فكتاب المشرق ورجال التفكير فيه قبل أن يذكرونا أو نمر لهم ببال كأننا لسنا في العالم ولسنا من المجموعة الشرقية التي تتحفز اليوم للنهوض. وكم مرة رأيت مكتوباً على ملفات الصحف والمجلات الواردة إلينا من المشرق هذه العبارة ـ تونس الجزائر ـ أو ـ تونس المغرب ـ كأن تونس وحدها أصغر من أن تعرف ونحن وإن كنا لا نتحرج من هذه الإضافات إلا أننا لا نرضى أن نكون مجهولين لدى الشرق بهذا المقدار.

نعم يجب أن نذيع أسماء الأدباء العلماء التونسيين وغيرهم ولكن يظهر لنا أنه يجب قبل ذلك أن نعرف تونس إلى الشرق وأدبائه وعلمائه قبل أن نعرفهم بالعلم والأدب في تونس وبرجال العلم والأدب فيها وفي غيرها.

أراني قد أسرفت مع هذا الرصيف وأراني خجلاً والله أمامه من هذا الإسراف في العتاب ولكنها الحقيقة مرة تدفعني إلى ركوب هذا المركب مع رجل نوه بشأن عملي ونشطني على المضي فيه بتلك الكلمة الطيبة وها أنا أرضيه بتحقيق رغبته وله عليّ أن أربي له عليها وأزيد.

كنت أروم فيما أحاوله من إيجاد حركة لنقد التآليف وتمحيص الآراء عندنا أن تكون هذه الحركة مقصورة على الوسط التونسي الذي ظهرت فيه تلك الآراء والتآليف تلك التآليف التي أخذت تتزايد بصفة لا يبعد معها أن تكون ذات أثر في حياة هذا المجتمع ومن أجل هذا أصبحنا نعتقد ضرورة النقد لها والتمحيص حتى لا يصبح لغير الآراء الناضجة الممحصة أي سيطرة على العقل التونسي والثقافة التي نعدها لناشئة المستقبل، ولكن ظهر لي بعد ذلك وجوب الاتجاه نحو وحدة الأدب المغربي والثقافة العربية لشمال إفريقيا، فلزم حينئذٍ تناول ثمرات العقول للأقطار الثلاثة واستعراض ما تمخضت به النهضة الأدبية الحالية في الشمال الإفريقي وعرضها على ميزان النقد والتمحيص ليقرها في درجتها اللائقة بها ويظهر ميزاتها وخصائصها

ويكشف عما فيها من الخلل والنقصان.

لذلك وجب أن ألحق بقائمة المؤلفات الحديثة التي ذكرتها في مقالي السابق ما وصلت إليه يدي من مؤلفات أدباء الجزائر والمغرب الحديثة التي تعطي قارئها صورة صحيحة عن النهضة العلمية والأدبية في القطرين الشقيقين. فمن ذلك كتاب شعراء الجزائر لمؤلفه السيد السنوسي وكتاب بذور الحياة وكتاب تاريخ الجزائر للعلامة المفضال الأستاذ مبارك الميلي، وكتاب الأدب العربي في المغرب للأستاذ محمد القباج وكتاب تاريخ مكناسة الزيتون للأستاذ عبد القادر بن زيدان. فقد ذكر السيد الهادي السنوسي في كتابه شعراء الجزائر نخبة من شعراء ذلك القطر وكتابه وزينه بصورهم ومقتطفات من شعرهم ونثرهم وشيء من حياتهم ونشأتهم ووجهتهم في التفكير. أما كتاب بذور الحياة فهو عبارة عن مقاطيع حكمية فلسفية أفرغت في قوالب من الشعر المنثور. وأما تاريخ الجزائر فهو السفر العظيم والعمل الخالد الذي أخذ على نفسه الأستاذ الميلي القيام به وهو دستور الحياة المقبلة للجزائر العربية من حيث التاريخ والعلم به. وكتاب الأدب العربي في المغرب يعطينا صورة واضحة من الأدب الحديث في المغرب الأقصى الممتلي حياة وروعة. أما كتاب تاريخ مكناسة الزيتون فإنه من كتب التراجم الحديثة يشتمل على فوائد تاريخية علمية لا غنى للمؤرخ والعالم عنها، منظم على أحدث أسلوب وحاوٍ لأهم الوثائق.

وبعد أن ألحقنا هذه الأسفار للقائمة السابقة يمكننا أن نشرع في العمل الذي اضطرنا تقاعس أدبائنا وعلمائنا عن القيام به إلى تولي أمره مبتدئين بكتاب الخيال الشعري عند العرب للأستاذ أبي القاسم الشابي لأنه آخر سفر صدر في تونس ثم نمسك بما يليه والله ولي الإعانة والتوفيق.

الخيال الشعري عند العرب
تأليف الأستاذ أبي القاسم الشابي

بقلم الكاتب الاجتماعي

محيي الدين القليبي

في مائة وأربعين صفحة من القالب الربعي نشر الأستاذ أبو القاسم الشابي مسامرته الأولى التي ألقاها بقاعة المسامرات من المدرسة الخلدونية تحت إشراف نادي الأدب لجمعية قدماء الصادقية وجعل عنوانها الدال على موضوعها طبعاً (الخيال الشعري عند العرب) تناولت البحث عن الخيال ونشأته في الفكر البشري وما كان يفهم منه عند الإنسان الأول والخيال الشعري والأساطير العربية والخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي والخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي أيضاً والخيال الشعري والقصة في الأدب العربي ثم أردف كل هذه الأبحاث «بفكرة عامة عن الأدب العربي» وتكلم بعهدها عن «الأرواح العربية وطبيعتها الخاصة والعوامل التي كونت فيها ذلك الطبع والمؤثرات التي عملت على إبقائه في مختلف العصور» هذه كل أجزاء موضوع الرسالة أو المسامرة ومنها يتبين القارىء الموضوع الذي عالجه في عبء أديبنا الشابي.

ولعل النادي الأدبي لقدماء الصادقية بعد أن ضم جنبيه طائفة صالحة من شيوخ الأدب وشبانه وأخذ يحاول استعمال قواهم لإيجاد نهضة أدبية

ثابتة الأساس في الوسط التونسي لم يخرج لنا من أعماله ونتائجه شيئاً قبل المسامرات الثلاث التي تعاقبت فكانت لها ضجة لا يزال صداها يملأ الآذان إلى الآن. تلك هي مسامرة الأستاذ محمد الصالح المهيدي التي تحدث فيها عن امرىء القيس بما يفيد أنه ربما كان شخصاً خرافياً لا وجود له. كونه الرواة وألصقوا به الشعر الذي قصوه على لسانه وعزوه إليه. وتلتها مسامرة الأب يوسف سلام من الآباء البيض في مذهب ديكارت وما أخذه عنه طه حسين في كتاب الشعر الجاهلي. ثم مسامرة الأستاذ الشابي المتحدث عنها فلقد كان لهذه المسامرات صداها وأثرها في المحافل الأدبية بحيث يمكننا أن نقول عنها إنها كانت بداية الخصومة بين القديم والجديد، وكان هؤلاء الثلاثة قد أيدوا الهزة العنيفة التي وقعت في مصر إثر صدور كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين.

فمن آراء طه حسين أن مجنون ليلى شخص خرافي اختلقه الرواة وعزوا له تلك الأشعار. وكذلك قال الأستاذ المهيدي بالنسبة لامرىء القيس واتخذ نفس طرق طه حسين في الاستدلال. وعرض طه حسين للخيال في الشعر الجاهلي للعرب في كتابه «الشعر الجاهلي»، فسلك الأستاذ الشابي سبيله واستعار منه دليله وشيئاً من أسلوبه الكتابي الخاص به. وحاول طه حسين تطبيق قاعدة ديكارت على البحث في الأدب العربي فقال قوم إنه أصاب ووفق وقال آخرون إنه أصاب ولم يوفق ولم يعدم من يقول إنه لم يصب ولم يوفق. فتناول الأب يوسف سلام الناحية الوسطى وبحث فيها في منطقة الدائرة التي تعنيه والتي تهمه كرجل الكنيسة بالنسبة لآراء ديكارت وإذا كان بعض رجال الأدب في مصر من أساتذة الجامعة المصرية قد تأثروا في أبحاثهم ودراستهم بآراء بعض الأوروبيين وشذاذ المستشرقين في الأدب العربي فإن أدباءنا المتحدث عن أحدهم اليوم قد تأثروا في ناحية من نواحي تفكيرهم بأولئك الأدباء. وما دامت مصر تتزعم نهضة الشرق العربي فلا مناص لنا ولا لأمثالنا من أجوار مصر من هذا التأثر. وحكاية الصدى لكن الذي نوده ونريد أن نسعى له ونجد في السعي هو أن يكون تأثرنا

بحركة النهضة الأدبية في مصر، وترديدنا لصداها بمقدار فلا نسرف في ذلك إسرافاً يجعلنا بحالة ومرآة لانطباع صور غيرنا لا أكثر، فكما تتزعم مصر حركة النهضة الأدبية في الشرق العربي يجب أن تتزعم تونس حركة النهضة الأدبية في المغرب من أدناه إلى أقصاه. والذي يتزعم لا بدّ له من الابتكار وطبع المثل التي يرسلها لتطبع بطابعه الخاص به لا بطابع غيره لأن الصدى يضعف أثره بحسب البعد حتى أضيع شكله وتتوارى ماهيته فماذا عسانا أن نعطي للشمال الإفريقي مما نأخذه من مصر بواسطة السماع المشوش لا بواسطة المشافهة. والدراسة يجب علينا أن نأخذ من مصر ومن غيرها من الأقطار العربية الناهضة المقدار الذي يجعلنا على ارتباط بالأدب العربي العام وأن نوجد بابتكارنا واستعمال قوانا الفكرية طابعاً لأدبنا يميزه عن غيره ويدل على موطنه ومصدره وهذه هي الوجهة التي سنتجه إليها في نقدنا الذي نحاول فيه البحث عن صبغة خاصة للأدب العربي المغربي أو الإفريقي الذي أصبحت تونس زعيمة نهضته ومتولية أمر تجديده وبعثه للوجود والقدوة المتبعة فيه من سائر الأقطار الإفريقية.

ولنرجع إلى الأستاذ أبي القاسم الشابي وكتابه الخيال الشعري عند العرب، فالأستاذ الشابي من خريجي جامع . .ـِنة تحصل منه على شهادة الكفاءة أو «التطويع» كما يسمونها في العهد الأخير، ومواهبه أكبر من دراسته وأعظم من سنه، فهو شاب قد أشرف على العقد الثالث من سني حياته حاد الذهن متوقد الذكاء صافي القريحة رقيق العاطفة والخيال ولولا أن تأثره بما يطالعه يفقده شيئاً من شخصيته لاستمرت بناية نبوغه تتصاعد حتى قمة العظمة، ولعله بعد أن يتبين صدق ما نقوله بشأنه يحيط نفسه بشيء من المناعة حتى لا تجتذبه طرق غيره ولا تقتاده أساليبه فتعود بناية نبوغه إلى التصاعد شيئاً فشيئاً.

ولقد كان أبو القاسم ولعله لا يزال مولعاً بالانزواء عاكفاً على الخمول بحيث لولا بحث وتنقيب صاحب دار العرب ونشراتها الصديق زين

العابدين السنوسي لما وقع العثور على هذا الأثر النفيس. فتنقيب وسفريات الأستاذ السنوسي قد كشفت لنا عن عدد وافر ممن حال الانزواء بيننا وبين معرفتهم، نبغاء قطرنا وأفذاذ مفكريه، وما ظنك برجل يقوم برحلة في أنحاء المملكة باديتها وحواضرها مفتشاً لزوايا الانزواء ومغاور الخمول علّه يجد شاعراً أو كاتباً من أفراد عائلة الأدب فينشر لنا صورته وصورة نفسيته وصورة من أدبه في كتاب الأدب التونسي في القرن الرابع عشر.

فالأستاذ أبو القاسم الشابي ممن أخرجهم السنوسي وأخرج أدبهم للناس ومن ذلك الحين أخذنا نقرأ في الصحف مقطوعات الشاب الأديب الشابي الشعرية وتجاوز حد النشر إلى ارتقاء منصات الخطابة يحاضر ويسامر.

وها أن شعره اليوم ونثره يوضعان على بساط النقد ويعرضان على المحك لفحص ما فيهما من خلل ونقاط ضعف ولميز ما كان حراً في ابتكاره منهما وما استعبده فيها التقليد.

الظاهرة الجلية في شعر الشابي وحتى في نثره هي تأثره بطريقة أدباء أميركا من العرب أو بالأدب العربي في أميركا كما يطلقون عليه اليوم. ولذا وجب أن نبين ولو بإجمال هذا النوع الجديد من الأدب العربي الذي كونه العرب في دار هجرتهم وطبعوه بطابع ميزوه به عن سائر أنواع الأدب العربي في الجهات الأخرى.

فالموجة التي قذفت بها بلاد الأمويين من جزيرة العرب والتي كان مستقرها العالم الجديد «أميركا» بجميع نواحيه قد أمكن لجماعاتها فقط الاحتفاظ بمميزاتها العربية والتمسك بخصائصها بل قد أرادوا أيضاً أن ينهضوا بهذه المميزات ويبعثوا روح الحياة الجديدة والنشاط الدائم في تلك الخصائص حتى لا تضمحل وحتى لا يجرفهم تيار الخضم المتلاطم الذي يعيشون فيه وتبتلعهم الأكثرية الساحقة من غير جنسهم التي يساكنونها ويقاسمونها أسباب الحياة. فأعدوا لهذا الأمر عدته من جمعيات ومدارس

ونشريات تتغذى من قوتهم الأدبية ومن عظمتهم المادية التي كونوها بجهودهم الباهرة والتي كانت لهم كمعاقل يتحصنون بها من عوادي الزمان.

فنشأت لهم ناشئة عربية عليها سمة من تأثير المهجر أو الوطن الجديد وأثر من ثقافته وصورة من جماله الطبيعي ولون مناخه وهذه النشأة هي مطلع الأدب العربي في أميركا في مذهبين يقوم على رأس الأول المصور الفنان الأستاذ جبران خليل جبران ويؤم أرباب المذهب الثاني الأستاذ أمين الريحاني الملقب بفيلسوف الفريكة.

فالمذهب الأول يعتمد جمال المعاني ودقة الحكمة فيما يخرج للناس من المقطوعات الأدبية ولا يعنى بالكلمات وما وضع لها علماء اللغة من القواعد وما حددوه من الصيغ. ويقول أنصاره إذا ساغ لراعي الإبل من رعاة الجزيرة أن يصيغ لما يجول بخاطره ما يشاء وكيف يشاء من الألفاظ فأحرى بنا ونحن أبناء المدينة الحاضرة أن نتمتع بهذا الحق. ويعارضهم الآخرون بوجوب احترام اللغة والتمشي مع قواعدها التي وضعت لها كما وضع مثلها لغيرها من اللغات، وإنما يجب تلقيح الخيال وقوة التفكير بما يصلح من أدب المهجر حتى لا يفقد العربي خصائصه ومميزاته الأساسية.

ولعل الذي دفع أنصار المذهب الأول إلى الثورة على قواعد اللغة هو عدم تمكنهم من إخضاعها لهم بالتعليم والاطلاع، فلهم من عملهم الجديد بلغته وفلسفته وفنه أكبر شاغل، وأن الذي جعل أنصار المذهب الثاني يتمسكون بالمحافظة عليها هو تمكنهم منها وتبحرهم في فقهها فهم لا يجدون حرجاً في التعبير عن خاطراتهم وما يجول بأذهانهم باللغة الصحيحة الفصحى بينما لا يجد الآخرون هذه السهولة في التفسير.

وكما يفترقون في قواعد اللغة يفترقون أيضاً في الخيال وتخير المعاني، فأنصار المذهب الثاني تقرأ في شعرهم النفس العربي الذي يربطهم بالأدب العربي العام، ويربط جديدهم بذلك التراث القديم والكنز

الثمين، بينما يسرف الآخرون في الابتعاد عن هذه الروابط، ويحاولون الارتباط مع الأدب الأميركي والانكليزي وغيره من آداب لغات المهجر الأخرى بتحريهم خياله ومعانيه حتى إنك لتقرأ فيما يكتبونه خيالاً لا عهد لك به ومعاني لا تعرفها من قبل، فكأنك وأنت تقرأ أدبهم تقرأ أدباً أجنبياً وإن راق خياله ورقّت معانيه[1].

* * *

(1) العالم الأدبي (تونس) س 1. ع. (5.5/1930).

حول كتاب الخيال الشعري

بقلم: محمد الحليوي[1]

أحسب أن الفكرة التي كثر اللغط والضجة حولها أخيراً في الشرق عامة وأمريكا خاصة والتي ترمي إلى نفي كل عبقرية خالقة في الفن والأدب عن العرب، فتصف العقلية العربية بالانحطاط والبساطة والتسفل إلى قرارة البادیات والتعلق من الأشياء بالأعراض والظواهر وتجردها من ملكات الخيال الخصب والعاطفة الدافقة.... هي فكرة ليست بنت يومها ولا هي مما يرجع فضل السبق إليها والتفطن لإدراكها وإثارة الجدال حولها إلى صديقنا النابغ الأستاذ أبي القاسم الشابي كما يتبادر ذلك إلى ذهن بعض القارئين لكتابه «الخيال الشعري عند العرب». فلقد وجد في القديم كما وجد في الحديث كثر من الباحثين والمؤلفين والعارفين بأحوال العرب من سلب عنهم العبقرية الفنية والأدبية ورمى عقليتهم بالعجز والعقم عن إنتاج الآثار الضخمة التي تؤهلهم لأن يحسبوا في صف الأمم التي عرفت بتفوقها الفني وعلو مكانتها الأدبية والفلسفية.

فلقد رأينا في القديم مثلاً جماعة الشعوبية ـ وهي التي كانت تتكلم باسم الأمم كلها ـ كيف كانت تفاخر العرب وتتحداهم بهندسة مدائنها وعظمة شرائعها ونظمها وبآثارها في الفلسفة وبدائعها في فن الصناعة ورأينا كيف كانت تنعى على العرب عجزهم عن مجاراة الأعاجم في عالم التفنن

(1) كنا وعدنا بهاته الكلمة في مقال سالف ولأمر ما تأخرت إلى اليوم ـ ولم نلخص فكرة الكتاب وأبوابه طلباً للاختصار ـ وسيفهم القارىء موضوع الكتاب ومرماه مما سيأتي إن لم يكن قرأه كتاباً أو سمعه مسامرة في قاعة الخلدونية.

والإبداع وتقصيرهم في ميادين الخلق والابتكار.

ثم رأينا كذلك ابن خلدون كيف يتناول هاته الفكرة، ويكاد يجعلها محور أبحاثه في فصول كثيرة من (المقدمة)، ولعل القارىء على ذكر من الفصل الذي عقده فيلسوف المؤرخين هناك، وبين فيه أن شعراء العرب الفحول وكتابهم وكبار رجالهم وأعاظم علمائهم ليسوا من العرب الأقحاح الخلص وأن جلّهم ينتهي به النسب إلى أصل أعجمي، وأن تربيتهم وثقافتهم العربية لم تكن ذات أثر كبير في نبوغهم بالنظر إلى عبقريتهم «الجنسية» التي أخرجت منهم أولئك الفحول والعظماء. ومعنى هذا هو أن ابن خلدون يرى ـ وهو العلامة المحقق ـ أن الجنس العربي لم تكن من مميزاته الأصلية ظهور العبقريات الكبيرة وأنه لم ينجب أو يخلق رجالاً لهم من النبوغ والكفاءة والعظمة ما كان للأعاجم المستعربين من أمثال بشار وابن الرومي ومهيار وأبي نواس وابن العميد وابن المقفع والبديع وأبي الفرج الأصبهاني وأبي حنيفة وأبي إسحاق الصابىء وغير هؤلاء ممن ذكرهم ابن خلدون في ذلك الفصل وغابت عنا أسماؤهم الآن.

أما في الحديث فقد رأينا كثيراً من الباحثين الغربيين وكبار المستشرقين من الذين درسوا الآداب العربية وعنوا بتفهم نواحي عقليتهم وحياتهم ومميزاتهم، رأيناهم يطلعون علينا بزي آخر لهاته الفكرة أكثر وضوحاً وجلاء.

يقول أوليري الانكليزي صاحب كتاب «العرب قبل محمد»: إن العربي مادي ينظر إلى الأشياء نظرة مادية وضيعة ولا يقومها إلا بحسب ما تنتج من نفع، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف، ولا يكترث لشيء إلا بقدر ما ينتجه من الفائدة العملية».

ويقول برون صاحب كتاب «تاريخ الأدب عند الفرس»: إن العربي مادي وإن المعنويات لا قيمة لها في نظره» وقس على ذلك سائر المستشرقين والمؤلفين الذين يكتبون عن العرب وعن حياتهم وآدابهم.

وآخر من أثار غبار هاته الفكرة وأجج نارها وألبسها صبغة جدية لها وضاءة العلم وإشراق المنطق المجرد عن الهوى والعصبية هم جماعة المجددين في الشرق وأمريكا العربية. وقد ظهرت في هاته المدرسة الحديثة آخر صورة لتعليل هذه الظاهرة أعني تقسيم «عقليات الأمم» إلى قسمين العقلية الآرية للأمم الغربية التي كان لها من طبيعة بلادها وجبالها وأنهارها ومخاوفها وجلالها أكبر معين على نشأة الخيال القوي الخصب، والنظرة النافذة العميقة فكانت أفطن لمفاتن الطبيعة وعظمة الكون وجلالة النفس الإنسانية وجمال الحق، وكانت أقدر على إنتاج الأدب العالمي الذي تجد فيه الإنسانية مراحاً لأهوائها وعواطفها ومضطرباً لاميالها ورغباتها ومجالاً لآمالها وآلامها. ثم العقلية السامية وهي الخاصة بالأمم الشرقية وهي التي قضت عليها طبيعة بلادها ذات الصحاري الممتدة المترامية والسهول المنبسطة الشاسعة والشمس الضاحية اللافحة أن تكون ذات خيال سطحي ونظرة مستعجلة وعاطفة حادة لكنها غير عميقة. وكان الأستاذ نعيمة في أميركا والأستاذان العقاد والمازني في مصر كانوا دعاة هاته الفكرة وحاملي رايتها والقائمين عليها بالحجة والدفاع.. وانظر ما يقول العقاد في هاته المسألة في كتابه الفصول (ص: 40) لقد ائتمر التاريخ والإقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال. وأهون بذلك لولا أن سعة الدنيا من سعة الخيال... الخ الخ» ـ ويقول في موضع آخر من كتابه المطالعات (ص: 47 و2)» فالآريون أقوام نشأوا في أقطار طبيعتها هائلة وحيواناتها مخوفة ومناظرها فخمة رهيبة فاتسع لهم مجال التخيل وكبر في أذهانهم جلال القوى الطبيعية.

والساميون أقوام نشأوا في بلاد صاحية ضاحية ليس فيما حولهم ما يخيفهم ويذعرهم فقويت حواسهم وضعف خيالهم ومن ثم كان الآريون أقدر في شعرهم على وصف سرائر النفوس وكان الساميون أقدر على تشبيه (ظواهر) الأشياء التي مرجعها إلى الحس الظاهر» اهـ

هذه خلاصة وجيزة لأهم الأطوار والأدوار التي تقلبت فيها «مسألة»

الخيال والعاطفة في الأدب العربي تعمدنا فيها الاختصار والاقتصار عن الاقتباس والتدليل فإن استقصاء ما كتبه دعاة التجديد في الشرق حول هاته المسألة وأشباهها وما كتبه العقاد والمازني ونعيمة على الخصوص في هذا المعنى ولواحقه من الأمور المحالة إذ يلزمنا أن ننقل لذلك كل كتابتهم ونحيط بكامل حياتهم الأدبية.

* * *

وبعد فهل صحيح أن العرب كانت أمة بلا خيال أو أن خيالها على الأقل كان مادياً وضيعاً سطحياً ليس له حظ وافر من العمق والاتساع.

نقول ـ بدون ميل أو تحيز ولا تعصب لجديد على قديم ـ إن هاته الفكرة لها نصيب كبير من الصحة وفي رأيي أن كل من يتجرد عن الهوى ويدفع نوازع العصبية يرى أن لا مناص له من الاعتراف بهاته الحقيقة المرة وإقرار القائمين بها عليها فلقد يعجز الباحث حقاً عن أن يجد في الأدب العربي آثاراً في ذلك الأدب العبقري ومنتجات من ذلك النوع الضخم يمكن أن يضعها إلى جانب الآثار الأدبية السامية التي أخرجها ذهن كبار الغربيين فكانت تراثاً عالمياً تكرع منه الإنسانية أفاويق الحياة وتجرع منه جرعات تنعش القلوب وتحيي ميت النفوس.

ولئن كان هناك خلاف في هاته المسألة فلا يكون إلا في الأسباب التي جعلت العرب أمة بلا خيال ـ يقول الأستاذ العقاد ويجاريه في ذلك الأستاذ الشابي. إن سبب ذلك هو طبيعة البلاد التي سكنها العرب، ولنا أن نسأل المؤلف هذا السؤال:

إذا كانت طبيعة البلاد هي التي تنشىء الخيال أو لا تنشئه فلماذا لم تعد تنبت لنا أرض اليونان أنصاف الآلهة ولم يقم فيها منذ آلاف السنين أرسطوطاليس آخر أو أفلاطون جديد؟ ـ لماذا لم تلد لنا إيطاليا منذ القرون الوسطى «دانتيات» آخرين يخلقون لنا من الخيال الجبار جنة من السحر وجحيماً من الهول! ـ الآن اليونان لم تعد في أرضها مخاوف وأهوال، ولم يبق في «أولمبياها» الآلهة والأبطال. أم لأن إيطاليا بدلت أرضها وسماواتها

ودكت جبالها وانقرضت حيواناتها. فلو كانت نظرية البيئة هي وحدها الفاعل الأول في نشأة الخيال وقوته لكان لنا في عصرنا الحاضر من العبقريات والعظمات ما كان يجد في العصر الغابر.

والحقيقة أن مشكل الخيال مشكل غامض وعويص. ولعل هناك أسباباً أخرى وجيهة هي التي عاقت العقلية العربية عن اكتساب ملكة الخيال الواسع. والظاهر أن للتقليد والمحاكاة التي بليت به الآداب العربية منذ نشأتها أثراً كبيراً، كما أن لعدم وجود المرأة إلى جانب الشاعر أثراً كبيراً آخر... ربما تعرضنا له في المستقبل بزيادة الشرح والبيان.

* * *

على أن الإخلاص وتحري الحقيقة ثم اعتقادنا في صراحة الأستاذ الشابي وحريته تقضي علينا بأن لا نسلم لصديقنا الفاضل حتى أفضلية السبق والابتكار في جل ما عقده من الأبواب ووصل إليه من النتائج واستخلصه من الآراء، أعني فيما تناول الكلام عليه من أساطير العرب ونظرة الشعر العربي إلى المرأة والطبيعة وعلاقات كل ذلك بالخيال ـ فلقد كان المؤلف متأثراً إلى حد بعيد بما كتب المجددون في نفس هذه الأغراض والمعاني وعلى الأخص ما كتبه العقاد ونعيمة[1] في تآليفهم التي كادت أن تكون هي روح هذه الفكرة ومحورها ـ وأنا نحيل القارىء خصوصاً إلى ما كتب العقاد عن المرأة«الجسد» كما يفهمها العرب والأساطير العربية ونظرة الشعراء العرب في الطبيعة إلى كتبه: «المطالعات» و «الفصول» و «المراجعات» ومقدمة «مختارات ابن الرومي» البديعة.

(1) لم نحشر مع هذين الكاتبين الدكتور طه حسين الذي ظن الأستاذ القليبي أن المؤلف سلك سبيله واستعار منه دليله إذ لم تكن لطه حسين آراء بارزة معروفة في النواحي التي طرقها الشابي ولأنه كان أحسن ظناً في الأدب العربي وأكثر تسامحاً وأقل تطرفاً من هؤلاء ومن شك في ذلك فليرجع إلى كتابه (في الأدب الجاهلي) ص 159 و 353 و 360 وما بعدها وإلى الجزء الثاني من حديث الأربعاء خصوصاً ص 61 وما بعدها.

وفي الحقيقة أن المسائل التي طرقها أبو القاسم الشابي في كتابه الخيال الشعري هي أهم المسائل التي تشغل بال المفكرين في الشرق وهي كل حجتهم في مهاجمة القديم والدعوة إلى التجديد وهي صواعقهم التي لا يزالون ينزلونها على رؤوس أسرى التقليد وعباد الماضي من دعاة القديم، وهي هي كل برنامجهم الإصلاحي الذي كرسوا حياتهم الأدبية لإقامة برهانه وتبليغه إلى أفهام الناس الغافلين والمغرورين.

فهاته المسائل هي في الحقيقة أكبر من أن يضمها كتاب كالخيال الشعري، ويفيها حقها من النقد والمناقشة مقال أو مقالات في هاته المجلة. ذلك لأنها أثارت ـ ولا زالت تثير ـ كثيراً من المناقشات والمشاحنات وأضرمت في الشرق والغرب نيران المنازعات والخصومات.

* * *

ونخاف أن يفهم من كلامنا ذاك أننا نرمي به إلى تنقص الكتاب والتزهيد في قيمته أو محاولة الغض من منزلة صاحبه ومكانته الأدبية فإن أمثال هذا الرأي بعيد عن فكرنا كل البعد والشابي بعد قد خدم المدرسة الحديثة خدمة جليلة وأسدى لها يداً غراء، ولو أن هذا الكتاب صدر بمصر مثلاً لكان له دوي وصدى ولكان له ذكر في كل بلاد تقرأ فيها العربية ولا قبل عليه أبناء تونس وأدباؤها كما هو شأنهم في الإقبال على در مصر الثمين وغثائها التافه السخيف ـ ولكنه صدر بتونس وألفه أديب تونسي ـ وقد تعودنا هنا أن نزدري كل عمل يخرجه أدباؤنا كما تعودنا أن نحسب كل ما يأتيه مواطنونا شيئاً حقيراً لا قيمة له ولا شأن. وفي رأينا أن عمل الأستاذ الشابي في كتابه ذاك ينحصر في أنه «طبق» تلك النظريات الحديثة بصورة عملية، فأتى لها بالشواهد والأدلة من كتب الأدب ودواوين الشعر وتوسع في فهمها وشرحها بطريقة دلت على ثقافة عالية واطلاع واسع وليس هذا بالعمل السهل الميسور ولا هو بالقليل الفائدة ومهما يقال في هذا الكتاب وعنه فإنه سوف يعمل أثره في النفوس وسوف يكون له تأثيره في الأدب

التونسي ـ إن لم أقل الشمال الإفريقي ـ وأن الأديب الناشىء المتطلع إلى فهم روح الأدب الراقي سوف يعلمه كيف يقيس الزيف والصحيح ويميز بين الجوهر والعرض وكيف يكون على حذر من كتب الأدب التي يقال له فيها إن العرب أشعر الأمم وشعراءها أقدر الشعراء وإن الذي يقرأ ذلك الكتاب سوف تبقى في ذهنه تلك الدعوة الحارة الملتهبة المضطرمة الصادرة من قلب ملؤه الإخلاص والحب والحمية والغيرة على آدابنا ـ ومن نفس شابة طموحة مستشرفة إلى حياة قوية مشرفة ملؤها العزم والشباب وإلى أدب حي صادق قوي يملأ النفس هيبة وجلالاً ويغمرها مسرة وسعادة وجمالاً لا إلى أدب الكنايات والمجازات، ولطيف التشبيهات والتوريات، ولا إلى حياة أسمى ما تسمو إليه أن يكون الشعر عندها آلة مدح ورثاء وأداة فراغ وتسلية ومجموعة حماقات وسخافات.

نعم سوف يعمل الكتاب عملاً رغم أنف أسلاخ القبور ودعاة الترميم!.



وقد أخذنا على المؤلف مآخذ أخرى ثانوية لا يتسع المقام لذكرها كلها ولا لمناقشتها في تفاصيلها، فقد كنا نود مثلاً لو أن الكتاب خلا من روح التحامل أو التشفي والإسراف في استعمال كل مترادفات كلمات المادية والانحطاط والتسفل والبساطة والسذاجة وإلصاقها متسلسلة بالعرب وآدابهم بمناسبة وبدون مناسبة ـ كما كنا نود لو أنه كان مقتصداً في إعجابه المطلق بالغرب وآدابه ورجاله ووصفه بكل أوصاف الإجلال والإكبار ـ ذلك لأن أول الواجبات على الباحث أو الناقد هو أن يدخل إلى بحثه «خالي الذهن» لا يحمل في نفسه ضغينة ولا حقداً على مذهب من المذاهب ولا يترك المجال لنوازعها وأميالها في التحيز لجانب دون جانب، وهي أحسن طريقة تضمن لصاحبها الوصول إلى الحقيقة ولا تصده عن الإحاطة بالمحاسن والمساوىء في موضوعه المبحوث فيه، فمن قرأ كتاب «الخيال الشعري» لا يتمالك من إضمار الضجر والتقزز من الإسراف في تقريع

العرب وتعييرهم والنعي عليهم بعبارات لا تليق بالباحث الذي يفتش عن الحقيقة ولا يلبث أن يدرك أن المؤلف يريد أن يصل إلى غاية كان قررها في نفسه قبل تناول الموضوع بالبحث والتحقيق، ومن مساوىء هاته الطريقة أنها تقود صاحبها حتماً إلى إغفال المحاسن أو محاولة الحط من قيمتها،وتهويل المساوىء والزيادة فيها والتفتيش عنها أيضاً وقد وقع صديقنا في هذا العيب مراراً كثيرة في مواضع من كتابه نذكر منها أنه أراد أن يزهد في قصيدة ابن زريق العينية ويتنقصها ويشوه معانيها بنثرها وقطع وحداتها بدعوى أنها تتناول موقف الوداع باستسلام وخضوع وبساطة صبيانية، ثم يقارنها بقطعة «لأُسيان» تناول فيها موقف الوداع أيضاً ولكن بثورة عنيفة وتمرد غريب فاستصرخ فيها عناصر الطبيعة وجذف على الأرض والسماوات، ومن حق قارئه أن يسأله بعد قراءة ما ذكره هناك عن ماهية الشعر وماهية الشاعر؟، فإذا كان الشعر الحق هو الذي يمثل ما يعتلج في نفس صاحبه من عواطف وما يدوي فيها من أصداء، وإذا كان الشاعر الحق هو الذي يعطيك صورة من نفسه ويصدق في التعبير عن هجساتها وخلجاتها في غير تكلف وتعسف ومحاكاة. فكل من ابن زريق وأسيان شاعر، وكل منهما صادق في التعبير عن ذات نفسه والفرق بين هذا وذاك هو أن أحدهما له نفس يائسة قانطة قانعة بالقضاء والقدر وأن الآخر له نفس جامحة متمردة لا تجد صبراً ولا تروم عزاء، وإني أزعم أن الأستاذ الشابي لا يمكنه أن يقنعني أي هاته الحالات أفضل وأخير؟ هل التي تتلقى مصابها بالثورة والتمرد أم بالقنوط واليأس والرضوخ، فإذا حكم لأحدهما بالإصابة والصدق فهو إنما يصدر عن نفسه في الحكم ويستجيب لميل طبعي فيها. أما المتجرد من الهوى والميل فإنه لا يرى هناك إلا أن كلاً منهما جدير بالرثاء والعطف حقيق بالشفقة والرحمة وأن كلاً منهما ـ على كل حال ـ يؤثر في وجداننا ويستفز عواطفنا ونفوسنا ولا يتركنا غير مكترثين، ولو طلبنا من كل شاعر أن يتناول موقف الوداع كأسيان إذن فقد طلبنا المحال وكلفناه خطة لا تستطاع، ذلك لأن النفوس متباينة

وحالة النفس الواحدة تختلف باختلاف المواقف والدوافع.

وقد كنا نود أيضاً لو تكلم المؤلف ولو قليلاً عن الشعراء العذريين أولئك الذين أبقوا لنا في الأدب العربي «اسماً» لم نرَ من أبقى مثله في آداب الأمم الأخرى فيقال مثلاً «الهوى العذري» ويعنون به الهوى المجرد عن المادية الذي لا يقصد به صاحبه إلا التمتع بالجمال النظري واللذة الروحية، ولهاته الفرقة التي ظهرت على عهد الدولة الأموية أخبار مأثورة وأحاديث مشهورة ووقائع مؤثرة وإن كان شعرها في بعض الأحيان لا يرتفع كثيراً عن المذاهب العربية طريقتها في التشبيب ولقيس بن الملوح وجميل وكثير وأضرابهم أبيات ومقطوعات نارية تلفح القلوب وتؤثر في النفس، فإهمال ذكرهم من كتاب الخيال الشعري يعد نقصاً مشيناً له إذ كان ذلك من أهم أبوابه وأكبر دعائمه.

وقد لا يغتفر القارىء للمؤلف مقارنته شعراء البدو الرحالة بأنبغ وأكبر شعراء أوروبا أعني لامرتين الفرنسي وجوت الشاعر الألماني. فأولئك قوم نشأوا في الموامي القفراء وبين السوام الراعية وتحت الخيام الرقيقة وهؤلاء نشأوا في ظل القصور، بجانب الخرد الحور وانصبت إليهم مدنيات الأمم الغابرة وآدابهم وعلومهم فدرسوها وثقفوها وتأثروا بها واحتذوها وشتان بين جاهلي فوضوي كان يعيش منذ أربعة عشر قرناً وبين متمدن عاش في القرن التاسع عشر، فالمقاربة أو الموازنة كانت تصح بين الجاهليين مثلاً وشعراء الإلياذة أو أنشودة «رولان» التي هي أول شعر للأمة الفرنسية، وقد تكون مضحكة حقاً لو كانت بين الشعراء المعاصرين عقيب النهضة الأدبية الحاضرة وبين الشعراء القدماء مثل شعراء الدوائر Les Cycles في القرن الثاني عشر المسيحي.

* * *

والأسلوب ماذا أقول عنه؟ إنه آية النهضة الأدبية في تونس، والمطابع التونسية لم تخرج حتى اليوم أثراً فنياً يعادل كتاب «الخيال الشعري عند

العرب» في عبارته الشعرية وأسلوبه البليغ ولغته النقية، وفي وسع الأستاذ الشابي أن يتحدى خصوم أسلوبه الكتابي بأن يأتوا بجملة من مثله أو بربع صورة من صوره الخيالية، فإن لصديقنا الشابي لقوة خارقة في تركيب الصور الخيالية وإرسالها متتابعة متسلسلة، وقد يتمكن بواسطة مضاف ومضاف إليه أو نعت ومنعوت من خلق الصور البديعة التي يعجزك أن تشرحها بصحيفة كاملة أو التي ترى فيها عالماً من المناظر والرؤى يتمثل أمامك، وأنظر إلى قوله «الأزهار السكرى بأنوار النهار» أو قوله في حياة سعيدة بالحب كان يحياها ويغذوها بالأمل فسطا عليها الدهر «تلك حياة. . . تدفقت نهراً مترنماً بأحلام البحار» فأي قارىء لا تفتح أمامه هاته الكلمات القصيرة أبواباً من التأمل وصنوفاً من الصور والمشاهد ومعاني هي الإبداع وهي النهاية، معاني لا قدرة لأحد عليها ما لم ترزق ملكة الشابي في انتزاع الصور الخيالية الرائعة من المرئيات والمحسوسات، وأن نبوغه في الخيال لحجة عليه وشاهد منه على أن العربي يمكنه أن يسمو بملكاته إلى نهايتها إذا ترك المحاكاة وهرب بنفسه من أسر التقليد الذي هو أكبر بلية بليت بها الآداب العربية.

والخلاصة إننا نعتبر كتاب الخيال الشعري كطرفة فنية في الكتابة أكثر منه كتاباً علمياً يملي على مؤرخ الأدب نظرياته و أحكامه ويضطره لآرائه واستنتاجاته نظراً لكون مؤلفه لم يبعد بنفسه فيه عن مضنة التسرع في الأحكام ولم يتحر فيه دقة الباحث المنزه عن التحامل، والمؤرخ المجرد عن الهوى، نقول ذلك لا تعصباً للعرب ولا إيثاراً لأدبهم أو شفقة عليها من معاول الهدم والدكّ بل نقوله انتصاراً للحق ودفاعاً عن أساليب البحث العلمي وطرائقه.

ثم إننا نحيي في أبي القاسم الشابي أديباً كبيراً ذا مقاييس عالية وفهم دقيق لوظيفة الأدب في الحياة وفكر حر وشجاعة نادرة المثال وإننا لنشيم فيه زعيماً جريئاً سيكون له أثره وخطره في نهضتنا وإنهاضنا وسيشتد به أزر التجديد وتقوى به صفوف المجددين في مهاجمة القديم البالي الذي لم يعد يقو على البقاء أو يعوق في بقائه سير سنة النشوء والارتقاء. وإننا نجدد له هنا عبارة شكرنا وإعجابنا وولائنا.

الخيال العام في الأدب العربي

بقلم: محمد الفاضل ابن عاشور

هذا الغرض من الأدب الذي نشأ مع الإنسان الأول وتحمل عواطف الإنسانية في نشأتها وهو القصص لم يزل له خطره في الأدب ولم يزل مظهراً لما يفهم البشر به البشر.

ذلك لأن التأثر الذي تمتلك النفس به صورة من صور الشقاء أو اللذة لا تحيط به المادة فتصفه أو تكيفه بل حسبها أن تلم بمبحث ذلك الإحساس وتكسوه من نفوذ الخيال روعة تنم عن مقداره.

هذا القصص هو الذي نشأ عنه بالإغراق في الخيال والإبداع في إظهار الإحساسات الكامنة من خلال الوصف أن صار تصوير النفس البشرية مقصداً أصلياً فيه حتى لم يعد من موضوع القصة التحري في الحكاية والعناية بتصويرها بل صارت تعنى بإيجاد منافذ يتنفس منها الخيال طلقاً ويشرب منها على هذه الطبيعة التي تمد حركته إلهاماً لا عهد له به، وقد كان أعظم قوة بشرية في طور التكوين الأول يفيض على النفوس آمالاً ومخاوف وقنوطاً وسروراً ولا غرو أنه كلما زادت المنافذ لهذا الخيال انفتاحاً تفكك ما بين القصة من عرى طبيعية أصلية فالتحمت بلحمة الخيال.

فكان لنفسية الواضع الذي أصبحنا نتحسس روحه ونقتفي بالرغم عنا أثر نظرته للحياة دخل عظيم فيما يمتلكنا من عواطف تثيرها تلك القصة وذلك الذي صار يدفعنا لتحري البحث عنه حتى نقف على مبعث الصلة التي نشأت بين خيالنا وخياله من طريق القصة التي أفضى بها إلينا وأودعها من إحساسه نحو هذه الطبيعة أمراً عظيماً.

وفي هذا النوع من البحث في أدبنا قد تصادفنا قصص رائجة لها أثرها الأعظم في تلوين صور عديدة من الآداب العربية وتحديد الاتجاهات الفكرية إلى مدى بعيد.

ولكن الاصطدام بها يكون قوياً لدرجة تزعزع اليقين إذ يحتار الباحث فيها من جهتين فهي:

1 ـ لا تثبت على محك النقد العلمي.

2 ـ لا يمكن أن نصل بها إلى منشأ معروف يكشف عن حقيقتها.

نحن نعلم أن قواعد البحث العميق والنقد العلمي التاريخي الثابت لا تعد إزاءه الأخبار المنقولة شيئاً، ولكن هذه القصص تكون غالباً ذات انتشار مهول وذائعة في أغلب المصادر فليس من السهل أن تقضي على هذه القوة الجارفة التي طالما غيرت وجوه الآداب ومجاري التفكير حتى اضطر الباحثون إلى مماشاتها في احتراز والاحتياط في تطبيق أصولهم العلمية خضوعاً لهذه القوة الغريبة التي صادمتهم بها.

قد يكون سهلاً أن ينكر الباحث وجود مجنون ليلى وأن يحكم بأن ذلك الشعر موضوع في أزمنة وظروف مختلفة على لسان هذه الشخصية التي صارت رمزاً للغرام الهائم المفادي ولكن أترى القوة التي ثبتت بها هذه الشخصية في منابع الأدب تسمح له بأن يعرض عنها نحو قواعده النقدية؟ كلا فهي ملفتة نظره على الرغم منه بذيوعها وحاملة له على اعتبارها.

لم يكن أبو الفرج الأصفهاني مختاراً لما انتهى به بحثه إلى تكذيب وجود مجنون ليلى ثم أفسح من كتابه جزءاً عظيماً لأخباره وأشعاره فهو بذلك يعرض علينا مقدار الصراع القائم في فكره ويخضع لقوة تلك الأخبار خضوعاً تركها ومقاييسه النقدية متضاربة جنباً لجنب لا انتصار لإحدى القوتين على الأخرى. هذه نهاية الباحثين المستسلمين الواقفين من هذه الأخبار موقف الاحتياط ومن الباحثين فئة كان لها من التعلق بأصول النقد إرادة لا تقوم أمامها هذه الأخبار، ذهب أبو الفرج بمقاييسه ونشأت مقاييس

جديدة في الأدب كانت أقوى من الأولى وأصحابها أشد تمسكاً بها فلم تعد هذه الأخبار قادرة على المقاومة العنيفة التي قاومت بها المقاييس الأولى ولم يتحاش الدكتور طه حسين ـ مثلاً ـ من تسقيطها في غير هوادة.

ولكنها إذا لم تكن صوراً صحيحة لما تعمد لتصويره فهي على الأقل صورة يفهم به حاكيها هذه الناحية من الحياة أو يحس نحو هذا المظهر من مظاهر النفس البشرية.

ولكن من أين يستمد واضع القصة هذه القوة العظيمة لقصته حتى يجعلها تقف في وجه قواعد البحث موقف المعاند.

إن الخيال مهما بلغ من النفوذ في النفس سواء من تعمقه أو من طريق الغاية لا يمكن أن يبلغ هذه القوة التي نجد عليها أخباراً زائفة أمثلتها كثيرة في الأدب العربي.

هي زائفة لا محالة وأدلة الزيف قد تكون ناطقة منها بنفسها ولكنها قوية ذائعة ذيوعاً صريحاً في أنها ليست ثمرة فكرة واحدة.

وما أعجب ما يروي لنا أبو الفرج في الأغاني أن رجال بني عامر كانت تنكر وجود مجنون بينهم ذهب الغرام بعقله والذين شاعت على ألسنتهم هذه الأخبار لا يزالون مصرين على إثباتها محاجين في وجود هذا المجنون. فما هذه القوة التي يكتسبها الخيال حتى يصبح متدرعاً في أثواب الحقيقة؟ أليست قوة الاجتماع.

أليست قوة الاجتماع التي تضاعف قوى الفكرة الفردية أضعافها فما يتخيل الفرد صوراً يركبها من العناصر التي حوله ويجعل أساسها الظروف التي تحف بحياته وما يرى ويسمع كل يوم، تتخيل الأمة كذلك صوراً ليس الأثر في تخيلها لفلان أو فلان من أفرادها ولكنه لقوة اجتماعها كما تنتج عقليتها العامة أفكاراً لا يختص بها فرد نسميها الفكر العام، ففي قوى الشخصية الاجتماعية خيال عام كما فيها فكر عام.

هذا الخيال العام هو الذي يكسب الأخبار الزائفة والصور الفاسدة في تاريخ أدبنا العربي تلك القوة التي رأينا إذا كانت صادرة عنه.

ترى الأمة من التيار الاجتماعي المتدفق حولها اتجاهات يكون لها وقع في نفسها عامة وتكون مظهراً من مظاهر القوى التي تخضع لها المتألفة من زمانها ووضعيتها الاجتماعية فهي مظهر الإحساس الذي تحس به كل نفس من الأمة إذ كانت صورة لحالتها الاجتماعية ومصادر التخيل متوفرة في أفرادها جميعاً بالرجوع للظروف التي تكون ذلك الاتجاه.

فمن الجزئيات التي تتفرع عن ذلك الإحساس تتركب كليات يكون عمل الخيال صوغها في نسق واحد وبقدر ما لهذه القوة الاجتماعية من العناية بروح الواقعة وتأليفها مع إخوانها بجعلها محكية عن شخص واحد يكون لها استخفاف بمميزاتها وخواصها إذ كانت تنظر منها لنقط الوحدة لا لنقط الافتراق.

وليس المقصود من صوغ الأمة لهذه الحكايات أنها تجتمع لتأليفها وتنسيقها حتى تكون صادرة عن مجموع الأمة ولكنها من صوغ أفراد يعبرون بها عن الإحساس العام وتقضي عليهم تلك القوة التي يترجمونها بالاختفاء وراء الستار الاجتماعي ووقف عملهم على إحساس الأمة المشترك، حتى إذا طفح بها سيل المجتمع رأيت كل من وقع نظره عليها من أول مرة يخيل له أن قد سمعها قبل أو يجزم بأن قد ألم بها غير هذه المرة من غير هذا الطريق وما ذلك إلا لأنها تصادف تماماً طريق نظره لتلك الناحية من الحياة البشرية فالإحساس العام يمليها أولاً ويتلقاها حين نشأتها ثانياً فتختفي الشخصية الفردية وسط قوة الاجتماع التي تكتنفها من الطرفين ونرى لهذا أثراً عظيماً بيناً في الأغاني الشعبية الضعيفة في الفن والروح فمن ذا الذي يطمع أن يعرف واضعها أو مكمل القطعة الفلانية لها بل لا نشعر بها إلا وقد تداولتها الألسن وترنمت بها طبقات تجد في كل مقطوع منها معنى تكاد تنطق به قبل أن تسمعه.

ولكن الطرق التي ينفذ منها الخيال العام لأدبنا العربي مفترقة غير متشابهة وأجلاها على ما استخلصنا أربعة طرق.

الأول ـ أن تكون الشخصية التي تحكى عنها الحكايات حقيقة وغالب القصص المنسوبة لها واقعية ولكنها لم تثبت لتلك الشخصية بعينها فعمل الخيال إذن هو جمع قصص متشابهة متفرقة والتقريب بينها وتوحيد شخصيتها حتى تتقوى الصلة بينها بالانتقال على الألسن.

وقد يقضي هذا العمل على الشخصية بالتغير عن صورتها الحقيقية إلى صورة يكونها مجموع هذه القصص لأن إلصاق هاتيك القصص بتلك الذات قد دعي له تفوق الذات في المعنى الذي يجمع هذه القصص حتى أصبحت رمزاً للبطولة من تلك الناحية. فإذا أغرقنا في استخدام هذه الذات رمزاً واتباع الوحدة التي تدعونا من القصص المتألفة للانضمام حول ذلك الرمز فقد أضعنا المميزات الشخصية الأولى لتلك الذات وكونت الحكايات من بينها ذاتاً تزيد وتنقص اختلافاً عن الذات الحقيقية بمقدار تغاضينا عن مميزاتها وإندفاعنا مع المعنى الرمزي.

وأوضح مثال لهذا عنترة والسيرة العنترية فقد تفوق عنترة واشتهر ببطولته الحربية وغرامه الجبار العاتي حتى أصبح ذاتاً بارزة متميزة اختيرت لأن تكون رمز الوحدة بين القصص التي تجمعها هاته المعاني ولكن جمع القصص كما نراها في السيرة العنترية كون شخصية جديدة لا تتفق وشخصية عنترة الأصلية التي تستجلى من معلقته والمصادر الصحيحة عنه.

الطريق الثاني ـ أن تكون القصص واقعية لا توجد الذات التي تصلح أن تكون هنا رمزاً فيشيء الخيال العام ذاتاً جديدة خيالية تتفق والوحدة من تلك القصص كما وقع في مجنون ليلى على أصح ما انتهى له البحث العلمي.

كونت هذه القصص الرائجة عن الغرام الهائم المفادي خيالاً عاماً دعي لأن يظهر إحساسه من مجموعها في ذات تجمعها ولم تكن في

الظروف التي تحيط بعمل الخيال ذات نبغت في ذلك تجعل رمزاً كذات عنترة فأوجدت ظروف التخيل من نفسها ذاتاً وهـمية وكونت لها من مجملات القصص خاصيات سطحية تميزت بها.

الطريق الثالث ـ أن تتفرق الذات الحقيقية وتكون من الحكايات الصادقة عنهاجاذبية للعموم فتصبح هي مناط الخيال وتخدم الظروف فينتج منها الخيال العام قصصاً خيالية عن تلك الذات يحسب الناس أن قد كملت بها الصورة الحقيقية وهذا مطرد شايع في نسبته الشعر والأخبار.

الطريق الرابع ـ أن لا يتعلق الخيال العام بجوهر القصة لا في وقائعها ولا في شخصيتها ولكن يتعلق بتصويرها وحكاية ظروف وقوعها على نحو ما يتخيل العموم فتحدث بذلك مخالفة للصورة الحقيقية.

كما يروي لنا عن الخلفاء في الحكاية عنهم مناظر لتكميل القصة يدخلها شك عظيم في حال أن القصة بذاتها صحيحة جارية مع قواعد النقد.

ذلك لأن العامة تتصور قصر الخفة ـ بخفائه عنها ـ محاطاً باللذائذ والانهماكات فمتى حكت عن دار الخلافة أو عن مثول فلان من العلماء أو الأدباء بين يدي الخليفة أرادت تصوير المنظر وتدبيج المقامة فأخرجتها في ذلك الثوب المسدول عليها من الخيال العام.

وهذا مرجع كثير مما يصادفنا من رواية مجالس تهتك ومجون عن عظماء الخلفاء مثل عبد الملك بن مروان لا تليق بمكانهم على رأس الأمة الإسلامية في تلك العصور.

من هذه الطرق الأربعة دخل على الأدب العربي وصوره لبس عظيم نرجو أن نكون وفقنا لإدراكه والتنبيه لعدم الوقوع فيه.

أبو القاسم الشابي
فكرته في الخيال الشعري عند العرب

بقلم الشاعر الأستاذ مصطفى خريف

أصبح أبو القاسم الشابي، بعد مرور ما يقارب العقدين من السنين على التحاقه بعالم الخلود، علماً في أدب العربية، ومن أصبح هذا هو حاله، فقد انقضى حوله عهد الرثاء والذكريات العاطفية، وصار تاريخ حياته وبحث آثاره تراثاً أدبياً شائعاً بين الجميع.

وأردت بهذا أن أرد على صديقي الأديب صاحب الأسبوع حيث اقترح على شخصي الضعيف أن يكتب للذكرى الثامنة عشرة لأديبنا شيئاً يتعلق بالمعاشرة الطويلة والصداقة الأكيدة التي كانت واقعة بيني وبين الفقيد ولم تنته إلا بانتهاء حياته الدنيا.

والواقع أن محاولة شيء مما يشير إليه الأستاذ ابن محمود مما يثير في أعماق النفس أشجاناً وأحزاناً، وذلك ـ وإن اعتبر كمادة خام ـ صالحة للذين يحققون في منعرجات حياة الشابي، قد يكون أهم منه وأصلح ـ بالنسبة لي أنا على الأقل ـ أن أشير إلى بعض ما أحسبه أغلاطاً شائعة يتعاطاها بعض الكتاب عن الشابي فيما يخص مذهبه الأدبي، وأعني خصوصاً ما ورد بكتابه «الخيال الشعري عند العرب».

وكنت أعلن رأيي لأبي القاسم في ذلك الكتاب: أنه قطعة من الأدب الإنشائي أكثر منه قطعة من الأدب الوصفي أو البحث الأدبي، وأشهد أن أبا القاسم بعد مرور سنوات على ظهور ذلك الأثر لم يكن يعارضني في رأيي ذلك بل كان يدعمه بقوله: إني قد نبهت في صلب البحث على أن فيه آراء

تحتاج إلى مزيد بيان وعللاً تقتضي مزيد نظر.

كان عمر أبي القاسم عمر زهور، وأريد أن أتابع هذا التشبيه فأزعم أن الموت لم يمهل ذلك الشاب إلى أن يكتمل نضجه، فقد شممنا من حياته القصيرة عطر زهورها وتمتعنا بطيب شذاها وجمال منظرها، ولكنا لم نفز باقتطاف ثمرها الناضج لأن الشجرة يبست قبل أن تدرك ثمرتها إبانها، ويا للأسف ويا للحسرة!.

فماذا يراد من شاب لم يجاوز 24 عاماً؟ كم نحسب له منها في محاولة الأدب؟ خمس سنوات؟ سبع؟ عشر؟ كل هذا قليل في نظر الواقع، إن أردنا نتاجاً قيماً ودرساً طبيعياً.

وهذه الحقائق التي ذكرتها تصدق أكثر ما تصدق على أشعاره قبل عام 1932 وعلى كتابه «الخيال الشعري».

ومن يتأمل في أسلوب ذلك البحث يدرك بدون عناء كبير جدته على الكاتب، ورهبة الكاتب في ممارسته.

أما البواعث التي أثرت في أبي القاسم فمشت به إلى آراء تظهر سيئة في الأدب العربي رجع عنها بعد ذلك فإن ذلك سهل يسير على من عرف أين يقضي ذلك الفتى الحساس وقته وماذا يطالع من كتب وصحف ومن هم الذين يختلط بهم ممن ينسبون إلى الأدب وإلى القدوة العقلية.

كان أبو القاسم يقضي وقته في النادي الأدبي الذي تحتضنه جمعية قدماء الصادقية: مع دروس الحقوق، وكان «يطالع السياسة الأسبوعية» وطه حسين وكان يتحدث إلى بعض خريجي الصادقية في ذلك الزمن.

ومن خير التيارين اللذين كانا يصطدمان في تلك الفترة من الزمن فإنه يقدر لا محالة لنشأة أبي القاسم تلك الارتجاجات، مع ما هو عليه من حدة في الذكاء واتجاه إلى السمو.

وبقدر ما كانت فكرة الرجعية التي يمثلها رجال كانوا يبالغون في

التزمت والانكماش عن اقتباس أسباب الحضارة العالمية، كانت توجد طائفة تمثل فكرة التطور ولكن مع مبالغة أيضاً في الافتتان بمظاهر تلك الحضارة.

وليس من السهل وجود شخص قادر على أن يعتصم بالاعتدال بين هذا وذاك.

فلا ينبغي أن ننسى نشأة أبي القاسم ووسطه في قبيلة بنت مجدها على التأثير الديني الطائفي ضرورة أن أباه، من خريجي الأزهر ويباشر عمل القضاء الشرعي في أقاليم تونس.

وذلك لم يتغلب على طموح أبي القاسم بل ربما نتج عنه رد فعل جمح بالفتى الطموح إلى الميل مع مذهب التطور على ما فيه من خلل.

فنتج عن ذلك مسايرة أبي القاسم في محاضرته لآراء تلامذة المستشرقين من رجال الأدب في تلك الفترة في حياته وعلى نور هذا الاستنباط ربما يرجع الباحث إلى تعقب شعر الشابي فيجد معالم كثيرة تفسر تطور ذهنه الحاد واستقامة فكرته في إنتاجه آخر حياته.

الخيال الشعري عند العرب

للأستاذ محمد الصالح المهيدي

تكاد النسخ الباقية من هذا الكتاب الذي ألفه فقيد الأدب التونسي المرحوم أبو القاسم الشابي تنفد من الباعة إن لم تكن نفدت بالفعل.

ويكاد الجيل الجديد من شباب الأدب يجهل الظروف التي أحاطت بطبعه لأول مرة في سنة 1348 بل لعل تسعين في المائة يجهلون ذلك.

وإذا كان الشابي لم يقدر له في حياته أن يطبع ديوانه بعد أن وقع الشروع في جمع اشتراكاته ولم يقدر لورثته أن يطبعوه حتى الآن رغم ما قيل في هذا الموضوع. فإن أبا القاسم قد تمكن من طبع كتابه «الخيال الشعري عند العرب» في ظروف عصيبة جداً نحاول أن نلم بها هنا بعض الإلمام لنلفت قراء العربية إلى هذا السجل الأدبي الذي هو قطعة من النثر الفني لم ينسج على منوالها من عهد الجاحظ حتى الآن عساهم أن يستفيدوا من النسخ الباقية منه، وعسى أن يهتم بذلك ورثة الفقيد لإعادة طبعه من جديد.

قال المؤلف في كلمة تقديمه ما يأتي:

هذا الكتاب هو المسامرة التي ألقيتها بقاعة الخلدونية (أي تحت إشراف النادي الأدبي لجمعية قدماء الصادقية) في العشرين من شعبان السنة الماضية (1347) قدمتها للطبع دون أي تنقيح أو زيادة أو حذف إلا ما كان من التعاليق التي شرحت بها ما يمكن أن يشكل لفظه أو يبهم معناه حتى يكون القارىء على بينة مما أردت قوله أو دللت به. وإن كنت أعلم أن كثيراً من الآراء التي بها في حاجة إلى الشرح والبيان والتعليل، وربما إلى

زيادة التمحيص والبحث. ولعلي أعود إليها بالنظر في مقتبل الزمن إن سمحت بذلك الأقدار. أما الآن فحسبي أني لبيت بطبعها رغائب إخواننا الكثيرين من الشباب الناهض المستنير الذي لم أخط كتابي إلا لأخاطب فيه حماس الفتوة، وأدعوه، معي إلى أن نسلك بالأدب التونسي سبيل الحياة الجميل المحفوف بالأوراد والزهور.

تلك هي مقدمة الكتاب وأرى لزاماً عليّ أن أقول إن هذه المحاضرة هي ثالثة المحاضرات التي قامت حولها ضجة كبرى وبها بدأت حركة التطور الثقافي في تونس وعدت الخطوة الأولى أو الحجر الأساسي لما عرف فيما بعد بالصراع بين القديم والجديد.

فالمحاضرة الأولى ألقيتها أنا بالنادي الأدبي داخل جمعية قدماء الصادقية وموضوعها امرؤ القيس والشعر الجاهلي. والثانية ألقاها الأب يوسف سلام بالنادي الأدبي في الخلدونية عن نظرية ديكارت وهل طبقها الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلي والثالثة محاضرة المرحوم الشابي موضوع حديثنا الآن.

جاء أصحاب هاته المحاضرات بآراء جديدة أثارت غضب بعض من اعتادوا الإغضاء عما في الأدب العربي من الأخطاء والنقائص وطلبوا من الجيل الجديد أن يترك قدسية الألفاظ والآراء القديمة في النقد الأدبي وأن يستعمل مقاييس العقل قبل الالتجاء إلى نقل الخرافات والأوهام. وأن يقولوا للمحسن: أحسنت، وللمسيء: أسأت، بقطع النظر عن كل شيء.

بدأ الازدراء بمحاضرة الشابي بالتعليق على كلمته التي رسمها فوق ظاهر كتابه وهي:

«لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرفة ملؤها العزم والشباب. ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة.. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة».

عندما تم إلقاء المحاضرة تفرق المستمعون الذين ضاقت عنهم قاعة

الخلدونية الكبرى شيعاً ومذاهب، فكان الشيوخ ضد المحاضر والشباب إلى جانبه وبدأت التعاليق في المجالس والأندية تترى يعيدون ما سمعوه وربما حرفوه بالزيادة والنقص. وفارق المحاضر تونس متوجهاً إلى زغوان أين يقيم أفراد عائلته. دارت عدة مخابرات بيني وبينه حول طبع المحاضرة ليكتب من يريد النقد عن بينة ويتبين بعد ذلك غرض أصحاب الغايات. وكانت دار العرب للطبع والنشر لصاحبها الأستاذ الكبير زين العابدين السنوسي هي الوحيدة التي تستطيع الاضطلاع بهاته المهمة اتفقت مع الصديق على مفاتحة صاحب الدار الذي كان في الوقت نفسه هو الكاتب العام للنادي الأدبي وحافظ أوراقه وهو نفسه الذي قدم المحاضر إلى مستمعيه بعد أن كان قدم إليهم جانباً من شعره في صحيفة «النهضة الأدبية» التي كان يحررها أسبوعياً. وبعد أن قدمه إلى قراء العربية في كتابه «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» أو صحف مختارة من الأدب التونسي.

وإلى القراء ما يراه المرحوم الشابي في شأن مفاتحة الأستاذ زين العابدين السنوسي ضمن رسالة بعث بها إليّ من زغوان مؤرخة في 24 رمضان 1347 . . . . بقي لي رجاء أتمنى أن تحققوه. وهذا الرجاء هو أن تسأل السيد زين العابدين السنوسي كيف العمل في شأن مسامرتي لو كلفته بنشرها على نفقته الخاصة وسلمت له حقوق الطبع. وهل تنجر لي من وراء ذلك فوائد مادية أم لا. . ؟ بمعنى هل يعطيني في مقابل السماح له بنشرها وإعطائه حقوق الطبع عوضاً مالياً عن ذلك. . ؟.

هذا ما أرجو أن تقوموا به بالنيابة عني لدى السيد زين العابدين في هاته الأيام القريبة بحيث يكون كتابكم لدي قبل حلول هذا العيد. لكن لا أنسى أن أنبهكم إلى أنني أرجو أن تسألوه بادىء بدء دون أن تعلموه بأنني خابرتكم في هذا الموضوع أصلاً حتى تعلموا مجمل رأيه ثم تعلموني به وبرأيكم الخاص في ذلك وبعد ذلك أعلن لكم رأيي الخاص ثم لا نعدم الطريقة المثلى التي يجب اتباعها في طبع المسامرة بتبادل الآراء الصائبة فيما بيننا. . . الخ.

وجواباً عن هاته الرسالة خاطبته بمكتوب مؤرخ في 28 رمضان 1347 الموافق ليوم 8 مارس 1929 أسأت فيه الظن بالأستاذ السنوسي إذ قلت له فيه: . . . . . أما المفاهمة مع السيد السنوسي في شأن طبع المسامرة فهي الآن من الصعوبة بمكان إذ أنه كما لا يخفاكم قد أصبح صهراً للأمير الجليل الذي تسنم عرش الملك في هاته الأيام وبذلك صار السيد السنوسي «دامادا» لا يقاس بما تقاس به الرعية وسيتحول اشتغاله بالأدب إلى الاشتغال بالتشريفات. وصار وجوده في النادي الأدبي أعز من بيض الأنوق. . وفي الحسبان أنه عما قريب يتحول إلى ما تحول إليه أمثاله الأدباء من قبل. . . . الخ. . بعد أن اتصل الأستاذ الشابي برسالتي قدم إلى الحضرة التونسية أيام عيد فطر تلك السنة (1347) واتفقت وإياه مع الأخ الأستاذ إبراهيم بورقعه على التوجه إلى المرسى. وهناك في جناح من أجنحة قصر الإمارة اقتبلنا الأستاذ زين العابدين السنوسي ودار الحديث حول طبع المسامرة فوجدنا منه كل مساعدة وتم الطبع ولكن كانت النسخ محدودة وعلى نسبة قراء الأدب الجديد تقريباً وهذا أحد أسرار نفاد طبعتها بسرعة.

تناول المحاضرة خصوم الشابي وأنصاره وكانت مجلة العالم الأدبي في طليعة الصحف التي فتحت منبراً حراً لمن يريد نقد الكتاب أو تقريضه وفعلاً نشرت فصلاً أولاً بصحيفة 92 من مجلدها الأول الصادر في عام 1930 ينتقد فيه كاتبه المحاضرة وبصحيفة 132 من نفس المجلد نشرت مقالاً ينوه فيه صاحبه بالمحاضر وكتابه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ رأينا مجلات الشرق ينقسم أصحابها إلى قسمين أحدهما يمجد المؤلف وكتابه وفي طليعة هؤلاء جماعة مجلة «أبولو» وأصحاب مجلة «مينيرفا» تراجع (صحيفة 386 من المجلد السابع 6 أكتوبر سنة 1929).

أما الثاني فيمثل الصحافة التي كانت تنافق وتجاري الأوساط الضعيفة المدارك وفي طليعتها مجلة «الإخاء».

وهذا الكتاب الذي قال عنه مؤلفه إنه في حاجة إلى مراجعة نستطيع أن نقول إنه قطعة فنية فيها من صور الخيال البديع ما يجعل المؤلف في طليعة كتاب هذا العصر الذين يجب أن يحتذى حذوهم.

وإذا كان هناك فضل في طبعه ونشره وإمتاع الناس به فجانب كبير منه يعود إلى الأستاذ زين العابدين السنوسي الذي يعرف الأدباء في كامل الشمال الإفريقي وفي العالم العربي ما قدمه إلى الثقافة من مجهود جبار.

وإنني بهاته المناسبة أقترح على ورثة الفقيد أن يعيدوا طبع هاته الدرة الوهاجة في عقد الأدب التونسي خاصة والمغربي عامة وبذلك يسدون جميلاً للعربية ما دام طبع ديوان الفقيد لم يصبح في حيز الإمكان(1).

(1) مجلة الندوة (تونس) س 1 ع 10 (أكتوبر 1953).

قصائد في رثائه

نم هانئاً مطمئناً

للأستاذ مفدي زكريا

طربت أمس هناء | واليوم أبكي عزاء
تلك الدنا عودتنا | خداعها والرياء
حتى رابت سواء | بكاءها والغناء!!
(وأم دفر[1]) عجوز | تباشر الفحشاء
أضاعت الرشد لما | أضاعت الحرفاء!!
كم أجزلت لي رضاها وبادلتني الولاء
وكم أرتني وجهاً | مهللاً وضاء
وناولتني ثغراً | لثمت فيه الرجاء
حتى إذا رمت وصلاً | وجئت أرجو الوفاء
رأيتها وهي تنسا | ب حية رقطاء
وكم لها من إهاب | تغري به البسطاء
حتى إذا لمسوها | تقلبت حرباء
يا ناعي الشعر هلا | كفى البلاد بلاء؟
في كل يوم حداد | يبقي البلاد خلاء
في كل يوم مصاب | يبكي العيون دماء
وأكبد مزقتها | يد البلا. أشلاء
وأنفس ضارعات | حرى تعاني الشقاء
في كل بيت أنين | يفتت الأحشاء

---

(1) (أم دفر) ـ كناية عن الدنيا ويكثر منها المعري في شعره.

وكــم بــه زفــرات ألهبـن هـذا الفضــاء
أمـا كفـاهـا صليـاً؟ أمـا كفـى بـرحـاء
مـآتـم تلـو أخـرى تـذرو القلـوب هبـاء
رحماك يا رب يا من خلقتنـا ضعفـاء!!
لم ندرع في الرزايا إليـك إلاّ الـدعـاء!!
ويابني (الغرب) مهلاً لا تـركبـوا الخيـلاء
كنـا لكـم شـرفـاء كونوا لنا شرفاء!!!
يا خالد الذكر فاهنأ لقـد بلغـت البقـاء
نم في الضلوع وخذهـ ـذه القلـوب غطـاء
بنيـت فيهـا عـروشـاً لمن تركت البناء؟؟
تبكيك زهر القوافي أفـرغ عليهـا العـزاء
قـد كنـت فيهـا أميناً تقــدس الأمنـــاء
تروي الحديث عن القلـ ـب صـادقـاً لا هـراء
فلــم تقلــد لبيــداً بهــا ولا الخنســاء
فكـان شعـرك حـراً وكـان فيـك ثنـاء
والشعر إن كان لغواً فنـاد فيـه العفـاء
يتلــى غــداً فيلقــى مـن البنيـن مكـاء
سئمـت دهـرك لمـا عـانيـت داء عيـاء
فجئت للموت ترجو علـى يـديـه الشفـاء
ناديت[1] بالشعر عزرا ئيـلا فلبـى النـداء
ولــو درى أنهــا رو ح شـاعـر مـا أسـاء!
كفى ذوي الشعر بالشعـ ـر أن ينـالـوا البقـاء!
لو سامح الموت قوماً لسامح الشعراء!!!
نـم هـانئـاً مطمئنـاً واطرح هناك العناء
هـذا رثـائي وإن كنـ ـت لا أجيد الرثاء!

(1) إشارة إلى آخر قصيدة نظمها المرحوم متشائماً من الحياة ومتمنياً الموت.

ولدت هشاً طروباً		وما ألفت البكاء!
فاقبل عن الأخت مني		تحيــــة وولاء
واسجد لربك شكراً		ونــل هنــاك الجـزاء

* * *

بورك في عمرك[1]

محمود بيرم التونسي

أرى غـابـةً طيرهـا صـادح ... يـردّ علـى جـوْذَرٍ بـاغِـم
أرى شفقـاً زنـده قـادح ... علـى بحـر أخضـر قـاتـم
أرى جدولاً حوتُه سابح ... يحـاذِر مـن طيـره العـائـم
وهذي الربى بالزهور اكتست ... ولسـتَ هنـا يـا أبـا القـاسـم

* * *

أنـاديـكَ مـن محفـل بينـه ... وبينك شامخةٌ من تراب
بكـوك بـدمـع يـريقـونَـه ... غزيراً نهار المنايا الصحاب
يمـوتُ الفتـى ويحيُّـونـه ... إذا ما غدًا مستحيلُ الإياب
ليبكُوا ولكنْ بسيل الدماء ... وإن أعـوزتهُـمْ فهـذَا دمِـي

* * *

لعلك كنت تطيلُ المقام ... كباقِي الكهولِ وأهلِ المشيب
أو أنـك لمـا عَـراك السَّقـام ... تعرّيتَ فيه بنجوى حبيب
ولكنْ ظهرت هلالاً وغبتَ ... كأنك لم تكُ في العالم

* * *

تجـرعْتَهـا أكـؤسـاً داهقـات ... من الصَّاب في بسمات الصِّغر
وسرتَ على أرجلٍ داميات ... سواء لديها الحصَى والوبر
وكافأت عن هذه النائبات ... بشعـر يحـنّ حنيـن الـوتـر

(1) القصيدة التي شارك بها بيرم في أربعينية الشاعر أبي القاسم الشابي.

فلم تدر من أنت حتى مررت		مرور النسيم على النَّائِم

* * *

حياتك كانت بقاءً لنا		وبالموت أنتَ ورثت البقا
يرفرف روحك من فوقِنا		ومثلك إنْ مات قيل ارتقى
وإن أنت بالشخص فارقتنا		إلى حفرةٍ، فإلى الملتقى
وبورك في عمركَ المنقضِي		وبورك في عمركَ القادم[1]

* * *

(1) جريدة (الزمان) 27 نوفمبر 1934.

تعـــزية لبـــنان

حليم دمـوس

إلى تونس الخضراء من أرز لبنان ... لـواعـج أشجـان وآيـات تحنـان
سـلام عليهـا فهـي دار أحبـة ... ونجعـة آداب وشـرعـة عـرفـان
نحـن إليهـا بكـرة وعشيـة ... ونهفـو لخـلان هنـاك وأخـوان
فمـا نحـنُّ إلا واحـدة عـربيـة ... وأوطانكم يوم المفاخر أوطاني
إذا ما شكا قطر شكا (الأرز) مثله ... كطائر أيك هيض منه الجناحان
ويـا رب خطـب راع أبنـاء تـونـس ... فهـز صـداه اليـوم أبنـاء قحطـان
يسائلني صحبي أتعرف من قضى ... ومن غيبوه في الثرى طي أكفان؟
ومن ودع الأحباب والشعر والهوى ... وغنى على قيثارة خير ألحان؟ . .
عرفت الفتى والبيد والبحر دوننا ... كما يعرف الريحان من عرف ريحان
ودل عليـه شعـره وبيـانـه ... كما طاب نيسان بأزهار نيسان
لئن غاب عنكم فهو بالذكر حاضر ... بعيـد كبـدر وهـو فـي نـوره دان
يقـول لكـم: بـالله لا تتفـرقـوا ... فمـا البيـت إلا فـي تـالـف أركـان
يقول لكم ما قال بالأمس شاعر ... حكيـم لـه يعنـو البيـان بـإذعـان:
«لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني»
«فأصبح قلبي قابلاً كل صورة ... فمـرعـى لغـزلان وديـراً لـرهبـان»
«ومسجـد أوثـان وكعبـة طـائـف ... وألـواح تـوراة ومصحـف قـرآن»
«أدين بدين الحب كيف توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني»[1]

---

(1) الأبيات الأربعة لمحيي الدين ابن العربي الملقب بفيلسوف الإسلام.

أبا القاسم الشابي عليك تحية		من الأرز من صنين من أرض لبنان
ومن كل مصر يعشق (الضاد) أهله		ومن كل قطر يزدهي باسم عدنان
فنم في ظلال الخلد فاسمك خالد		يردده التاريخ في العالم الثاني

[بيروت ـ لبنان]

* * *

رثاء الشابي

د. أحمد زكي أبو شادي

أبا القاسم الشابي! أبا القاسم الشابي! مَكانُكَ في الأخرى مَكانةُ أربابِ
أبَى الخالقُ الفنَّانُ جَلَّتْ فُنونُه لمثلكَ إلاّ الخُلدَ في دارِ أحبابِ
وما المبدعُ الفنّانُ إلا أشعَّةٌ مِن اللّهِ لم تَرجعْ كرجعةِ غُيَّابِ
سَقتنا رحيقَ الفنِّ صِرفاً وودَّعَتْ فأين مُذابُ النُّورِ يملأ أكوابي؟
وأين الجمالُ العذبُ ألحان شاعرٍ خوالجُها للفنِّ أسبابُ أسبابِ؟
وأين الذي يَدري خفايا نُفُوسِنا على البُعْدِ وصَّافَ الحياةِ بإسهابِ؟
وأين الذي آياتُهُ في تَصوُّفٍ فواتنُ أقطابٍ تَفانَوْا وأقطابِ؟
مَضَتْ ومَضَى! يا هَوْلَ مأساةِ عالَمٍ عجائبهُ(1) كادت تُقوِّضُ إعجابي
كأنَّ جمالَ الفجرِ لمَّا تركتَه(2) تَشَكَّلَ في رُوحٍ كروحِكَ وثّابِ
فعلَّمني نَوْحَ الخريفِ ووَجدَهُ وأسهبَ في معنى من الشعرِ خلاَّبِ
وأشبعني حُزناً عميقاً مجدَّداً بأصباغهِ الحسرى وإنْ نِلنَ تَرحابي
وناولني هذا الرثاءَ أشعَّةً حبيسةَ ألفاظٍ، طليقةَ آرابِ
تبشّر بالحبِّ الأريج، وحَظها جمالٌ من الأحلام والفكر والدَّابِ
لها لَهْفَةٌ مثلي، وكم عند لهفتي مِنَ الأدبِ المعبودِ غايةُ أنسابِ
فكلٌّ عن الباقين يَبكي بكاءَهم وكلٌّ له دمعٌ دفينٌ بتسكابِ
تغلغلَ فيهِ الشَّجْوُ صِرْفاً كأنما يفيض بوحيٍ من غنائك منسابِ
أنوبُ عن الراثين مثلي ولم أنُبْ كذلك مَنْ نابُوا فليسوا بنُوَّابِ

---

(1) عجائبه: غرائب شذوذه ونقائضه.
(2) توفي الفقيد في فجر اليوم التاسع من شهر أكتوبر.

تَنـوَّعَـت الأحـزان فيمـن حيـاتُـهُ ... وإنجـابُـه أنـواعُ حـزنٍ وإنجـابِ
ومـا الفقـدُ للفـنِّ الجميـلِ بهيّـنٍ ... فمـن عُمـرِهِ عُمْـرٌ لـدنيـا وأحقـابِ

* * *

أتـانـي كتـابُ الـودِّ منـكَ وطيّـه ... نَعِيُّكَ! يا لَلرَّوعِ يَنسفُ أعصابي!
أيُفـرحنـي دهـري ويُحـزنني مَعـاً؟! ... نعـم! هـو جـانٍ لا يُبـالي بإغضـابِ
لقـد هـدمَ الـدُّولاتِ مِنْ قَبلُ هـازئـاً ... ولم يَخْشَ مِنْ خصْم وغضبةِ حَسَّابِ
وقـد عـانـدَ الآمـالَ حتـى تعثـرتْ ... فلم يبق للدنيا سوى الأملِ الكابي
ومـا (تـونـسُ) الخضـراءُ بعـدكَ جنـةٌ ... ولا نجمُكَ الخابي سوى نجمها الخابي
ولكـنَّ للشعـرِ العظيـمِ علـى المـدَى ... مِنَ الثأرِ ما يَقضي على عَسفِهِ الآبي!

* * *

صديقي! صديقي أيُّ حزنٍ ينالني ... وأيُّ شجـونٍ تَستهيـنُ بـإرهـابـي؟
كأنَّ أغاني الكونِ قد غالها الثرى ... فطاحت كما طاحت أناشيدُ ألبابِ!
ألسـتَ الـذي نـاجَـى الطبيعـةَ كلهـا ... وتـرجمهـا سحـراً سَـرِيّـاً لآدابِ؟
ألسـتَ الـذي غنَّـى الأنـوثـةَ كـلَّ مـا ... يُعبـر عـن أسمى الصلاةِ بمحـرابِ؟
ألستَ الذي قد عاشَ في الناس ساخطاً ... وفي الفنِّ مسروراً وحيداً بأوصابِ؟
ألستَ الذي قد ماتَ في غربةِ الضَّنى ... وبَشَّـرَ بـالعَـوْدِ القـريـبِ لمـرتـابِ؟
وما حجَّبتهُ عن رُؤَى الحكمةِ الورى ... إذا خَـذلَ الأحـلامَ سَطـوَةُ حُجّـابِ؟

* * *

رحلتَ صديقي بعد ما جئتَ موصياً ... بشعركَ، فارحلْ غيرَ خاشٍ وهَيَّابِ!
أنـا حـارسُ الفـنِّ الـذي أنـتَ رَبُّـهُ ... وهيهـات خِـذلانـي مـواهـبَ وَهَّـابِ
ولكـنَّ لـي فيمـا نظمـتَ مَـدَامعـاً ... قصائدَ لم تُعْلِنْ - وإن أعلنت - ما بي
تَلـوحُ بـأثنـاءِ السطـورِ لشـاعـرٍ ... فرُوحيَ مِنْ نفسي وأرواحِ أترابي[1]!

(1) ديوانه فوق العباب. ومجلته (أبولو) (س 3 ع نوفمبر 1934).

أنظروه خالداً

للأستاذ جلال الدين النقاش

قلـــدوه مـــن الـــرثـــا إكليـــلا واجعلـــوا الـــدمـــع للبيـــان سبيـــلا
وارفعـــوا الغـــار للـــذي رفـــع الغـــا ر وحلـــى بـــلادكـــم والجيـــلا
واهتفـــوا فـــي النـــواح مـــات أبـــو القـــا سـم شـادي النهـى فصبـراً جميـلا
علمـــوا لحنـــه البـــلابـــل والجـــد ول فـي الـروض والنسيـم العليـلا
ستغنيكـــم البـــلابـــل ألحـــانـــا مـــن الخلـــد رتلـــت تـــرتيـــلا
وتـــرون الخـــريـــر أمســـى نشيـــدا وحفيـــف النسيـــم صـــار هـــديـــلا

* * *

طـــار مـــن وكـــره الهـــزار وطـــارت مهـــج للهـــزار كـــانـــت مقيـــلا
غـــرس الفـــن ســـاميـــاً فـــي ثـــراهـــا وسقـــاه عـــواطفـــاً وميـــولا
مـــن مـــزاميـــر خـــالـــدات الأغـــانـــي تهـــب النشـــوة التـــي لـــن تـــزولا
نغمـــات هـــز القلـــوب صـــداهـــا فكـــان الصـــدى يـــدا جبـــريـــلا
وكـــأن الحيـــاة تبـــدو نشيـــداً علـــويـــاً منـــزلاً تنـــزيـــلا
انظـــر الـــراعـــي الـــذي يتغنـــى نـــافخـــاً نـــايـــه ينـــاجـــي الأصيـــلا
والطيـــور الطـــراب تـــأوي إلـــى الـــوكـــر وقـــد أزمـــع النهـــار رحيـــلا
وانظـــر الشمـــس ودعـــت وتـــوارت ومـــن الاختيـــال جـــرت ذيـــولا
هـــا هنـــا الفـــن زهـــره الغـــض نـــام ليـــس يشكـــو علـــى الـــزمـــان ذبـــولا
أيـــن مـــا أبـــدعـــت يـــد الله ممـــا صنعتـــه يـــد لـــرافـــائيـــلا؟

* * *

مـــن هنـــاك استقـــى أبـــو القـــاســـم الـــوحـــي فـــأحيـــا مشـــاعـــراً وعقـــولا

لـم يلـده القـديـم بـل ثـار جبـاراً علـى العصـر ينشـد التحـويـلا
هـام أهلـوه بـالمـآثـر حتـى كـربـوا يعبـدون تلـك الطلـولا
فـدعـاهـم إلـى التحـرر لمـا وجـد الشعـر بينهـم مغلـولا
وأتـاهـم بـالبينـات اللـواتـي وردوا مـن حيـاضهـا سلسبيـلا
نفـخ اليقظـة التـي كـرهتهـا أنفـس تستلـذ نـومـاً طـويـلا
ليـس بـالشعـر عنـده كـل قـول فـي مجـال البيـان والشعـر قيـلا
وافـق الأقـدميـن فيمـا ارتـأوه مـن مـواضيعهـم وأرضـى الخليـلا
لا ولا مـا حـوى اعتـزازاً بمجـد قـد دعـاه الـرواة مجـداً أثيـلا
إنمـا الشعـر أدمـع فـي المـآقـي طهـرت منبعـاً وطـابـت مسيـلا
نغمـة الـروح غبطـة وابتسـامـا وصـدى النفـس زفـرة وعـويـلا
وحـديـث الضميـر أصـدق نجـوى ولسـان الـدمـوع أقـوم قيـلا

* * *

فـي ظـلال النخيـل نـام أبـو القـاسـم فـاسقـوا بـالـدمـع ذاك النخيـلا
غـاب كـالنجـم مـا أضـاء سنـاه فـي الـديـاجـي حتـى أصـاب أفـولا
عـن صـروف الحيـاة مـا اسطـاع صبـراً وتـولـى لـم يبلـغ المـأمـولا
مـات فـي ميعـة الشبـاب وقـد كـان إلـى النشء هـاديـاً ودليـلا
مـات يـدعـو لنصـرة الشعـر حـراً ويـنـاجـي [نبيئـه المجهـولا]
غـاض للفـن منبـع يـرد الحكمـة منـه مـن رام يشفـي الغليـلا
وذوت زهـرة الخيـال التـي أحيـت بعطـر البيـان روضـاً محيـلا
سـورة الـدمـع يـوم مـوت أبـي القـاسـم جلـت آيـاتهـا تـأويـلا
ذلـك الملهـم الـذي غـادر النـاس سكـارى ومـا سقـاهـم شمـولا
مـا طـوتـه المنـون إلا ليستقبـل فجـراً مـن الحيـاة جميـلا

* * *

لـم يمـت شـاعـر تـولـى وأبقـى فـي شفـاه الـزمـان ذكـراً جليـلا
فـانظـروه فـي شعـره خـالـد الشـأن وحيـوه بكـرة وأصيـلا

دمعتي
على زميلي شاعر الوجدان

(محمود أبو رقيبة)

أيـن بـاقـات يـانـع الـريحـان ونشيـد الطيـور فـي الأفنـان
وشعـاع مـن الغـزالـة ذهبـ ـي يبـث الحيـاة فـي الأكـوان
وخـريـر مـن جـدول يتهـادى بيـن غـض الغصـون في البستـان
وأريـج مـن النسيـم شـذي يتمشـى فـي المـربـع المـزدان
أيـن هـاتيكـم العنـاصـر؟ كـي أر ئي بها اليوم «شاعر الوجدان»

* * *

مـن ربيـع الشبـاب كسـرت الأيـ ـام غصنـاً لا زال فـي العنفـوان
ورمـت بـالأفـول كـوكـب شعـر يتجلـى فـي أبهـر اللمعـان
ومـن الـروض أذبلـت زهـرة فيـ ـحاء كانت في روضها الريان
وقضت بالصمت الطويل على شا د تغنـى بـأعـذب الألحـان
ففقـدنـا خـلاً زميـلاً نبيـلاً ونكبنـا فـي الشـاعـر الفنـان!

* * *

يـا زميـلاً، فـي يـوم منعـاه قـد سـالـت دمـوع القلـوب لا الأجفـان
أيهـا الشـاعـر الـذي وهبتـه خطرات الإلهام أسمى المعاني
فبـدا يخـرج البـدائـع حقـاً منشـداً للحيـاة عـذب (الأغـانـي)[1]
ثكلتـك الآداب فهـي تنـاديـ ـك وتبكـي بـالمـدمـع الهتـان:

---

(1) إشارة إلى ديوان الفقيد المسمى: (من أغاني الحياة).

أي شعـــر يفيـــك حـــق رثـــاء؟ أي شعـــر وأي سحـــر بيـــان؟!

* * *

أيهـا الـراحـل العـزيـز، وداعـاً مـــن قلـــوب عميقـــة الأحـــزان
وإلـــى أبهـــج الفـــراديـــس روح لـــك كـــانـــت نبعـــاً لفـــرط الحنـــان
إن ذكـــراك بيننـــا يـــا (أبـــا القـــا سـم) تلقـى الإعظـام فـي كـل آن
قـــد سبقـــت الأقـــران لـــلأدب الـــراقـــي وكنـــت السبـــوق لـــلأكفـــان
فلك السبق في الحياة وفي المو ت، فطوبى لشاعر الوجدان!

* * *

دمعة سورية من القاهرة

من كتاب حضرة الأديب الكبير والقصصي المبدع

حبيب جاماتي

حضرات أعضاء لجنة تخليد ذكرى الشابي تونس.

بعد التحية...

... وقد حال بعد المزار دون حضور جفلة تأبين فقيد تونس والعربية الخالد الأثر وحال ضيق الوقت دون القيام بواجب التأبين قياماً يتفق مع مكانة الفقيد في عالم الأدب. ولكن هذان العذران لم يحولا دون التأسف على فقد النابغة التونسي الكبير وذرف الدموع على ضياع الشاعر الرفيق. فهذه السطور التي أبعث بها إليكم، إنما هي مكونة من الدموع التي تساقطت من المحاجر فسالت على طرف اليراع وتجمدت على هذا القرطاس كلمات! وستذوب هذه الكلمات من جديد وتستحيل ثانية إلى دموع، عندما يودعها البريد بين أيديكم أيها الأماثل الكرام لكي تسكبوها حارة غزيرة على ضريح الفقيد العزيز، عربون وفاء وأسى، ممن عرف قدر الشابي وشاهد جولاته في ميدان الشعر والأدب... وتقبلوا الشكر والثناء على ما تقومون به من واجب إحياء ذكرى النابغة التونسي العربي، وليمد الله في بقاء العاملين لخير الأقطار العربية جميعاً في حقل العربية والوطنية والاستقلال ولتعش تونس الأبية الناهضة.

القاهرة.

خـالـد أنـت

عمر الجمالي

ربة الشعر روعت في فتاها ودهاها من الأسى ما دهاها
مـات صـداح روضهـا ومنـاهـا مات غريد فجرها وضحاها
مـــات أواه واعتـــراه سكـــون بعد أن كان شادياً في رباها
ما تراها من بعد نضرة وجه قـدسـي الجمـال حـال سنـاهـا
ما تراها على بساط من النبـ ـت وقد شفها الجوى وبراها
في خشوع تكفكف الدمع حرى سال حتى تخددت وجنتاها
والغدير الحزين ينساب مكدو داً وقـد كـان مـزبـداً تيـاهـا
والطيور اللواتي كن مع الفجـ ـــر يحييـــن نـوره بلغـاهـــا
قد تهاوت على الثرى واقعات وصدى نوحهن يذكي أساها
مـأتـم خـاشـع وصمـت عميق ونفـوس تبـث حرّ جـواهـا

* * *

رددي يـا إلاهـة الشعـر شكـوا ك فقـد آن للعيـون بكـاهـا
رددي رددي ونـــوحـي عليــه نـوح مـن لا يني ولا يتنـاهـى
غاض فيض الشعور أواه لما سكنـت نفسـه ووافـت مـداهـا
لست أدري أيسكن القلب منه ولقـد كـان للحيـاة صـداهـا
وهـو كـون محجب سـرمـدي أين منه الحياة؟ أين مناها؟
أمـل ضـائـع ونفـس تسـامـت في سمانا ولم تجد منتهاها
وسـع الأرض فكـرة وخيـالا وحـوتـه فـي بطنهـا وحـواهـا
لسـت أدري ويـلاه مـاذا عـراه هل سلته الحياة أم هل سلاها

لست أدري أحطمته الليالي | وهو ما كان عندها يخشاها
وهو ذاك الخفوق بالوحي والشعـ ـر وذاك المعيد نوراً دجاها
وهو من كان للجمال وللحبـ | ـب ومن كان شعره يرعاها
وهو من كان للزمان لساناً | وهو قيثارة شجي غناها
حطم الموت نايه فهو عطل | ويح نفسي لقد دهى ما عراها
ويح للموت إنه مستهام | خاطف من زهورنا أشذاها
ويح للموت إنه لا يبالي | روع النفس أو أمض حشاها
يسلب النفس طيبات الأماني | والأماني حياتها وغناها
ويعيد الرياض قفراً وفيها | ينعب البوم فجرها ومساها
وكأن الغناء لم يك منها | وكأن لم يكن ربيع بهاها

* * *

أيها الموت قد وترت نفوساً | ونفوساً فهل بلغت مداها
هل لخير نراك تحصد أرواحاً | وهل من مفازة في فناها؟
هازل أنت أيها الموت حقاً | وحياة العباد هزلاً تراها
ما عسى قد جنيت يا موت لما | أن سلبت الحياة من قد هواها
ترك الناس واجمين حيارى | ووقوداً نفوسهم قد صلاها
ترك الناس بين باك مروع | غارق في غياهب الحزن تاها
وشجي مقرح الجفن ساه | تأكل النار قلبه بلظاها

* * *

مات يا قلب من ألفت فهلا | راعك اليوم فقد ألف تناها
مات يا قلب من ألفت فهلا | قد سلوت الحياة يوم سلاها
مات يا قلب وهو ما زال غضا | زهرة في الربى يضوع شذاها
مات ذاك الأليف والصاحب الوافي ومن كان قبلة نغشاها
مات أواه! شاعر أنجبته | تونس الإنس فهي ثكلى تراها
فقدت فيه شاعراً عبقرياً | ونبوغاً فما يكون عزاها
أيها الراحل العزيز تمهل | من لنفس ثوى أليف صباها

مـن لنفـس أخـي أحبتـك حباً   طاهراً من يرد سهم علاها
سوف أبكي وسوف أبكيك دهري   وجفوني عليك وقف بكاها
وسأحيا مدى الحياة شريداً   لا أرى في الحياة غير شقاها
ومتــى رمــت أن أراكِ فشعــر   فيــه ألقــاك مــاثــلاً تيــاهــا
وإذا أنــت خــالــد رغــم مـوت   لـم تـزل للحيـاة فيـض سنـاهـا

* * *

ذكرى العبقري

محمود الرخصي الطرابلسي

يـــا شـــاعـــراً خلـــب العقـــول وهـــز أوتـــار الضميـــر
هـــذي المـــآتـــم لـــم تقـــم إلا إلـــى الـــرجـــل الكبيـــر
لـــك فـــي كتـــاب الـــدهـــر ذكـــر خـــالـــد مـــر العصـــور
صحـــف نـــواصـــع رصعـــت بـــالـــدر تـــزري بـــالبـــدور
تـــاج الخلـــود لبستـــه أنـــت القميـــن بـــه الجـــديـــر
العبقـــريـــة فـــي الـــورى لا تظهـــرنَّ علـــى الحقيـــر
هـــي منحـــة قـــدسيـــة تهـــدى مـــن الله الخبيـــر
والشعـــر معيـــار الشعـــوب وفـــي منـــائـــره تسيـــر
يـــا بلبـــلاً غنـــى وولـــى عـــابـــراً بحـــر الأثيـــر
فـــرحـــت ريـــاض الخلـــد لمـــا أن غـــدوت بهـــا تطيـــر
لـــم ذا التســـرع فـــي الإيـــاب؟ سئمـــت دنيـــانـــا الغـــرور؟
مـــا ضـــرّ لـــو أرويتنـــا قبـــل الـــذهـــاب، مـــن الخمـــور
هـــذي الـــريـــاض علـــى النضـــارة مـــوحشـــات كـــالقبـــور
لا الـــروض يضحـــك لا الـــورود ولا الميـــاه لهـــا خـــريـــر
حلـــق علـــى هـــذي الخـــلائـــق وانشـــدن شعـــر الـــدهـــور
الحـــبُّ أنـــت مثـــالـــه ومثـــالـــه الأسمـــى المنيـــر
لهفـــي علـــى الخضـــراء إذ فقـــدت منـــادمهـــا الغيـــور
فتجملـــي بـــالصبـــر يـــا مـــن قـــد غـــدت زيـــن الثغـــور
كـــل الأنـــام إلـــى الفنـــاء مـــآلهـــم. هـــذا المصيـــر

* * *

يـا سـاكـن الصحـراء قـل لـي: مـا الـذي خلف الستـور
مـاذا هنـاك ومـا الـذي شـاهـدتـه قبـل النشـور؟
اليـوم شـاهـدت الحيـاة فصـف لنـا اليـوم الأخيـر
واشـرح لنـا كنـه المحبـة فـي النظيـم وفـي النثيـر
واهـاً علـى ذاك الشبـاب، شبـابـك الغـض النضيـر
لـو أنصفـوا دفنـوك بيـن الـزهـر فـي الـروض العطيـر
أو صيـروا الأزهـار كفنـاً لا النسيـج ولا الحـريـر
أو شيـدوا بـالمسـك قبـرك والـورود، وبـالعبيـر
لكـن روحـك فـي الجنـان وبيـن ولـدان وحـور
تختـال مـا بيـن المـروج وبيـن عـاليـة القصـور
فـاهنـأ بعيشـك فـي الخلـود وجـر أذيـال السـرور
فهنـاك لا حسـدٌ ولا روغ ولا هـذي الشـرور
فهنـاك حسـنٌ فـوق حسـن ثـم نـور فـوق نـور
وهنـاك تلقـى الـرَّوح والـريحـان والعيـش القـريـر
وهنـالـك الـرحمـات والنعمـاء مـن رب غفـور

الصباح الجديد

(مهداة إلى روح أبي القاسم الشابي
في مقرّها الوادع الأمين)

للشاعر حسن كامل الصيرفي

أيهـا المُتعَـبُ الـذي   حطَّم النَّايَ واستراحْ
هـذه غـايـةُ المُنَـى   هـذه غـايـةُ المِـراحْ
لـوعـةٌ بعـدَ لـوعـةٍ   فـرحـةٌ ثـمَّ لا تتـاحْ
نغمـةٌ فـي صميمهـا   آهةُ الحزن والجراحْ
عـالـمٌ فـي مُحيطـهِ   راحةُ اليأس والكفاحْ
مُبْهَـمٌ كلُّـهُ رؤَى   تخلط الجدَّ بالمزاحْ
جُـزتَـهُ اليـومَ عـابـراً   ظُلَمَ الهازلِ الوَقاحْ
كم تمنَّيْتَ لو بدتْ   ظلمةُ الليل عن صباحْ
فاكشفْ السِّترَ هانئاً   عن أعاجيبهِ الصَّباحْ

* * *

أيهـا الشـاعـرُ الـذي   ضاق بالمشْرَعِ المُتَاحْ
أرهـقَ الجسـمَ ثـائرٌ   بيـن جنبيـهِ لَا يُـراحْ
راغـبٌ فـي انطـلاقـةٍ   بـالأمـانـيِّ وانفسـاحْ
لم يَسعْ صدرُهُ المُنَى   لم تجدْ فيه من براحْ
حَطَّمَتْـهُ بعنفهـا   وهي مشبوبةُ الطُّماحْ
وتَـولَّـتْ بـرُوحـهِ   في ميادينها الفساحْ
مِلْتَ عن عالم القيو   د إلى عالم السَّراحْ

فاكشفْ السترَ هانئاً لاحَ للمُدْلج الصَّباحْ

* * *

في طريقٍ من الأسى وظلالٍ من النُّواحْ
فوق أشلاءَ بُعثرتْ من أمانيِّكَ الرِّزاحْ
وصخورٍ كأنما تُنبتُ الشَّوْك كالرماحْ
سِرْتَ تشكو وتشتكي ألمَ الجهدِ والكفاحْ
ألمَ اليأس في المُنى ألمَ الوخزِ والجراحْ
عشتَ تشدو لعالم قد تلهَّى بكأس راحْ
الأعاصيرُ لهْوُهُ وأغاريدهُ الرِّياحْ
كيف يصغى لشاعرٍ وهو غرقانُ في نُباحْ؟!

* * *

أيها المتعَبُ الذي حطَّم النَّايَ واستراحْ
نَمْ قريراً فقد سَرى لحنُكَ العذْبُ في البطاحْ
فَجْرُك الحلوُ لم يضعْ بين أيامكَ الشُّحاحْ
فهو ما زال سابحاً هاتفاً خافقَ الجناحْ
إن يكن غامَرَ الدُّجى فلقد شارفَ الصَّباحْ

بين عالمين

(إلى روح أبي القاسم الشابي)

للشاعر صالح جودت

مِن وراء الغمام، في الأفقِ الذا هلِ مِن حُلكةِ القضاء المغيَّبْ
طالعَتْني في رهبة وجلالٍ لمحةٌ مِن خلالِه يترهَّبْ
عَبرَتْ بي كالحلم في ليلة اليأ س فأودتْ بكلِّ داجٍ وغيهبْ
جاذَبَتها السماء والأرض حتى لتَراها حيرانةً تتذبذبْ
كلما لاح فاتنٌ يسكن الأر ضَ تغنى به حجاها وشَبَّبْ
هي كالعابدِ الذي هجرَ الأر ضَ وولَّى في عزلةٍ يترهَّبْ
ما لها في الحياةِ غير نواحي الـ ـفنِّ والسحر والأناشيد مَذْهَبْ
مِن أغاني الرعاة، من نَغَم النَّهـ ـر، وإشراقة الصباح المحبَّبْ
وافتتانِ الآفاقِ بالشفَق السا حرِ في روعة الغروب المذهَّبْ
شارفَتْني ثم انْثَنَتْ عن عيوني وهي في القلب لم تزلْ بَعدُ ترقبْ

* * *

إيه! مَن أنتَ أيها الجسد النُّو ريُّ؟ مِن أيَّةِ الفرادس تسكبْ؟
كيف مَسراكَ؟ أنت تشرق في الرُّو حِ وفي موطن النواظر تغربْ؟
كيف يخبو ضياكَ من ساحة الكوْ نِ؟ فداكَ الضياءُ من كل كوكبْ!
أيها الشاعرُ الذي بعث النشْـ ـوةَ في عالمٍ جريح مُعَذَّبْ
كلما رجَّعوا نشيدك عادوا مُهَجاتٍ بلحنه تتطَرَّبْ
أيها الساحر الذي هدهدَ الأر ضَ سناه هنيهةً وتغيَّبْ
الهنيهاتُ لا يَقسْنَ خلوداً فهو كالله عمرُهُ ليس يُحسبْ!

يـا أبـا القـاسـم انتهيتَ إلـى الأخـ ـرَى فحـدِّث بمـا رأيـتَ وأسهـبْ
هـاتِ لحنـاً يَهُـدُّ مِـن ريبـة المـوْ ت أجـزْ لـي إلـى الحقيقـة مَـذْهَـبْ!
هـل رأيـتَ الإلّـه والغيـبَ والخُلْـ ـدَ ومـا ضـلَّ فيـه رأيـي وكـذَّبْ؟
من أغاني الحياة يا شاعر الفرْ دَوْس إن الغدير يجري لينضبْ
من أغاني الحياة يا شعر الفرْ دَوْسِ إن النجومَ تبدو لتغربْ
مـن أغـانـي الحيـاة يـا شـاعـر الفـرْ دَوسِ إن الحيـاة تـأتـي لتـذهـبْ
فـأغـانـي الحيـاة أمـرٌ عجيـبٌ وأغَـانـي الممـات لا شـكَّ أعجـبْ
إن أنـأى طمـوح فلسفـةِ الأر ضِ لأُغنيـةُ الإلّـهِ المحجَّـبْ

* * *

ليتني كنتُ من صُفاتك في الرِّحْـ ـلة تـرنـو إلـى الـدُّنى وهـي تلعـبْ
فـإذا مـا قطعـتَ مَـرْحلـة الأرْ ضِ وشـارفـتَ كـوكبـاً بعـد كـوكـبْ
وانتهـى السيـرُ والسُّـرَى لمقـرٍّ سـرمـديٍّ مِـن الإلّـهِ مقـرَّبْ
رُحْتَ تشدو، ومعزف الشعر في يُمْـ ـنـاك يقفـوكَ فـي رجيـعٍ مـرتَّـبْ
وعلـى جـانبيـك مِـن ملـك الجنْـ ـة مُصـغٍ وُجـدانُـهُ يتـوثَّـبْ
وحـواليـك مـن مفـاتـن هـوميـ ـرَ ودانتـي وزمـرةِ الفـنِّ مـوكـبْ
يـا لخمـرِ سكبتَـهُ يُثمـلُ الخمْـ ـرَ ويهفـو علـى الإلّـهِ فيطـربْ
ليلـةٌ عنـد عـالـمٍ عبقـريٍّ وقـفَ اللّـهُ رأدهـا يتعجـبْ!

إلى روح أبي القاسم

للشاعر مختار الوكيل

يا صاحب الناي الذي أنغامه فتن الربيع
ومحرك الآمال والآلام باللحن الرفيع
ومعانق الشفق المذهب في خيالات القصيد
ومقبل الفجر المنور في ابتسامات الوليد
ومصاحب الأطيار وهي تجوب آفاق السماء
ومصادق الأفكار وهي سبوحة تطوي الفضاء
عجبي لصمتك والصباح ضياؤه يغري الفنون
والصادحات الوادعات طفرن ما بين الغصون
ونسائم الصبح البليلة أقبلت تزجي الصفاء
وتحيل دنيا الصمت دنيا للتناجي والغناء
ولأنت غريد الحياة وأنت غريد الخلود
فاسمح وشنف روحنا بغنائك الحي الجديد
ماذا؟ إلا لحن؟ إلا شعر إلا بعض الغنا؟
ماذا دهى الناي الحنون فصد عن هذا النداء
زم الشفاه! فلن يفر اللحن من هذي الشفاه
ومضى إلى وادي الخلود مودعاً وادي الحياه
وصدى الغناء العذب منه مالىءٌ رحب الوجود
في الغاب في الشطآن. في الغيران. ما بين الورود
في الأمسيات الحاليات ببسمة البدر البديع
في الفجر. والطل المفضض يلثم الزهر الوديع

في موجة البحر الغضوب تعانق الصخر القديم
وتقبـل الـرمـل المـذهـب قبلـة الحـب العظيـم
في نسمة الصيف الرشيقة وهي تجتاز المروج
تروي الهوى للزهر وهو يميس فواح الأريج
ماذا؟ ذهبت ولست تنوي رجعة بعد النوى؟
كذب الألى يروون هذا القول ما بين الورى!
بل أنت لم تذهب وهذا الناي يشجي السامعيه
ألحـانـه عجـب بهـا   يسبي الزمان نهى بنيه
تبقى مخلدة على الأحقاب. في كل البقاع
يشـــدو بهـــا أنـــس وجـــن وطيـــور وسبـــاع

نـم أخــي

للشاعر محمد الفائز القيرواني

فوجىء الشرق بخطب في مناره — وأصيب الروض في صوت هزاره
وقضــى البلبـل والـروض كمـا — أنــت تـدويـه مـد بـاخضـراره
وغـــدت أنحـــاؤه مـــوحشـــةً — وســواد الحـزن بـاد فـي دثـاره
ينفــث النفثــة فــي الليــل فينـ — ـقلـب الليـل فخـوراً بـابتكـاره
سمـــع الحـــق فلبـــاه وكـــم — كـان بـالحق ولـوعـاً في حـواره
متفـــان فـــي رضـــى خـــلانـــه — لـم يهـن منـا أديـب بجـواره
ليـت ذا النـاعـي نعـانـي قبلـه — وأراح القلـب مـن هـم ادكـاره
نـم أخـي بيـن جنـاحـي وطـن — قد بذلت العمر في رفع جداره
وطـن غنيتـه فـاستعـذب الشـدو — والتغـريـد مـن فـم كنـاره
نـم فكـم بعـدك مـن عيـن شكـت — مـن صـدود النـوم عنهـا ونفـاره

* * *

يـا صـديقـي أيـن مـن أشكـو لـه — بعدما وسدت في اللحد الترابا؟
يـا صـديقـي بعـدك الـروض غـدا — مـوحـش الأرجـاء مقفـراً يبـابـا
كنـت فـي رأس الليـالـي أمـلاً — نتـرجـاه وأحـلامـاً عـذابـا
جئـت للخضـراء والشعـر بهـا — لا يـرى إلا مـديحـاً أو عتـابـا
فتصـديـت لـه حتـى غـدا — وارف الظـل عـزيـزاً مستطـابـا
قـد بكـاك اليـوم فـي ألحـانـه — وسمعنـا مـن بكـاه الانتحـابـا

يـا صـديقـي ليتنـي كنـت الفـدا لك يوم البين أو كنت المصابا
يـا صـديقـي هـاكهـا مـن أدمعي قـد دعـوت الـود فيهـا فـاستجـابـا
يـا صـديقـي رحمـة الله علـى مـا فقـدنـاه شيـوخـاً وشبـابـا
وعـزاء لبنـي الخضـراء فـي كـوكـب لاح على الشـرق وغـابـا

* * *

أبيـاتـك الغــر

للأستاذ الشاذلي خزندار

أبيـاتـك الغـر فـي أثـوابهـا الجـدد حنـت إليـك حنيـن الـروح للجسـد
تبكـي عليـك بكـا الخنسـاء شـاردة ويلي على شجوها كالطائر الغرد
فيهـا حيـاتـك رغـم المـوت خـالـدة أكرم بنسل النهى في الناس من ولد
لا زال ذكـرك يـا ابـن الـروح دائـرة في الشعر تربطها الأسباب بالوتد
تنعـي الخـواطـر مجليهـا مهـذبـة حتـى تلمسهـا المصغـي لهـا بيـد
مـن كـل سـانحـة شجـو لنـائحـة مـا بيـن رائحـة عكسـا لمطـرد
ما استخرجتك الليالي في كواكبها حتى انضويت وشيكاً في حشا الأبد
قضيـت سنـك بـالعقـديـن فـي أدب من حيث لم يقضه ذو الطعن في العدد
لمـا استتمـت بـك الأذواق واجبهـا استرجعتك يد الأخرى على حسد
عفواً أبا القاسم الساري على عجل هـلا تـريثـت أو لـم تلـو عـن أحـد
خلفتـه أدبـاً تـرقـى بـه «صحـف مختـارة» فـرواد النـاس بـالشنـد
تلقفتـه أيـادي النـشء مغتبطـاً فيـه ولا ريـب مـن أقطـارهـم بلـدي
خضـراؤك اليـوم فـي منعـاك آسفـة فيـك النبـوغ يعـزيهـا علـى كمـد
الله فـي الصفـوة الأنجـاب يحـرسهـا مـن كـل شـائبـة فـي يـومهـا وغـد
وليبـق ذكـرك يـا فخـر الشبـاب على هـام الـزمـان بـلا حـد ولا أمـد

* * *

إليكمـو يـا نجـوم العصـر تعـزيـة من خالص الشعر في مفقوده الأحدي
تتلو على الحفل تأبين القريض له وتستمـد لـه الـرحمـى مـن الصمـد

وكل عظيم في الممات حياته

للأديب محمد الأخضر السائحي

هو الحي لا تبكوه إذ ضمه القبر ... فليس بميت من يعيش له الذكر
ولكنما فابكوا إذا ما بكيتم ... أماني للفصحى يحطمها الدهر
لها الله من ثكلى تطاول حزنها ... فارقها بين وعذبها هجر
تعزي ايا أم الفقيد كفى البكا ... وصبراً فقد يجدي حليف البلا الصبر
ويا غائباً ما فارق الغلب لحظة ... أما آن يصبو لفجعتك القبر
تكاد لذكراك النفوس من الأسى ... تذوب وقبل أن تموت هي الصخر
تيقظ إلامَ ذا الذهول وغننا ... أناشيدك الحسنا فقد طلع الفجر

* * *

تولت ليالي الأنس يا نفس فاصرخي ... وجودي بفاني الدمع يا عيني العبرا
لقد مات من أحيا بشعره أمة ... فذوبي أسى للهول يا كبدي الحرا
لتبكيك آداب حميت ذمارها ... وجددت باليها وكنت لها النصرا
وتندبك العلياء والشرق كله ... وهل في البكا جدوى لمن سكن القبرا
ولو أنصف الفصحى بنوها أيا ابنها ... أقاموا لكم في كل ثانية ذكرى
ليبقى اسمك الطغرى لعز وسؤدد ... وتبقى لهذا النشء موعظة كبرى
فقم إنه لمْ يبق في الكون راقد ... ونادي إلى العلياء يا أمة الخضرا

* * *

يعز على الخضراء أن وحيدها ... بموحشة ناء عليها فريد
وأن صفات الحسن فيه تغيرت ... وذاك البها واحسرتاها يبيد
وأنه إن نادته لا يسمع الندا ... ويا طالما قد كان حيث تريد

عـزيـز عليهـا يـا أبـا القـاسـم ابنهـا وحقكـم إن طـال منكـم هجـود
فـذا الـروض زاهٍ كـالعـروس مجمـل وهـذا الصبـا يسـري فـأيـن النشيـد

* * *

لقد كنت تدري أن في موتك البقا وكـل عظيـم فـي الممـات حيـاتـه
وذو العقل من لم يرض بالعيش خاملاً ومـن يطلـب العليـا وفيهـا ممـاتـه
فكنـت الـذي فـاق الكـواكـب رفعـة وإن كـان مـن تحـت التـراب رفـاتـه
وكنت الذي يبقى اسمه ـ الدهر ـ خالداً ولـم تنـس مـن بيـن الـورى حسنـاتـه
فنـم هـانئـاً فـي القبـر إنـك خـالـد وكـل عظيـم فـي الممـات حيـاتـه[1]

(1) «الأفكار» س 1 عدد 3 (1 ـ 1 ـ 1937).

نشيد الذكرى

إلى روح أبي القاسم الشابي

للشاعر عمر الجمالي

عـرفتـك الحيـاة بعـد الفنـاء　　وحبـاك الـزمـان طـول البقـاء
وكسـاك الجحـود ثـوب خلـود　　فـوق أرض كثيـرة الأنـواء
وتبـديـت شـاعـراً ونبـوغـاً　　شـع كـالنـور بـاهـر الأضـواء
فبكـاك البعيـد فـي كـل أرض　　ويكـاك القـريـب جـم البكـاء

* * *

عـرفـوا فيـك شعلـة تتلظـى　　بيـن جنبيـك نـارهـا فـي نمـاء
عرفوا فيك فيض لحن شجي　　رددتـه خـواشـع الأصـداء
عـرفـوا فيـك عـالمـاً سـرمـديـاً　　مـن شعـور مقـدس وضيـاء
عشـت فيـه كطـائـر يتغنـى　　جهـل القـوم لحنـه فـي الغنـاء
عشـت فيـه مـوزع النفـس دهـراً　　شاخص الطرف للفضاء النائي
فـي خشـوع البتـول تتلـو صـلاة　　للـوجـود الجميـل جـم الـرواء
للصباح الجديد والحب يهفو　　منـك قلـب يضيـق فـي الأحنـاء
رمـت دنيـا جميلـة لـم تجـدهـا　　فـوق أرض فـرمتهـا فـي السمـاء
وسلكـت السبيـل تسعـى إليهـا　　ضـاربـاً فـي فضـائهـا المتنـائـي
وهنـا فـي جـلالـة ووقـار　　جـزت دنيـا الخلـود والشعـراء
فسمعت الهتاف من كل صوب　　وتلقـاك أهلهـا بـاحتفـاء
ورأيـت الأسـى يـذوب ويفنـى　　كسحـاب يغيـب فـي الأجـواء

فـي وجـود كـأنـه لا وجـود وفـراديـس بهجـة وصفـاء
وحيـاة كـأنهـا حلـم الشـا عـر أو بسمـة المنـى والـرجـاء

* * *

أيهـا الشـاعـر الـذي كـان يحيـا دامـي القلـب فـي حيـاة الشقـاء
أيـن لحـن مـوقـع قـدسـي يتهادى يشق صمت الفضاء. . . .
أين وحي الهوى وسحر الأماني أيـن فيـض مـن السنـا والسنـاء
أيـن أحـلام خـافـق يتنـزى ألمـاً مـن تنكـر وجفـاء. . .
أيـن شعـر مخلـد أنشـدتـه قـافـلات الهـوى ودنيـا النقـاء
كنت كوناً من الوداعة يمشي وفـؤاداً يطيـر فـي الأنحـاء
كنت تحنو على قلوب البرايا ولئـن نـاصبـوك حـرب العـداء
كنـت فيهـم ككـوكـب يتـلألأ قـد أرادوا لـه قـريـب انطفـاء
وتعـاليـت فـي سمـائـك تحيـا سـاخـراً مـن تطـاول الأعـداء
حـامـلاً كـالحيـاة قلبـاً كبيـراً مـا خبـت فيـه شعلـة الأضـواء
ثـم لبيـت داعـي الخلـد لمـا ضقـت ذرعـاً بعـالـم الأحيـاء
فتضمخـت بـالطهـارة والنـو ر وعـانقـت عـالـم الشهـداء

* * *

يـا أخ الطهـر والعفـاف ويـا مـن ضاق بالعيش والزمان المرائي
كيف حفت بك الملائك والأروا ح كـالطيـر فـي السمـاء العـلاء
كيف بان الصباح وانبجس النو ر وولـت جحـافـل الظلمـاء
وتعـالـى النشيـد ينطـق حسنـاً في احتفال من الوجوه الوضاء
قل لنا ما عوالم الطهر والرو ح وما الخلد في صميم الفناء
قـد عهـدنـاك بـالنشيـد تلبـي داعـي الحسـن عنـد كـل نـداء
فأطلت السكوت والعيش نور وجمـال الخلـود صـافـي الـرداء
هل عرى نايك الحنون وجوم أم بعيـد سمـاع لحـن النـائـي؟

* * *

أيها الصادح الذي غاب عنا	وأصابته نازلات القضاء
في هدوء الثرى تنام وحول القبـ	ـر يشجيك لحن طير المساء
وتناجيك أنفس وقلوب	تتلاشى من حزنها كالبهاء
أنت حي وإن سكنت ضريحاً	أنت تحيا ككوكب وضاء
أنت دنيا جميلة ليس تفنى	ولئن غيبوك في الصحراء
إن ذكراك في النفوس نشيد	رددته الحياة يوم الوفاء(1)



(1) «الأفكار» س 1 عدد 2 (1 ـ 12 ـ 1936).

الذكرى السابعة
لوفاة أبي القاسم الشابي

للشاعر مصطفى خريف

مَهْمَا تَوَارَتْ بِعَهْدِكَ المُدَدُ — فَأَنْتَ فَذُّ الطِّرَازِ مُنْفَرِدُ
وَأَنْتَ فِي الخُلدِ - مثلَ دَأبِكَ فِي — دُنْيَاكَ - صدَّاحُ أَيْكِهِ الغرِدُ
وَأَنْتَ حَيٌّ مُبَارَكٌ أَبَداً — يَا مَنْ تَرَاءَى بِقَلْبِهِ «الأَبَدُ»
وَأَنْتَ مِلْءُ القُلُوبِ أَجْمَعِهَا — مَا كَانَ صَفْواً، وَمَا بِهِ حَسَدُ
وَأَنْتَ كَالشَّمْسِ فِي السَّمَاءِ، وَقَدْ — يَخشَى الضِّيَا مَنْ بِطَرْفِهِ رَمَدُ
وَأَنْتَ كَالنَّبْعِ، فِي تَدَفُّقِهِ — لحنٌ رَخِيمُ الغِنَاء مُطَّرِدُ
فَتَحْتَ للشِّعْرِ عَالماً عَجَباً — مَا ارْتَادَهُ قَبْلَ فَتْحِهِ أَحَدُ
أَنْشَأْتَ فِيهِ الحَيَاةَ نَامِيَةً — شَتَّى الأَمَاثِيلِ مَالهَا عَدَدُ
تَفَجَّرَتْ فِيكَ عَبْقَرِيَّتُهَا — وَفَاضَ مِنْ حَوْلِ حَوضِكَ الزَّبَدُ
قَبَسْتَ مِنْ شُعْلَةِ الطُّمُوحِ فَأَوْ — رَيْتَ لهِيباً للفِكْرِ يَتَّقِدُ
وَضَجَّ فِي نَفْسِكَ العَظِيمَةِ جَبَّـ — ـارٌ شَدِيدُ المِراسِ مُجْتَهِدُ
مُوَفَّقٌ كَالنَّبِيءِ، مُعْجِزَةٌ — آيَاتُهُ شَاسِعُ المَدَى حَصِدُ
مؤْتَزِرٌ بالجَمَالِ، مُتَّشِحٌ — بِالحُبِّ، أَثْوَابُ فَخْرِهِ جُدَدُ
مُكَافِحٌ مَا اطْمَأَنَّ ثَائِرُهُ — مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ جَاءَهُ السَّنَدُ

* * *

إيهٍ، أبَا القَاسم المُتَوجَ بِالمَجْـ ـــدِ، أمَـا طَـالَ عِنْـدَكَ الأمَـدُ؟

هَـل اتَّصَلـتَ الغَـدَاةَ بَـالمَـلإِ الأَ علـى وَبِـالمَـوْرِدِ الـذِي تَـرِدُ؟

وَهَـلْ تَخِـذْتَ الـرِّيَـاحَ أَجْنِحَـةً طَلِيقَـةً لاَ يَعُـوقُهَـا الجَسَـدُ؟

وَهَـلْ تَمَـرَّسْتَ بِـالبِدَايَـةِ وَالكُـلِّ وَأَيَّـــانَ يَنْتَهِـــي العَـــدَدُ؟

وَمَا مَصَبُّ الوُجُودِ، وَالأَزَلُ المَـ ـاضِي وَهَلْ أَدْرَكَ المَدَى أحَدُ؟

وَكَيْفَ يَلْقَى الرَّدَى الرَّضِيعُ، وَيَلْقَا هُ وَشِيكـاً لُقْمَـانُ أَوْ لُبَـدُ؟

تَمَطَّـت السَّبْـعُ بَيْنَنَـا، فَمَشَـتْ مُملَّـةً كَـالقُـرُونِ تَتَّئِـدُ

كَـأَنَّهَـا حُمِّلَـتْ صَبَـابَتَنَـا وَآدَهَـا مِـنْ فِـرَاقِـكَ الكَمَـدُ

فاعْبُرْ مَدَاهَا، فَأَنْتَ طَيْفُ رُؤًى لَـمْ تَحْـوِهِ حِقْبَـةٌ وَلاَ بَلَـدُ

أَشْـرِقْ عَلَيْنَـا كَمَـا عَهِـدْتُـكَ وَالإِ كْلِيـلُ فَـوْقَ الجَبِيـنِ مُنْعَقِـدُ

وَانْشُـرْ ضِيَـاءً عَلَـى شَبِيبَتِنَـا وَلْيَـأْتِهَـا مِـنْ نُبُـوغِـكَ المَـدَدُ

ذِكْـرَاكَ عِيـدُ الشَّبَـابِ بَـارَكَـهُ رَبُّ الفُتُـوَّاتِ وَالشَّبَـابِ: غَـدُ

وَإِنَّهَـا آيَـةُ الخُلُـودِ لَنَـا إِنْ حَفَّنَـا فِـي انْبِعَـاثِهَـا الـرَّشَـدُ

في روضة أبي القاسم

[أنشدت عند إنشاء ضريح الشابي بتوزر]

للشاعر مصطفى خريف

لِذِكْرَاكَ لِلْفُصْحَى وَأَمْجَادِهَا عِيدُ   تُذَاعُ بِهِ البُشْرَى وَتُتْلَى الأَنَاشِيدُ
وَطَيْفُكَ بَعْدَ المَوْتِ حَيٌّ مُبَارَكٌ   كَرِيمُ السَّجَايَا طَيِّبُ الذِّكْرِ مَحْمُودُ
وَشِعْرُكَ بَاقٍ نَابِضٌ مُتَدَفِّقٌ   لَهُ فِي فَمِ الدُّنْيَا غِنَاءٌ وَتَرْدِيدُ
لَهُ مِنْ شُفُوفِ العَبْقَرِيَّةِ حُلَّةٌ   مُنَمَّقَةٌ فِيهَا ابْتِكَارٌ وَتَجْدِيدُ
وَعُمْرُكَ مَوْصُولٌ طَوِيلٌ عَلَى المَدَى   لَهُ فِي امْتِدَادِ الفِكْرِ نَسْلٌ وَتَوْلِيدُ
وَرُوحُكَ أَنَّى طَافَ فِينَا يَحُوطُهُ   مِنَ المَلإِ الأَعْلَى احْتِفَاءٌ وَتَمْجِيدُ
وَيَكْنُفُهُ العَزْمُ الطَّمُوحُ وَهِمَّةٌ   لَهَا عِنْدَ دَارَاتِ النُّجُومِ مَوَاعِيدُ
تَحُفُّ بِكَ الزُّهْرُ المَلاَئِكُ كُلَّمَا   شَدَوْتَ فَتُشْجِيهِنَّ مِنْكَ الأَغَارِيدُ
نَرَى ذلِكَ النُّورَ السَّمَاوِيَّ هَادِياً   لَنَا مِنْهُ فِي سُبْلِ الحَقَائِقِ تَمْهِيدُ
بَيَانٌ كَأَنَّ الوَحْيَ فِيهِ مُنَزَّلٌ   لَهُ صِلَةٌ بِالارْتِفَاعِ وَتَوْكِيدُ
وَفَنٌّ لآيَاتِ الجَمَالِ مُخَلِّدٌ   وَكَنْزٌ مِنَ التِّبْيَانِ وَالعِلْمِ مَرْصُودُ

* * *

فَيَا ثَاوِياً فِي كُلِّ قَلْبٍ مُكَرَّماً   عَزِيزاً، أَحَقٌّ أَنْتَ فِي التُّرْبِ مَلْحُودُ؟
لَئِنْ شَيَّدَ الإِخْوَانُ حَوْلَكَ مَشْهَداً   وَحَيَّاكَ تَبْجِيلاً بَنُو قَوْمِكَ الصِّيدُ
فَقِدْماً لَقَدْ شَيَّدْتَ صَرْحاً مُمَرَّداً   لَهُمْ مِن صَرِيحِ المَجْدِ مَا فِيهِ تَفْنِيدُ

* * *

سَلاَمٌ وَذِكْرٌ عَاطِرٌ وَتَحِيَّةٌ   إِلَيْكَ، وَشَوْقٌ خَافِقٌ، وَتَنَاهِيدُ...

ذكرى ميلاد الشابي

للشاعر الشاذلي عطاء الله

[من المتقارب]

على لـوحـة مـن شعـاع القمـرْ ... وفـي نشـوةٍ مـن أغـانـي السَّحَـرْ
وفـي بسمـة الفجـر والعنـدليـ ... ـب يُحْيي الضُّيَا مِنْ أعالي الشجرْ
وتـرنيمـة الـذكـريـات العـذابِ ... تُضَمّخُهـا نفحـاتُ الـزَّهَـرْ
ونـور الصبـاح يُحَيّـي الـورودَ ... بشـذو النسيـم ونشـر الـدُّرَرْ
وفـي واحـة النور حـول النخيـلِ ... وقـد صفّـقَ النهـرُ لمـا انْحَـدَرْ
تنفـسَ روحُ الـوليـد الجـديـدِ ... فحيّـاهُ وجْـهُ الصبـاح الأغَـرْ
وغنّتْهُ في المهْد عَذْبَ الأغاني ... عـذارى الخيـال ذواتُ الْخَفَـرْ
وأهْـدَتْـهُ مـن روضهـا بـاقـةً ... ومجمـوعـةً مـن بَـديـع الصُّـوَرْ
وأغنيـةً مـن لُحـون الْحَيَـاةِ ... غـدتْ شفتـاه لهـا كـالْـوَتَـرْ
فعـاش وللغـاب تَـرْجيعـه ... ومـن وجهـه آيـه والسـورْ
يلحّـنُ للـروح مستلهمـاً ... حفيـف النسيـم ووحْـي القمـرْ
يُكَشّـفُ سـرّ الحيـاة الخفـيّ ... ويـرْسـم أطيـافهـا للبصَـرْ
ويُضْفـي عليهـا بُـرودَ الْجَـلاَل ... ويُلْبسهـا مـن جميـل العبـرْ
وينفـخ فـي نَـايـهِ مُـوقظـاً ... ضميـرَ الحيـاة لشكـوى الْبشـرْ
فـأظهـرنَـا بـالبـديـع الـرفيـع ... علـى وحـدة الحـقّ حتـى ظهَـرْ
وغنّـى فـأشجَـى ولَمّـا يـزلْ ... صَدَى النّاي فِي السّمْع مُنْذُ انْكَسَرْ
تُعـاودُنـا الـذكـريـاتُ الحسـانُ ... وَيُطْـربُنـا سحْـرُ ذَاكَ السَّمَـرْ
ورغْـمَ احتجـاب الضيـاء المشـعّ ... وطـيّ بسـاط الحيـاة النّضـرْ

ورَغْــم نُضُـــوبِ الــزُّلالِ المعيــ ـــن إذا حطّم الكأس كفّ القدرْ
فمــا فقــد الشّعــر مِــنْ صَــوْتــه ولا الْعطْــر إلاّ خيــال الــزّهــرْ

* * *

أيَــا مُلْهمـــاً طـــرّزت آيُـــهُ حواشي الْوجُود بأسْمَى الفِكَرْ
وصنّــاجــةَ الشّعْــر فــي تــونــس ونـــاشـــرَ آدابهـــا المبتكــــرْ
عــرجْــتَ بهــا للسِّمــاك الــرفيــعِ وخلّـــدْتَ للضـــاد أغْلَـــى أثَـــرْ
وأصْغَى لها الشّرق جَذْلاً طَرُوباً وغَنّـــى بـــألحـــانهـــا وافتخَـــرْ
أحيّيـــك يـــا يَـــوْمَ ميـــلاده تحيّـــات خـــلٍّ بخِـــلٍّ يُسَـــرْ
وأُهْــدِيــك يــا روحَــهُ بــاقــةً مضمّخَـــةً مـــن ثَنَـــاءٍ عَطِـــرْ

نفحة من روح «الشابي»

للناظم الشيخ مصطفى المؤدب

ألقيت هذه القصيدة في إحدى حفلات ذكرى الشابي العديدة وقد نسيت أن أؤرخ لها وأن أعين مكانها الذي ألقيت فيه[1].

يا صديقي كنت في الدنيا شقيا   ترتجي الإسعاد والدهر ضنينُ!
تقرض الشعر قوياً عربيّا   حينما الشعب غبي لا يُعينُ!

* * *

آه والأشياخ والكُهلان جَاروا   لا لجهل بل لغيظ قد عراهم
لا تَلُمهم إن همُ سبّوا وثاروا   ثورة عمياء دعهمْ في عماهم!

* * *

ولذا قد كنت تشدو للغزال   للسما، للحسن للقلب الكبيرِ
للروابي للدياجي للهلالِ   للمها للطير للروض النضيرِ

* * *

فيه[2] ترثي شعبك الميْت رثاءً   فاض دمعاً فاض حزناً فاض حسرهْ
تبتغي للشعب عزا وهناءً   لا شقاء لا هواناً لا معرهْ

* * *

---

(1) ألقاها صاحبها في حفل الذكرى الثالثة لوفاة الشابي (1936) بقصر الجمعيات. راجع نقد محمود بيرم التونسي لها في وصفه للحفل المذكور - وقد أثبتناه في قسم الذكريات من هذا الكتاب (كرو).

(2) الضمير للشدو المستفاد من تشدو.

فيه ترثي عهدك الماضي وحبا   فيه ما في الكون من شتى الكروب
فيه تُجْلِي قلبك الدامي ولُبّا   تائهاً في بحث أسرار الغيوب!

* * *

فيه تدعو الموت جهراً مستمرا   علّ هذا الموت للأحيا[1] يطيبُ
علّ في الموت ارتياحاً مستقِرا   هو عن أمثالنا الأحيا يغيبُ

* * *

ثم هذا أنت قد جربت قل لي: هل رواح ثَمَّ أم جهد عظيمُ؟
صف صديقي، ما تراه[2] ثَمَّ، صف لي إنما قلبي، من الجهل، كليمُ!

* * *

يا صديقي أين آثار السعادهْ   هل لها في حالة الموت وجودُ؟
ما أظن الموت كالدنيا جَلادهْ   أتراه هو للنعمى ودُودُ!؟

* * *

يا صديقي اليوم، ذكراك تحينُ   في جمال في جلال في خشوعِ
غير أن الشّيب يغروهم سكونُ   والشباب الحي خفّاق الضلوعِ

* * *

قد أقام، اليوم، حفلاً مستطابا   (لأبي القاسم) مرآة البطولهْ!
يا لَذكرى مزقت عنه حجاباً   ليَرى الأحداث ما معنى الرجولهْ!

* * *

يا صديقي إن تكن قد غبت عنا   (فالأغاني)[3] خلدت خلد الدهورِ
هي للأجيال ألحان تُغَنّى   هي كالصهباء في دنيا الغرورِ[4]

---

(1) قصر أولاً وثانياً للضرورة.
(2) بمد الضمير.
(3) إشارة إلى ديوانه «أغاني الحياة. (المؤلف).
(4) عن كتاب الناظم «اناث وابتسامات».

عبرتي على شاعر الأكوان

للناظم الشيخ مصطفى المؤدب

مرثية في المغفور له أخينا أبي القاسم الشابي ألقيت في حفلة الأربعين عشية الجمعة 23 نوفمبر سنة 1934 بقصر الجمعيات الفرنسية دار الثقافة ابن رشيق اليوم».

«أيها الروض الموشى أيها القمري[1] الأمير
قد عهدنا منكما السّلوى إذا حلّ النذير
قد عهدنا منكما البشرى لدى الأمر العسير
وسروراً يُذهب الآلام عن بال الكسير
يجعل الدمع ذليلاً خاسئاً مثل الأسير
قد عهدنا منكما هذا على مرّ الدهور
فلماذا اليوم أرنو فأرى الروض حسير
ذابل الأغصان جفّت منه أمواه الغدير
وأرى أفنانه ذي ناثرات للسفير
قد مضى عنها انبساط وخلا منها العبير
لمْ[2] أرى القمري، وقد كان يطير
ويغني بلحون سائرات والأثير،

(1) بتخفيف الياء للضرورة.
(2) بسكون الميم وهو جائز حتى في السعة.

واجماً في حسرات باكياً وهو كسير

قلت هذا جهرة بينا أنا الروضَ أزور

فاستوى ذيّالك القمريُّ سلطان الطيور!

قائلاً: «ويلاك يا ذا الجاهلُ الغُفْل الغرير!

أو ما بُلّغْتَ منعى الشاعر الفذّ القدير؟

شاعرِ التجديد والأكوان ذي العقل الكبير

شعره السامي خلي من فضول وفجور!

إنما فيه ابتداع وجمال ونسور[1]

يُطرب الأطيار طرّاً من وضيع وخطير

يُطرب الإنسان كلاّ من كبير وصغير

من سعيد وشقي من جليل وحقير

هو من يسعى إلى أوج العلى دون فتور!

لا ولا يخشى هلاكاً أو أعاصير تثور!

أو ما قد قاوموه علّه يُلغي المسير؟

فأثاروا حوله حرباً عَواناً كالسعير

وأقاموا حول مسراه وعوراً وصخور

فتخطّاها بعزم وثبات وسرور!

وكذاك الفوز عُقْبى من على الكرب صبور»!

* * *

قلت: «صهْ ها قد كفاني وصفك الهادي الغزير

«أأبو القاسم، لبّى داعي الموت النكير؟

أتُرى غابت علينا شمس (شابيـ)نا الجسور»؟!

* * *

قال، والآهات منه قد توالت في زفير:!

(1) قوة مجازاً.

«أي[1]وربي فالمنايا سنة الدنيا الغرور
قد يعيش المرء قرناً أو سنينا أو شهور
وسواء كلها إذ إنما الموت المصير»!

* * *

كل هذا قد رثا القمري به الأخّ[2] الوقور
فاسمعوا فيه رثائي واعذروني في القصور: !
«قد قضى الفحلُ المجلّى شاعرُ» الخضرا الغيور!
شاعرُ التجديد والوجدان ذو الشعر المُثِيْر!
فأُصِبْنا بذهول وأنين وسعير
وعجِبنا، والأسى يصلي عقولاً وصدور،
كيفَ يفنى ناظم الياقوت في سلك الحرير؟
كيف يفنى شاعر الأكوان والبدر المنير ؟
كيف يفنى نابغ الشبان في عُمر قصير؟
كيف يفنى من رمى الأضداد بالسهم الخطير؟
واعتلى عرش المعالي الثابتَ الأسّ الكبير!
إن يكن هيكله قد حلّ في ذاك الحفير[3]
فهو بالذكر خَلود وهو بالخلد جدير!

* * *

نِئت عنا يا طبيبَ الروح والقلب الكسير!
نئت عنا يا وفي العهد والخدنَ النصير!
يا رفيق الأمس يا من يرحم الشاقي العثور!
مالنا، من بعد ما أدبرت، في الخطب مجير!

* * *

(1) معناه نعم.
(2) تشديد الخاء إحدى اللغات فيه.
(3) القبر «المؤلف».

نَم أخانا هانئاً في الرمس مرتاح الضمير
يُغدق، الرّحْمى عليك، اللّهُ ذو الفضل الكثير»

25 اكتوبر 1934[1]

* * *

(1) عن كتاب الناظم «أنات وابتسامات».

حوار حول الشعر والشابي

«دار بتونس عندما زارها عميد الأدب العربي»
« طـه حسين 1957[1] »

الشاذلي القليبي: على ذكر ما قلتم عن هذه الملاءمة بين الحياة وبين الشعر أريد أن أوجه إليكم سيدي الأستاذ، سؤالاً أدق، هو: إنه قد ظهرت في السنوات الأخيرة نزعة غريبة واضحة في شعراء نجدها خاصة في الشابي. وهذه النزعة نستطيع أن نقول عنها، إنها محصورة في النطاق الذي يسمى بالفرنسية (سبرياليست) حتى أننا نجد من الشعراء الشاميين من يكتبون شعراً قد خرج خروجاً يكاد يكون تاماً عن نظم الشعراء العرب الأقدمين.

فالسؤال الأول في هذه المؤثرات الغريبة كيف تلقاها شعراؤنا المشارقة ومدى هضمهم لهذه النزعة.

وثانياً ـ هل من صلة بين واقعهم الفردي. وخاصة الجماعي وبين التجارب الشعرية الجمالية الجديدة المقتبسة من الغرب؟

الدكتور طه حسين: أظنك تشير إلى ما يظهر أحياناً من الشعر في لبنان وفي لبنان تقريباً بصفة خاصة. وفي مصر توجد بعض المحاولات، ولكنها لم تصل بعد إلى أن تصبح ظاهرة ذات أثر.

---

(1) راجع نصه كاملاً في كتابنا القادم «طه حسين والمغرب العربي».

بينما في لبنان، قد تعرف أن التعليم الفرنسي كان قوياً جداً. وأظنه لا يزال إلى الآن قوياً جداً. ويوجد من أخواننا اللبنانيين من يتخذون الفرنسية لغة لأدبهم. فينتجون أدبهم باللغة الفرنسية مثل الأستاذ جورج شحاته الذي ينتج أدبه باللغة الفرنسية.

وبعض اللبنانيين ينتجون أدباً عربياً. يحاولون أن يقلدوا فيه ما درسوا في المدارس وما قرأوا من شعر الفرنسيين المعاصرين وبنوع خاص «السيرياليست» والرمزيين «صانفوليست» وما إلى هؤلاء.

إنما كل هذا لم يتواصل في اللغة العربية. وكل هذا ما زال مضطرباً لا يسيغ بالذوق العربي. وليس هو بملائم أدق الملاءمة. حتى النماذج التي يقلدها هؤلاء الشعراء.

ما مصير الشعر في العالم؟

محمود المسعدي : سيدي الأستاذ أتسمح لي أن أقول كلمة حول هذا الموضوع الأول الذي اقترحه علينا الأستاذ القليبي.

أنا شخصياً في حيرة؛ في ما يتعلق بالشعر في عالمنا العربي المعاصر. وأظن أن هذه الحيرة لا تقف عندي. عند حدود الشرق العربي. أو شؤون الشرق العربي. بل أنا أتساءل عن مصير الشعر في العالم. في عالمنا الحاضر هذا. وأنظر عند الأمم الأخرى لأرى : هل أجد من بين أدبائهم وشعرائهم من يبلغون شعراء العصور القديمة عظمة وعبقرية؟ فلا أجد إلا من يكون الشعر عنده إحدى آلاته. إن لم يكن أقل آلاته. فمعظم من عرفنا من الشعراء والأدباء عند الأمم الكبرى، وعند الفرنسيين - إذ نحن ملابسون لهم ملابسة أشد من ملابستنا لغيرهم من الأمم - لا نجد إلا شعراءه في آن واحد أساتذة. ولعل الكتابة تغلب عليهم. ولذلك أجدني أتساءل عن إمكانية حياة وخصب للشعر في العالم. وأتساءل وألقي على نفسي السؤال الآتي: أليس العالم الحاضر،

والثقافة العصرية، قد طغت فيهما عناصر الفكر إلى حد أن الشعر، في معناه المحدود، أصبح غير كاف ليكون عبارة عن الحياة الفكرية الشاملة؟ لست أدري ما رأيكم.

الشعر لغة الإنسان الأول

الدكتور طه حسين: هذا طبيعي جداً. ونحن نعلم أن الشعر قبل كل شيء هو اللغة الأدبية الأولى للإنسان. وأن الشعر والإنتاج العقلي لا يكادان يتفقان.

وإذا نظرت إلى التاريخ الأدبي العام فقد ترى أن أروع الشعر، اليوناني مثلاً، قد أنشىء قبل أن يوجد النقد، وأنشىء آخرهم أو آخر الرائع منه في أوائل وجود النثر.

لم يكن هناك نثر أيام «الألياذة والأوديسة» ولا أيام «اندار» ولم يكن هناك نثر أيام فيشكيلوس، أو «سيبوكريست» وكان النثر قد بدأ أيام «أوربيد» بدأ بالتاريخ وببعض المحاورات الفلسفية، وظهر أثر هذا في شعر «أوربيد» فليس هناك أي غرابة في أن يكون هذا العصر الذي غلب فيه العلم، والإنتاج العقلي كل شيء. وغلبت فيه الحياة الواقعة، العلمية التي تشغل الناس بما تثير في نفوسهم من الأمور والأفكار، والخواطر والآراء.

ليس غريباً أن تكون هذه الحياة مناقضة لطبيعة الشعر. فطبيعة الشعر تحتاج إلى النشاط وفراغ البال والاستجابة الصادقة لطبيعة الخيال.

محاولة إخضاع الشعر للعقل والإرادة

والحياة التي نحياها الآن تسخر للعقل في أكثر فروعها إن لم أقل

في كل فروعها. فالعقل يتغلب وأظن أن هذا هو الذي حمل شاعراً «كبول فاليري» مثلاً في فرنسا على أن يزعم ويحاول غير مرة أن يلائم بين الشعر وبين العقل. وحاول أن يجعل الشعر المعاصر لا يخالف العقل. بل يخضع للإرادة المدبرة التي يدبرها العقل. كل هذا، لأنه أحس قبل كل شيء أن الحياة المعاصرة ليست هي هاته الحياة التي يعرفها القدماء في أول أمرهم بالإنتاج الأدبي.

فحاجتنا الآن إلى الغناء أقل جداً من حاجتنا إلى التفكير. والشعر غناء بطبعه مهما يكن فنه. وما دمنا أشد احتياجاً إلى التفكير منا إلى الغناء. وأشد احتياجاً إلى العمل والإنتاج ومواجهة الخطوب والأحداث التي لا تنقضي ملنا إلى الفراغ والراحة والترف، فطبيعي أن يكون الشعر في هذه الحياة الجديدة ضعيفاً بالقياس إلى الإنتاج المنثور سواء كان علماً أو أدباً أو فلسفة.

الأستاذ القليبي : قبل أن أحيل الكلمة إلى الأستاذ علي البلهوان أريد أن أتوقف عند هذه الملاحظات التي أبداها كل من الأستاذين المسعدي وطه حسين.

يقول الأستاذ المسعدي: إن الفكر والعلم في هذه الظروف التي نعيشها. قد تغلبا على الحياة حياة الأفراد والجماعات. بحيث إن صوت الشعر يكاد يخنق. وأريد أن ألاحظ هنا، أن الفكر إذا ما تغلب مع الشواغل العلمية والشواغل الاجتماعية والشواغل المادية والفنية بصفة عامة، فإنها بقدر ما تطغى تكون نوعاً من الصراع في نفس الإنسان من الناحية الإنسانية والنفسانية. صراعاً بين الفكر وبين العاطفة ولا يمكن أن يقتصر الإنسان في هذه العصور على الفكر والتفكير كآلة معرفة، أو كواسطة لمعرفة العالم، ولإدراك وجوده ومزيته في هذه الحياة.

الشعر أداة كشف النفس

إذا دام هذا الصراع. لا بد أن يفضي بالشباب الصاعد إلى نوع من الارتباك ولعل الشعر يكتسب بها قيمة جديدة. لا قيمة الآلة التعبيرية البدائية التي نجدها عند اليونان، بل قد تكون له قيمة ثانوية، قد يكون نوعاً جديداً من كشف مغلقات العالم لا للوجود فقط بل للنفس أيضاً وما تكتنفه من قوات عاطفية وغيرالية وغير ذلك.

الدكتور طه حسين : إننا، مع الأسف الشديد ، إذا كان كل هذا صحيحاً ؛ فالناس يجدون ما يغنيهم عن الشعر. وفي النثر الذي يميل إلى الشعر ويصطنع الخيال ويصطنع الصور الفنية الشعرية، يجدون في هذا كله ما يغنيهم عن النظم وعن التقاليد الشعرية، ومن هؤلاء في كبار الكتاب المعاصرين مثلاً من بدأ حياته بشعره إذ تبين له أن الشعر لا يؤدي عندما يريد أداءه فتحول إلى النثر وأصبح من كبار المعاصرين الناثرين مثل اندري جيد مثلاً.

محاولة اندري جيد

فاندري جيد حاول أن يكون شاعراً في أول أمره ثم لم يلبث أن عدل عن الشعر إلى نثر شعري في أول الأمر تجده في (. . .) ثم نثر طبيعي يعمل فيه العقل ويلجأ فيه الكاتب إلى العناية الفنية وبعض الصور الفنية وبهذا استغنى اندري جيد عن الشعر. بول فاليري استطاع أن يلائم بين حياته العاطفية وبين حياته العقلية فجعل نثره لا يخلو من الفن وجعل شعره لا يخلو من العقل.

والمدهش أنك ترى نفس هذا في الأدب العربي القديم، عندما كثرت الثقافة، وانتشرت الفلسفة، وأصبح الشعراء لا يستجيبون لطبائعهم بمقدار ما يستجيبون لعقولهم.

يظهر بعض الشعراء مثل أبي تمام لا يعتمدون على الاستجابة إلى الطبع. وإنما يعملون عقولهم شيئاً مـا، فيستخرجون أشياء لا يميل إليها الطبع ولا تستقيم لما نسميه الدفاع الطبيعي الذي نجده عند قدماء شعرائنا حتى عند الشعراء في العصر العباسي.

فلسفة المتنبي في شعره

ويأتي المتنبي بعد ذلك فنراه يفلسف في الشعر، ويفتح أبواباً في الشعر لم يكن العرب يألفونها من قبل، وهي أبواب هذا التشاؤم الفلسفي الذي نراه عند المتنبي والذي هو أصل التشاؤم عند أبي العلاء المعري كذلك نجده عند ابن الرومي مثلاً، فعندما تقرأ شعر ابن الرومي وهو قد ظهر بعد أبي تمام بقليل، تجد أن شعر ابن الرومي أشبه بالنثر منه بالشعر فابن الرومي أحياناً يتحدث في شعره كما يتحدث الكاتب في نثره وهو يجري أحياناً ألواناً من الحوار بين بعض المعاني، إذ يظن أنه يضع قصة أو يضع تمثيلاً أو يستحضر أفراداً يتجادلون فيما بينهم، وهذا بالضبط ما يفعل الكتاب.

كل هذا يأتي من أن الحياة العقلية عندما تكثر وتقوى وتنمو وعندما تسيطر الفلسفة وتسيطر الثقافة وتكثر الأحداث، يعظم شأن العقل، ويضعف شأن الاستجابة إلى الخيال.

ما مدى ما وصله الشعر العربي

محمود المسعدي : لو سمحتم يا أستاذ أن أتناول الكلمة. وقد أبنتم هذا ببيانكم الساحر المعتاد. وهذا الذي لم أحسن الإفصاح عنه عندما قلت كلمتي منذ لحظة، والذي كنت أقصده هو أن هذه الحياة

الفكرية الشاملة التي تمتاز بها مفاهيم الحضارة المزدهرة، هي التي تجعل آلة الشاعر قليلة بجانب الكثرة من الحياة الفكرية. وهذا ما أظنه يحدو بالشعر نحو تطور جديد أي أنه يجعل الشعر كصيغة أو كقالب فني مضبوط القواعد معه، غير كاف لتأدية كل ما يشغل الفكر.

ولذلك فمفهوم الشعر ـ على ما أظن ـ يجب أن يتغير في مثل هذه العصور ولذلك إذا سألنا عن مصير الشعر في الشرق أو في العالم، وجب أن نفهمه لا في قالبه القديم، وحسب قواعد أوفى، بل في معنى أوسع. وإذا نظرناه بهذه النظرة، فإنه يمكن لنا أن نتساءل عن مدى ما وصله الشعور العربي في هذا الميدان، ومدى ما استطاع أن يعبر عنه من هذه التجربة الفكرية الشديدة أو التجربة الإنسانية الشديدة.

وأظن أن أحسن مقياس يمكننا أن نقيس به مقدار تطور الشعر في العالم العربي المعاصر، ومقدار رقيه وتقدمه؛ هو هذا المقياس الذي هو أعم من مقياس النظم والأوزان.

الدكتور طه حسين : ولأجل هذا قلت إن الشعر في هذه الأيام يجتاز في البلاد العربية، أزمة عويصة جداً. تأتي من أن الحياة العربية تتغيـر وتصطبغ شيئاً فشيئاً ويقوى اصطباغها شيئاً فشيئاً بالصبغة الغربية. وهي من أجل هذا تفرض على الشباب، وعلى الذين يفكرون ويشعرون ألواناً جديدة من التفكير والشعور، وهم من أجل هذا لا يريدون أن يعرضوا إعراضاً تاماً عن الشعر. فإذا أرادوا أن ينشؤوا الشعر وجدوا أنفسهم في حيرة، لأن الشعر بنظمه القديمة لا يسعدهم ولا يلائم شعورهم ولا تفكيرهم، وهم بعد لم يهتدوا إلى القوالب العربية الجديدة التي تنشىء لهم شعراً يلائم حياتهم، كما أن شعر «فاليري» في فرنسا أو غيره يلائم الحياة الفرنسية أو الحياة الإنكليزية.

علي البهلوان: أستاذي العظيم. الحقيقة اليوم أن العالم العربي ما

زال في بزوغ فجره، بحيث إن التشاؤم الذي وجدته عند صديقي المسعدي فيما يتعلق بالشعر، ربما لا أقاسمه فيه تماماً.

إذ نجد ذلك الاضطراب في طبقة معينة من هذا العالم العربي، ولو دخلنا إلى أعماق هذا العالم العربي وتجولنا بين قبائل العرب في جبال العرب سواء بالمغرب العربي أو في لبنان أو بصعيد مصر. وجدنا الشعر ما زال يتدفق في الشعوب العربية كلها إلا أن هذا الشعر لم يتخذ القالب العربي في اللغة الفصحى، وقد برز شعراء اعتبروا فلتات في الأعوام الأخيرة، خرجوا من أعماق هذا الشعب العربي. ولنا مثال حي فيما يتعلق بتونس هو أبو القاسم الشابي الشاعر الذي مات شاباً.

الشابي شاعر عملاق

خرج من وسط شعبي قروي فتعلم باللغة العربية، وإذا به يصبح شاعراً، إذ أنه يشعر بحاجة أكيدة، وأكيدة جداً وملحة وفيها شيء من العذاب والأمل، حاجة إلى التعبير عما يكن في أعماق نفسه من عواطف وشعور واختلاجات واضطرابات وتنافر وإذا به يحاول أن يوجد لذلك الشعور العميق وتلك الحاجة، قوالب جديدة.

ففي أول أمره، كأنه نحى منحى شعراء المهجر، وخاصة جبران، وإذا بالعملاق، أو بالطائر الشعري ينطلق بعد حين، ويبقي أصحابه على الأرض، في عوالم جديدة من الشعر الحقيقي.

وأظن لو أن عمره طال قليلاً، لأتانا بشيء جديد في الشعر العربي على أن الشعر الذي يحاوله والمثقفون العرب غير ذلك الشعر العميق، الشعر الحقيقي المتدفق من أعماق نفس الإنسان. الشعر الذي يرى صاحبه يشعر بضرورة التعبير عنه.

النزول إلى الحضيض

بحيث أننا عندما نرى سائر شعرائنا أو غالبهم اليوم، إنما هم يعبرون عن أمور تمر بهم مراً. فعندنا بالمغرب العربي عدد وافر من الشعراء. منهم الأحياء ومنهم من مات أخيراً، تجدهم عندما يعالجون مواضيع شتى ينزلون إلى الحضيض ولكنهم عندما يعالجون الحماس الوطني يحلقون أحياناً ويلهبون الشباب حماساً.

بمعنى أن الشاعر كما هو وليد بيئته القروية أو في المدينة، فهو وليد بيئته الوطنية أيضاً. . وموضوع إلهام البيئة التي يعيش فيها.

ولذا ما زال العالم العربي يتقدم خطوة خطوة وما زال يفتش عن طريقه في جميع الميادين: نظاماً سياسياً، نظاماً اجتماعياً ونظاماً ثقافياً، إن صح هذا التعبير. أي اتجاهاً أو اتجاهات ثقافية ما زال يعيش في ضرب من الخضم. وما زال الصراع قوياً فيما يظهر بين القديم والحديث. وذلك أظهر شيء في الشعر.

حيث إن القدامى العرب، ما زالوا متعلقين بعاداتهم وتقاليدهم في الفكر والاعتقاد أو أشكال الاعتقاد بالضبط وأيضاً بالقوالب الشعرية، فكل ما يأتي جديد إلا ويمج أذواقه. ومن جهة أخرى نجد الشباب ـ كما تفضل الأستاذ المسعدي ـ نجد شباباً يريد التخلص من تلك التقاليد ويعتبرها أغلالاً وسلاسل في الناحية الاجتماعية، والناحية الأدبية والشعرية أيضاً. وإذا به ينحو منحى الغرب، ـ لا ليتبلور بعد في بعض آرائه وأفكاره ـ فأتى شعره مهلهلاً لا شرقي ولا غربي؛ مهلهل في ألفاظه وتراكيبه ومهلهل في آرائه وفي ما يعبر عنه.

العالم العربي يتمخض

فمن الطبعي أن نجد ذلك الاضطراب في جميع الحياة الأخرى وأن

هذا الاضطراب يدل على حيوية عميقة. ويدل على أن العالم العربي يتمخض، وأن هذا الاضطراب لو شبهته لشبهته بالموجات السطحية بالنسبة لموجة الأعماق التي تكتسح هذا العالم العربي، وإذا بشعوب العرب في ميدان الثقافة ربما لم تقل كلمتها الأخيرة إذ ما زالت في بداية أمرها ولهذا لأقاسم صديقي الأستاذ المسعدي عندما يتشاءم شيئاً ما في الشعر.

فما زال شبان في صحراء العرب وما زال شبان ربما في سهول وجبال العرب في العالم العربي العظيم الذي يوحي الشعر بشمسه ومرآه وجماله وقوته ما يخرج. وهذا ما أؤمن به وأعتقده لنا الشعراء في عصرنا الحاضر، وأن المسألة مسألة وقت.. حتى يتولد هذا بعد هذا الصراع القوي الجبار الذي يشعر به كل من اتصل بالشعوب العربية وطاف كثيراً في جماهيرها وقادتها ورجالها في كل فن وفي كل ميدان.

خسران الشابي فادح

الدكتور طه حسين: هذا صحيح، إنها كانت المصيبة فادحة جداً بوفاة أبي القاسم الشابي وكنا محتاجين إلى أن نراه يعيش وتتصل حياته لنرى إلى أي نسق يتطور فنه الذي نشأ وكاد يتم، أن يتطور إلى إيجاد فن جديد في الشعر يستقر ويتجاوز صاحبه إلى غيره بحيث يصبح صاحب مذهب في الشعر كما كان بعض الشعراء العرب القدماء وكما نجد بعض الشعراء الغربيين.

أما إذا كان تجرفه الأحداث وتجرفه الثقافة العصرية فيصير كغيره من الكتاب.

الخيال الشعري عند العرب

للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)

عرفنا «أبا القاسم الشابي» شاعراً أصيلاً ملهماً، تجاوز حدود إقليمه فرجعت آفاق الوطن العربي أناشيده وأغانيه، وشغل بشعره عدداً غير قليل من الدارسين والنقاد في المشرق والمغرب..

وقل فينا من اتصل بآثاره غير الشعرية مع شديد حاجتنا إليها ليصح فهمنا له ونعرف اتجاه تفكيره.. ونستكمل ملامح شخصيته في ضوء كل ما ترك من آثار..

وكنت أسمع عن كتاب له في «الخيال الشعري عند العرب» خلت منه أسواقنا بعد ظهوره بتونس في طبعة محدودة عام 1929.

ولبثت افتقده، حتى أعادت نشره حديثاً «الشركة القومية للنشر والتوزيع في تونس» فأتاحت لي أن أعرف ما كنت أجهل من صراع كابده «الشابي» بين الثقافتين العربية والغربية، ودفعه إلى أن يقتحم معركة فكرية أخرى مع ما كان يجهده من أعباء نضاله: شاعراً قومياً يهز الوجدان العام لأمته، ويحدوها إلى الوجود الحر الكريم..

وهذا الصراع يتصل من قرب بمأساة الضياع الفكري التي كتبت عنها في هذا الموسم ما كتبت..

فلقد تفتح أمام الشاعر الشاب، أفق جديد من النافذة الغربية، وأتيح له أن يتصل اتصالاً محدوداً بينابيع الأدب الأوروبي، فنهل منها ما استطاع. ثم لما آب إلى دنياه يتفقد جذوره في الأرض الطيبة التي أنبتته، ويعيد النظر فيما

تزود به من البيئة العربية، ألفى الذي يملكه، أو الذي تيسر له منها، ركاماً من آثار عقليات متحجرة ونفوس مغلقة ووجدان أصم فكفر بكل ما لدينا وأعلن ثورته على قديمنا..

وقد دأب قومنا أن يتهموا كل ثائر على القديم بالمروق والكفر، وأن يصموه بوصمة الانسلاخ من قوميته، ولكني لا أتصور أن أحداً فينا يجرؤ على اتهام أبي القاسم بشيء من هذا، وهو الذي ناضل بكل إصرار وإيمان في سبيل قوميته ومضى شهيداً من شهدائها..

وهذا هو ما يعطي كتابه عن «الخيال الشعري عند العرب» قيمته الكبرى، من حيث هو مادة صادقة لتأريخ مرحلة الضياع الفكري لهذا الجيل من شباب العرب، ومع تقدير صدوره من شاعر شاب، لا ترقى إلى قوميته شبهة ولا تشوب إخلاصه لعروبته شائبة من ريب أو اتهام.

والشابي في كتابه واضح المنهج محدد الفكرة في كل ما تناول من موضوعه. فلقد مضى يلتمس الخيال الشعري عند العرب، في أساطيرهم، وفي نظرتهم إلى الطبيعة والمرأة كما ظهرت في أدبهم. ثم في فنهم القصصي.. مضى يلتمس هذا بعين تفتحت على الأفق الغربي: وعقلية ارتوت بقدر من ينابيع أدبه. بحيث لا يخطىء القارىء في كل فصول الكتاب، أثر الانفعال بجمال الخيال الشعري وعناصر حيويته وخصبه في الآداب الأجنبية مقارنة بما بدا للشاعر من عقمه وجفافه وشلله، في الأدب العربي.

بل أكاد أقول: إننا من الفصل الأول الخاص بالخيال الشعري في الأساطير العربية ندرك مذهب «أبي القاسم» في المقارنة ومنهجه في التناول، ونستبين خط سيره الفكري فيما يتلو من فصول الكتاب، ونعرف مقدماً ما سوف ينتهي إليه من نتائج!

ويبهرنا إخلاص الشاعر في دعوته إلى التحرر من العقم والجمود، كما تبهرنا جرأته في إيقاظ قومه من لذة الغفوة وخدر النعاس، بقدر ما تروعنا

هذه المكابدة التي عاناها الشاعر بكل فكره ووجدانه، حين افتقد في أرضه النبع الذي يرويه، والجذور التي تربطه بقديم له أصيل.

وكانت معاناة شقية باهظة، صدرت عنها الكلمات وكأنها جذوة تتلهب، كاشفة عن ضرام متقد في أعماق كيانه.

وأنت تقرأ كل الذي قاله عن عقم خيالنا الشعري، فلا يخامرك ريب في أن الشاعر الشابي خاض المعركة بإيمان صادق ليفتح آفاقاً رحبة أمام الأدب العربي، ويبشر بعصر جديد..

ولم تكن مأساة الشاعر، انقطاع صلته بماضي تراثه وجذور وجوده. فالشابي في كتابه قد عرف أدبنا العربي ووعاه وكان حظه من الثقافة الغربية أوفى من حظه من الثقافة العربية، ولكن المأساة أنه أطل على الأدب العربي من جانبه المظلم، وتصور أنه وصل إلى النبع ثم عاف الورد الآسن..

دون أن يدري ـ رحمه الله ـ أنه إنما وقف عند حفر عفنة راكدة بعيداً عن المنهل الأصيل الصافي: فالذي قرأه من تراثنا هو الذي اختاره جامعون ينتمون إلى العصور الوسطى زمناً أو فكراً وذوقاً. وهذه النصوص المختارة التي لا تزال تقدم أتعس النماذج إلى طلاب الأدب العربي، قد أقامت الحجب والأرصاد بين أبي القاسم وبين النبع الأصيل المغيب في منطقة الظل.

وليس ذنب الشابي أن وجد في تلك النصوص البائسة، عقم الخيال الشعري.

ليس ذنبه أن كان ما قرأ من أساطير العرب، «أصداء جامدة لم تتذوق لذة الخيال، وأوهاماً شاردة لا أثر فيها لنبض الحياة وحس الوجود» ص 43 ـ 44.

ولا أن كان ما قرأه من أدب الطبيعة يؤكد له: «أن العرب كانوا واقفين أمام مشاهد الكون، لا وقفة المتهيب الخاشع المنتشي بنشوة الحس وسكرة

الجمال، بل وقفة الأخرس الذي لا ينطق، والأعمى الذي لا يبصر ضوء النهار» ص 53.

«ولا أن كانت تلك النصوص التعسة، «لا تتحدث عن المرأة إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر، من أوصاف جسدية ولا تمثل عنده إلا الغدر وخبث الضمير وقد أعياه أن يبصر ما وراء جسدها من حياة عذبة ساحرة وعالم شعري جميل» ص 75.

كلا، ولا كان ذنبه أن ما قدمه إليه معلموه، «لا مزية فيه للشاعر على غيره إلا في رصانة التعبير وجمال الديباجة وخلابة الصنعة. ويا خيبة الشعر ويا سخف الحياة، أن كان كثير من الناس لهم عقول يفهمون بها، ثم لا يزالون يحسبون أن رسالة الشاعر ألفاظ منمقة نضيدة، وعبارات مرصعة، وكلام مرصوص!» ص 74.

«وشر من كل ذلك أمة تقتني أثوابها من مغاور الموتى. ثم تخرج في نور النهار مبجّحة بما تلبس من أكفان الجثث وأكسية القبور» ص 106.

وزاد في عنف المأساة، أن أبا القاسم ـ رحمه الله ـ كان يتناول موضوعه تناولاً خطابياً، ويعاتبه بمزاج الشاعر ووجدانه المستثار، فأعوزه ما يحتاج إليه الدارس من يقظة الذهن وطمأنينة التأمل، وضبط الفكرة من الجموح العاطفي والحماسة الخطابية. وجاءت أحكامه حادة مرسلة، يشوبها الإطلاق والتعميم، وشاعت في أسلوبه ألفاظ: «كل وجميع، وعلى الإطلاق، ودون استثناء» وأمثال لها مما ينفر منه أسلوب الدرس الأدبي، ولا تحتمله طبيعة منهجه:

فهو يرى أن أدب العرب ـ على الإطلاق ـ «مادي لا سمو فيه ولا إلهام، ولا تشوف إلى المستقبل، ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق» ص 103.

والنظرة الدنيئة السافلة المنحطة إلى المرأة: «هي النظرة الشائعة في الأدب العربي كله، والتي يتساوى فيها جميع شعراء العربية على اختلاف

عصورهم وتباين طبقاتهم وتفاوت أوساطهم، سواء في ذلك عفهم وفاجرهم وأولهم وآخرهم» ص 74.

كما زاد في قسوة المأساة أن الشاعر ظل طوال حديثه مشدود البصر إلى النافذة الغربية، مبهوراً بما يلوح له من رؤى الجمال، مصغياً إلى ما يخفق فيه من حس الحياة ونبض الوجود. ففي كل فصل من فصول الكتاب، يقف ليتلو في خشوع آيات مما سحره، ثم ينتفض من نشوته بها ليصيح في ثورة وسخط:

«نبئوني يا سادة. هل تجدون في العربية من يحدثكم عن تلك المعاني العميقة التي تلوذ برحاب الفكر وشعاب الخيال، كلا، ولكنكم واجدون من يستطيع أن يحدثكم بكل أسلوب وصوت، عن تلك المعاني الساذجة والأفكار الداجنة». .

«نبئوني يا سادة. هل تجدون في العربية من يحدثكم عن تلك العواطف العنيفة التي تهز الحياة فينا هزاً؟ كلا. . ولكنكم واجدون من يستطيع أن ينضد لكم من المجازات الزائفة والكنايات المتكلفة ما تعجز عن بعضه جن سليمان.

«خبروني يا سادة، أي شاعر عربي يستطيع أن يحدثكم حديثاً شعرياً صادقاً عن نشوة الحب وسكرة العواطف ومعنى الأمومة ورحاب الأمل، أو يريكم هجسات القلوب وخلجاتها؟

«كلا. . ولكنكم واجدوه وأكثر منه عند آداب الأمم الأخرى» ص 107 ـ 109.

ونقرأ كل الذي تلاه من الشعر العربي لنعذره!

ونصغي إلى ما اختار من الأدب الفرنسي فندرك لماذا أعوزه حياد الدارس وتجرد الباحث. .

ذلك لأن الذي رواه من شعرنا، ليس كل تراثنا. .

بل إنه لأتعس ما في ديوان شعرنا العربي!

ولو قد اتصل بالنبع الصافي، لما عز عليه أن يجد كل الذي وجده في الأدب الرومانتيكي الحالم المحلق في وادي الخيال! ولما أخطأه مثلاً أن يحس في مثل مرثية أبي العلاء، ما أحسه في كلمات لامارتين من «صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى في الدير» ص 65.

ولوجد في نجوى شعراء الصوفية ومواجدهم مثلاً، شيئاً آخر غير ما وجده في الغزل العباسي والأندلسي «حيث قضت المدنية الفاجرة على منبع الرجولة في الشاعر، فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس به حرارة الحب ولا صدق الهوى، بالرغم من جمال ورقة وخلابة نسقه. . ص 92.

بل لعله لو ألقى السمع إلى (مواويلنا) الشعبية، لوجد فيها ما يهز الحياة فينا هزاً!

ولكنه كما قلت لم يجد إلا تلك النصوص البائسة، وليس ذنبه أن كانت هي الرائجة في دنيانا، المعترف بها من حراس القبور!

ولن يجدي شيئاً أن نرجم أبا القاسم بحجر، فقد أعفاه الموت من لعنة الذين يوزعون على خلق الله صكوك التكفير وصكوك الغفران، ولم يعد في طاقتهم أن يزيفوا تاريخ شاعر خاض معركة الوجود القومي والأدبي لأمته، في فدائية واستبسال.

كما لن يجدي شيئاً، أن نصيح في شباب الجيل بمثل تلك الصيحات المبتذلة عن قدسية القديم وروعة الماضي، ولا أن نسحر عقولهم ووجدانهم بالجمل الساذجة، من فخامة الديباجة ونصاعة الأسلوب ووقع الرنين وأحكام الصياغة وجودة السبك. .

كلا. . .

ولا في طاقة قوى الرجعية مجتمعة، أن تضع عصابة على عيون الشباب وآذانهم، وأن تخنق فيهم حس الحياة وروح العصر ونبض الوجود. .

وإنما الذي يجدي حقاً أن نبذل الجهد كله، لنقدم إلى الشباب روائع تراثنا ونستخلص قيماً جديدة لأدبنا، غير تلك التي فرضتها علينا عقليات متحجرة، واختارتها لنا أذواق جافية ونفوس مغلقة.

وبغير هذا، لا مجال لأمل في وضع حد لمأساة الضياع الفكري التي تضغطنا جميعاً بين شقي الرحى وتمزقنا بين جمود عقيم كافر بالتطور لا يحس سبر الزمن ودعاء الحياة، وبين حديث طارىء، يمسخ قديمنا ويجحده ولا يرى فيه إلا صناديق دمى وأكفان موتى وأكسية أضرحة!

ورحم الله أبا القاسم، ما أقسى ما كابد، وما أفدح ما احتمل وهو يسري في الليل معلناً دعاء الفجر، وموقظاً إرادة الحياة(*)!

(*) جريدة الأهرام عدد الجمعة 1963/8/23 ص 13.

فهـرس الموضوعـات

الموضوع — الصفحة

ذكريات ومهرجانات عنه

ما كتب عن شخصيته وتكوينه، حياته وثقافته

الموضوع | الصفحة

ما كتب عن شعره

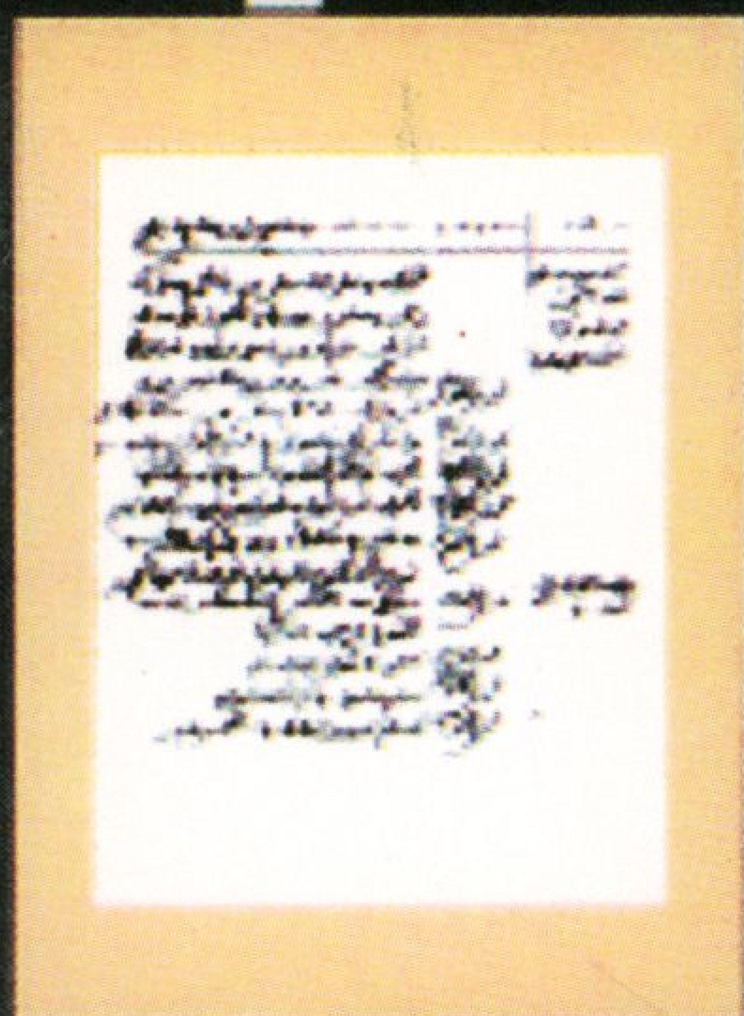
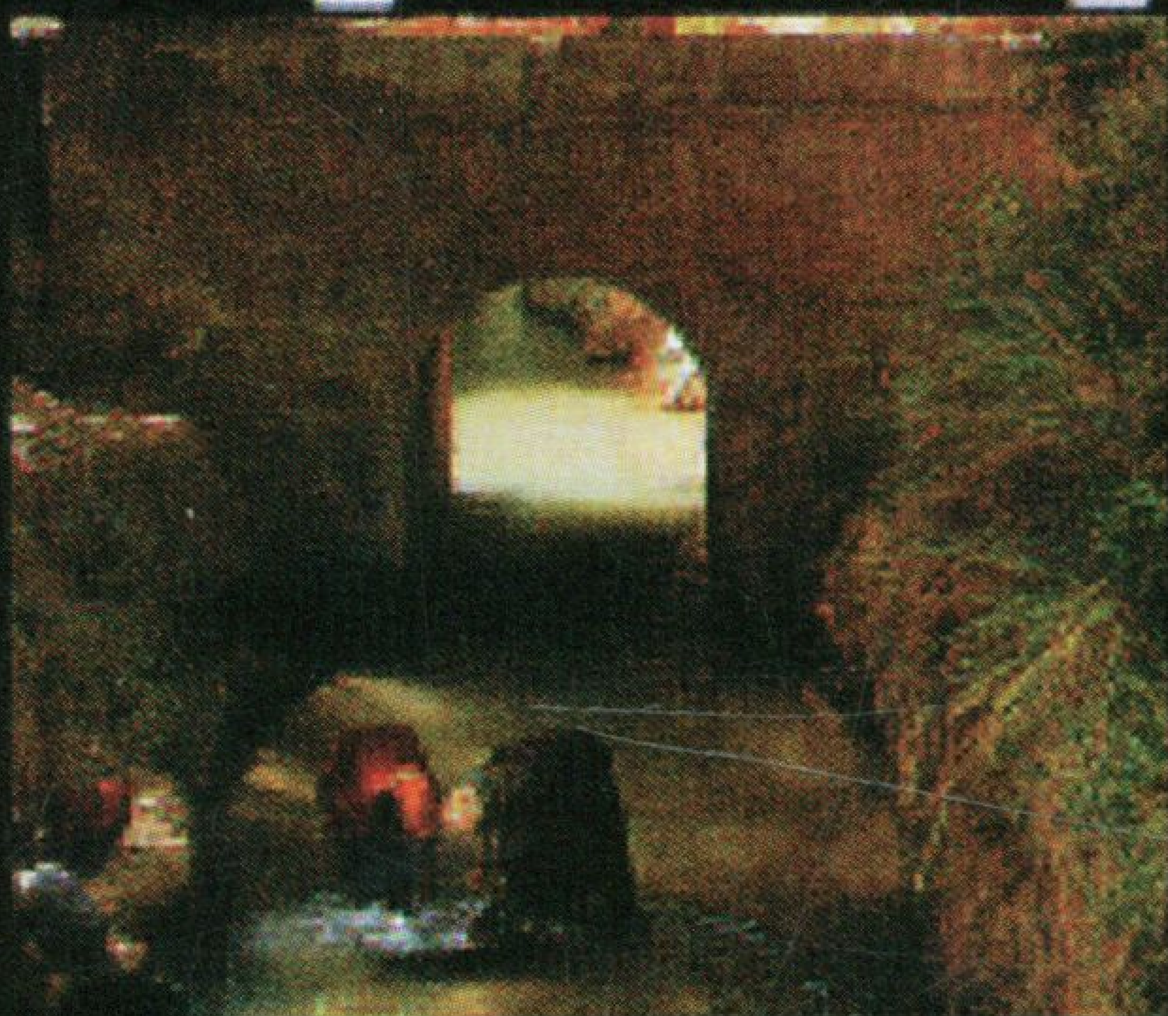
الموضوع	الصفحة

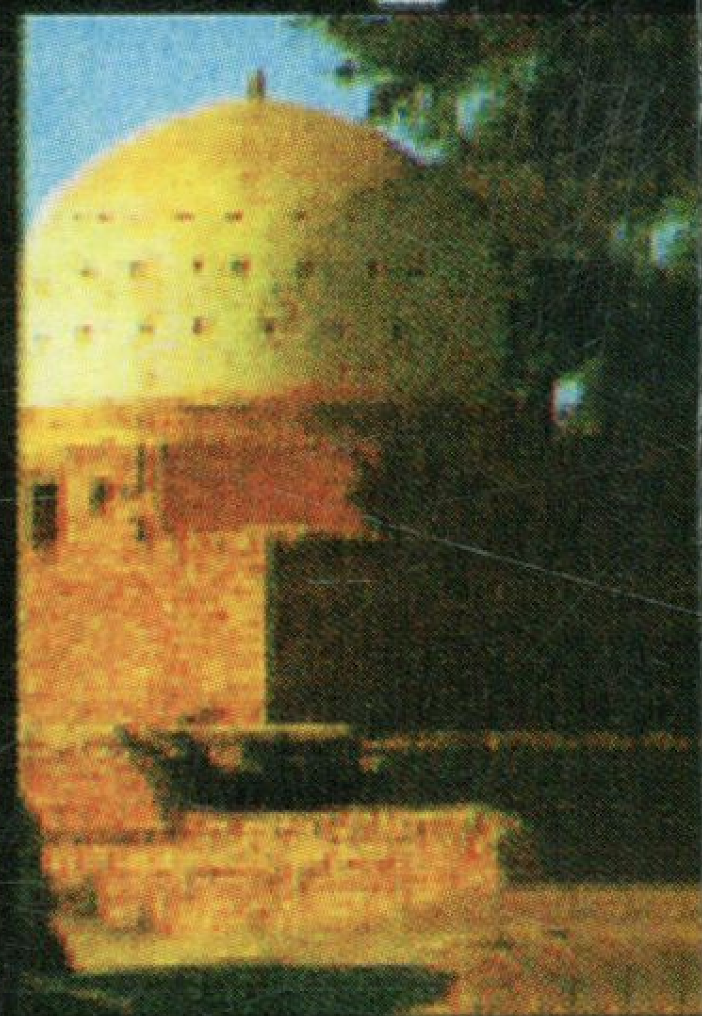
ما كتب عن الخيال

قصائد في رثائه

الموضوع	الصفحة

مطبعة الكويت
KUWAIT PRINTING PRESS
تلفون : 4747518 - 4744412 - 4726322 (965)
فاكس : 4762405 (965)



هذه المجموعة:

1 - أغاني الحياة . الخيال الشعري عند العرب . مذكرات .

2 - رسائل الشابي . نثر الشابي ...

3 - الشابي في مرآة معاصريه .

4 - رسائل حول الشابي .

5 - دليل الباحثين عن الشابي .

6 - الشابي : صُوَر وكلمات .